محمد عبد الحميد الحمد

# دور اليهود العرب في الحضارة الإسلامية





# دور اليهود
# في الحضارة الإسلامية

اسم الكتاب: دور اليهود في الحضارة الإسلامية
اسم المؤلف: محمد عبد الحميد الحمد

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف
الطبعة الأولى: 2006

يطلب هذا الكتاب من المؤلف
الرقة - هاتف: 228544 /022

عبيدة الحمد
موبايل: 507591 093

محمد عبد الحميد الحمد

# دور اليهود في الحضارة الإسلامية

## (التاريخ والتوجه)



# محتويات الكتاب



## المدخل : دور اليهود الأشكناز في تكوين دولة إسرائيل

-المنهج والرؤية
-اليهودية في العالم القديم
-اليهود والعرب في إسرائيل
-اليهودية الأرثوذكسية ومذهب القبالاة
-اليهود وحركة التنوير (الهسكالاه)
-اليهود والثورات (الإنكليزية والفرنسية والأمريكية)
-الصهيوني تيودور هرتزل ومؤتمر بازل 1897
-الحركة الصهيونية في مواجهة القومية العربية
-دور الصهيونية في هجرة اليهود العرب
-إعلان دولة إسرائيل
-مراجع المدخل



# الرؤية والمنهج

التاريخ هو العرض المنظم للأحداث المتعاقبة، تسجِّل فيه حياة كل جماعة بشرية، وذلك بإعادة تصوّر للأحداث الماضية. من هذا المنطلق حاولتُ كتابة تاريخ اليهود في الحضارة الإسلامية، وفي دولة إسرائيل، وحاولتُ الكشف عن أسباب الحوادث والوقائع، وبيان ماهيتها، وما بينها من ترابط، وتداخل، بأسلوب بسيط، أشبه بالقصة الواحدة.

أثناء عرضي للأحداث، واجهتني مشكلة محورية، هي اعتقاد اليهود أن القوة الموجهة والدافعة لوقائع تاريخهم، هي العناية الإلهية، وأنهم شعب الله المختار، أراد لهم حياة الذل والمسكنة ليتميزوا عن الأغيار، ووعدهم بأرض فلسطين. ولكني وجدت أن القوة الناظمة لتاريخهم كبشر عاديين، هي النظم والشرائع القانونية والاجتماعية، التي عاشوا فيها، وأن ما ظنوه قوة خفية، تبين لي أن الناس جميعاً هم الذين يصنعون تاريخهم، وليس للأحداث موجه خارجي.

تكلمت عن دور البطل في التاريخ العبري القديم، المتجسد في شخصية النبي موسى (ع) الذي علق عليه اليهود آمالهم في الخلاص من العبودية والقهر، ولا زال اليهود متمسكين بشريعة موسى (التوراة)، ولا زالوا ينتظرون عودة موسى بصورة المسيح المنتظر (المسيَّا المنتظر). وقد ظهرت لديهم عدة شخصيات انتحلت اسم المسيح المخلص، وكانوا كذبة آخرهم النبي الكذاب شبتاي بن تسيفي، الذي ابتدع ديانة الدونمة. ولا زال اليهود يعتبرونه ذا قدرة إلهية خارقة، وسوف يأتي وينقلهم إلى أرض الميعاد ويقيم العدل والخلاص لكل الشعوب. والسؤال:

لِمَ بدأتُ الكتاب بالمدخل (اليهود والصهيونية وتكوين دولة إسرائيل)؟

لاعتقادي أن التاريخ دائماً هو تاريخ معاصر، وهو صورة تركيبية، من إنتاج العقل الإنساني. تكلمتُ فيه عن تاريخ اليهود الحديث، وبذلك أكملتُ الحلقة عن تاريخ اليهود في كل العصور، وبينتُ القوى المتصارعة داخل المجتمع اليهودي، بعد تكوين دولة إسرائيل عام 1948.

وتكلمت في المدخل عن التغيرات الاجتماعية والسياسية، التي رافقت تكوين المؤسسات الصهيونية، التي بدأت بوادر تصدعها، وأن البيت الذي تتنازعه الأهواء لا بد وأنه منقسم على نفسه، وتساءلتُ عن ماهية الصراع داخل نواة الدولة اليهودية، هل يؤدي الصراع إلى زوال الدولة الصهيونية؟ اطَّلعتُ على رؤية للمستشرق اليهودي مكسيم رودنسون، تصور أن دولة إسرائيل زائلة في المستقبل، مثلها مثل الإمارات الصليبية التي تفككت وزالت بعد قرنين من الزمن. لا سيما وأن دولة إسرائيل قامت على الاحتلال والظلم وهما زائلان. ولي دليل على ذلك، في حادثة اغتيال إسحق رابين عام 1995 من قبل الإرهاب الديني اليهودي، وقد كان اليهود يقولون عن دولتهم واحة الديمقراطية، وأن الدم اليهودي محرَّم على اليهود.

وحاولتُ في الكتاب أن أجعل مفكري الصهيونية وعلماء اليهود هم الذين يتكلمون عن أحداث ووقائع تاريخهم، لكي أجنب نفسي، خطر التحيز، لا سيما وأنني من الأغيار (الجوييم) الذين هم في نظر اليهود غير منصفين ومعادين لليهود.

# اليهودية في العالم القديم

اليهودية هي دين سماوي، ظهر في الألف الثالث قبل الميلاد، وانتقل أثره إلى الديانات السماوية (المسيحية والإسلام). وكان اليهود يعيشون منعزلين، مما أثار ريبة الجوار. قال الدكتور حسين مؤنس: «يعرف اليهود عن الناس كل شيء، وقلّ أن نجد إنساناً غير يهودي يستطيع أن يقول: إنه يعرف اليهود، حق المعرفة، وإنه قد نفذ إلى حقيقة أمرهم»[1]. هذا الحكم من الأخطاء الشائعة حول اليهود، ويحاول اليهود تسريبها للكتّاب والمفكرين.

والسؤال المطروح: ما سبب هذا الغموض؟ أرجع معظم الباحثين أسباب الغموض إلى انعزال اليهود، وإلى ادعائهم بأنهم شعب الله المختار، وتعاليهم عمن يحيط بهم، ولتعاليمهم التي تجيز لهم المكر والغدر للأغيار (الجوييم).

ولفهم اليهود فهماً صحيحاً، لا بد من الرجوع إلى تاريخهم الطويل، وإلى تراثهم الديني منذ الألف الأول قبل الميلاد، والذي يمكن تقسيمه إلى مرحلتين:

المرحلة الأولى: في هذه المرحلة (1300 ق.م) عاش اليهود قبائل رعاة، تتجول في أرض الهلال الخصيب، ثم استقروا في أرض كنعان، ثم هجرتهم من أرض مصر إلى صحراء سيناء، مع النبي موسى (ع)، ثم انتقالهم إلى أرض الميعاد (فلسطين)، وأسسوا مملكة إسرائيل، وبنوا الهيكل المقدس في أورشليم (القدس).

المرحلة الثانية: في هذه المرحلة سباهم نبوخذ نصر (586 ق.م)، ثم أعادهم كورش إلى أورشليم (القدس)، وأعاد عزرا بن سرايا (444 ق.م) كتابة التوراة. وفي هذه المرحلة كتبوا تفاسير التوراة في بابل والقدس سموها (التلمود)، وفيه جمعوا تعاليمهم وتراثهم.

حمل اليهود كتاب التوراة إلى الأمم، وادعوا أنه نزل من الله بواسطة الوحي الإلهي، والتوراة عند المسلمين كتاب مقدس، أنزله الله على موسىوكلمه تكليماً، أما عند علماء اليهود فهو غير ذلك. كتب الفيلسوف اليهودي موسى مندلسون (1749– 1786) حين درس التوراة وفسرها: «إن الدين اليهودي يتنافى مع

العقل» وأنه لا جديد فيه، فهو يحتوي على ثلاثة مبادئ أساسية نجدها في كل الكتب البشرية، والفلسفات اليونانية (1) وجود الله (2) والإيمان بالعناية الإلهية (3) خلود الروح. وفي كتابه (أورشليم والانعتاق اليهودي المدني عام 1873م) بيَّن أن التوراة كتاب فيه أفكار منافية للحشمة والأخلاق، وأنشأ مدرسة للأطفال اليهود في برلين، صارت منارة لحركة التنوير[2].

وقال تلميذه صموئيل هولدهايم (1806- 1880) إن موسى عكس في التوراة تعاليم وأخلاق عصره، أما أنا فأتكلم من وجهة النظر الأيديولوجية العليا لهذا العصر، لذلك فأنا محق في تعاليمي وأكثر صلاحاً لعصري. وأدخل تعاليم التلمود ضمن إطارها التاريخي، وميَّز بين ما هو مقدس أزلي وما هو دنيوي زائل، وأن الوحي يختلط بعناصر زمنية تاريخية، وعلى هذا يصبح القانون الإلهي له السلطة والحق فقط، طالما كانت الأوضاع التي جاء لمعالجتها مستمرة. وعندما تتغير الأوضاع، يجب أن ينسخ القانون الإلهي، حتى وإن كان الله هو صاحبه ومشرعه. وقرر في مؤتمر بتسبرغ الإصلاحي عام 1885م، أن «الكتاب المقدس (التوراة) ليس من صنع الله، بل هو من صنع الإنسان»[3]. قرر اليهود في المؤتمر أن الله من نتاج الوعي الإنساني التاريخي، وليس فكراً مطلقاً خالصاً ينوء الإنسان بحمله.

كان صموئيل هولدهايم، يعتقد أن «الدين أداة ابتدعها الإنسان من أجل المحافظة على نفسه، ولا بد للإنسان أن يعدِّل أفكاره بين آونة وأخرى، وهذا سبب انعزال اليهود عن المجتمع المحيط بهم، لكي يبقى اللاهوت ملائماً للماضي، أما الآن، فقد فَقَدَ الدين صلته بالواقع، ولا بد من تطويره، وخروج اليهود من (الجيتو) والاندماج بالمجتمع، وعندها يصبح العقل هو المسيطر والحاكم في تلك الطقوس الساكنة»[4].

وعلى أثر ترجمة موسى مندلسون للتوراة إلى اللغة الألمانية، ونشر الشروح، لم يعد كتاب التوراة كتاباً خاصاً باليهود والأحبار، بل صار كتاباً يُقرأ من قبل العوام. ولم تعد اللغة العبرية لغة مقدسة (لشان هقدوش) لغة حكماء اليهود[5].

حاول المؤرخ اليهودي سيمون دوفنوف (1860 - 1941) تدوين تاريخ الحضارة اليهودية في العالم، فحصرها في ثلاث حضارات، هي:

1)حضارة الهلال الخصيب وبابل. 2) والحضارة اليهودية في البلاد العربية، 3) والحضارة اليهودية في روسيا وأوروبا. وأعطى للحضارة اليهودية في البلاد العربية مكاناً مرموقاً، وقال إن اليهود في البلاد العربية هم عرب ديانتهم اليهودية.

## اليهود والعرب

كانت اليهودية سائدة في اليمن، بين قبائل سبأ وحمير وغسان وطيء، وبرز من اليهود العرب شعراء، يفتخر العرب بكرمهم ووفائهم، فهذا أعشى قيس بن ثعلبة يقول في مدح بني قرظ وبني عبيد وبني حارثة وبني جبار وكلهم من اليهود اليمنية:

بنو الشهر الحرام فلست منهم ولست من الكرام بني عبيد
ولا من رهط جبار بن قرظ ولا من رهط حارثة بن زيد

فطلبه الرجل الذي هجاه وكان من بني كلب، فأتى الأعشى واستجار بشريح بن السموأل بن عاديا الغساني صاحب حصن تيماء (قصر الأبلق) فقال الأعشى:

شريح لا تتركني بعدما علقت حبالك بقد القد أظفاري
قد جلت ما بين بانيقا إلى عدن وطال في العجم ترددي وتسياري
فكان أكرمهم عهداً وأوثقهم مجداً أبوك بعرف غير ذي إنكار

فجاء شريح إلى الرجل الكلبي، وقال له: هب لي هذا الأسير، فقال: هو لك. فأطلق الأعشى وأعطاه ناقة ومضى[6]. كان شريح يهودياً، وكان اليهود قد حكموا نجران وصنعاء ويثرب، ودخل معظمهم الإسلام. ومن لم يسلم منهم أضمر للرسول (ص) الشر، فقاتلهم في حصونهم حول يثرب (المدينة المنورة)، ثم هجرهم عمر بن الخطاب إلى الشام والعراق ومصر، وظلوا يحملون معهم موروثهم اليهودي.

## اليهود العرب في إسرائيل

هاجر اليهود العرب إلى إسرائيل، وهم يشكلون حوالي 55٪ من يهود إسرائيل، ولكن ما إن وطأت أقدامهم أرض إسرائيل، حتى أنكروا أصلهم، وفضلوا دينهم، وشاء لهم نكران الجميل إلا أن يكونوا رموزاً للعدوان في كل مكان(7).

لماذا أبدى اليهود هذا السلوك الناكر للجميل؟ لأن الحركة الصهيونية شحنتهم بالتعصب ضد العرب والإسلام. وكان اليهود الغربيون (الأشكناز) هم المسيطرون على مؤسسات الدولة، وكانوا ينكرون فضل العرب في الحضارة، وصوروا العرب بأنهم مخادعون ولصوص وتجار رقيق(8).

يقول المفكر الصهيوني مائير تزهاجن: «الذكاء فضيلة اليهود، والخداع رذيلة عربية، واليهود نشطاء، وشجعان وأذكياء، والعرب أناس منحطون وأغبياء، وخونة لا ينتجون إلا الأمور الشاذة»(9).

كان تنصل اليهود العرب من ماضيهم في أول وصولهم إلى دولة إسرائيل، ولكن في عام 1983، تشكلت بمبادرة من المفكر اليهودي المغربي دانيال جفرون جمعية باسم (حركة الشرق من أجل السلام)، قال: عندما استعاد اليهود العرب كرامتهم وصار بإمكانهم أن يشكلوا جسراً إلى العالم العربي، أعلنوا إمكانية التعايش مع العرب، ورفضوا التحيز ضد العرب، ومعارضة الاستيطان في الضفة الغربية وغزة، وأدانوا أعمال الإرهاب والتعصب، ودعوا إلى الحوار مع العرب لإيجاد حل عادل للمشكلة الفلسطينية، والدعوة إلى تعزيز المساواة على الصعيد الاجتماعي والتربوي والثقافي بين العرب واليهود. وحددوا أنشطتهم في المجالات التالية:

1)دولة إسرائيل جزء من الشرق العربي الإسلامي، وسوف نعمل للاندماج السياسي والاقتصادي والثقافي لإسرائيل في المنطقة.

2)إقامة مجتمع عادل في إسرائيل مبني على القيم الإنسانية، يستوحي روح الأنبياء. وينبغي اعتبار ذلك بمنزلة المبدأ الصهيوني الأساسي والهدف الرئيس لدولة إسرائيل.

3)التوجه للسلام، هو مبدأ أساسي وثابت لليهودية، ولا يتناسب مع أعمال الاستيطان التي تشكل خطراً على فرص السلام.

4)تعيين حدود دولة إسرائيل، بحيث تحافظ على طبيعتها اليهودية، وميزتها الديمقراطية، وتحفظ الحقوق الشرعية الكاملة لجميع شعوب المنطقة اليهود والعرب.

5)تقدم عملية السلام، سوف تؤدي إلى إيجاد ظروف مناسبة لنمو وتطور إسرائيل على الصعيد الثقافي والاقتصادي والروحي.

6)إن حركتنا (حركة الشرق من أجل السلام) ليست حزباً سياسياً، وهي مفتوحة أمام جميع المواطنين الذين يتعاطفون مع مبادئها التوجيهية[10].

يقول توم سيجيف في كتابه (الإسرائيليون الأوائل): «لقد خصص لليهود اليمنيين الجزء الأصعب والأقل ربحية، عند وصولهم عام 1950، إلى دولة إسرائيل، وذلك بإسكانهم في المناطق الجبلية، أما الأراضي الخصبة، والتي تسهل زراعتها، والواقعة في السهل الساحلي، فقد خصصت لليهود الأشكناز»[11].

وظل اليهود العرب (السفارديم) يمثلون الطبقة السفلى في السلم الاجتماعي، وكان تقدمهم في السلم هو بمقدار إبداء الكره لماضيهم، وكانت اللغة العربية ممنوعة عليهم. وكان اليهود اليمنيون والمغاربة لا يعرفون العبريَّة وكان عليهم تعلم لغة (الإيديش). ولكن لم يكن الأمر كذلك بالنسبة لليهود السوريين، الذين كانوا يعرفون عدة لغات (العربية والعبرية والإنكليزية والفرنسية)، وبرز منهم باحثون وأدباء أمثال أمنون شموش، وأنطوان شماس، وبرز أدباء عراقيون أمثال سامي ميخائيل، وشمعون البلاص ونديم روحانة، الذين كانوا يكتبون بالإنكليزية والعبرية، ومن المغرب ظهر الأديب بوعز عفرون ودانيال جفرون كانوا يكتبون بالفرنسية والعبرية، ومن اليهود الفلسطينيين كان الأدباء أمثال يهوذا بولا وإسحاق شامي، كانا يعبران باللغتين العبرية والإنكليزية.

بدأ اليهود العرب يتحسسون الظلم، بعد أن امتلكوا أداة التعبير اللغة العبرية. لقد أشار الأديب العراقي عاموس عوز في حوار أجراه مع يهودي مغربي من سكان مستعمرة (بيت شمش) القريبة من القدس، الذي أخبره: «إن اليهود الأشكناز عند وصولهم، أعطوهم منازل وعملاً قذراً، كما أعطونا تعليماً للغتهم، وأخذوا مقابله احترامنا لأنفسنا، فلأي شيء أحضروا والدتي؟ أليس من أجل الخدمة القذرة؟ ولم يكن لدينا كيهود عرب وقت نقضيه، إلا في خدمة البيوت وتنظيف الشوارع»[12].

والسؤال المطروح: بعد أن وعى اليهود العرب دورهم السياسي، فما هي مهمتهم المستقبلية؟ حدد الباحث العراقي سامي سموحة تلك المهمة بقوله: «إن ما يجب اتباعه هو عملياً سحق التمييز الطائفي، لكي يصبح اليهود العرب واليهود الأشكناز متساوين وشركاء في السلطة والثقافة في المجتمع الإسرائيلي، وعدم الخوف من أي ردة ثقافية أو تحول عن الثقافة الدينية الشرقية، وهي الأمور التي لا تتعلق بالجمهور الأشكنازي»[13].

وأفضل من عبَّرتَ عن ثقافتها العربية اليهودية، دانيلا شامي، قالت: «إنني يهودية لأن أجدادي كانوا يهوداً عرباً، ولأنني أشعر أساساً بأنني يهودية ولكن من غير المنطقي ألا أسافر لزيارة أهلي وأصدقائي في يوم السبت، ومن غير المنطقي أن أرتدي فساتين طويلة، وأن أضع باروكة، حتى لا أثير غرائز مهووس جنسي في الشارع. وإنني أمارس العادات اليهودية الشرقية، كأن أتزوج على يد الحاخام، وأن أجري طقوس الختان لأطفالي، وأتنازل فطيرة جبنة، وأصوم في عيد الغفران»[14].

وفي هذا المجال، أحبُّ أن أروي هذه الطرفة التاريخية: في عام 1265م بنى الملك الظاهر بيبرس تكية فوق مقام النبي موسى بين القدس وأريحا، جعلها استراحة للحجاج فيها غرف للنوم، وغرف لاستقبال الحجاج والزوار المسلمين واليهود معاً في شهر نيسان وأيلول، وأوقف عليها الأموال لإطعام الحشود الكبيرة من زواره اليهود[15]. وفي العهد العثماني، كثر فيها الدراويش المولوية أتباع مولانا جلال الدين الرومي (1207- 1273) الشاعر الفارسي كان من أهل قونية في أرضروم. وذكر الرحالة التركي أوليا شلبي أنه في عام 1661م شاهد اختلاط الزوار اليهود والمسلمين، يقومون برقص دائري مشترك على عزف الناي والمزاهر والدفوف[16]. هذه الحفلات، كان اليهود المتصوفة (القبالاة) يقيمونها في مساء كل يوم سبت، ولا زال أتباع الطريقة الصوفية (حبد) يمارسونها في أمريكا.

## اليهودية الأرثوذكسية ومذهب القبالاة

يؤكد اليهود الشرقيون على أركان الإيمان، ويعطون أهمية للوحي الإلهي الذي أنزل على موسى (التوراة)، وتتضمن العقيدة اليهودية أركان الإيمان التالية:

1)الإيمان بالله: وبما أنزل على موسى، والله سبحانه لا بداية له ولا نهاية، وهو الخالق الأوحد، لا شريك له ولا ولد، رب العزة.

2)الاعتقاد بالقدر خيره وشره: وأن كل شيء مقدر من الله، الرزق والسعادة وطول العمر وقصره، ولا مهرب من قضاء الله وقدره.

3)الإيمان باليوم الآخر والقيامة والحساب: في هذا اليوم ينجز الرب ما وعد به عباده المؤمنين من ثواب وعقاب، ولا يدخل الجنة العصاة من الأمم الأخرى.

4)الإيمان بالملائكة والجن والشياطين: الملائكة مخلوقات غير مرئية، مخلوقة من نور، مهمتها حمل عرش الله، والتسبيح بحمده. والإيمان بالجن وهم مخلوقات خلقوا من نار وليس لها دخان، ورئيسهم (إبليس) كان رأس الملائكة، وطاووسهم يدعى (غرازيل)، وعندما لم يسجد إبليس لآدم أخرج وزوجه (حواء) من الجنة. وبقي إبليس ملعوناً إلى يوم القيامة. وكان للملك سليمان سلطة على الجن، وهم الذين بنوا له الهيكل المقدس. ورأس الملائكة هو جبريل ملاك الوحي، وميكائيل وإسرافيل الموكلان بخدمة الله، وإسرافيل هو الذي ينفخ في الصور (البوق) ليعلن يوم القيامة، وعزرائيل هو ملك الموت.

ويعتقد اليهود الأرثوذكس أن الملك سليمان طاعت له الجن لأن له خاتم حفر عليه (اسم الله الأعظم) وبواسطة هذا الخاتم سيطر على الجن والحيوان والرياح. وكان وزيره أساف برخيا يتمتع بسلطة على الجن وكان يحيي الموتى لمعرفته (اسم الله الأعظم). وكان اليهوديعتقدون أن من يملك هذا الاسم السري، يسيطر على العالم. قال إدوارد وليم لين (1801- 1876) «إن هذه المعتقدات مشتركة بين اليهود والمسلمين، وهي منتشرة في جميع أنحاء مصر»[17].

ظهرت شخصية المسيح المنتظر أو المخلِّص في الثقافة العبرية لامتلاكه معرفة (اسم الله الأعظم). ظهرت هذه الشخصية الفريدة في بغداد، وادعاها داود بن الروحي عام 1150م، وكثرت حولها التعليقات والشروح الصوفية، وصارت تلك النصوص كنزاً في الأدب العبري، وكتب موسى بن عزرا اللاوي كتاب الزوهار (الضياء) وانتقل إلى الأندلس، وإلى ما وراء النهر وبخارى وأصبح كتاب (شولحان عاروخ) أي المائدة المنضودة، إنجيل القبالاة في العالم اليهودي، والقبالاة، كلمة آرامية تعني ما يقبله الخلف عن السلف، وغايتها الارتقاء بالروح وعروجها عن طريق طقس (الطايش) الذي يقام مساء كل سبت حول مأدبة

العشاء الرباني، يلتقي حولها الكاهن الأكبر (السيد المعلم أو الصديق) ويطلق عليه (الأدمور)، يقوم الصدّيق بالرقص الإيقاعي الديني وترافقه فرقة من الحسيدين اللذين يعتقدون أن روح الأدمور بهذا الطقس تعرج نحو السماء وتطلب العفو والمغفرة لأبناء الطائفة (حبد) وهي كلمة مؤلفة من الأحرف الأولى من كلمات (الحكمة والفهم والمعرفة).

تعتقد طائفة (حبد) بأن القوة المقدسة كامنة في حروف اسم الرب يهوه، وتسعى الطائفة بطقوسها إلى التمهيد لظهور المسيح المخلص. وطقسهم في يوم السبت حول المائدة المنضودة يتخلله الرقص والإنشاد والشرب، وفيه يحل الله في الصدّيق (حمداش). وفي تلك اللحظة يقوم بدور الوسيط بين الله والعالم، وفي تلك اللحظة باستطاعته إلغاء الأحكام الإلهية، وتعلو مكانته على الملائكة.

ينال الصدِّيق (الأدمور) مكانته بالوراثة وبالرياضة الروحية والتأمل، وهو عادة من نسل داود، وتزداد مكانته بشخصيته الكارزمية. والصدّيق، عادة، رجل غني بما يجبيه من مريديه وأتباعه، ويعيش عيشة الملوك، والإيمان به أعظم من معرفة التوراة، وله بعض المريدين الذين يتحدثون عن فضائله وكراماته، وهو ملتزم الصمت، ومعرج روحه بين السموات والأرض. وإن توفي، يدفن ويقام له مزار يحج إليه الأتباع في بداية شهر أيلول، وتدوم الزيارة أربعة أيام(18). وكان أول صديق ظهر في روسيا البيضاء هو الربي شنيؤرسن زلمان (1745- 1813) وهو الذي صاغ مبادئ طريقة (حبد) في كتابه (هتيفيا) وخلفه أتباعه:

1)الحاخام دوف بر (1733- 1827) أقام في مدينة لوفافيتش الروسية والتي صارت تعرف بالأدمورائيم إكراماً له.

2)الحاخام مندل شنيورسن (1789- 1866) هو صهر الحاخام السابق وخليفته.

3)الحاخام شموئيل مندل (1834- 1882) انتشرت في عهده طريقة (حبد) في كل أنحاء روسيا وبولونيا.

4)الحاخام شلومو دوف بر (1866- 1920) انتقلت تعاليمه إلى فلسطين.

5)الحاخام يوسف اسحق (1920- 1950) انتقل إلى الولايات المتحدة، واستقر في بروكلين - نيويورك، وهو الذي نشر طريقة (حبد) في العالم.

6)الحاخام مناحم مندل شنيورسن (1950- ) هو الأدمور الحالي، يسكن في حي كراون هايتس في المنزل (770) ولقداسته أطلق على الحي (سفن

سفني). وقد شاهدتُ منزله المبني على الطراز الحديث عام 1991، والمكوَّن من عدة أبنية، وفيه محطة بث إذاعية ومركز للنشر بعدة لغات، وهو معارض للفكر الصهيوني الكافر.

يعتقد مذهب القبالاة أنه لا خلاص لليهود إلا بمجيء المخلِّص (المسيح المنتظر). وقد كتب الحاخام يهوذا القلعي (1798- 1878) من يهود سيراجيفو تفسيراً لكتاب الزوهار وكتاب شولحان عاروخ، ونشر رسالة باسم (اسمعي يا إسرائيل) عام 1834ن، قال فيه إن المخلص المنتظر سيظهر في عام 1840، وباع أتباعه أملاكهم وهاجروا إلى فلسطين، وعندما لم يظهر المسيح المخلص، هاجر هو نفسه إلى القدس عام 1874، وتوفي في القدس عام 1878[19].

إن مذهب القبالاة مذهب رجعي، ولكنه يقف في وجه الصهيونية؛ لذا كانت الصهيونية تسفّه أفكاره، وترى أن الخلاص لن يأتي عن طريق الأنبياء الكذبة، بل عن طريق المال والسلاح والعلم، ويرد عليهم أتباع مذهب القبالاة: أيها الكفرة، ألم يقل الرب: لقد باعوكم بدون مقابل، وإنه لن يفك أسركم بالمال (أشعيا 52: 3) وخلاصكم لا يتم بالعنف ولا بقوة الجيش ولكن بروحي (زكريا 4: 6). لقد كانت أفكار القبالاة موغلة في الرجعية ولكنها تمتلك دعوة إنسانية لإيمانها بوحدة الأديان. قال الرب: سوف أخلصكم بقوة رب الجنود، ولن أنقذكم بالقوس ولا بالسيف ولا بالحروب، ولا بالخيل ولا بالفرسان (هوشع 1: 7).

استمرت هذه الدعوة خمسة عشر قرناً، ولم تستطع تحرير اليهود، ووضعهم يزداد سوءاً، ولكن اليهود يؤمنون بها، ويقفون في وجه الصهيونية العلمانية. قال الفيلسوف الأمريكي موريس كوهين عام 1919: «تحاول الصهيونية دون جدوى، استعادت فترات قصيرة من التاريخ اليهودي القومي التي تلاشت منذ وقت بعيد، منذ ثورة بركوخبا عام 135م»[20].

ظلت حركة القبالاة بين جدران المعبد تردد الأناشيد وتؤدي الصلوات والرقصات، وترجو من الله الخلاص، ولكن الحركة الصهيونية كانت لها بالمرصاد. ذكر أرنولد توينبي: «وقفت الصهيونية ضد الرأي السائد بين اليهود الأرثوذكس على ثمانية عشر قرناً منذ سقوط الهيكل عام 135م، وكانوا يعترضون على إقامة دولة يهودية في فلسطين، أو في أي مكان آخر. واعتبروا الصهيونية فلسفة انهزامية لا تقدم حلاً عملياً للمشكلة اليهودية»[21].

ولكن بعد قيام دولة إسرائيل عام 1948، استطاعت الصهيونية إثبات صحة دعواها، وتبين أن القبالاة كانت تمارس خرافات وأضاليل، ومع ذلك لا زال الكثيرون من يهود العالم يؤمنون بعودة المسيح المنتظر، ويعارضون قيام دولة إسرائيل ويصفونها بدولة الكفر والإلحاد.

كانت المدارس التلمودية (اليشيفوت) تنظر إلى الاستيطان على أنه لن يتم إلا عن طريق الخلاص المسيحاني، وتعلم الفكر الصوفي على غرار الطوائف الصوفية الإسلامية (الشاذلية والنقشبندية والكيلانية والرفاعية). انتقلت إليهم هذه الدعوى من العالم الإسلامي[22]. واعتادت نساء اليهود في عيدي الفصح والغفران زيارة القبور، وقبور الصديقين والصالحين ومعهن سعف النخيل وأوراق الآس، لوضعها على القبور، ويقضين بقية النهار، ومعهن الحلوى وشطائر الخبز واللحم. وفي مصر شاهد إدوارد لين الخيام المنصوبة، وفيها الوعاظ والقصاصون والمغنون للتسلية[23].

إن العادات والتقاليد الموحدة بين المسلمين واليهود، تزيد من رغبة اليهود للاندماج في المجتمع الذي يعيشون فيه، وازدهرت القبالاة في أوروبا الغربية وفي مدينة أمستردام خاصة، التي اعتبرت في القرنين (السادس عشر والسابع عشر الميلاديين) القدس الجديدة، وذلك بفضل تعاليم الحاخام جوهان روشلن (صاحب كتاب فن القبالاة) عام 1517. وأثرت هذه الطقوس اليهودية في الفكر البروتستانتي المسيحي. وظهرت المسيحية اليهودية، التي كان أتباعها ينتظرون ظهور المسيح قريباً، ويأتي معه القصر السعيد، بل أصبح بينهم من يقول كشهود يهوه: إن إسرائيل هي التحقق الواقعي لنبوءة الأنبياء في العصر الحديث.

قويت حركة اليهودية المسيحية في إسبانيا وإيطاليا، وقد أحرق حياً القس مايكل سرفانتس (1509- 1553) لاتهامه بأنه يهودي معاد للثالوث المقدس. وكتب القس توماس براتيمان (1562- 1607) وهو عالم متبحر بدراسة التوراة كتاب (البعث اليهودي الكبير) قال فيه: «إن اليهود سيعودون ثانية إلى أرض فلسطين، أرض آبائهم، لا من أجل الدين بل لكيلا يكافحوا في أرض الشتات (Diaspora) كغرباء ونزلاء لدى الأمم الأجنبية، ورفض تفسيرات القديس أوغسطين المجازية للعهد القديم، وأصر على أن الله كان يعني إعادة اليهود جماعياً وقومياً إلى وطنهم، وسيعمرون أرض فلسطين ويعيشون بسلام ويبقون

هناك إلى الأبد»[24]. من هنا ظهرت أفكار الصهيونية اليهودية، من مطالبة المسيحيين لليهود بوطن قومي. كان القس وليم هكلر (1845- 1931) مؤمناً بمذهب القبالاة، وكان يعمل في السفارة في فيينا، والتقى بتيودور هرتزل، وقدَّمه لقيصر ألمانيا في برلين، وحضر وليم هكلر مؤتمراً لليهود في فيينا عام 1882، وتكلم أمام الحاضرين عن ظهور دولة اليهود حسب تنبؤات العهد القديم وطبقاً لأسرار الحروف في كتاب الزوهر (الضياء) وهو من كتب القبالاة الهامة.

## اليهودية وحركة التنوير (الهسكالاه)

كانت غاية حركة التنوير الوقوف في وجه التحجر الديني وضد مذهب القبالاة وتعاليمها التي تبشر بالأحلام الألفية، والتي ترى أن المسيح المخلص سيعود ويزول الفقر والظلم، ويجمع اليهود من أرض الشتات في أرض فلسطين، ويعم السلام، وتتحول السيوف والرماح إلى مناجل ومحاريث، وأما الأرض فتخصب وتطرح فطير وملابس من قطن وصوف وقمحاً حجم الحبة كحجم الثور ويصير الخمر أنهاراً[25]. هذه الأحلام الطوباوية اضطرت علماء اليهود المتنورين إلى شنِّ حملة على هذه الخرافات المضللة. ودعوا إلى عودة المسيح المخلص وقيام دولة إسرائيل العلمانية في فلسطين[26]. ولكن اليهود الأرثوذكس المتنورين ردوا عليهم (نطوري كارتا) أي حراس المدينة، أن هذه الدولة وإن قامت فهي تقوم على نفر من اليهود الكافرين الذين يريدون تحريف مشيئة الله بعملهم هذا. وتطاولوا على وعد الرب بدلاً من انتظار المسيح الموعود وتدخل الرب بصورة إعجازية (معجزة المسيح المنتظر) القادر على إقامة دولة السلام ومملكة القديسين والأحبار[27].

طرحت حركة التنوير وصايا وتعاليم أخلاقية مثل (كن يهودياً في بيتك ومواطناً صالحاً خارج بيتك). ولكن ظهرت تيارات متعارضة ضمن حركة التنوير:

التيار الأول: حاول أن يعيد اليهود إلى دين آبائهم بانتظار المسيح المخلص.

التيار الثاني: حاول دفع اليهود الساكنين في (الجيتو) للتكيف مع تغيرات العصر، مع محاولة العيش في المجتمع الكبير الذي يعيش فيه اليهودي.

التيار الثالث: يجب أن يعيش الفرد ويحس بالتغيرات وعليه رفض الشتات ومزاولة العمل السياسي، وزاوجوا بين الدين والقومية.

وبعد عقد المؤتمر الأول للصهيونية في بازل عام 1897، رفضت الحركة الصهيونية التيارات السابقة، وعملوا من أجل إعلان دولة إسرائيل في فلسطين.

وبعد قيام دولة إسرائيل عام 1948، قام الصراع على أشده بين يهود أوروبا (الأشكناز) واليهود العرب (السفارديم)، وكانت السيطرة لليهود الأشكناز، لأنهم قادة الدولة. وحولوا إسرائيل إلى ثكنة ضمن الدول العربية، وعززوا الشعور بالخطر لدى كامل يهود الدولة، وشحنوا المواطنين بالتعصب والكره للعرب وأحيوا الصهيونية المسيحية. كتب القس البروتستانتي هنري فنش في مقدمة كتابه (البعث العالمي الكبير) عام 1621: «إن الله وهو يتغاضى عن أيام خطيئتكم، يدعوكم لكل وسيلة للتوبة، وهدفه أن يجمعكم من كل الأماكن، وأن يعيدكم إلى أرضكم، فكونوا مستعدين ويقظين» وفي هذا خروج عن تعاليم مارتن لوثر (1483- 1546) الذي هاجمته الكنيسة الكاثوليكية ووصفته باليهودي، لأنه قال: «إن المسيح ولد يهودياً بحسب إنجيل متى. وإذا بقينا نعامل اليهود كالكلاب فأي خير نتوقعه منهم؟ وكيف نجعلهم أفضل مما هم عليه؟ فعلينا أن نعاملهم حسب قانون المحبة لا حسب قانون البابا». وبعد مدة لاحظ مارتن لوثر ممارسة اليهود للربا، واستغلالهم للفلاحين البسطاء، فكتب عام 1544م: «من الذي يحول دون اليهود وعودتهم إلى أرض يهودا؟ لا أحد. إننا سنزودهم بكل ما يحتاجون إليه لرحلتهم لا لشيء إلا للتخلص من أذاهم، إنهم عبء ثقيل علينا، وهم بلاء وجودنا (ونعتهم بكلمات بذيئة)» أصبحت كلماته مصدراً لمعاداة السامية في ألمانيا[28]. فالكتابات المسيحية التي تنادي بعودة اليهود هو للتخلص من شرهم. ولكن اليهود استطاعوا بخبث وذكاء تحويل ذلك الكره إلى محبة. كيف تم ذلك؟

كتب الشاعر الألماني البروتستانتي جوتهولد لسنغ (1729- 1781) في رواية ناثان الحكيم عام 1779م، وجعل القدس مسرحاً للرواية، وصور السلطان صلاح الدين الأيوبي وقد استعادها من الحكام الفرنجة ومثله بالملك القاسي والتافه الأحكام لولا وجود الحكيم اليهودي ناثان إلى جانبه، وكان مستشاره وناصحه الأمين، وذكر في الرواية بعض العبارات التوراتية ليضفي على مسرحيته مصداقية أكثر[29]. وبذلك تحسنت صورة اليهودي التائه.

نال اليهود حقوقهم في أوروبا الغربية وفي روسيا، ولكن بعد اغتيال القيصر ألكسندر الثاني عام 1881، اتهم اليهود بالاشتراك في هذه المؤامرة، وظهرت في

بطرسبورغ بروتوكولات حكماء صهيون، نشرها أحد أقطاب الماسونية الروس القس سيرجي فيلوس عام 1901، وصف الحقد الذي تكنه الصهيونية للشعوب والأجناس البشرية من غير اليهود، وغاية البروتوكولات هو كيف ستسيطر الصهيونية العالمية؟ ولكن اليهود نفوا صلتهم بالكتاب وقالوا: إنه كتاب مزوّر. واستندوا إلى حجج المؤرخ الروسي الثقة فلاديمير برستيف، الذي أسند هذا الكتاب إلى الشرطة السرية الروسية، ومهما يكن، فالكتاب وصمة عار على جبين الصهيونية[30].

## تاريخ الحركة الصهيونية

كان المسيحيون في أوروبا يكنون الكره والعداء لليهود في كل أوروبا لأسباب دينية ودنيوية، من تلك الأسباب: إنهم أنكروا مجيء المسيح وصلبوه فرماهم الله بالتشرد والارتحال الدائم وعدم الاستقرار، ومن تلك الأسباب أيضاً: تعالي اليهود على بقية الشعوب، وظنهم بأنفسهم أنهم شعب الله المختار[31].

كتب الفيلسوف الأمركي هرمان كوهين: «إن الصهاينة الذين يبحثون عن السعادة الدنيوية، ويحاولون جعل الشعب اليهودي كسائر الشعوب، لا يدركون الطريق الذي رسمته لهم العناية الإلهية، فقد كتب على بني إسرائيل أن يجدوا سعادتهم فيما يقع عليهم من اضطهاد»[32]. وسأذكر مراحل تطور الفكرة الصهيونية.

## اليهود والثورة الإنكليزية

اهتمت الكنيسة الأنجليكانية بدراسة التوراة واللغة العبرية، بدوافع غير دينية، بدوافع استعمارية، وللسيطرة على تجارة الشرق الأوسط، وقد تمادى بعض القسس وطالبوا بالتخلي عن المبادئ الخلقية المسيحية، والاستعاضة عنها بالعادات التوراتية، للتمهيد لظهور المسيح المخلص، ملك إسرائيل. وعندما اطلع الملك جيمس الأول (1603- 1625) حمل على فكرة (العصر الألفي السعيد) وأخذها على محمل الجد، واعتبرها تلميحاً، وانتهاكاً لشخصيته واعتداء على حقوقه الخاصة كحاكم مطلق، واضطهد اليهود والإنكليز.

وعندما أعلن كرومويل (1649- 1658) النظام الجمهوري في إنكلترا، قرَّب اليهود إليه لأنهم ساعدوه في الخفاء وأنهم بشروا بحكمه سراً، أقام كرومويل مجلساً أعلى للحكم على شاكلة مجلس الحكم اليهودي القديم في عهد القضاة عام 1653، وصارت الكنيسة البيوريتانية تحتفل بذكرى بعث المسيح في سبت النور اليهودي وأرسل اليهود إلى كرومويل «ليكن شعب إنكلترا، وسكان الأراضي المنخفضة (هولندا وبلجيكا) أول من يحمل أبناء وبنات إسرائيل على سفنهم إلى الأراضي التي وعدنا الرب بها، لنكون وارثيها إلى الأبد»[33].

كان يهود هولندا يؤيدون الكنيسة (البيوريتانية). وكتب الحاخام الأكبر في أمستردام منسى بن إسرائيل كتاباً سماه (أمل إسرائيل) عام 1655، أثنى فيه على الحاكم الثائر كرومويل، وطلب منه السماح لليهود بدخول إنكلترا لأنهم أنصاره وجنده، فسمح لهم، وكان ذلك محرماً عليهم منذ 1610م، منذ أيام الملك جيمس الأول، وصار اليهود يعملون لصالح كرومويل جواسيس في البلاطين البرتغالي والإسباني، ليكشفوا له عن المؤامرات داخل البلاط خوفاً من عودة آل ستيوارت إلى الحكم[34].

وبعد عودة آل ستيوارت إلى الحكم (1660- 1688م) تبين أن اليهود كانوا يتآمرون على كرومويل ويناصرون الحكم الملكي، فازدهرت الحركة الفكرية الداعية للعصر الألفي السعيد.

كان القس الهولندي بول فلنجهاور (1593- 1677) قد كتب كتاباً (أخبار سعيدة لإسرائيل) عام 1655، أكد فيه عودة المسيح المنتظر، وأن اليهود سيعودون إلى وطنهم، وأن الرب سيقتل العرب المسلمين الكفرة، ونادى بالعمل للسيطرة على الأرض المقدسة قبل مجيئه. لقد ازدهر الأدب الألفي السعيدي، وظهرت عدة كتب منها كتاب المفكر السويدي هولجر بولي (حول المسيح) عام 1696، حثَّ فيه ملوك أوروبا للقيام بحملة صليبية جديدة لتحرير فلسطين والقدس من الكفار العرب ولتوطين اليهود فيها لأنهم الوارثون الشرعيون. ونادى الملك الألماني وليم الثالث بعبارات نارية «أي كورش العظيم! يا أداة الرب العظيم الذي بفضله سيولد المعبد (الهيكل المقدس) من رماد معبد هيرودوس».

سيطر المناخ الفكري الصهيوني على أدب العصر. بل لقد تمادى القس أندرز بدرسكمب (1622- 1689) في كتابه (أخبار إسرائيل السارة) وخاطب الكنيسة

«أيها المسيحيون الوثنيون إنكم تسمحون لمعلمين مزيفين وبخاصة روما أم الفسقة، بأن يقنعوكم بأن الله حرم اليهود من ميراثهم في أرض الميعاد=، وطردهم، عندما صلبوا المسيح، إن إسرائيل اليهودية صاحبة الحق في امتلاك أرض كنعان إلى الأبد»[35].

ومن قبيل المحبة صار بعض المسيحيين ينصحون اليهود بالتنصر والعمادة قبل عودتهم إلى فلسطين، كما فعل جاكوب سبنر (1635- 1703) من أهل هامبورغ، كان يدعو المسيحيين إلى فهم واحترام اليهود، إن آثروا التمسك بدينهم. وعمت تلك الظاهرة الشعر. كتب الشاعر الإنكليزي جون ملتون (1608- 1674) قصيدة عن الفردوس المستعاد، تحدث فيها عن عودة إسرائيل. قال: «لعل الله الذي عنده العلم المناسب، سيذكر إبراهيم وبنيه، وسيعيدهم نادمين وصادقين، وسيشق لهم البحر، وهم عائدون مسرعين جذلين إلى وطنهم كما شق لهم الأردن من قبل عند عودة آبائهم إلى الأرض الموعودة. إني أتركهم لعناية الله وللزمن الذي يختاره».

وفي قصيدة المسيح للشاعر ألكسندر بوب (1688- 1744) عرض فكرة المملكة اليهودية المستعادة في أرض فلسطين وقد تصور أورشليم الجديدة وهي مأهولة باليهود العائدين.

وفي المجموعة الشعرية المسماة (الألحان العبرية) 1815 قال اللورد بيرون (1788- 1824): «ابكِ من أجل هؤلاء أيتها القبيلة الكثيرة التجوال، يا ذات الصدر المرهق، كيف ستستقرين وتشعرين بالراحة؟ إن لليمامة عشها، وللثعلب وكره، وللإنسان وطنه، أما إسرائيل، فليس لها إلا القبر».

وفي الفلسفة دخلت فكرة أرض العودة في فكر الفلاسفة المتنورين، فهذا الفيلسوف جون لوك (1632- 1704) صاحب الفكر الليبرالي، قال: «إن الله قادر على جمع اليهود في كيان واحد، وجعلهم في وضع مستقر ومزدهر في وطنهم فلسطين». ودخلت فكرة العودة حتى لدى العلماء، فهذا القس جوزيف بريستلي (1733- 1804) مكتشف غاز الأوكسيجين كانت دعوته لله «أن يضع رب السماء وإله إبراهيم اليهود في وطنهم (أرض كنعان) ويجعلهم أكثر الأمم شهرة في أرضهم التي اغتصبها المسلمون الأتراك، ولكنها مشتاقة لعودتهم»[36].

وفي عام 1775 كتب الأسقف ريتشارد بير (أسقف ساندبرك) إلى رئيس وزراء إنكلترا وليم بت (1708- 1778) استرحاماً لكي يساعد اليهود في العودة إلى أرض فلسطين، «ولتكن هذه الجزيرة (إنجلترا) في طليعة الدول التي ستنقلهم إلى وطنهم انطلاقاً من دوافع سياسية حكيمة، وعندما يجتمع إخواننا العبريون معاً ويقيمون في وطنهم من جديد، سيكونون بحاجة إلى كثير من السلع المصنعة، ومستلزمات الحياة وبخاصة الأصواف (الجوخ) والكتان. وسيبقون لسنوات كثيرة في حاجة إلى شراء هذه الحاجيات من الأمم الأخرى».

وهكذا أصبحت السياسة البريطانية توجهها العاطفة، عاطفة المحبة لليهود، وكتب اللورد شافتسيري مقالة عن (دولة وآمال اليهود) عام 1839م، بنى دعوته لقيام دولة إسرائيل على نبوءات توراتية وعنه صدر الشعار الصهيوني الخطير «وطن بدون شعب، لشعب بدون وطن»[37].

وفي ألمانيا ظلت فكرة العداء للسامية هي السائدة. كتب الفيلسوف الألماني المسموع الكلمة جوتليب فخته (1762- 1814) الذي كان شديد العداء لليهود، قال بوجوب طرد اليهود من كل أوروبا إلى فلسطين واجتثاث جذورهم، وهذا لا يتم إلا باحتلال الأرض المقدسة، وإعادتهم إليها.

آمن اللورد بالمرستون (1784- 1865) بفكرة فخته وأصبح أهم نصير لمشروع إعادة اليهود إلى فلسطين، وكان وزير الخارجية الإنكليزية، قال لزوجته الأميرة ليفين «إن العناصر المتعصبة التي تشفق على اليهود تقف إلى جانبنا، وأنت لا تدركين قوة أتباعها في هذا البلد، إن همهم الأوحد هو إعادة اليهود» وفعلاً فتح اللورد بالمرستون قنصلية إنكليزية في القدس عام 1838، وعين فيها القنصل وليم يونغ (اليهودي) لمقاومة مصالح روسية، ورعاية مصالح اليهود، وأرسل القنصل يونغ في أيار 1840م، تقريراً جاء فيه «إن عدد اليهود المقيمين في فلسطين هو 9690 شخصاً، وإن وضعهم بائس وهم محتاجون للمساعدات الخارجية»[38]. فأرسلت الحكومة البريطانية والمجلس اليهودي مساعدات لليهود الفقراء، وقدَّم موسى مونتفيوري (رئيس المجلس اليهودي في لندن) اقتراحاً للمستر شارلس هنري تشرشل في شباط 1841، بإيفاد قنصل كفء إلى دمشق مهمته الإشراف على مصالح اليهود ولكن طلبه رفض[39].

صار وضع اليهود الفقراء في فلسطين مزرياً، وقد زار الصحفي والوزير لورنس أوليفنت (1829- 1888) أرض فلسطين ونشر كتابه (أرض جلعاد) اقترح فيه مساعدة اليهود وشراء الأراضي لهم ليزرعوها، وهذه من أخطر الأحداث عام 1878. وبدلاً من أن يعيش اليهود من التبرعات وكانوا حوالي 34 ألف نسمة، صاروا فلاحين منتجين، وهذا يربطهم بالأرض، وأقيمت أول مزرعة (بتاح تكفا) أي مزرعة الأمل، ولكنها فشلت، لأن العرب قد رفضوا التعاون مع اليهود. ألَّف اليهود أول نشيد (بتاح تكفا) وظل يردد منذ تلك الأيام.

## اليهود والثورة الفرنسية (1789)

كان اليهود محتقرين من الكنيسة الكاثوليكية، وهذا الشعور يتوارث منذ أيام الحروب الصليبية، عندما كانوا يذبحون اليهود وهم في طريقهم نحو القدس، لاعتقادهم إن في ذبحهم الرجاء بالنصر، ولكن على العكس من ذلك كانت الكنيسة البروتستانتية التي ظهرت منها جماعات المسيحية الصهيونية. وأول أديب فرنسي دعا لعودة اليهود إلى فلسطين هو إسحق لابيرير (1595- 1676)، وبذلك شق عصا الطاعة على الكنيسة الكاثوليكية، وتبعه العالم الفرنسي فيليب جنتل دي لانجالير (1656- 1717) الذي قدَّم اقتراحاً بمقايضة رومة بالقدس وإسكان اليهود فيها، فقبض عليه وقدِّم للمحاكمة بتهمة الخيانة العظمى.

ولكن الكاردينال جاك بنيامين بوسيه (1627- 1704) صاحب الكتاب الشهير (خطاب في التاريخ) 1681، الذي كان يكره يهود عصره، بينما يحترم الأمة اليهودية القديمة، الأمة التي تعلو كل الأمم، والتي كانت حجر الزاوية في تاريخ العالم، حين تكلم عن مملكة إسرائيل في عهد داود وسليمان، أما بعد أن قتل اليهود السيد المسيح، وصف الشعب اليهودي بالشعب الملعون، بسبب دم المسيح الذي سيتعقبهم إلى آخر وليد لهم، وطالب يهودي إيطالي يدعى Latle بطبع إنجيل متى، وأن تطبع إلى جانب عبارات عذابات المسيح، عبارات مصاحبة لعذابات المسيح تجرد كلمات الإنجيل من كل قيمة[40].

وبعد قيام الثورة الفرنسية وإعلانها الأخوة والمساواة والحرية بين أبناء البشر، تغيرت اللهجة، وكانت الثورة الفرنسية، قد اعتمدت على كتابات الفيلسوف جان جاك روسو (1712- 1778) في كتابه (تربية إميل) عام 1762،

الذي قال: إننا لن نعرف الدوافع الداخلية لليهود، حتى نحررهم ونقيم لهم دولتهم الحرة، ومدارسهم وجامعاتهم الخاصة. تأثر نابليون (1769- 1815) بهذه الفكرة، وعندما احتل مصر عام 1799، ثم احتل القدس، اصدر بالعربية منشوراً اعترف به لليهود بحقوقهم شريطة أن يساعدوه في حملته:

«من نابليون القائد الأعلى للقوات المسلحة للجمهورية الفرنسية:

-أيها الإسرائيليون، أيها الشعب الفريد، الذي لم تستطع قوى الفتح والطغيان أن تسلبه اسمه ووجوده القومي، وإن سلبته أرض الأجداد فقط.

-أيها الإسرائيليون، إن الجيش الذي أرسلتني العناية الإلهية به، والذي يقوده العدل، ويواكبه النصر، لقد جعلت القدس مقراً لقيادتي، وخلال بضعة أيام سينتقل إلى دمشق المجاورة التي كانت ترهب مدينة داود.

-أيها الإسرائيليون، يا ورثة فلسطين الشرعيين، انهضوا واظهروا، إن قوة الطغاة القاهرة لم تخمد شجاعة أحفاد هؤلاء الأبطال، وإن معاملة العبودية التي دامت ألفي عام لم تفلح في إخمادها.

-أيها الإسرائيليون، سارعوا في هذه اللحظة المناسبة التي لم تتكرر منذ آلاف السنين للمطالبة باستعادة حقوقكم، ومكانتكم بين شعوب العالم، تلك الحقوق التي سلبت منكم، وهي أساس وجودكم كأمة بين الأمم، وحقكم الطبيعي المطلق في عبادة يهوه طبقاً لعقيدتكم علناً وإلى الأبد».

جاء هذا النص في كتاب المفكر اليهودي موسى هس في كتابه (روما والقدس) عام 1862، وفيه إضافة «لا تزالون تشكون في أن فرنسا لن تساعدكم، نعم إن فرنسا ستوسع مهمة التحرير لتشمل الأمة اليهودية كلها في العالم، لأن الفرنسيين واليهود قد خلق كل منهما للآخر»[41].

إن هذا المنشور صار القاعدة الفكرية والسياسية للصهيونية، واعتبره الفيلسوف الصهيوني ماكس نوردو (1849- 1923) أفضل من كل ما جاءت به حركة التنوير اليهودية (الهسكالاه) المنافقة التي دعت اليهودي إلى إخفاء شخصيته في الاندماج في المجتمع، خشية أن يعرف الناس أنه يهودي، وهو بهذا تتشوه نفسيته من الداخل ويصبح مرائياً ومضحكاً في نظر الناس ذوي المقاييس العليا[42].

من هنا بدأت الكتاباتالصهيونية السياسية، وهاجم الأديب اليهودي الروسي ميخا جوزيف بيرديشفكي (1865- 1921) دعاة التنوير، ووصفهم بوجهين، فهم نصف غربيين في حياتهم اليومية ونصف يهود في كنسهم اليهودية. وعندما اشتدت الحملة في روسيا وبولونيا على اليهود، وطالبهم العقلاء بالتعقل والتريث، كتب بيرتس سمولنسكين (1842- 1885) لليهود بعدم الانصياع لنصائح دعاة التنوير لأنهم أناس غير حكماء، لم يعرفوا ماضي اليهود ولا مستقبلهم، ولا يستوعبون معنى التنوير، لأنهم يطالبون اليهود بتقليد الأغيار والاندماج معهم، والرفض لتقاليد اليهود وماضيهم، وبذلك قطعوا روابط المحبة، وحلوا أنفسهم آمال كاذبة، وهم كلاب ضالة يجب قطع ألسنتهم كي لا تهر[43].

نتيجة المماحكات بين الصهاينة وحركة التنوير، ظهرت كتابات في الفكر اليهودي جادة، وقد حدد الحاخام شمعون رفائيل هيرش (1808- 1888) قيم التوراة بأنها خالدة بينما قيم الحضارة الغربية وقتية متغيرة، وأن الدين اليهودي ليس عقيدة جامدة، بل هو دين عملي، وإن القوانين التوراتية (الهالاخاه) تصلح للدين والدنيا، والطقوس الدينية يجب ألا يقوم بها أناس متعلمون، وأن الخلاص الديني يمكن أن يتم بعدة طرق، لا بعودة المسيح المنتظر فقط، ويجب استخدام العبرية في الصلاة وعدم اختلاط الجنسين، ومنعوا زيارة النساء لحائط المبكى، وظلوا متمسكين بفكرة (أن اليهود شعب الله المختار) وعلى اليهود أن يظلوا متميزين عن الأغيار في لباسهم وطقوسهم، وعاداتهم، لتحقيق رسالتهم في الحياة. وحددوا المناسبات الدينية والاجتماعية.

الأعياد الدينية: الاحتفال بعيد الغفران وعيد الفصح والاحتفال بيوم السبت.

والمناسبات العائلية: الاحتفال ببلوغ الشاب والشابة اليهودية (سن 14) وتدعى هذه المناسبة بابن الشريعة (برمتسفا).

مناسبات الحداد: وفيها عدد من الطقوس منها:

صلاة القاديش (صلاة الجنازة) وقراءة التوراة باللغة العبرية التي لا تتجاوز كلماتها في العهد القديم أكثر من (8000) كلمة، أما اللغة العبرية اليوم فقد استوعبت التراث القديم:

1)المرحلة الخاصة بالعهد القديم (المرحلة التناخية)

2)المرحلة التلمودية لطلاب (أليشيفوت) وفيها آثار اللغة العربية في القرون الماضية، وقد ساهمت فيها طوائف اليهود في الأندلس والعراق.

3)مرحلة الاستخدام اللغوي الحديث والمعاصر.

## اليهود في الولايات المتحدة

بدأت هجرة اليهود إلى أمريكا، منذ بداية رحلة كولومبوس في 3 آب 1492م، عندما أخذ معه خمسة من يهود الأندلس ومعهم بعض العرب المسلمين، وكان اليهود هم: المترجم لويس دي فوريس والطبيب الجراح ماركو والطبيب العشاب برنار والبحار المتمرس والنزو دي لاكال والجغرافي الفلكي غابرييل سانشيز. وعندما وصلوا إلى كوبا، نزل المترجم لويس دي فوريس، وصار له حق احتكار التبغ الكوبي. وتوالت هجرة اليهود من إسبانيا بعد أن طردهم الإسبان.

وعندما قامت الثورة الأمريكية عام 1776م، نال اليهود حريتهم، وقصد أمريكا يهود أوروبا. وقد ميَّز باروخ كورتسفيل بين اليهود الذين جاؤوا من أرض كنعان وهم يهود الأندلس، ويهود الشتات (الأشكناز)، واليهودي والعبري (السفارديم) لا يمكن أن يكونا متشابهين في الثقافة والسلوك، لأن العبري لا يمكن أن يكون يهودياً (أشكنازياً)[44].

نقل اليهود (السفارديم) مشاعرهم وتراثهم إلى المجتمع الأمريكي، وكذلك فعل اليهود الأوروبيون (الأشكناز) الذين كونوا ثقافتهم تحت التأثير الثقافي المسيحي، وعلى هذا الأساس ميَّز باروخ كورتسفيل بين ثقافتين داخل التراث اليهودي القديم، الثقافة الإسلامية جاءت مع يهود الأندلس، والثقافة المسيحية مع اليهود الأوروبيين.

وفي عام 1848 هاجر من أوروبا الغربية إلى أمريكا حوالي 100 ألف يهودي، وتضاعف عدد اليهود الأشكناز إلى 250 ألف، وأصبحوا يعادلون اليهود السفارديم. وبعد اغتيال القيصر الإسكندر الثاني 1881، هاجر كثير من اليهود الروس، فأصبح العدد الكلي لليهود حوالي المليونين، وسادت لغة اليديش (لغة خليط من الألمانية والعبرية) وصار اليهود يفكرون ويعبرون بلغتين هما اللغة العبرية ولغة اليديش، واليهود اليوم في أمريكا الشمالية حوالي 7 ملايين.

عندما صدر وعد بلفور عام 1917، عارضه وزير الخارجية الأمريكي مستر روبرت لانسنغ، فأرسل إلى الرئيس الأمريكي وورد ولسون (1856- 1924) رسالة في 13 كانون أول، جاء فيها:

عزيزي وورد ولسون:

هناك ضغط يهودي كبير، لإصدار بيان حول الموقف الذي ستقفه حكومتنا تجاه فلسطين، وهذا بالطبع نابع من العنصرية اليهودية. وأرى أن نتلكأ في إعلان سياستنا لثلاثة أسباب:

أولاً: إننا لسنا في حالة حرب مع تركيا، فعلينا أن نتماشى مع كل ما من شأنه أن يظهر أننا نؤيد أخذ أراض بالقوة منها.

ثانياً: إن اليهود ليسوا جميعاً راغبين في إعادة جنسهم كشعب مستقل، وليس من الحكمة تفضيل فريق على آخر.

ثالثاً: إن كثيراً من الفرق المسيحية سيغضبون حتماً، إذا وضعت الأرض المقدسة تحت السيطرة المطلقة للجنس الذي يعزى إليه موت المسيح[45].

**التوقيع**

**المخلص روبرت لانسنغ**

ولكن الرئيس ولسون، لم يأخذ بنصيحة وزير خارجيته، ووعد زعماء الصهيونية في مؤتمر باريس، بأنه يمكنهم الاعتماد على تأييده الشخصي. وكتب وزير الخارجية لانسنغ، في مذكراته «إن موقف الرئيس يتناقض مع مبادئه عن حق تقرير المصير». ومن بعد الرئيس ولسون صار كل رؤساء الولايات المتحدة مؤيدين للمشروع الصهيوني، في إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين. وقد عبَّر الرئيس هاردينج عام 1922 عن تأييده الشديد لإنشاء صندوق فلسطين «يسعدني أن أعبر عن موافقتي وتعاطفي القلبي مع جهود صندوق إنشاء فلسطين، من أجل إعادة فلسطين وطناً قومياً للشعب اليهودي»[46].

وفي عهد الرئيس فرانكلين روزفلت (1882- 1945) الذي همَّ بتحقيق حلم اليهودي القديم بالعودة إلى أرض فلسطين وإعلان دولة إسرائيل، ولكنه اجتمع مع الملك عبد العزيز بن سعود في حزيران 1944، وعرض الرئيس روزفلت مشروع إقامة (كومنولث) لشعوب المنطقة في فلسطين، فثناه الملك عبد العزيز عن مشروعه. فعقد الرئيس روزفلت اجتماعاً مع زعماء الكونغرس، وطالبهم

بإعادة النظر بالمشروع، كي لا يكون هناك سفك دماء بين العرب واليهود. ولا بد من إيجاد معادلة للحيلولة دون هذه الحرب[47].

عند استلام النازية للحكم في ألمانيا (1933- 1945) تأذت الحركة الصهيونية، مع أن الحركتين تتشابهان في الأهداف، فكلاهما تدعو إلى (فكرة الجنس المختار) وصار اليهود في البداية يعاملون كغرباء عن الثقافة والدين والجنس الآري، و أثناء الحرب بدأت مذابح اليهود (الهولوكوست)، ويقال إن الصهيونية العالمية أسهمت في تلك المجازر، من أجل هجرة اليهود الألمان إلى فلسطين. استدل المؤرخون على ذلك من سلوك حاييم وايزمن الذي كتب في مذكراته: «يفضل أن يهلك اليهود الألمان جميعاً على ألا يرى فلسطين قد ضاعت».

جاءت قوافل اليهود المهجرين من ألمانيا إلى فلسطين، فساعدهم العرب، وقدموا لهم يد المساعدة. وكان جزاء العرب، أن صورهم اليهود ونعتوهم (بالخداع والرذيلة والانحطاط).

والسؤال الذي يفرض نفسه: هل الصهيونية واليهودية تتفقان في نظرتهم للعرب؟

نعم، كلاهما يرفض التعايش مع العرب، وكلاهما له نفس التصور عن العرب[48]. وقد مارس اليهود الصهاينة القتل والظلم تجاه العرب في حروبهم الثلاثة (1948، 1967، 1982) وللظلم القاسي الذي مارسه اليهود تجاه العرب كتب الصحفي اليهودي العراقي وليم فاف في مقالة في شيكاغو تريبيون بتاريخ 30/ 6/ 1982، على أثر اجتياح قوات شارون لأرض لبنان: «إن ما سيسمح لهتلر بأن يلوذ بالراحة في الجحيم هو معرفته بأن اليهود أنفسهم في إسرائيل قد تخلوا أخيراً عن تبشيرهم بالعدالة والمساواة بين البشر. وقبلوا بأسلوبه بمعالجة الأمور في فلسطين ولبنان».

**الحاخام مناحم مندل شينورسن**

ولد في روسيا عام 1902، في بلدة نيكوليب، وكان من أسرة يهودية عريقة، تعود إلى يهود الخزر جاؤوا إلى روسيا البيضاء، واشتهروا بتفسير كتاب (شولحان عاروخ) وبما أضافوه إليه من قصائد إلهية (بيوطيم) تعدَّت شهرتهم

إلى بخارى وأذربيجان وتركيا وبولونيا ورومانيا، وارتبط اسم القبالاه بهم. وأسسوا الطريقة المعروفة باسم (حبد) وهي الأحرف الأولى من كلمات (المعرفة والحكمة والفهم). وكان يترأس هذه الطريقة العالمية المعلم أو الصديق (الأدمور).

درس مناحم في المدارس الروسية العامة، وبعدها تعلم على والده أمور الدين، وقد أبدى نبوغاً في الرياضيات وتعلم اللغات. وعندما غادر الأدمور يوسف إسحق الاتحاد السوفييتي عام 1927، هاجر معه إلى ألمانيا في البداية وتزوج ابنته (حاية موشكة) عام 1928. وفي برلين التحق بجامعة (همبولت) ودرس الفلسفة وعلم النفس والهندسة وحصل على الشهادات العلمية، وكان يتردد على المسارح، وهذا محظور على المتدينين اليهود أمثاله. وعندما ظهرت النازية عام 1933، غادر برلين إلى باريس لإكمال دراساته العليا في الفيزياء والعلوم الطبيعية، ودرس الفلسفة على يد الفيلسوف اليهودي هنري برجسون (1859- 1941) في (الأريجاسيون). وعندما احتل النازيون باريس غادرها إلى الجنوب الفرنسي عام 1940، ودرَّس في جامعة مونبليه الفكر اليهودي وفلسفة التصوف (القبالاة) وعرض أفكار جمعية (حبد) على الجمهور الفرنسي، المسيحي واليهودي، وكان صديقاً للفيلسوف جان بول سارتر.

وفي عام 1942 غادر فرنسا إلى الولايات المتحدة، وسكن مع صهره الحاخام يوسف إسحق، وصار يعلم في مدرسة والده ليفي إسحق، في حي كراون هايتس في ضاحية بروكلن في مدينة نيويورك، وعمل في البداية مهندساً للسفن، وترك العمل وتولى التدريس للديانة اليهودية ولتعاليم طريقة (حبد) الصوفية فنال شهرة واسعة في نيويورك وفلوريدا، ولكن أعداءه بدأوا يضايقونه ويذكرونه بماضيه في برلين عندما درس العلوم في الجامعة، وكان يتردد على المسارح، ويسمون تلك الفترة (بالماضي الجنائي). وعندما توفي والده عام 1945، انصرف إلى إدارة المدرسة الدينية.

وفي عام 1950، توفي الأدمور صهره الحاخام يوسف إسحق، وأصبح مناحم هو الأدمور السابع (لحركة حبد) وكتب مقالاً حول العدد (7) بهر فيه أتباعه، لمَّح فيه إلى قرب مجيء (المسيح المخلص) وأخذت بمقاله المذاهب البروتستانتية، وجماعة شهود يهوه. وصار الحاخام مناحيم مندل شينورسن أكبر شخصية يهودية خارج إسرائيل.

بعد أن تولى الحاخام مناحيم وظيفة الأدمور عكف على المطالعة والبحث والتأليف، وصار يكتب عدة رسائل في الأسبوع، ولا يغادر منزله لأي سبب كان، ولا ينام إلا أربع ساعات في اليوم، وصارت رسائله المقدسة (أجروت قيدش) التي بلغت الآلاف الآن، تحتوي على فلسفته الروحية وشروحه التلمودية، واطلاعه الواسع على الفلسفات الغربية.

يحيط بالأدمور شينورسن خمسة وعشرون ألفاً من أتباعه في حي بروكلين، وله عدة مستشارين، ولكنه لا يعتمد إلا على ذاكرته العجيبة، في اتخاذ القرارات. من تلك الرسائل المقدسة (رسالة من هو اليهودي؟) قال: هو الذي يحب أرض فلسطين، وينتظر ظهور المسيح المخلص، ورغم ذلك فهو معارض لقيام دولة إسرائيل، لأن الشتات والغربة ضروريان لمجيء المخلص القريب، وهو الذي يطهِّر الكون، ويعلن ظهور دولة إسرائيل.

ما هي مبادئ حركة حبد؟

لهذه الحركة ستة مبادئ، أعلنها الأدمور مناحم في رسالته المقدسة (من هو اليهودي؟):

1)السعي الدائم للتوفيق بين التوراة والعلم، لأنه لا تناقض بينهما، لأن الله هو الذي خلق الطبيعة ووضع لها القوانين والسنن.

2)إذا أبدى تناقض ظاهري بين معطيات العلم ونصوص التوراة، فيجب تأويل النصوص لكي تتفق مع معطيات العلم.

3)إن اكتشاف الأمواج الإلكترونية، إنما هو تأكيد محسوس على قرب قدوم المسيح المخلص الذي ستمتلئ الأرض باسمه، ويسعد به البشر.

4)ويجزم الأدمور مناحم بعدم وجود مخلوقات بشرية على سطح الكواكب الأخرى، وهذا في رأيه مستحيل، لأن ذلك يقتضي وجود توراة أخرى أو دين يهودي آخر.

5)يعارض الأدمور مناحم فكرة الإجهاض والزواج المثلي وتشريح الموتى.

6)يطالب الأدمور بتبديل قانون عودة اليهود إلى إسرائيل، ويحذر من آثاره الخطيرة على مستقبل الشعب اليهودي من صراع الثقافات داخل إسرائيل. وهو رغم ذلك عنصري في نظرته للبشر، لأنه لا وجود للمشابهة بين اليهود والأغيار (الجوييم) فاليهودي في المرتبة العليا لنقاوة روحه وطهارة جسده.

وكان من أتباعه الرئيس الجمهوري السابق رونالد ريغان وكذلك الرئيس الجمهوري الحالي جورج بوش الابن من أتباعه وممن يأخذ بآرائه ونصائحه.

يعادي الأدمور مناحم اللغة اليديشية، ويدعو إلى إحياء اللغة العبرية لغة التوراة المقدسة، ويرى قوة المسيح المخلص كامنة في أحرف اسم الرب يهوه الموجود في كل مكان. يعيش الأدمور مناحم كما يعيش الملوك في قصر فخم. ويذيع أحاديثه من محطة خاصة به حتى إنه يقال (حديث الصديق الأدمور توراة، والإيمان به أعظم من التوراة).

في عيد فصح عام 1992، لمَّح في خطابه أنه هو المسيح المخلص لأن اسمه فيه الحروف الثلاثة (ممش)، وأن روحه المعذبة والقلقة على الأمة اليهودية في عروجها الدائم نحو الرب تطلب العفو والمغفرة لأبناء طائفته الضالة.

تعادي الحركة الصهيونية أتباع الأدمور الذي يدعو إلى فكرة المسيح المخلص الذي هو ملك إسرائيل المقبل، وأن الدولة الحالية قد قامت على يد حفنة من الكافرين تطاولوا على مشيئة الله، وأعلنوا قيام الدولة الإسرائيلية وقد خالفوا وعد الرب.

## تاريخ الحركة الصهيونية

ظهرت الفكرة الصهيونية كردة فعل لحركة التنوير (1770- 1881). قال المفكر الصهيوني موسى هس (1812- 1875) «إن الدين أصبح مصيبة على اليهود، وعلى اليهودي حمل نير مملكة السماء حتى النهاية، وإن دعاة التنوير مخطئون إذا ظنوا أن باستطاعتهم النجاة من المصائب المحيطة بهم بالاندماج في المجتمع، أو حتى بتحولهم إلى الديانة المسيحية، ولن يستطيع أحد حتى موسى مندلسون العظيم، أن يفعل شيئاً، وأن يصلح الدين دون أن يخرب لبَّ اليهودية الداخلي، لقد نادت حركة التنوير بعدم الإيمان بقوميتنا أساساً للدين اليهودي، فماذا حدث؟ لقد تحول اليهود إلى عدم الاكتراث باليهودية وتحولوا إلى المسيحية»[50]. ولكن المفكر اليهودي التنويري الحاخام رفائيل هرش (1808- 1888) ردَّ عليه بقوله: «إن الله أوحى التوراة لموسى من فوق جبل سيناء، وإن الوحي لم يكن مقولة جامدة بل هي شيء مستمر مع الأنبياء، وإن التوراة هي

كلام الله الذي كتبه بيده حرفاً حرفاً، وإن الإنسان الضعيف لا يستطيع خلق حكمة تفوق حكمة الله، لذا يجب عدم التغيير والتبديل في كلام الله، فالوحي الإلهي لم يلغِ العقل بل ترك له الحرية في تفسير كلام الله، وإن شعب الله المختار عليه أن يعود إلى أرض فلسطين ليحقق وعد الله»[51].

وهكذا ظهرت في أوروبا مدرستان كلاهما تفسر فكرة العودة من منطلقين متناقضين:

فكرة القداسة: التي تعيد حياة اليهود وتاريخهم الطويل لأصول ربانية، وتؤكد أهمية الوحي الإلهي المنصوص عليه في التوراة والتلمود.

الفكر القومي: الذي يعيد فكرة القداسة إلى الحياة التي عاناها اليهود خلال تاريخهم الطويل والذي كونوا من خلاله فكرهم القومي المسيطر اليوم على الحياة في إسرائيل[52].

هذا الفكر التاريخي القومي فكر ملحد، يعيد تكوين الدين إلى شروط تاريخية، وأنه لا صحة للوحي الإلهي، إلا بما يقدمه للجماعة اليهودية لكي تعيش.

أكد الزعيم الصهيوني ماكس نوردو (1849- 1923) على أن العادات والأنماط السلوكية لليهود، تهدف دون وعي لشيء واحد، هو الحفاظ على الهوية اليهودية، وذلك بعدن الاختلاط بالأغيار حتى نحافظ على المجتمع الصهيوني، ونستمر في تذكير الفرد اليهودي بأنه سيفقد هويته، ويهلك إن هو تخلى عن شخصيته الفريدة، وهذا الدافع نحو الانفصال عن الغير، كان منبع كل القوانين والطقوس الدينية التي يعتبرها اليهود في مرتبة إيمانهم ذاته[53]. إذن الانعزال اليهودي شرط من شروط الفكر الصهيوني.

وهذا المفكر الصهيوني موسى هس يعلن في كتابه (روما والقدس) 1862، ندمه لانصياعه وراء حركة التنوير، ومطالبته اليهود بالاندماج بالمجتمع المحيط بهم «لقد عدت إلى شعبي بعد عشرين سنة من الاغتراب، وها أنذا أشارك شعبي مرة أخرى أفراحه وأتراحه وآماله وذكرياته، لأن أول ما أمر الله به اليهود، هو أن يطبقوا القانون الذي بعثه الله لهم، وليعلموه للشعوب الأخرى، وأن أقسى عقوبة فرضت عليهم هي انحرافهم عن السبيل الذي خطته لهم العناية الإلهية، وتشتتوا بين الشعوب وفقدوا أرضهم وبذلك فقدوا هويتهم كأمة متكاملة»[54].

وكانوا يعيشون على الغربة وحياة الشتات Diaspora على مدار ألفي وخمسمائة سنة، وكانوا يعيشون منعزلين لوحدهم في (الجيتو) مما ولّد لديهم عقدة الأسر والشعور بالظلم والدونية أمام الشعوب التي يعيشون بينها.

كتب الطبيب الروسي ليون بنسكر (1821- 1891) عام 1882، كتاباً باسم (التحرير الذاتي) جاء فيه: «إننا نريد أرض آبائنا ووطننا الذي نعيش فيه، وما دام ليس لنا وطن، حتى ولو استعنا بالقوة لخلق ذلك الوطن، لنحرر أنفسنا من حلمنا القديم (عودة المسيح المنتظر)» ودعم رأيه بالمبررات التالية:

1) لن يكون اليهود شعباً مفعماً بالحياة، ما داموا غرباء محتقرين في أي مكان حلوا به.

2) إن الخلاص المدني والسياسي لليهود لا يكفي لتغيير ما هم فيه ما داموا يعيشون على أرض الغير، ولتحريرهم الذاتي لا بد من إيجاد الوطن والقومية.

3) يجب أن يكون هناك حل للمسألة اليهودية، قومي ودولي.

4) يجب أن يفتح طريق للانبعاث القومي اليهودي عن طريق هيئة تشريعية تكون من وجهاء اليهود.

5) سيواجه المشروع الصهيوني، في وضعه الراهن صعوبات علينا حلها(55).

ظهرت في عام 1880 جمعية (محبي صهيون) في دولة بروسيا وعقدوا أول مؤتمر لهم في كاتونبرغ عام 1884 وانتخب رئيساً لها ليون بنسكر، وصار يدعو إلى انعزال اليهود عن الوسط الاجتماعي المحيط بهم، وسمى ذلك بالانعزال القومي وتأثر بفكرة تيودور هرتزل، وعلى أثر مذابح كيشنيف في بيلوروسيا، كتب المفكر الروسي نحمن سيركين (1867- 1934) مقالات صحفية نال اليهود بها عطف العالم، وفتحت باب الهجرة إلى أمريكا. لكن الحركة الصهيونية صارت تدعوهم للهجرة إلى فلسطين بدلاً من أمريكا.

### المفكر الصهيوني تيودور هرتزل (1860- 1904)

ولد في عاصمة النمسا (فيينا) وتلقى تعليماً مدنياً، ومارس الصحافة، ودرس التاريخ وفلسفة هيغل واطلع على تاريخ اليهود، واطلع على كتابات أبراهام جايجر (1830- 1874) وعلى مقررات مؤتمر بتسبورغ عام 1882، وما جاء في

البند الخامس «نحن نرى في العصر الحديث، عصر حضارة العقل والقلب، واقتراباً لتحقيق أمل (المسيح المنتظر) العظيم لأجل إقامة مملكة العدالة والسلام بين جميع البشر، ونحن لا نعتبر أنفسنا بعد اليوم جماعة دينية نتوقع العودة إلى فلسطين مجيء المسيح المنتظر. ولن نكون مثل آبائنا الذين قالوا لموسى وهارون: ليتنا متنا بيد الرب في أرض مصر، حيث كنا جالسين عند قدور اللحم، نأكل خبزاً حتى الشبع»(الخروج 16 : 2). درس هرتزل التوراة، وعندما التقى بصديقه الفيلسوف الألماني الملحد ماكس نوردو، سخر من التوراة واعتبرها عملاً أدبياً رديئاً أقل مكانة من الإلياذة والأوديسة والكلاسيكيات الأدبية، وبأنها طفولية الفكر كفلسفة، بل إنها مقززة للنفس كنظام أخلاقي، ولا يهمه استبدال يوم السبت بيوم الأحد[56].

تغيرت أفكار هرتزل الدينية في التوراة والتلمود، ورأى فيها حاملاً للقومية الصهيونية، وكتب كتابه (الدولة اليهودية) عام 1896، جاء فيه: «لن نسمح بظهور أية نزعات ثيوقراطية (سلطات دينية) لدى سلطاتنا الروحية، وسوف نعمل على بقاء هذه السلطات داخل الكنيس والمعبد، وإن حاول المتسلطون الدينيون التدخل في شؤون الدولة، سوف يلقون مقاومة عنيدة وشديدة من جانبنا»[57].

وهكذا ظهر الفكر القومي الذي يتوخى تحرير اليهود من شعورهم بالمذلة، وإقامة سياج حول أنفسهم التي كبلوها بطقوس دينية، وعندما أراد الفيلسوف موسى مندلسون تحريرهم من هذا الشعور وإعادتهم إلى الحياة الاجتماعية السليمة تحلوا إلى المسيحية، يقول أبراهام ليون: «إنه خلال ثلاثين سنة تحول نصف يهود برلين إلى المسيحية»[58].

وعقد تيودور هرتزل المؤتمر الصهيوني الأول في مدينة بازل 1897 وفيه حدد الإجراءات لقيام الدولة الصهيونية، وقدر أن موعد إقامتها سيكون بعد خمسين سنة، وذلك عن طريق:

1)السعي بكل الطرق لاستقرار اليهود في فلسطين.

2)تنظيم جهود اليهود، وجمع شملهم في منظمات محلية ودولية.

3)تقوية وتثبيت الشعور بالقومية الصهيونية.

4)اتخاذ خطوات تمهيدية للحصول على موافقة الحكومات المختلفة لتحقيق أهداف الصهيونية.

نشطت الحركة الصهيونية لدى اليهود الأوروبيين (الأشكناز) ووجدت لديهم آذاناً صاغية، بينما صادفت الرفض وعدم القبول من اليهود الشرقيين (اليهود العرب) السفاراديم، والسبب في ذلك أن اليهود العرب كانوا يعيشون بحرية، وفهموا قانون العودة، يتم عن طريق الحج مرة في العمر إلى بيت المقدس.

قابل تيودور هرتزل ومعه سير صموئيل مونتاجو السلطان عبد الحميد عام 1902، وعرضوا عليه مبلغ (2 مليون) دولار من أجل إعطائهم القدس، فرفضها، وكتب هرتزل في مذكراته «إن تركيا ترفض أن تعطينا فلسطين، لذلك يجب أن ننظم أنفسنا للحصول على مطلبنا. قد نستطيع المطالبة بأرض قبرص من إنكلترا، أو جنوب أفريقيا أو الأرجنتين، وإلى أن يتقوض صرح السلطنة، ونعود إلى فلسطين». وكتب هرتزل إلى اللورد روتشيلد: «يجب أن تبدأ الدولة اليهودية، بإنشاء محطات متفرقة، قد تكون المحطة الأولى في المستعمرات الإنكليزية، شرق أفريقيا في أوغندا، ثم تقام محطة أخرى في الأرجنتين أو مراكش، وتكون تلك النواة الأولى للدولة».

وعندما عرض عليه اللورد جوزيف تشمبرلين (1863- 1937) وزير خارجية بريطانيا (أوغندا) ليستقر بها عام 1903، تراجع هرتزل وأجابه «نفضل أن تكون قاعدتنا في فلسطين أو بالقرب منها، وسنستعمر أوغندا فيما بعد». ودخل هرتزل مع تشمبرلين في مفاوضات مطالباً بقبرص أو شبه جزيرة سيناء، وقال له: «لدي فسحة من الوقت للمفاوضات، ولكن قومي ليس لديهم وقت يضيعونه. إنهم يموتون جوعاً». وناصر هرتزل الصحفي البريطاني راف كوك الذي قال لتشمبرلين: «إن الرابطة المقدسة بين إسرائيل وأرض الميعاد، ليست على شاكلة غيرها من الروابط، التي تعقد ما بين مختلف الشعوب وأرضها، إن شعب إسرائيل قد وعد بهذه الأرض، من الرب، ويشعر أن الرابطة التي تصله بهذه الأرض لا انفصام لها».

وعدت وزارة الخارجية البريطانية الصهاينة بالإيجاب، وصاروا يطمحون لكي تكون لهم أرض دولة ليتخلصوا من كراهية الأمم المعادية لهم. وصارت الصهيونية تدعو لمشروع حضاري يعتمد على الفكرة التاريخية والعلاقات الروحية بين الشعب اليهودي ووطنه الأصلي (أرض فلسطين) وأن عليهم

الاستيلاء على الأراضي بالشراء أو تهجير العرب منها، لأن العرب كانوا مغتصبين لوطنهم منذ مئات السنين.

### الحركة الصهيونية في مواجهة القومية العربية

شعر العرب بالخطر منذ أن أسس الحاخام صموئيل موهيلر (1824-1898) المركز الروحي لحركة مزراحي، تحت شعار (التوراة والعمل) واشتروا الأراضي الزراعية، وقامت أول مزرعة (كيبوتس) عام 1878، وسموها (بتاح تكفا) أي (مزرعة الأمل)، وأعلن اليهود أن العمل الزراعي هو العمل المقدس في أرض الأجداد حسبما جاء في التوراة. أثارت هذه المزرعة اهتمام العرب وشعروا أنها اغتصاب لأرضهم.

وفي هذه الفترة كان الموظف المثقف نجيب العزوري (المتوفى 1916) يعمل في البريد وهو رجل سوري من لبنان (1900- 1904) لاحظ عمل الصهاينة الدائب من أجل إقامة الوطن اليهودي. وناقش المثقفين منهم، وعرف عمق نواياهم، وعندما ذهب إلى باريس كتب كتابه الشهير (يقظة الأمة العربية في آسيا التركية) كتبه بالفرنسية وأصدره 1905، قال فيه: «تبرز في هذه الآونة الأخيرة في تركيا الآسيوية ظاهرتان خطيرتان متناقضتان على الرغم من وحدة طبيعتهما (يقظة الأمة العربية) وسعي اليهود لإعادة ملك إسرائيل القديم على نطاق واسع، وأنه مكتوب لهاتين الحركتين أن تتصارعا حتى تتغلب الواحدة على الأخرى. وعلى نتيجة هذا الصراع النهائية يتوقف مصير العالم أجمع»[59].

أسس نجيب العازوري في باريس رابطة سماها (جامعة الوطن العربي) كان هدفه منها، تحرير بلاد الشام والعراق من السيطرة التركية، والوقوف في وجه الحركة الصهيونية. كما أصدر في باريس جريدة (الاستقلال العربي) وكان شعارها (الأقطار العربية للعرب) وكتب عدة مقالات عن خطر الصهيونية المقبل.

زادت الهجرة، ومع زيادتها زاد نشاط اليهود السياسي، وصدر وعد بلفور عام 1917 وفيه وعد (بإقامة وطن يهودي) وفي ذلك الوقت نشرت جريدة المقطم المصرية وثيقة تاريخية سجلت اللقاء الذي تم بين الشريف حسين بن علي والوفد الصهيوني عام 1924 وقد أبدى الوفد رغبته في الاشتراك مع الأمة

العربية في سبيل نهضة الشرق، وقد رحب بهم الشريف حسين، ومنح رئيس الوفد الحاخام دافيد مير وسام الاستقلال، وقدم الوفد أمانيه، في داخل إطار من القدسية[60].

ومن أنشطة الحركة الصهيونية، تأسيس الجامعة العربية، وحضر الأديب المصري لطفي السيد حفل الافتتاح في 15 نيسان 1925، وكتبت الجريدة الصهيونية (Palistaine weekly): «إن حضور مندوب مصر، هذه الحفلة، كان دليلاً على أن مصر العاقلة لا ترى في الصهيونية رأي أهل فلسطين».

واشترت الصهيونية من عائلة سرسق اللبنانية خمس قرى تابعة لقضاء صفد، تبلغ مساحتها حوالي 230 ألف دونم أعطتها إلى اليهود. وكتبت جريدة المقطم عن مدى الجزع الذي أصاب القرى الخمس عندما بلغهم نبأ البيع وقدموا الاحتجاجات للمندوب السامي هربرت صموئيل، وإلى الصحف العربية، وإلى اللجنة التنفيذية العربية للحكومة، وكان البيع قد تم في تشرين الثاني عام 1924»[61].

أثارت ممارسات الصهيونية غضب الشباب العربي الفلسطينية، الذين شكلوا جمعية لمقاومة الصهيونية وعقدوا مؤتمرهم الأول في 13 تموز 1934، ونظموا عملية حراسة لكل سواحل فلسطين، وقد أرسلوا وفداً إلى بيروت ودمشق لمنع بعض العملاء العرب من تشجيع الهجرة اليهودية، وكانوا يقبضون من المنظمة الصهيونية العالمية مبلغ 18 جنيهاً فلسطينياً، مقابل إدخال النفر الواحد من اليهود إلى فلسطين»[62].

بدأ الشباب العربي يعقدون الجلسات ويتدارسون أمرهم، واكتشفوا أن الشيخ عز الدين القسام قد سبقهم بتكوين خلايا ثورية.

## الشيخ عزّ الدين القسَّام وثورة عام 1935

ولد الشيخ عز الدين في بلدة جبلة على الساحل السوري، جنوب مدينة اللاذقية، من أسرة فقيرة. فوالده كان معلماً للصبيان، يعلم القرآن ومبادئ الكتابة والحساب. وتعلم عز الدين على والده، ثم دخل المدرسة الرشدية، وأرسله أبوه إلى الأزهر الشريف مع أخيه فخر الدين، وحضر عز الدين دروس الشيخ

محمد عبده، ونال الشهادة الأهلية، واتصل بالشيخ عبد الله النديم، وتأثر بما تكتبه جريدة الأهرام والمقتطف والمقطم وعرف بما يدور في فلسطين. وعاد عز الدين إلى جبلة عام 1903، ثم ارتحل إلى تركيا للاطلاع على الأوضاع السياسية، وعندما سمع بنبأ وفاة والده عاد واستلم مكانه تعليم الأطفال، وأصبح إماماً لمسجد النوري في جبلة، وصار يتعرض في خطبه للأمور السياسية ويذكر أخبار فلسطين وطرابلس الغرب، وذلك عندما احتلت إيطاليا ليبيا عام 1911. وجمع القسام التبرعات والتحق به 250 متطوعاً يريد السفر إلى ليبيا. وعندما وصلوا إلى القدس منعتهم السلطات العثمانية، وعادوا إلى اللاذقية.

التحق القسام بثورة صالح العلي في جبل العلويين (1919- 1920)، ثم التحق بالشيخ عمر البيطار، واستمرت ثورته حتى عام 1924، وحكم عليه الفرنسيون بالإعدام، فهرب الشيخ عز الدين القسام إلى فلسطين ووصل إلى حيفا 1924 وألقى خطبة الجمعة في جامع النصر، وصار يدرِّس في جامع الاستقلال بعد صلاة المغرب من كل يوم. ثم عمل مدرساً في المدسة الإسلامية في حيفا، ثم انتسب إلى جماعة الشباب المسلمين في حيفا عام 1927، وبعدها أصبح رئيساً للجماعة في السر، وعين مأذوناً شرعياً عام 1929، وصار يخرج إلى القرى بحجة عقود القران، وهو في الحقيقة يدعو للجهاد، ويحذر من الفكر الصهيوني ومن السياسة الإنكليزية، وخطر بباله أن يلجأ إلى الحركة المسلحة وجذب إليه الفقراء والمتحمسين لثورة البراق في القدس عام 1929، وانتشار الثورة في البلدان والقرى. وصار يجمع الأموال ويشتري السلاح ويرسله إلى الجبال والقرى المجاورة لحيفا.

عرفت السلطات البريطانية بأمر القسام بواسطة عملائها، وبدأت ترصد تحركاته، وطوقته هو وجماعته في 15/ 11/ 1935 قرب قرية البارد، ودخل هو وبعض المقاتلين قرية الشيخ زايد ومنها انتقل إلى أحراج يعبد، وكانت القوات البريطانية قد كمنت لهم في صباح 19/ 11/ 1935 ودارت معركة، وصمد هو ورفاقه في معركة غير متكافئة، لمدة أربع ساعات استشهد الشيخ عز الدين القسام وبعض رفاقه الأبطال[63].

**ثورة البراق عام 1929**

سميت هذه الثورة باسم الحائط الغربي للمسجد الأقصى الذي يسميه العرب (بحائط البراق) ويعتقد المسلمون أن الرسول (ص) ربط دابة عند الحائط، عندما عرج إلى السموات العلى، ويسميه اليهود (بحائط المبكى) لاعتقادهم أنه الجزء الباقي من الهيكل المقدس.

في هذه السنوات ساءت أحوال فلسطين السياسية والمعاشية، وحدث المرض والجوع، وهاجر إلى فلسطين عدد كبير من المتسللين اليهود والذين أربى عددهم عام 1928 على المائة ألف يهودي، ومنحتهم حكومة الانتداب حوالي 82 ألف دونم من الأراضي الأميرية (أملاك الدولة) علاوة على 75 ألف دونم اشترتها شركة البوتاس اليهودية، و18 ألف دونم شركة كهرباء القدس، ونقلت أملاك الدولة في الحولة إلى الصهاينة.

وعلى أثر مظاهرة قامت بها (منظمة بيتار الصهيونية) في تل أبيب في ذكرى تدمير هيكل سليمان في 14 آب 1929، ثم انتقلوا إلى القدس وصاروا ينشدون (الهاتكفا) وهو نشيد الأمل، وأكثر اليهود الضجيج والصياح والبكاء زاعمين أنه آخر ما تبقى من آثارهم. وصادف يوم الجمعة 16 آب 1929 ذكرى مولد النبي (ص). وخرج المصلون إلى حائط البراق، وحطموا المنضدة التي نصبها اليهود، وأحرقوها وتقدموا نحو حي اليهود وأحرقوا بعض البيوت وقتلوا من سكان الخليل اليهود حوالي 60 يهودياً، عدا الجرحى، وخرج اليهود واشتبكوا مع العرب في نابلس وبيسان وحيفا، وهجم اليهود على مسجد عكاشة وانتهكوا قدسيته في مدينة صفد وخطب إمام الجامع في 29 آب 1929 وحض المصلين على الجهاد. وتدخل الميجر فردي ليهدئ روع المتظاهرين فقال: «أيها الإخوان لا تصدقوا الإشاعات، إن اليهود لم يهدموا الحرم بل هاجموه، واستولوا على حائط البراق، لكن حكومتنا لا يمكن أن تسكت على هذا الأمر». ولم يكد الميجر ينهي كلامه حتى جاء أحد العامة وصاح إن المجاهد أحمد طافش قد قتل، فهجمت الجماهير العربية على حي اليهود الواقع في شمالي مدينة صفد، وأشعلوا النار في بيوت اليهود كما أحرقوا دكاكينهم في السوق، وألقى مجهول قنبلة قتلت أربعة من اليهود، وهكذا خلال ساعات ضاع التآخي بين العرب واليهود، الذين جمعهم العيش المشترك منذ مئات السنين.

لكن الحكومة والعقلاء استطاعوا السيطرة على الموقف، وظل بعض شباب صفد في الجبال المحيطة بصفد وشكلوا ميليشيات للمقاومة. وهاجر من مدينة صفد كثير من اليهود بعد أن كان عددهم تسعة آلاف لم يبق منهم سوى ألفي يهودي(64).

حاول الحاخام كاليشر شراء حائط المبكى عام 1850 ولكن السلطان العثماني رفض بيعه. ثم حاول اللورد روتشيلد عام 1903 شراءه من السلطان عبد الحميد، ولكنه فشل في مسعاه، ولكنه اشترى الدور المحيطة بالحرم.

**الصحفي الفلسطيني محمد علي الطاهر صاحب جريدة الشورى**

ولد محمد علي في بلدة نابلس عام 1886 ودرس في نابلس في المدرسة الرشدية ثم انتقل إلى القدس ودرس فيها في المدارس التبشيرية وتعلم اللغة الإنكليزية، وحرر في جريدة (فتى العرب) التي كانت تصدر في بيروت عام 1914، وكان يعمل لها مراسلاً في يافا، وعندما لاحقه جمال باشا السفاح عام 1915، هرب إلى مصر، ولكن السلطات الإنكليزية اعتقلته لمدة سنتين (1915-1916) وبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى عاد إلى فلسطين وصار يكتب في جريدة (سورية الجنوبية) التي كانت تصدر في القدس. وعين مديراً للبريد والتلغراف في بلدة نابلس، وعندما عين هربرت صموئيل لإدارة فلسطين استقال محمد علي من منصبه وعاد إلى مصر ليعمل في التجارة. واستطاع وهو في مصر الحصول على امتياز (جريدة الشورى) وصدر العدد الأول منها عام 1924، وصار شعار الجريدة (جريدة تبحث في شؤون البلاد العربية والأقطار المستعبدة) واستمرت في الصدور وتصدت للاستعمار الإنكليزي في فلسطين وللإرهاب الصهيوني. وفي نهاية عام 1929 على أثر ثورة حائط البراق غيَّر الشعار (جريدة تبحث في شؤون البلاد العربية والشعوب المظلومة). صارت الجريدة تنشر أخبار الدول المقهورة وتتحدث عن الحركة الوطنية وسياسة الدول الاشتراكية وتنشر فظائع الاستعمار الفرنسي في سورية ولبنان وعن مظالم الاستعمار الإنكليزي والصهيوني في فلسطين، وعن نضال الطبقة العاملة الفلسطينية، وتصديها لدسائس الصهيونية. كانت الجريدة تمنع من دخول سورية ولبنان وفلسطين، ولكن الصحفي محمد علي الطاهر كان يحتال في تهريبها بأسماء أخرى.

في عام 1940 اعتقلت السلطات البريطانية محمد علي الطاهر ولكنه هرب من المعتقل في سنة 1941، ثم أفرجت عنه حكومة النحاس باشا عام 1942. واستمرت جريدة الشورى تكتب أخبار الوطن العربي، وعندما أعلن اليهود دولة إسرائيل 1948 انهالت جريدة الشورى في المقالات تكتب عن الحرب العربية - اليهودية، وتهاجم المتخاذلين المتعاونين مع اليهود سراً، مما اضطر إبراهيم عبد الهادي رئيس الوزراء والحاكم العسكري إلى إصدار أمر عام 1949 باعتقال محمد علي الطاهر وأودع في معتقل صحراء السويس وأغلقت جريدة الشورى.

في عام 1955، غادر مصر المناضل الفلسطيني محمد علي الطاهر، صاحب جريدة الشورى، التي عرّت الصهيونية والمتعاونين مع اليهود قبل ثورة 23 تموز عام 1953. ولكن الثورة المصرية لم تسمح لجريدة الشورى بالصدور حسب قانون الصحافة.

وصل الصحفي الثائر محمد علي الطاهر إلى بيروت بعد نضال دام أربعين عاماً، قضاها في المعتقلات والسجون والنفي والمطاردة والإرهاب من أجل فلسطين. توفي في عام 1973 ودفن في نابلس[65].

**جريدة الوطن المصرية**

من الصحف العربية التي هاجمت الصهيونية (جريدة الوطن) أصدرها القس الإنجيلي ميخائيل عيد السيد عام 1878، وكانت في البداية تنطق باسم الطائفة، ولكنها كانت تنقل أخبار اليهود في فلسطين، وتحذر من خطرهم واستمرت في الصدور حتى وفاة القس ميخائيل عام 1901، فاستأنف صدورها تحت رئاسة جندي إبراهيم وهادنت الإنكليز، ووقفت موقفاً مناهضاً للحركة الوطنية. فوصفها أمين الرافعي رئيس جريدة الأخبار بأنها جريدة سياسية احتلالية، وظهرت جريدة مصر للأقباط الأرثوذكس عام 1909، ووقفت إلى جانب الحركة الوطنية ومهاجمة الصهيونية في فلسطين، واستمرت ثلاث سنوات ثم أوقفت عن الصدور. وفجأة تحولت جريدة الوطن إلى جريدة معادية لليهود وللصهيونية، وكان منطلقها قومياً ودينياً، فنالت رضى الجماهير المسيحية والمسلمة، وصورت اليهود بالفئة الضالة، قتلة الأنبياء، وقاتلي الرب يسوع، من أجل هذا حكم عليها الله بالتشرد في أنحاء الأرض، ودعت للوحدة الوطنية بين المسلمين والمسيحيين في فلسطين لمقاومة وعد بلفور 1917، وكانت تنقل أخبار

فلسطين بالتفصيل. قالت عن ثورة البراق: «إنه من المحال أن يتهاون المسلمون والمسيحيون في الحفاظ على أعظم أثر ديني وهو المسجد الأقصى، بتمكين اليهود من انتزاعه والسيطرة عليه، فضلاً عن إبائهم وأنفتهم من أن يخضعوا لفئة قضى الله عليها أن تعيش إلى الأبد مشردة بلا مأوى»[66]. ولشدة مهاجمتها لليهود ولسياسة الاحتلال في فلسطين أغلقها الإنكليز.

**الصحف اليهودية في مصر**

تمتعت مصر بالحرية الدينية منذ بداية حكم محمد علي باشا (1805-1849). وفي عهده نال اليهود حريتهم، وأسس الصحفي اليهودي يعقوب صنوع (1839- 1912) في عهد الخديوي إسماعيل والخديوي توفيق عدة صحف باللغتين العربية والفرنسية، ولكن الصحيفة اليهودية ذات الشأن هي جريدة (الاتحاد) في القاهرة 1924، أسسها الربي يوسف فرج صالح باسم الطائفة القرائية، وكانت هذه الصحيفة معادية للصهيونية منذ البداية، وتنقل أخبارهم تحت عنوان (آخبار أرض الميعاد). وفي عام 1926 تولى تحريرها باروخ منجوني، ولم تعد تكترث بأخبار الصهيونية، واكتفت بأخبار اليهود في مصر، وأخبار اليهود القرائين، وهم فرقة من اليهود معادين لليهود الربانيين (التلموديين) وللصهيونية[67].

**صحيفة الشمس الصهيونية**

أصدر الربي سعد يعقوب المالكي جريدة (الشمس) بالعربية في 4 أيلول 1934. وكانت منذ بداية صدورها تنشر أخبار ونشاط اليهود الصهاينة تحت عنوان (أخبار فلسطين). ولم تكن تهتم بأخبار المجتمع المصري، و لعبت دورها بخبث، بتزعمها حملة ضد الاستعمار الإنكليزي في فلسطين، مما ساعدها على اكتساب أنصار الحركة الوطنية المصرية، وقد أتاح لها ذلك نشر أفكارها الصهيونية والدفاع عنهم بنعومة وخبث وبأسلوب غير مباشر[68]. ولكن لعبت دوراً ثقافياً في نشر وحدة الأديان، ووحدة الفكر اليهودي والإسلامي في نصوص كتاب الزوهر (الضياء) مع كتابات الصوفي الكبير ابن عربي وابن سبعين وابن عطاء السكندري، كان القراء المسلمون يتخاطفونها وتدس لهم أفكار اليهود أمثال موسى بن ميمون ويحيى بن جبيرول وموسى بن عزرا اللاوي، وهم من يهود الأندلس. وكانت كتاباتهم هي من نتاج الثقافة الإسلامية وهي ليست من ثقافة

اليهود الأشكناز (اليهود الغربيين). وكان يقرأها شيوخ الأزهر أمثال الفيلسوف مصطفى عبد الرازق والدكتور طه حسين، والمفكر المصري لطفي السيد. وفي ثنايا الصحيفة كان يكتب عن الحضارة الإسلامية وفلسفة أبي بكر الرازي المستشرق اليهودي بول كراوس (1900- 1944)، وهي في الحقيقة مرتع للفكر الصهيوني آنذاك.

وعندما جاء حاييم وايزمن (1864- 1952) إلى مصر عام 1927، حاولت جريدة (الشمس) تهيئة الوسط لاستقباله في القاهرة، ففشلت لأن اليهود كانوا يرفضون الفكر الصهيوني، باعتباره فكر كافر، ومارق، واستقبل من يهود الإسكندرية الأشكناز، فكتب حاييم في مذكراته: «إن اليهود العرب كانوا ضدنا، وكنا في نظرهم مجموعة من اليهود لنا ماض أجنبي»[69]. نلاحظ أن حاييم وايزمن، يعرِّف يهود الشرق باسم (اليهود العرب).

بعد إعلان الدولة الإسرائيلية عام1948 هاجر كثير من اليهود المصريين ومعظمهم من يهود الأشكناز، واستطاعت الصهيونية تجنيد بعضهم في تنظيم تجسسي كالطبيب اليهودي المصري موسى مرزوق (1926- 1955) كان من يهود القاهرة ومعه صموئيل عزرا من مواليد الإسكندرية (1930- 1955) سافر للدراسة على حساب الجامعة في الإسكندرية حاصلاً على منحة دراسية. ودرس الهندسة في إنكلترا، وأثناء وجوده في الخارج ارتبط بالموساد. وبعد عودته جنَّد معه الطبيب موسى مرزوق، ووضعوا متفجرات في مكتبة المركز الإعلامي في القاهرة وفي منشآت أخرى تابعة للسفارة الأمريكية. وفي الإسكندرية في المركز الثقافي البريطاني. وكانت غايتهما خلق جو من التوتر بين مصر وأمريكا وإنكلترا. ولكن السلطات المصرية قبضت عليهما ومعهما أفراد العصابة الخمسة عشر من يهود ومسلمين وأعدموا عام 1955[70].

## دور الصهيونية في هجرة اليهود العرب

قامت الحركة الصهيونية على الأساطير الدينية، رغم أنها تعلن إيمانها بالعلم، وهي تحاول إقناع الناس بتلك الأساطير الدينية. وتتحدث عن اليهود وكأنهم شعب عريق في تراثه، وتتحدث عن أرض إسرائيل المقدسة، وأنه لا يمكن

إنقاذ اليهود من عبودية الشتات إلا بإرجاعهم إلى وطنهم التاريخي، وفي ذلك تزييف للحقيقة التاريخية، وكانت الصهيونية تسعى لتحقيق هدفين:

الهدف الأول: فرض الأيديولوجيا الصهيونية على أكبر عدد من اليهود في مختلف البلدان.

الهدف الثاني: العمل بشتى السبل على نقل اليهود من البلاد التي يسكنونها إلى ما يسمونه الوطن التاريخي (أرض الميعاد) ثم بدلوا هذا المصطلح (بالوطن القومي) ومن ثم إلى (الدولة الإسرائيلية)[71].

تبلغ مساحة فلسطين حوالي 27 ألف كم2، وكان اليهود الأقلية يعيشون مع العرب في تسامح ومحبة، وكانت الهجرة إلى أرض فلسطين تتم بواسطة (أفكار القبالاة) الصوفية، لأن حلم اليهودي المتدين الموت عند أسوار القدس، وكان بعض المتصوفة يبيعون ما يملكون ويهاجرون إلى أرض الميعاد المقدسة. وكان المهاجرون من العرب اليهود. ولكن منذ منتصف القرن التاسع عشر، تغيرت أهداف الهجرة ودوافعها، والمهاجرون وأصولهم العرقية، وبدأت الجمعيات الصهيونية تشتري الأراضي وتهجِّر إليها اليهود الفقراء وأكثرهم من أوروبا الشرقية. أما اليهود العرب فلهم شأن آخر من الصعب قلعهم ونقلهم إلى فلسطين، وقد وصفهم مسؤول في استيعاب المهاجرين، قال: «إننا نجد أنفسنا مضطرين لسحب المهاجر منهم إلى إسرائيل وكأنه بغل حرون»[72].

كان عدد اليهود في كل فلسطين عام 1850 حوالي (11) ألف نسمة. وأصبحوا في عام 1880، حوالي (24) ألف نسمة، كان ذلك بفضل المنظمات الصهيونية التي صارت تشتري الأراضي وتعطيها لليهود الفقراء. وكانت أول مزرعة أنشأها جويل موسى سالمون مع اثنين من يهود هنغاريا وأسكنها بعض العرب من يهود اليمن وسماها (بتاح تكفا) أي مزرعة الأمل، وكان ذلك عام 1878، ولكن المزرعة فشلت وخاب الأمل، ولكن اللورد الإنكليزي روتشيلد بادر بسرعة واشترى بدلاً منها أراضي (رحوبوت، وحديد وموتسا، وبيرتونيا) وصارت هذه المزارع نواة دولة إسرائيل.

أعظم مزرعة أنشئت في فلسطين هي مزرعة (تل أبيب) أي مزرعة الربيع عام 1909، في ضواحي يافا، وصار عدد سكانها حوالي 13 ألف نسمة عام 1934. ثم زاد عدد سكانها إلى (40) ألف نسمة عام 1925. وكان معظمهم من

اليهود الأشكناز (من بولونيا ومن أوروبا الشرقية). وفي عام 1931 صار عدد اليهود فيها (46) ألف نسمة. وسكنها يهود ألمان. وتضاعف عدد يهود القدس وكان ذلك بفضل ما تقدمه سلطات الانتداب البريطاني لهم من أرض بالغصب والحيلة والقوة والشراء بالقهر.

وبعد قيام الثورة البلشفية عام 1917، وقفت الصهيونية معادية للشيوعية، فكتب فلاديمير لينين (1870- 1924) «إن مناداة الصهيونية بحقهم في فلسطين، بناء على الحق التاريخي يعتبر أمراً متعارضاً مع رغبة الأغلبية العربية التي لها حق تقرير مصير فلسطين»[73]. وقامت الصهيونية بتشكيل تكتل داخل منظمات العمال، فهاجم لينين الصهيونية ووصفها بجوهرها عنصرية رجعية، وصارت تلك السمة ملازمة للصهيونية في الأدبيات الماركسية، ووصفت كذلك في الجمعية العمومية عام 1975.

والسؤال المطروح: **لماذا يفضل اليهود (الأشكناز) الهجرة إلى فلسطين؟** أليست الحياة في أوروبا أفضل؟ الجواب: لا! لقد عاش اليهود في أحياء خاصة (الجيتو) وهي لا تعادل (حارة اليهود) في البلدان الإسلامية. كانت المدينة اليهودية تدعى (الشتتل) يوجد فيها السوق، وورش الحرف والمدسة إلى جوار الكنيس في أزقة ضيقة. ودور متلاصقة. ففي وارسو (بولندا) كان يحق لليهود تنظيم حياتهم الخاصة ويشرف عليهم مجلس منهم، أما في روسيا كان اليهود مراقبون ويمنعون من السكن خارج منطقة الاستيطان، وفي إيطاليا لم يسمح إلا بإقامة صلواتهم في مدينة فيرونا، التي كانوا يقيمون فيها عيد الغفران والفصح، وكانت أعمالهم داخل حاراتهم (الجيتو).

1)الأعمال الخاصة بهم: وهي الأعمال التي تخصهم دون غيرهم، مثل أعمال الحاخامات في كتابة اللفائف (لفائف التوراة) وهناك الطبيب الذي يقوم بالختان (الموهيل) وهناك الجزار (الشاحيط) وهناك القاضي (بيت دين) وهناك حراس المعابد (نطوري كرتا) وحراس المقابر.

2)الأعمال التي تفيد اليهود والأغيار: وتضم أعمال الجزارة، وصناعة الشموع، وصناعة الصباغة ودباغة الجلود، وهناك الصاغة (الذهب والفضة) وتجار الكتب و ناسجي شال الصلاة (الطاليت) وعمال البناء والخزف، وكان الجيتو يسكنه الغني والفقير. وكان لدى اليهود تمايز طبقي واجتماعي حتى

داخل الكنيس. كان الحاخام والفقهاء (الأحبار) يجلسون في المقدمة قرب الحائط الشرقي، ويجلس بالقرب منهم التجار وذوي اليسار أما الحرفيون والفقراء والشحاذون فإنهم بجوار الحائط الغربي[74].

كان اليهود مكروهين في عموم أوروبا، وأكثر الكره لهم عند الألمان، ومنهم ظهرت فكرة العداء للسامية، ففي مدينة فرانكفورت تعيش أربعة آلاف أسرة في (190) منزلاً كبيراً، وفي شارع واحد عرضه (12) قدماً. وكانت البيوت واطئة تستخدم ورشاً في النهار ومكاناً للنوم في المساء، لأنه لم يكن يسمح لهم ببناء منازل جديدة، وكانت الثقافة السائدة هي ثقافة متخلفة، واللغة التي يتكلمون بها (اليديش) وكان الحاخامات يطببون الناس بالرقى والحجب. كان ذل في القرن السابع عشر، ولكن أحوالهم تحسنت حوالي عام 1860، عندما سمح لليهود بمزاولة المهن العلمية (الطب والصيدلة) وبالهجرة إلى أمريكات. فهاجر من يهود روسيا عام 1874 حوالي 1,5 مليون نسمة. وكان اليهودي في بولونيا لا يعرف أي شيء في علم الجغرافيا، ولكن طالب التلمود كما يقول دافيد فرايدلندر «لا يعرف أي شيء عن أحوال البلد الذي يعيش فيه، ويعرف كل شيء عن أرض الميعاد (فلسطين) التي يقضي يومه متشوقاً لرؤيتها»[75].

هذه الأوضاع المزرية هي التي جعلت بسطاء اليهود يصدقون الدعاية الصهيونية فوافقوا على الهجرة إلى فلسطين. وعلى عكسهم كان يهود العراق، كان عددهم عام 1900 حوالي (130) ألف نسمة، وأسس هرون ساسون جمعية اللجنة الصهيونية عام 1919، وكانت جمعية خيرية تجمع التبرعات ليهود فلسطين الفقراء، وقد جمعوا عام 1921، حوالي ربع مليون دولار، واستمرت هذه الجمعية حتى عام 1941.

كانت الجالية اليهودية تتحكم بالحياة الاقتصادية في بغداد، فهم التجار والصيارفة وأصحاب البنوك، ويشعر اليهودي العراقي بأنه عربي واليهودية هي دينه. كتب السفير البريطاني فرنسيس همفري عام 1934: «ليس هناك عداء عرقي أو طائفي بين اليهود والعرب في العراق لأن اليهود يعتبرون أنفسهم من الجنس العربي، ولكن دينهم اليهودية منذ أيام السبي البابلي 586 ق.م». الدليل على صحة هذا التقرير قول أحد المهجرين العراقيين عام 1951: «على الرغم من أننا تركنا ممتلكاتنا خلفنا فإننا أتينا إلى دار الهجرة بالثقافة العربية وهي

شيء كثير، أكثر مما تركناه من أملاك ومال، جلبنا خبرتنا العلمية، وأن أكثر من 80٪ من أرباب الأسر المهاجرة كانوا من الحرفيين المهرة وأصحاب المحلات التجارية والمحامين والأطباء، و الصيادلة والمعلمين، وهذا يدل على أننا لم نكن أقلية مضطهدة، وكان منا ستة أعضاء يهود في البرلمان العراقي».

والسؤال الذي يفرض نفسه: لماذا هاجر يهود العراق إلى فلسطين؟

إن تهجيرهم تم بواسطة تدبير سري بين نوري السعيد وبن غوريون عام 1950، على أن تنزع الجنسية عن يهود العراق ويتم طردهم بواسطة القانون. وهكذا تم إنجاز قانون المؤامرة، تجريد اليهود من الجنسية، ويزج في السجن من يخالف ويصر على البقاء. ومع ذلك لم يهاجر من العراق إلا 120 ألفاً عام 1951 في عمليتي عزرا ونحميا، وبقي في السجن زعماء اليهود حتى قيام الثورة العراقية عام 1958.

كانت الصهيونية تعمل في الخفاء، لإيجاد المبررات لهجرة يهود العراق، ففي عام 1950 في عيد الغفران وفي شهر أيلول بينما كان بعض الشباب اليهودي المثقف يجلسون في مقهى في شارع الرشيد، ألقى مجهول قنبلة وجرح عدداً منهم، وفوراً أعلنت الصحف الإسرائيلية والأمريكية خبر المجزرة التي تدبر لليهود في بغداد، ولكن الحاخام الحكيم ساسون خضوري، نفى الخبر ولم يصدق تلك اللعبة القذرة، وحذر السلطات الإسرائيلية من شر أعمالهم. وطلب منهم أن يتركوهم في وطنهم العراق آمنين.

وبعد عدة أيام تعرف لاجئ فلسطيني من أهل عكا على (يهوذا ناحر) الضابط الصهيوني، وأعلم السلطات العراقية، وقبضوا عليه وعلى عصابته، ومعه (شالوم غزالة) وخمسة عشر آخرين وأعدموهم[77].

كان المهاجرون الأوائل (اليشوف) معظمهم من اليهود الأشكناز، وكانوا متعادلين هم واليهود العرب. كتب المؤرخ اليهودي حاييم هزار (1898- 1973) حواراً على لسان شابين يهوديين من الطلائع (الحالوتسيم) قال أحدهما للآخر: «إنه لا وجود تاريخ يهودي في أوروبا، لأن الشعوب الأخرى هم الذين صنعوا تاريخنا، ولم يكن اليهود إلا ضحاياهم»[78].

استقر اليهود الأشكناز في أرض فلسطين واعتبروا أنفسهم أصحاب البلاد وأنهم ليسوا بمحتلين. كتب الفيلسوف الألماني اليهودي مارتن بوبر (1878-

1965) إلى غاندي: «إن مستوطنينا اليهود لم يأتوا إلى فلسطين، كما يفعل المستعمرون الغربيون الذين يطلبون من أهل البلاد أن يقوموا بكل الأعمال لهم، ومهاجرونا يشدون بأكتافهم المحراث، ويبذلون قوتهم ودمهم من أجل أن تصبح الأرض مثمرة، وإن هذه الأرض تعترف بنا لأنها تثمر من خلالنا»[79].

هذا التصور الصهيوني لأرض الميعاد، بأنها أرض لا شعب لها، وأصبحت بعد العودة لشعب بلا أرض، وأن العرب كانوا منذ مئات السنين قد طردوهم واستولوا على أرضهم وهذا تزوير للتاريخ القديم، وأن اليهود اليوم هم محتلون لأرض فلسطين ولا يمكن نكران ذلك، وقد حاولت في كتابي هذا أن أصور تاريخ اليهود في كل العصور وتبيَّن لي أنه لا حق تاريخي لهم في فلسطين.

**إعلان دولة إسرائيل عام 1948**

كانت الأرض التي يود الصهاينة إقامة دولة إسرائيل عليها، محل تنازع بين الفصائل الصهيونية، بعضهم طرح أوغندا وبعضهم طرح قبرص، وبعضهم طرح سيناء، وآخرون طرحوا الأرجنتين، ولكن الحاخام مناحم يوستشكين عقد مؤتمراً للصهاينة الروس عام 1907 وحدد فيه أنه يجب أن تكون أرض العودة هي أرض فلسطين. للأسباب التالية:

1)لأن مناخ وطقس فلسطين هو الأكثر مناسبة لقيام الزراعة، والعمل اليدوي فيه دون صعوبة.

2)لأن أهل فلسطين قليلو السكان، وأرض فلسطين قادرة على استيعاب ملايين المهاجرين.

3)لفلسطين جاذبية لدى الشعب اليهودي. فاليهود يعتقدون أن لهم رسالة ولا بد من إتمامها على مر السنين، وهي استعادة حقهم في أرض الميعاد[80].

وهذه الدعاوى من الأسباب التي برر فيها هرتزل قيام دولة إسرائيل في أرض فلسطين ومما كتبه إلى الاستعماري البريطاني سيسيل رودوس: «على الصهاينة أن يقيموا دولتهم في فلسطين لتكون نقطة متقدمة للحضارة الغربية، لمواجهة البربرية الإسلامية، وأن تكون جزءاً من متراس قلعة أوروبا ضد آسيا التركية»[81].

اليهود الأشكناز يجهلون صلة اليهود العرب بالحضارة العربية الإسلامية، وما قدمه اليهود في الأندلس للحضارة الأوروبية بترجمتهم العلوم والفلسفات العربية.

وبعد قيام الاتحاد السوفييتي رأى أساطين الاستعمار الغربي فائدة لليهود، وذلك في تفكيك المجتمع الشيوعي. كتب ونستون تشرشل (وزير القوات البريطانية البرية والبحرية): «إنه يعتبر الصهيونية رداً على الشيوعية العالمية، لذا يجب أن تأخذ بلب الشعب اليهودي»[82].

أصبحت إسرائيل في نظر الغرب، قلعة الإمبريالية المتقدمة في غرب آسيا. وأصبحت أمريكا تعتبر أمنها جزءاً من الأمن الأمريكي. من أجل هذا احتلت العراق عام 2003، وتحاول منع إيران من امتلاك برنامجاً سلمياً للطاقة النووية، وإخراج سورية من لبنان بغية تجريد المقاومة اللبنانية من سلاحها. وهذه هي أهداف الصهيونية تجاه العرب.

وعندما أعلنت دولة إسرائيل وجودها في 15 آذار 1948، لخص وزير ثقافتها الدكتور دينور Dinor (دكتوراه في التاريخ) برنامجها السياسي المستقبلي: «في بلادنا لا يوجد مكان إلا لليهود فقط، وسنقول للعرب تنحوا، وإذا لم يوافقوا سنجبرهم بالقوة على الرحيل»[83].

قامت الحرب بين العرب واليهود عام 1948، وقد حسم الأمر خلال شهرين، لأن اليهود كانوا مستعدين، ومتحضرين لقتال العرب. قاتلوا العرب بخبرة وحنكة وعقيدة صهيونية، قال عنها الدكتور هيثم الكيلاني، الخبير بالمذهب العسكري الإسرائيلي: «ما يزال المذهب العسكري الإسرائيلي يتابع التنقيب عن أصوله وجذوره في التاريخ اليهودي، والديانة اليهودية (التوراة) وحياة اليهود منذ أكثر من ألفي عام، حتى عصرنا الحاضر، وذلك أن المذهب يحمل في طياته وأسسه القيم والمفاهيم التي اقتنتها اليهودية ويتضمنها اليهودي طيلة هذه القرون، ويتسم المذهب العسكري الإسرائيلي بتبنيه لتعاليم الدين اليهودي فيما يتعلق بشؤون القتال والأمور المعنوية، ويلقن الجيش رجال مختصون بالتاريخ العسكري لليهود، الذي هو استمرار لمبادئ موسى وشاؤول وداود ويشوع ونحميا، وهم القادة لعسكريون القدامى»[84]. الذين لا تعرف قلوبهم الرحمة على أعدائهم، لا يرحمون حتى يحتلون البلد كله، ويقتلون الشيخ والطفل والمرأة والرجل وحتى الحيوانات المفيدة. وهذا ما ذكره مناحم بيغن عام 1973 حين وجه جيشه للقتال: «أنتم أيها الإسرائيليون، يجب ألا تبدوا تسامحاً عندما تقاتلون أعداءكم، ويجب ألا تشعروا نحوهم بأية شفقة، وما زلنا لم نقض تماماً على ما يسمى بالثقافة العربية التي سنبني على أنقاضها حضارتنا الخاصة»[85].

لم يفرق مناحم بيغن بين محاربة العرب، وإبادتهم جسدياً، وإبادة الثقافة العربية ورواسبها في الثقافة اليهودية، التي لا يمكن فصلها عن الثقافة العربية. بينما لا يمكن فصل الثقافة اليهودية (الأشكناز) عن الثقافة الغربية، فاليهود الغربيون الذين يدعون أنهم ضحايا النازية، لا زالوا يمارسون أساليب النازية في سلوكهم. في حديث جرى بين ماكسويل هيلسوب (نائب حزب المحافظين في البرلمان الإنكليزي) مع الدكتور حاقونين (نائب حزب العمل الإسرائيلي) قال له: «دكتور حاقونين إن حديثكم عن العرب يثيرني، فبهذه العبارات نفسها تحدث يوليوس شتريخر النازي عن اليهود. هل من المعقول أنكم لم تتعلموا شيئاً؟ فأجابه: ولكنهم ليسوا بشراً، إنهم عرب»[86]. هذه هي العنصرية التي وصف بها لينين الصهيونية بأنها في جوهريها رجعية عنصرية.

إن الصهاينة يتحدثون للغرب عن الديمقراطية وحرية الشعوب، وأنهم يتخذون مثلهم الأعلى من التوراة، وهم في الحقيقة لا يؤمنون بالتوراة ولا إيمان لهم إلا بتحقيق مصلحتهم التي تعني فناء الآخر.

حدد المفكر الصهيوني يعقوب سيركين (1882- 1948) معتقد الإنسان الصهيوني وسلوكه بقوله: «أن تكون صهيونياً، لا يعني اعتناق الدين اليهودي والقبول بالمعتقد الأخلاقي، إننا لسنا طائفة، ولا مدرسة فكرية، بل عائلة واحدة لنا تاريخ مشترك، إن تعاليم الديانة اليهودية لا تضع الفرد خارج الجماعة، كما أن قبولها لا يجعل الشخص يهودياً، وباختصار ليس من الضروري أن يؤمن الفرد اليهودي بالنظرة الروحية العامة لليهود لكي يصبح جزءاً من الأمة»[87]. نعم هذه هي العقيدة الصهيونية. إن ما يهمها من الدين، ما يساعدها على العمل السياسي، بل لقد وصف تيودور هرتزل الدين بالسماد الطبيعي (الزبل) «إنه السماد الثمين الذي يخصِّب البذرة الغالية للقومية، ويحميها ويساعدها على التحام الفرد مع الأمة». وكان الزعيم الصهيوني بن غوريون صريحاً جداً تجاه الدين، الذي استخلص منه فكرة أرض فلسطين المقدسة وبرنامجه السياسي وقرر حدود دولته مسترشداً بمفاهيم العهد القديم التي لا يؤمن بها - هو نفسه - لأنه ملحد. ولكنه كان يتقبلها كأساطير شعبية يهودية. وحاول جون لافين تحديد العقلية الإسرائيلية بين الدين والدولة، من خلال زعماء الصهيونية وحددها في أربعة اتجاهات:

1)الدولة يمكنها أن تكون معارضة للدين.

2)والدولة يمكنها أن تتخذ موقفاً محايداً إزاء الدين.

3)ويمكن للدولة أن تشجع الدين.

4)والدولة حين تفرض الدين من أجل توظيفه سياسياً، وهذا هو الموقف السائد الآن في إسرائيل.

ترى دولة إسرائيل أن واجب الدولة فرض قواعد القانون الديني في أمور منها عدم تحول الفرد من عقيدة إلى أخرى، والزواج والطلاق، وعلى مستوى ثقافي أوسع من حيث علاقتها بالتقاليد، ومدى الحرية والتجديد في تفسير هذه التقاليد الثقافية»[88].

إن الرئيس بن غوريون (1886- 1973) بعد عام 1967، قابل موجة من الدين ترى في النصر السريع الذي قامت به إسرائيل في حرب الأيام الستة، أنه معجزة إلهية، فرد عليهم بن غوريون: «على اليهودي من الآن فصاعداً، أن لا ينتظر التدخل الإلهي لتحديد مصيره، بل عليه أن يلجأ إلى الوسائل الطبيعية العادية (الفانتوم والنابالم) وأن الجيش الإسرائيلي هو خير مفسِّر للتوراة»[89].

كان الصهاينة العلمانيون قبل إعلان الدولة يجهرون بإلحادهم ويدعون إلى ثقافة صهيونية جديدة. كتب الفيلسوف أحدهاعام (1856- 1927) صاحب نظرية (الصهيونية الثقافية): «إن اليهودي غير المؤمن هو الآخر يهودي قومي، وليست علاقته بالكتاب المقدس علاقة أدبية فقط بل أدبية وقومية، إن الإحساس الداخلي الذي يربطه بالعهد القديم، هو إحساس اقتراب خاص مغلف بالقداسة، أي إحساس تخرج منه آلاف الأوتار الدقيقة التي تأخذ في الاستمرار من عصر لآخر، حتى أعماق الماضي البعيد»[90]. وحاول منظرو الثقافة اليهودي أن يقولوا بأن اليهودي ليس كالعبري الذي ولد وتربى في فلسطين أو تربى وعاش في البلاد العربية، ويطلق عليهم (السفاراديم) وهكذا فالأمة لا يمكن أن تنظر إلى أبنائها على أنهم طوائف مختلفة[91].

وظهرت الحركة الكنعانية، وهي نظرة المسيحاني الخاصة، وقد أطلقها الشاعر أبراهام شلوتسكي (1900- 1973) الذي قال بسخرية أخذنا اسم الحركة من سفر التكوين 'ملعون كنعان عبد العبيد يكون لأخوته' (التكوين 9: 25). كانت صرخة شلوتسكي في وجه اليهود الأشكناز الذي بدوا له أنهم

يستغلون اليهود السفاراديم، فحدد أركان الحركة الكنعانية بمبدأين أساسيين هما:

1)الدولة هي أساس الأمة: ولا خلاف بين الصهيونية والكنعانية إلا في رؤية الحركة الكنعانية، التي ترى بأن الشعب اليهودي غير صالح لتكوين دولة لأنه ليس شعباً بل جماعات.

2)إن حجم وقوة الدولة، يجب أن يكونا كافيين للقيام بنشاط ذي صفة استقلالية، وأنه لا توجد في الشرق الأوسط إلا الدولة القطرية التي ستكون معبراً للدولة الكبرى، ولن تكون ذات استقلالية سياسياً.

بعد قيام إسرائيل، بدأ صراع بين الطوائف اليهودية المختلفة داخل إسرائيل، من هنا نرى مبررات الزعيم الصهيوني شمعون بيرس يقدم مشروع الشرق أوسطية عام 1995، للتخلص من الدولة القطرية، وطالب أن تصبح دولة إسرائيل داخل اتحاد عربي فدرالي، وبذلك يصدِّر الصراع الداخلي من داخل إسرائيل نحو الخارج.

**الصراع الثقافي داخل المجتمع الإسرائيلي**

ظهر داخل الحركة الصهيونية تياران متناقضان، ولكنهما يعملان من أجل دولة إسرائيل:

1)حزب اليسار والعمل: كان مفكره روف بيريوروخوف (1881- 1917) زعيم عمال بولوني الأصل. وهو يميل إلى الاعتدال. ويفضل العمل السياسي، بدلاً من العنف والتشدد.

2)حزب اليمين المتطرف: وكان مفكره فلاديمير جابوتنسكي (1880- 1940) كان صهيونياً متشدداً، قاد عصابات الشتيرن. يميل إلى العنف والتطرف.

وقد استقطب هذان الفيلسوفان اليهود قبل ظهور الدولة وكانا يؤمنان بقيام الدولة الإسرائيلية. وعارضهما الفيلسوف اليهودي أراتوس عام 1944 (الأب الروحي للحركة الكنعانية) وهو مؤرخ كبير، يؤمن بحركة التويرية (المسكيلم) وكتب: «إن الدولة الإسرائيلية التي تريدون إعلانها، لن تكون دولة يهودية، ولن تكون دولة عبرية، إلا أن اليهود ليسوا بحاجة إلى دولة لأسباب عديدة:

-إن وطن اليهود هو الشتات وقوتهم تكمن فيه.

-إن أي شكل تركيبي بين اليهودية والإطار الرسمي للدولة سيكون محكوماً عليه بالفشل والدمار لهذه الدولة خلال فترة قصيرة»[92].

**لماذا ترى الحركة الكنعانية أن الدولة الإسرائيلية مصيرها الفشل؟**

استندت الحركة الكنعانية على فرضين:

الفرض الأول: خاص بالعلاقة بين التراث العبري واليهودية.

الفرض الثاني: استحالة فرض اللغة والثقافة العبرية على المنطقة الجغرافية (الهلال الخصيب) التي يفترض الكنعانيون قيام دولة إسرائيل الكبرى على أرضها. وقد رد بن غوريون على الدعوة الكنعانية بقوله: «لا يهم إن كان الوعد الإلهي بمنح أرض كنعان حقيقة أم أسطورة، مغروسة في الوجدان اليهودي، يجب أن تبقى سارية المفعول، حتى بعد أن يثبت أن الوعد المقطوع هو مجرد أسطورة شعبية ليس لها أي مصدر إلهي»[93].

عندما طرح حاييم وايزمن المشكلة التالية: كيف يصبح اليهودي مواطناً في دولة غير يهودية، ويظل ابناً باراً للشعب الإسرائيلي المقدس؟ أفتى بجواز ذلك أن يبقى في الولايات المتحدة، ويكون عوناً لدولته في إسرائيل، لأن أمريكا هي الأم لدولة إسرائيل.

اختلف فقهاء الحركة الصهيونية حول تسمية الدولة عام 1947 وفي النهاية فضلوا تسمية (دولة إسرائيل) عن تسميتها (بالدولة العبرية أو اليهودية) للأسباب التالية:

1)اسم الدولة القديم في كل إسرائيل هي مملكة إسرائيل.

2)إيثار الصفة العرقية الكامنة في اسم إسرائيل على الصفة الدينية في لفظة اليهود.

3)عدم تذكير الشباب بالجذور القديمة لمملكة يهودا البائدة التي تقوم على القسم الجنوبي من مملكة إسرائيل.

وظهر مثقفان في دولة إسرائيل، المواطن ذو الأصول الشرقية (السفاراديم) والمواطن ذو الأصول الغربية (الأشكناز). كتب المفكر اليهودي العراقي شمعون البلاص: «إن اصطلاح (الصبار) هو تجسيد للإسرائيلي الجميل ذو الأصول الغربية، وهو يختلف عن اليهودي العربي أو الشرقي القبيح وإن ولد في دولة إسرائيل، والذي ينبغي التصرف معه بازدراء»[94]. في هذا النص تعبير عن مرارة

وحقد دفين بين اليهود الغربيين واليهود الشرقيين الذين سماهم حاييم وايزمن (باليهود العرب).

قام معهد جالوب بدراسة الفجوة بين اليهود الشرقيين واليهود الغربيين، قامت بالبحث الدكتورة ماجن شاريت في شهر تموز عام 1960 ونشرت النتيجة في جريدة دافار (الملحق الأسبوعي)، والنتائج كما يلي:

والسؤال المطروح: هل هناك فجوة طائفية بين اليهود؟

69٪ أجابوا نعم، إنه يوجد فجوة طائفية.

39٪ وصفوا الرجل المثقف هو الأشكنازي الأصل (الصبَّار).

3٪ وصفوا الرجل المثقف هو اليهودي الشرقي (السفاراديم).

36٪ وصفوا الرجل الشرقي بالعنف.

43٪ وصفوا الرجل الهائج دائماً باليهودي الشرقي.

79٪ من الأشكناز فضلوا جاراً أشكنازياً.

87٪ من الأمهات الأشكنازيات فضلن زوجاً أشكنازياً لبناتهن.

72٪ من الأمهات الشرقيات فضلن زوجاً شرقياً لبناتهن.

84٪ من الأشكناز أكدوا أنهم لم يعانوا من أي نوع من التمييز الطائفي.

16٪ من السفاراديم أكدوا أنهم يشعرون بالظلم الطائفي.

وقد علق الباحث اليهودي العراقي سامي سموحة على التفاوت الثقافي في المجتمع الإسرائيلي بقوله: «يجب اتباع عملية سحق للتسيّد الطائفي لكي يصبح اليهود والعرب والأشكناز متساوين وشركاء في السلطة السياسية والثقافية في المجتمع الإسرائيلي»[95].

وكان التيار العلماني في إسرائيل متشابهاً سواء أكانوا أشكنازاً أو سفاراديم. وصف الدكتور أليعيزر شفايد نفسه «بأنه يهودي علماني، وأن الدين يخاطب قلبي، ولكني لست ديّناً يرى نفسه ملزماً بتنفيذ الفرائض الواردة في كتاب شولحان عاروخ (المائدة المنضودة) وإني أضع الطاقية على رأسي في أيام السبت والأعياد، وأصوم في عيد الغفران، وأقضي ساعات ذلك اليوم في الكنيس، ولا أدخن في يوم السبت، أو في عيد الغفران، ولا آكل لحم الخنزير»[96].

ولكن هناك العلماني الذي لا يرتبط بالطقوس الدينية فحسب بل بالتفكير الاجتماعي والقومي، كالأديب المغربي بوعز عفرون الذي قال في كتابه الحساب

القومي: «لا يوجد ما يسمى بالشعب اليهودي في ماضي التاريخ، لأن اليهود كانوا دائماً يتخذون وضع الطائفة المنغلقة على نفسها طوال تاريخهم، وأن الأساس الديني والوضع الاجتماعي لا يؤدي إلى تكوين قومي طبيعي، وأن اليهود طيلة آلاف السنين من الشتات يبنون لأنفسهم طرقاً خاصة بهم، ولم يجربوا في يوم ما حياة مستقلة خاصة بهم، وكانوا سادة أنفسهم، بل كانوا مقهورين ويشكرون الله لأنه اختارهم واصطفاهم وهم صابرون في انتظار (المسيح المخلص) ومتمسكين بدين متحجر، دون أن يحاولوا العودة إلى فلسطين جيلاً بعد جيل رغم كل معاناة الحياة في الشتات»[97]. وللعلم، فإن عدد اليهود من شمال أفريقيا أكثر من 900 ألف، لا زالوا يحافظون على عاداتهم المغربية وتراثهم، وهم يرفضون الزواج من اليهوديات والأشكنازيات ويعتبرون ملكهم هو الملك محمد السادس، وفي إسرائيل ست ساحات باسم الملك المرحوم الحسن الثاني.

وظهرت العلمانية عند الأديب اليهودي السوري الأصل أنطوان شماس، عن طريق عدائه السافر للصهيونية، وأعلن أنه غير مرتبط بدين أو بعرق بل بقانون الدولة الإسرائيلية والهوية الإسرائيلية: «في نظري هي عبارة عن ضرورة تبين هوية المواطن في دولة إسرائيل». وهو إذ يطلب من وزارة الداخلية أن تكتب له بطاقة أنه إسرائيلي لديه اعتقاد جازم بالأمور التالية:

1)إن الصهيونية كحركة قومية قد انتهت مهمتها مع إقامة دولة إسرائيل.

2)إن كل من يعيش داخل الخط الأخضر، هو مواطن في دولة إسرائيل ويجب أن يوصف بأنه إسرائيلي.

3)إن قانون العودة لليهود فقط هو قانون عنصري، وقد حان الوقت لتحويله أو تغييره إلى قانون هجرة عادي كما هو متبع في العالم الغربي.

4)يجب أن يكون كل الإسرائيليين (اليهود والعرب) متساوين في الحقوق والواجبات.

5)إن دولة إسرائيل اليوم ليست بالدولة الديمقراطية حيث الاحتلال بعد عام 1967 والاحتلال والديمقراطية لا يلتقيان.

6)إن كل ما سبق من بنود يتحقق عندما تعود إسرائيل إلى حدود دولة إسرائيل قبل عام 1967[98].

أما المؤرخ اليهودي العراقي الأصل إيلان فافا (من المؤرخين المحدثين) فقد نقد جوهر الدولة في إسرائيل، وقال عنه إنه غير عادل، ولكي تكون إسرائيل

دولة لجميع مواطنيها، يجب ألا يكون هناك وجود لطابعها اليهودي لأن على الدولة الديمقراطية ألا تعكس أيديولوجيا، بل صورة موقف (اجتماعي – ثقافي) وإن غالبية اليهود والعرب في إسرائيل يريدون استقلالاً ذاتياً وثقافياً، وعلى الدولة الاستجابة لهذا المطلب، بدلاً من المخاطرة السياسية في المستقبل. ويقارن بين حالة اليهود العرب واليهود الروس الذين وصل عددهم حوالي 800 ألف نسمة عام 1996، وقد أتيحت لهم كل وسائل الثقافة باللغة الروسية، وعلى عكسهم اليهود العرب الذين لغتهم الأم هي اللغة العربية وليست اللغة العبرية ولكن اللغة العربية اجتثت بالقوة حين وصولهم وتحولت لغتهم العربية إلى لغة المخابرات الإسرائيلية[99].

وتصور المفكر العراقي شلومو الباز، أن مستقبل إسرائيل هو بإعادة مجد الشرق العربي، قال: «نحن لا نريد أن نكون متطفلين على الصهيونية، ونحن نعتقد أننا الرؤيا الجديدة لمستقبل إسرائيل، إننا مركز التطور ولسنا في محيطه الخارجي، وإننا نريد أن نعيد مجد الشرق الذي فقد قيمته، وكما أشار دانيال جفرون إلى أن الحركة الجديدة تمثل الهجرة الجماعية في الخمسينيات لليهود العرب التي صارت تجد صوتها مسموعاً اليوم»[100].

## الصراع الديني والعلماني داخل إسرائيل

بعد حرب الأيام الستة عام 1967، ظهر شعور ديني قوي عند اليهود المتدينين، وعزوا انتصارهم السريع إلى العناية الإلهية التي ساعدت اليهود (الحريديم) لأنهم شعب الله المختار الذي نصرهم على العرب العماليق أتباع جالوت. وزاد إنتاج الأفكار القديمة حول الخلاص المسيحاني، وتكرس الوعد الإلهي في أرض الميعاد، وظهرت أفكار يهودية أصولية تنادي بقتل العرب الفلسطينيين، أبناء العماليق أعداء الرب، الذي أمر بإبادتهم، وكثرت الصلوات في أيام السبت، وزيارة قبور الموتى، وحائط المبكى، وقوي اليمين الصهيوني وتراجع اليسار العلماني، وظهرت حركة كاخ، التي يقودها الحاخام المتطرف كاهانا الذي اغتيل في نيويورك عام 1991.

وعلى أثر زيارة الرئيس أنور السادات لإسرائيل عام 1978 حدثت ثورة في الوعي الإسرائيلي وتساقطت أسطورة الأخيار، وقامت حركة يسارية (السلام

الآن) التي عقدت مع أعضاء منظمة التحرير الفلسطينية اجتماعاً في تموز عام 1986 برعاية معهد كارل رينر في فيينا وظهرت المقررات التالية:

1)يجب أن يسود السلام منطقة الشرق الأوسط، وأن تتمتع شعوب المنطقة كلها بالحقوق المتساوية، والاعتراف المتبادل بين دولة إسرائيل ودولة فلسطين.

2)يجب أن تضع التسوية نهاية للاحتلال الإسرائيلي، الذي ترتب على حرب 1967.

3)يجب أن تتضمن التسوية حلاً لمشكلة اللاجئين الفلسطينيين من جميع وجوهها.

4)يجب أن تحل كل الخلافات من خلال المفاوضات بين حكومة إسرائيل ومنظمة التحرير بهدف التوصل إلى حل جذري، يتضمن حقوق شعوب المنطقة في العيش الآمن داخل حدود معترف بها، وعدم اللجوء إلى العنف في حل الخلافات.

5)يجب أن تتم المفاوضات بين الأطراف في إطار مؤتمر دولي للسلام.

كان هذا المؤتمر نقطة تحول في التفكير الصهيوني، وقام إسحق رابين في مفاوضات للسلام مع سورية ولكن اليمين الديني المتطرف اغتاله.

## الإرهابي اليمني إيجال عمير

صار الأصوليون اليهود يشيعون في الأوساط الدينية المتخلفة، أن اليسار الصهيوني كافر لا يؤمن بالله، ويقال إن الحاخامين رابينوفيتش الروسي من مستوطنة (معالة أدونيم) والحاخام البولوني لينور من مستوطنة (كريات أربع) قد أفتيا للشاب اليمني إيجال عمير بأن رابين رجل كافر لأنه يريد إعطاء وطن اليهود للعرب السوريين، وأنهما يبحثان عن أداة إلهية لتنفيذ إرادة الرب، فكان هذا الشاب.

كانت الجالية اليمنية عربية الأصول، ولكنها ظلت متخلفة ثقافياً خلال مئات السنين، قال برل لوكر رئيس إدارة الوكالة اليهودية للسياسي الأمريكي اليهودي هنري مور في تشرين أول عام 1948: «لِمَ جئنا بهؤلاء اليهود اليمنيين المتخلفين؟ فأجابه: نعتقد أن اليهود الشرقيين، واليمنيين منهم خاصة، سيساهمون بنصيب

كبير للغاية في عملية بناء البلاد، وعلينا جلبهم لإنقاذهم من جهة، وللفوز بهذه المادة البشرية المطلوبة لبناء البلاد»[101].

درس إيجال (عقل) عمير في جامعة برايلان الدينية في القدس، وكان من المتصوفة المهووسين، اشترك بالحشد الاحتفالي الذي أقيم في تشرين ثاني 1995، في ساحة الملوك في تل أبيب. وكان العدد يفوق (200) ألف نسمة، واشيعت في المظاهرة أن إسحق رابين كافر ويجب أن يموت، لأنه سلّم الأراضي التوراتية للعماليق، الذين يستحقون الإبادة والطرد، من أرض إسرائيل. وكان بين الحشد الشاب المهووس دينياً إيجال عمير. وفي 4 تشرين ثاني عام 1995 قتل إسحق رابين بعد أن أطلق عليه ثلاث رصاصات[102].

قال إيجال عمير أثناء التحقيق إن الرب كان معه عندما قتل رابين. ولكن المحقق رد عليه: إن الدين اليهودي يمنع قتل النفس البشرية، فأجابه إيجال: إن إنقاذ نفوس البشرية باغتيال رابين، وما فعله لا يتعدى أفعال الأحبار الأوائل الذين اجتاحوا أرض فلسطين في عهد التوراة وقتلوا الشيوخ والنساء والأطفال الرضع، وتابع اقواله: إنه استفتى حاخامين، فأحلا له دم رابين. وعندما سأله المحقق عن اسميهما، لم يصرح بهما. ثم قابله الصحفي باروخ ميخال في السجن وكتب عنه في جريدة يديعوت أحرونوت: «لقد أطلق هذا القاتل المتطرف الرصاص من خلال اعتقاد ديني راسخ بأنه ينفذ رغبة أجداده في السماء، وأنه قاتل مقدس صاحب رسالة، يقتل من أجل السماء»[103]. وهذه نظرة كل إرهابي متدين.

وهكذا نرى أن الفكر الديني الأصولي، يخلق القتلة في أي دين. لقد أعلن رئيس حسيدية (حبد) في فلوريدا أن رئيس الوزراء إسحق رابين هو بمنزلة العدو، ولذلك يحق عليه مبدأ (من يتقدم لقتلك إسبق واقتله)[104]. هذه الحادثة المفردة كشفت عن عمق الصراع الثقافي بين العلمانية والدينية. وفي الحقيقة عبرت عن وجود تفاوت حضاري واجتماعي بين طائفتين مختلفتين (السفاراد والأشكناز)، وما هو آت في المستقبل أعظم.

**قصارى القول:**

هـذا الكتـاب أرختُ فيـه تـلازم العـرب والإسـلام واليـهود. كتبتـه دون أحكـام مسبّقة، لكي تكون النتائج محايدة، واعتمدت على الوثائق دون توجيهها ومحاولـة تفسيرها تفسيراً منحـازاً، وأملـي أن اصـل إلـى قناعـات مرضيـة لعقـل القـارئ الكريم، لأن الكتاب كتب له.

تم بعون الله وحمده.

**محمد عبد الحميد الحمد**

**الرقة 25/ 9/ 2005**

## مراجع المدخل : اليهود والصهيونية وتكوُّن دولة إسرائيل


(1) كيف نفهم اليهود ص11، حسين مؤنس، كتابك، دار المعارف القاهرة، 1978.

(2) تاريخ اليهود ص468، سولومون جرايزل، نيويورك، 1968، (بالإنكليزية).

(3) الملل والمعاصرة في الدين اليهودي ص60، إسماعيل راجي الفاروقي، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، 1963.

(4) تاريخ اليهود ص505.

(5) تطور خصائص اللغة العبرية ص13، رشاد عبد الله الشامي، دار نشر سعيد رأفت، القاهرة.

(6) كتاب الأغاني لأبي فرج الأصفهاني ج1، ص105، دار الثقافة، بيروت.

(7) كيف نفهم اليهود ص17.

(8) الاستشراق ص268، إدوارد سعيد، بيروت 1982.

(9) التاريخ الاجتماعي لليهود في إنكلترا ص17، دافيد ليبمان، لندن 1954.

(10) إشكالية الهوية في إسرائيل ص194– 195 دانيال جفرون، القدس 1985.

(11) الإسرائيليون الأوائل ص163، توم سيجيف القدس 1984.

(12) عاموس عوز، في أرض إسرائيل، عرض وتلخيص ضياء الحاجري مجلة المصور، القاهرة شباط 1984.

(13) نظام الحكم في إسرائيل في الجيل القادم، ص24، سامي سموحة، القدس 1984.

(14) العلمانية على الطراز الإسرائيلي ص16، صحيفة يديعوت أحرونوت، ملحق عيد الغفران في 22 أيلول 1996.

(15) الموسوعة الفلسطينية، ج1، ص566، دمشق 1984.

(16) المصدر السابق ج1، ص565.

(17) المجتمع العربي في العصور الوسطى ص43، إدوارد ليـــن ترجمة علي حسني الخربوطلي كتب ثقافية القاهرة 1960.

(18) القوى الدينية في إسرائيل ص251- 252، رشـــاد عبـد الله الشامي، عالم المعرفة الكويت 1994.

(19) تاريخ العرقية الصهيونية (الجذور والمواقف) ص23، أديـب ديمتري دار الثقافة الجديدة، القاهرة 1988.

(20) الصهيونية السياسية (انتقـــادات يهوديـــة) ص217، غـــازي سميث المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت 1979.

(21) فلسطين جريمة ودفاع ص33، أرنولد توينبي، تعريب عمــر الديراوي دار العلم للملايين، بيروت 1981.

(22) القوى الدينية في إسرائيل ص49.

(23) المجتمع العربي في العصور الوسطى ص28.

(24) الصهيونية غير اليهودية ص42، ريجينا الشــريف، ترجمــة أحمد عبد الله عبد العزيز، عالم المعرفة، الكويت 1985.

(25) موسوعة المفاهيم والاصطلاحات الصهيونية ص393، عبــد الوهاب المسيري، مركز الدراسات الاستراتيجية، مؤسسة الأهرام، القـــاهرة 1975.

(26) المشنا ركن التلمود الأول ص225، حمدي النوباني القــــدس 1987.

(27) اليهود تاريخاً وعقيدة ص161، كامل ســـعفان، دار الــهلال القاهرة، 1968.

(28) الصهيونية غير اليهودية ص79.

(29) المصدر السابق ص79.

(30) الموسوعة الفلسطينية ج1، ص382.

(31) إسرائيل والفكرة الصهيونية ص14، روفائيل باتـــاي، كتــب سياسية القاهرة 1957.

(32) المصدر السابق، ص21.

(33) الصهيونية غير اليهودية ص55.

(34) المصدر السابق ص60.
(35) المصدر السابق ص63.
(36) المصدر السابق ص80.
(37) المصدر السابق ص91.
(38) مكتب وزارة الخارجية، السجل العام 38/ 39 رقم 134 في 11 أيار 1840.
(39) المصدر السابق السجل العام 78/ 427 رقم 38 في 17 شباط 1841.
(40) كيف نفهم اليهود ص35.
(41) روما والقدس ص149، موسى هس، نيويورك 1918 (بالإنكليزية).
(42) الأيديولوجية الصهيونية ص135 عبد الوهاب المسيري عالم المعرفة الكويت 1982.
(43) تاريخ اليهود في العصر الحديث ص332، سيسيل رمف نيويورك 1970. (بالإنكليزية).
(44) أدبنا الحديث استمرار أم ثورة ص273، باروخ كورتسفيل دار نشر شوكن تل أبيب 1973.
(45) وزارة الخارجية الأمريكية، وثائق روبرت لانسنغ (1914-1920) مجلد 2 ص71، واشنطن 1940.
(46) مذكراتي في مؤتمر باريس ج4، ص87، دافيد ميلر، نيويورك 1924 (بالإنكليزية).
(47) الصهيونية غير اليهودية ص237.
(48) التاريخ الاجتماعي لليهود في إنكلترا، ص14، دافيد ليبمان لندن 1954.
(49) شيكاغو تريبيون، وليم فاف في 30/ 6/ 1982.
(50) الفكرة الصهيونية ص26 آرثر هرتبرغ ترجمة أسعد رزق بيروت 1971.
(51) الأيديولوجيا الصهيونية ص115- 116 عبد الوهاب المسيري عالم المعرفة الكويت 1982.

(52) الملل المعاصرة في الدين اليهودي ص87، إسماعيل راجـــي الفاروقي معهد البحوث والدراسات العربية في القاهرة 1963.

(53) الفكرة الصهيونية ص133.

(54) إسرائيل والفكرة الصهيونية ص5، رفـــائيل باتــاي، كتــب سياسية، القاهرة 1957.

(55) التحريـــر الذاتـــي ص45، ليـــون بنســكر لنـــــدن 1932، (بالإنكليزية).

(56) القوى الدينية في إسرائيل ص20، رشاد عبـــد الله الشــامي، عالم المعرفة، الكويت، 1994.

(57) الأيديولوجيا الصهيونية ص15.

(58) المسألة اليهودية ص155، أبراهـــام ليـــون، ترجمـــة عمـــاد نويهض، دار الطليعة، بيروت 1969.

(59) الفكر السياسي العربي في العصر الحديث، ص174، منـــير مشابك، مكتبة السائح طرابلس لبنان 1995.

(60) جريدة المقطم القاهرة في 27 شباط 1924.

(61) بذور القضة الفلسطينية ص252، إميل تومـــا، دار الفـــارابي بيروت 1973.

(62) جريدة الأهرام، القاهرة، 26 آب 1934.

(63) الموسوعة الفلسطينية ج3، ص229- 230، دمشق 1984.

(64) صفد في التاريخ ص43، محمود العابدي، عمان، 1977.

(65) مصر وفلسطين ص156- 157، عواطف عبد الرحمن، عالم المعرفة، الكويت، 1985.

(66) جريدة الوطن، القاهرة، في 7 حزيران 1930.

(67) مصر وفلسطين ص141.

(68) المصدر السابق ص143.

(69) الأيديولوجيا الصهيونية، ص451.

(70) إسرائيل دولة صهاينة، ص117، يوري أفنـــيري، نيويـــورك 1970. (بالإنكليزية).

(71) الصهيونية على لسان قادتها ص10، ليونيل داداني موسكو 1986.
(72) الأيديولوجيا الصهيونية، ص313.
(73) المصدر السابق ص21– 22.
(74) المصدر السابق ص39.
(75) المصدر السابق ص43.
(76) مكتب المحفوظات البريطاني، 195/ أيار 1934.
(77) تاريخ الصهيونية ص100، ناحوم سوكولوف، نيويورك 1974. (بالإنكليزية).
(78) القوى اليهودية في إسرائيل ص72، رشاد عبد الله الشامي، عالم المعرفة، الكويت، 1994.
(79) ميلاد أمة، ص125، كروسمان ريتشارد، لندن 1959.
(80) الفكرة الصهيونية ص24، جوزيف هيلر القدس 1971.
(81) الصهيونية على لسان قادتها ص6.
(82) المصدر السابق ص9.
(83) المصدر السابق ص42.
(84) الجديد في المذهب العسكري الإسرائيلي، ص23، هيثم كيلاني منشورات الفكر العسكري دمشق 1981.
(85) الصهيونية على لسان قادتها ص42.
(86) جريدة التايمز الإنكليزية تشرين ثاني يوم 28 عام 1979.
(87) القوى الدينية في إسرائيل ص33.
(88) جريدة دافار أهارون مجد تل أبيب 5/ 10/ 1979.
(89) القوى الدينية في إسرائيل ص54.
(90) الأيديولوجيا الصهيونية ج2، ص32.
(91) أدبنا الحديث (استمرار أم ثورة)، ص233.
(92) البحث عن الهوية القومية ص28، يوسف جوراني، دار نشر عم عوفيد، تل أبيب 1990. (بالإنكليزية).
(93) الايديولوجيا الصهيونية، ص118.

(94) الصهيونية والصبارية في الرواية الإسرائيلية، ص83، يوسف أورون، دار رعد، إسرائيل 1990.
(95) نظام الحكم في إسرائيل في الجيل القادم، ص24، سامي سموحة، مؤسسة فان لير، القدس 1984.
(96) العلمانية على الطراز الإسرائيلي، ص16، عانات ميدان، صحيفة يديعوت أحرونوت، ملحق عبد الغفران، في 22 أيلول 1996.
(97) الحساب القومي ص353، بوعز عفرون، دار نشر فير، تل أبيب 1981.
(98) أنطوان شماس، مجلة بوليتيكا، رقم 7، مقالة (نحن من هذا المجتمع) ص27، تشرين أول 1987.
(99) إيلان فافا، صحيفة معاريف، مقالة الوجود في مواجهة الوعي، ص12، شهر آذار 1996.
(100) الثقافة السياسية في المجتمع الصهيوني، ص137، ميرون أرنوف، دار الحمراء، بيروت، 1991.
(101) الإسرائيليون الأوائل، ص243، توم سجيف، القدس، 1984.
(102) إشكالية الهوية الإسرائيلية، ص189.
(103) ب. ميخال (مقالة بعنوان مصدر الشر) صحيفة يديعوت أحرونوت، 7 تشرين ثاني 1995.
(104) إشكالية الهوية اليهودية، ص232.

# الفصل الأول

## الجذور التاريخية للعقيدة اليهودية

المدخل للبحث: العرب واليهود شركاء في التاريخ والمعتقد

-موسى في التوراة والقرآن

-كتب اليهود المقدسة وأسفار الأنبياء والتلمود

-أهم أركان العقيدة اليهودية

-الإيمان بالله، خالق العالم

-خلق آدم والطوفان في التوراة والأساطير البابلية

-خلق آدم والطوفان في القرآن الكريم

-المراجع للفصل الأول

# المدخل للبحث

عاشت القبائل العربية والعبرانية متلازمة في الهضاب الصحراوية، جنوب الهلال الخصيب أو بلاد الشام، وكانوا قبائل رعوية، واختلف الباحثون في بداية استقرارهم، ولكنهم متفقون على أن القبائل العبرانية استقرت غرب نهر الأردن، في أرض كنعان حوالي عام 1300م. وكان العبرانيون عندما نزلوا أرض كنعان، يتكلمون بلهجة عربية، متقاربة مع اللهجة الآرامية، وذلك لأنهم تعلموا لغتهم التي أصبحت تعرف بالعبرية من الكنعانيين (العرب) أهل البلاد الأصليين[1].

ولكن العالم الألماني شلوتزر عام 1780 أطلق على مجموعة اللغات العربية اسم اللغات السامية، التي صارت تشمل (الآرامية والعبرية والأمورية والكنعانية) هذه التسمية التوراتية، أصبحت الخطأ الشائع، الذي أطلق حديثاً على لغات الثقافة العربية القديمة.

قال العلامة محمود عباس العقاد: «كان العبريون يتكلمون باللغة الآرامية، وقد دونوا بها أشعارهم وأسفار التوراة، بعد العودة من السبي البابلي». وقد أكد الدكتور محمد بدر، التشابه الظاهر بين العربية والبابلية (الآرامية) لا سيما في الإعراب، في بحث حركات التنوين، فهو في الآرامية (ميم) وفي العربية نون، وهذان الحرفان من حروف الإبدال، ومنها علامة الجمع فهي في الآرامية (الواو والنون) كما أنها في العربية (الواو والنون) أيضاً. وفي السريانية خليفة اللغة الآرامية (الياء والنون) وفي العبرية المتأثرة بالآرامية (الياء والميم). أما صيغ الأفعال في العبرية فتبلغ اثنتي عشر صيغة، وأكثر هذه الصيغ مأخوذة من العربية والآرامية[2].

**والسؤال المطروح: ما هي مميزات اللغات السامية؟**

تعود هذه اللغات نتيجة تجاور شعوبها الطويل إلى عائلة واحدة، لها سمات معينة اختصت بها:

1)كل اللغات السامية تعتمد على الحروف الصامتة (Consonnes) وحدها، ولا تلتفت إلى الأصوات (Voyelles) لذلك لا نجد في حروف هذه اللغات

علامات الأصوات كما هو مألوف في عائلة اللغات الآرية. من هنا بالغت اللغات السامية في الاهتمام بالحروف فزادت عددها، وأوجدت حروفاً للتفخيم والترقيق.

2)إن أغلب الكلمات في اللغات السامية، ترجع إلى أصل اشتقاقي مكون من ثلاثة أحرف.

3)إن لمعظم الكلمات في اللغات السامية مظهراً فعلياً، حتى في الأسماء الجامدة والأفعال الأعجمية المعربة.

4)التشابه في تكوين الاسم وفي تكوين الفعل.

5)التشابه في الضمائر وطريقة اتصالها بالأسماء والأفعال والحروف.

6)التشابه في المشتقات، كاسمي الفاعل والمفعول واسمي الزمان والمكان، واسم الآلة.

7)تغير معنى الكلمات بتغير حركاتها مثل فَلَك وفُلك.

8)التشابه في الكلمات الدالة على أعضاء الجسم، وصلة القرابة والعدد وأسماء الحيوان والنبات، ومرافق الحياة الشائعة بين هذه الأمم والشعوب[3].

جاء في سفر التكوين (31) إن لابان الآرامي أخذ حجارة وعمل منها رجمة ودعاها (يجر شهدوتا) أي حجرة الشاهد، أما يعقوب (إسرائيل) فدعاها (جلعيد) وقال لابان ليعقوب هذه الرجمة شاهد بيني وبينك.

يعلق العقاد على هذه المحادثة بقوله: «معنى يجر شهدوتا في الآرامية (حجر الشهود) وهي قريبة من لفظها ومعناها في العربية الحديثة، حيث يمكن إبدال حرف الجيم بحرف الياء»[4]. وهذا الإبدال تعرفه بعض القبائل العربية ولا زال أهل الكويت يقولون (ريّال بدلاً من رجال).

صار العبريون يكتبون بلغة الثقافة في تلك العصور الخوالي، اللغة الآرامية، بالحروف المربعة، وزادوا عليها حروف الحلق، وهذه الزيادة مأخوذة من مصدر عربي لا يخفى على المختصين، ولا توجد في العبرية حروف كالثاء والذال والضاد الطاء، ولكنهم يقربون حروفهم بحروف التفخيم والترقيق، أو يكتفون بما يشابهها من حروفهم فنجد الالتباس في نقلها، وقد يشتبه على دارسي النصوص عن مصدر الكلمة من جراء هذا الالتباس[5].

## وشائج القربى بين العبرية والعربية

يقر معظم الباحثين أن اللغة العربية هي أقرب اللغات السامية إلى اللغة الأم. حتى إن الدكتور إسرائيل ولفنسون يؤكد: «أن اللغة العربية تحتوي على عناصر لغوية قديمة جداً، بسبب وجودها في مناطق منعزلة عن العالم القديم، بعيدة عما يتوارد عليها من تقلبات، إلا أن ما احتفظت به العربية من القديم ليس بريئاً من التغير بل فيه شيء يدل على أنه تقلب في أطوار مختلفة»[6].

ظل التواصل الحضاري مستمراً بين العربية والعبرية، عن طريق التجارة بين سبأ وحمير والقدس (أورشليم) وبين القبائل العربية القديمة مثل عاد وثمود في تيماء، والأنبياء العرب أمثال صالح وذي الكفل وأيوب في حجر صالح ودومة الجندل، وبين موسى وشعيب في أرض مدين. يقول عباس محمود العقاد: «كان العبريون يأخذون من أهل الجنوب ثقافتهم الدينية في أيام مملكتي داود وسليمان، وكانت الدعوة المحمدية التي ارتفعت في بلاد العرب فرعاً من الأصل الذي فطر في الوحدانية، فإن الدعوة إلى عبادة رب العالمين دين لا يلتقي بدين العصبية المنعزلة في طريق واحد. وإن نبوة الداعي الذي لا يعرف من النبوة غير الهداية لطراز لا يختلط بالتنجيم»[7].

إذن، هناك تأثر وتأثير متبادل بين العرب واليهود عن طريق أنبياء العربي إبراهيم وإسماعيل وإسحق وأيوب قبل دعوة موسى التوحيدية. كان العبريون يسمون النبي ر جل الله أوالرائي (أي المنجم) وعن تواصلهم مع الكنعانيين عرفوا وظيفة النبي الذي يوحى إليه، وكان العرب قبل الدعوة المحمدية يسمون الكتب أو الأسفار السابقة (الصحف الأولى) صحف إبراهيم وموسى. قال تعالى عن التوراة {فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله، وكانوا عليه شهداء}(سورة المائدة، الآية 44).

## الديانة اليهودية

ينتسب أنبياء اليهود إلى إبراهيم الخليل أبي الأنبياء نسل (إسماعيل وإسحق) وهذا الانتساب لا تؤكده المصادر التاريخية. وإنما هو مأخوذ من التوراة التي قال الله عنها (نور وهدى). فإن ما تدعيه عند اليهود والمسلمين هو حقيقة.

تزعم التوراة أن إبراهيم الخليل هو أبو الشعبين العربي والإسرائيلي. وتعتبر موسى كليم الله، والشعب الإسرائيلي هم شعب الله المختار. وتزعم التوراة أن الله وهب لهم فلسطين، فهي الأرض الموعودة من الله، وعندما نفاهم نبوخذ نصر سنة 586 ق.م إلى أرض بابل، حزَّ في نفوسهم ابتعادهم عن أرض الله.

وزعم اليهود أن الله أوحى لموسى، بالتوراة، وهي كتاب تاريخي تضمنت أحداثاً وقعت بعد موسى بحوالي 800 عام. وعندما تشتتوا في البلاد جعلوا من موسى المنقذ والمخلِّص لهم، وهذه الفكرة المحورية، استمرت ملازمة لهم طوال التاريخ، فموسى هو الذي قادهم من أرض العبودية أرض مصر، إلى أرض كنعان، ولأهمية موسى نحاول أن نلقي عليه ضوءاً مما جاء في التوراة والقرآن ومن الأبحاث التاريخية الحديثة، التي أضفت عليه بعداً آخر، يختلف اختلافاً كلياً عما جاءت به الكتب المقدسة[8].

ولتسهيل البحث سأتبع الخطوات التالية:

**الخطوة الأولى**: ماذا قالت عنه التوراة؟

نسبت إليه التوحيد، وخصته بأعظم قدر من التوحيد والإجلال، فمن هو موسى؟

في تصور التوراة، إنه رجل عبري الأصل من أولاد لاوي، وتقسم حياته إلى مرحلتين:

1) مرحلة الطفولة والشباب

تلعب الأسرة في المجتمعات القديمة دوراً بارزاً في حياة الفرد، من حيث تكوينه الفكري والعمل المتوقع منه. وكانت الأسرة المصرية لها تقاليدها وعاداتها التي تختلف عن حياة الأسرة العبرية (الآسيوية). كان الطفل المصري يسمى بأهم حدث يحدث يوم مولده، مثل (إيمحوتب) أي جاء بسلام، أو (يسمخ) جاء بسرعة، وتعني كلمة موسى (المنتشل من الماء[9]).

تروي التوراة أن موسى ولد في الوقت الذي كان فيه فرعون مصر يقتل أولاد العبرانيين. وعندما ولد موسى، لم تستطع أمه الاحتفاظ به. فوضعته في سلة مصنوعة من جريد البردي، وطلتها بالقار، وحملته أخته مريم بنت عمران إلى النهر وصارت تراقبه عن كثب، وعندما نزلت ابنة فرعون إلى شاطئ النيل، شاهدت الطفل موسى ففرحت به كثيراً، لأنها كانت امرأة عقيماً، وعرفت أن الطفل من أبناء العبرانيين. وجاءتها مريم وقالت لها ابنة فرعون: ابحثي لي عن مرضع له! وكانت قصور الفراعنة تستخدم المرضعات منذ القرن 28 قبل الميلاد. وكانت الحاضنة تكلف بدور المربية، ويفرد للمرضعات جناح خاص من أجنحة الفرعون يسمى جناح الرضاعة أو دار المراضع[10].

جاءت أم موسى إلى قصر الفرعون، وصارت ترضع ابنها موسى بأجر (سفر الخروج 3: 2- 18). لا نعرف التربية التي تلقاها موسى في قصر الفرعون، وماذا درس في المدارس؟ كل ما تذكره التوراة، أن الفرعون حمل موسى وهو ابن ثلاث سنوات، ورفعه إلى أعلى، فجذب الطفل التاج من فوق رأس الفرعون ووضعه على رأسه، انزعج الفرعون واعتبر ذلك فألاً سيئاً، واستشار حكماؤه[11].

ما مدى صدق رواية التوراة، عن طفولة موسى، من منظور القرآن الكريم؟

جاءت آيات القرآن مصدقة لما قالته التوراة، قال تعالى: {وأوحينا إلى أم موسى أن ارضعيه، فإن خفت عليه فألقيه في اليم، ولا تخافي ولا تحزني، إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين، فالتقطته آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً وقالت امرأة فرعون (لزوجها لعله يكون) قرة عين لي ولك، لا تقتلوه عسى أن ينفعنا، ونتخذه ولداً، و هم لا يشعرون، وجاءت مريم (أخت موسى) إلى امرأة فرعون وقالت: هل أدلكم على بيت يكفلونه، وهم له ناصحون، فرددناه إلى أمه، كي تقر عينها ولا تحزن. ولما بلغ رشده واستوى آتيناه حكماً وعلماً}(سورة القصص، آية 7، وما بعد).

هناك شبه تطابق بين رواية التوراة والقرآن الكريم، وربما كانت الترجمة العربية للتوراة تطابق ما جاء في القرآن، لا نعلم ذلك، وتفصِّل التوراة والقرآن عن شباب موسى وتربيته.

2)مرحلة القيادة والنبوة

تخبرنا التوراة عن حياة موسى بعد سن الأربعين، وتبدأ بمشهد دخول موسى المدينة ذات يوم، ورأى رجلاً مصرياً يضرب رجلاً عبرانياً، فوكز موسى الرجل المصري، وقتله وطمره في الرمل، وهرب من أرض مصر إلى برية مؤاب وسكن في خيام الكاهن الكنعاني يثرون (النبي شعيب) وخدم عنده راعياً وتزوج ابنته صفورة. وذات يوم رأى موسى ناراً وسط شجرة العليق، ولكن الشجرة لا تحترق، فتعجب! فلما دنا من الشجرة نودي من وسطها: يا موسى لا تخف واذهب إلى أرض مصر، لتقود شعبك من أرض العبودية. فاعتذر موسى عن الذهاب إلى أرض مصر، لخوفه من الفرعون. ولكن الله عضده بأخيه هارون، فعاد إلى أرض جاسان، والتقى بالفرعون وطلب منه خروج شعبه، فأبى الفرعون، وتتبع موسى وقومه ولكنه غرق في البحر (يم سوف) أي بحر القصب، وعبر موسى البحر إلى الجانب الآخر، ولكنه تاه وقومه، وأصابهم العطش وكادوا يهلكون، فطلب موسى من الرب أن يمحو اسمه من سفره، على ألا يهلك شعبه(سفر الخروج: 32).

جاء موسى إلى أرض قادش، وضرب الصخر بعصاه، فانفجرت الأرض عيوناً وشرب قومه.

كان عدد قوم موسى حين خروجهم من مصر حوالي 600 ألف نسمة، وهذا زعم لا يصدقه العقل، كما قال ابن خلدون. قاتل موسى أصحاب البلاد من الأموريين، وانتصر على ملكهم سيحون، وعلى عوج ملك باشان. وتروي التوراة أن موسى رأى ربه الذي حمله أربعين يوماً فوق السحاب، وكلّمه وأعطاه الوصايا العشر، وعلمه الشريعة أو سنة الناموس، واستقر موسى وشعبه في أرض كنعان. وقبل وفاة موسى صعد به الرب (يهوه) فوق جبل جلعاد، وآراه ممالك الأرض.

مات موسى في ظروف غامضة، لم تفصح عنها التوراة، ودفن في أرض مؤاب، ولم يعرف قبره (سفر التثنية 34: 6) واعتقد اليهود أن موسى توفي، لكنه سيعود إليهم بعد غيبته التي لن تدوم طويلاً.

في القرآن الكريم، تتطابق الأحداث بصورة عامة مع رواية التوراة، ولا تخبرنا عن شباب موسى، وتبدأ منذ بلوغه الأربعين، ومن المشهد الذي بدأت به التوراة، قال تعالى: {ودخل (موسى) على حين غفلة من أهلها، فوجد رجلين يقتتلان، هذا من شيعته، وهذا من عدوه، فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه، فوكزه موسى وقضى عليه، فأصبح في المدينة خائفاً، يترقب، وجاءه

رجل من أقصى المدينة يسعى، قال: يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك، فاخرج إني لك من الناصحين، ولما توجه تلقاء مدين قال: عسى ربي أن يهديني سواء السبيل، ولما ورد ماء مدين، وجد عليه أمة من الناس يسقون، ووجد دونهم امرأتين تذودان، قال: ما خطبكما؟ قالت إحداهما: لا نسقي حتى يصدر الرعاء، وأبونا شيخ كبير، فسقى لهما، ثم تولى إلى الظل. فجاءته إحداهما تمشي على استحياء وقالت: إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا. وجاء موسى معها فقالت: يا أبت استأجره، إن خير من استأجرت القوي الأمين. قال: إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثماني حجج فإن أتممت عشراً فمن عندك، وما أريد أن أشق عليك. فلما قضى موسى الأجل، وسار بأهله، أنس من جانب الطور ناراً، فلما أتاها، نودي من شاطئ الوادي الأيمن، من البقعة المباركة من الشجرة، أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين(سورة القصص 7- 30). تتطابق رواية التوراة والقرآن الكريم ولا عجب في ذلك فكلاهما كتابان منزلان من الله.

## عودة موسى إلى أرض مصر وخروجه بقومه

تخبرنا التوراة في سفر الخروج أن موسى خاف من العودة إلى أرض مصر، فعضده ربه بأخيه هارون قال له: أليس هارون اللاوي أخاك؟ وأنا أعلم أنه يتكلم أفضل منك، وشاركه معك بإخراج قومك من أرض مصر. خرج موسى ومعه هارون يحمل عصا موسى أمام الشعب، وفي أرض سينا اشترك هارون في حرب مع العماليق أثناء غياب موسى فوق الجبل. وأثناء غيبة موسى ضج الشعب وارتدوا عن عبادة الله، وطلبوا من هارون أن يصنع لهم عجلاً من ذهب وأن يبني لهم مذبحاً ليقربوا الذبائح عليه (سفر الخروج: 32).

صنع هارون لهم العجل، وعندما عاد موسى وبخهم على فعلتهم، ولكن الرب غفر لهارون لأنه ندم، وجعله وذريته كهنة على بني إسرائيل. خدم هارون قومه أربعين سنة رئيساً للكهنة، قبل وفاة موسى، وأمر الرب موسى أن يأخذ هارون وابنه لعازر، ويصعد بهما الجبل. وخلع هارون ثيابه الكهنوتية وألبسها لابنه، ولما نفذ هارون الأمر مات وكان عمره 123 سنة. وصار الشعب اليهودي يمجده،

ويصوم لذكرى موته في الأول من شهر آب، وظلت رئاسة الكهنوت محصورة في أولاده، وكان من أولاده كل أنبياء اليهود (سفر العدد 20: 22).

إن مهمة الأنبياء تشجيع الشعب على الصمود في وجه المحن، وشرح شريعة موسى، وكانت معيشتهم في منتهى البساطة والتقشف. وكانوا يقبلون الحسنات (الصدقات) من الشعب، ويتكلمون أحياناً بخواطر ونبوءات هي إلهام رباني، وقد يرون رؤى صالحة وصادقة.

**ما هي صورة هارون في القرآن الكريم؟**

إنها لا تختلف كثيراً عما جاء في التوراة. قال تعالى مخاطباً موسى: {سنشد عضدك بأخيك، ونجعل لكما سلطاناً، فلا يصلون إليكما. وحين قابلا فرعون قال: يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري؟ واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير حق، وقال فرعون: يا هامان! ابن لي صرحاً لكي أبلغ الأسباب، أسباب السموات فاطلع إلى إله موسى وإني لأظنه كاذباً، فأخذناه وجنوده، فنبذناهم في اليم، ولقد نجينا بني إسرائيل من العذاب المهين} (سورة الدخان، آية 32- 33).

وعندما ذهب موسى ليكلم ربه فوق الجبل قال لأخيه هارون {اخلفني في قومي، واصلح ولا تبتغ سبيل المفسدين} (سورة الأعراف، آية 122).

ماذا فعل اليهود في غيبة موسى؟ قال تعالى: {وإذا واعد موسى أربعين ليلة، ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون} (سورة البقرة آية 54). {واتخذتم من بعد عجلاً، جسداً له خوار} (سورة الأعراف آية 148). {فقالوا هذا إلهكم وإله موسى الذي نساكم} (سورة طه، آية 88. وبعد أن عهد موسى بتابوت العهد لهارون وبنيه، يحملون أمام الشعب، قال تعالى: {وقال لهم نبيهم (هارون) إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم، وبقية مما ترك موسى وآل هارون تحمله الملائكة} (سورة البقرة آية 248).

هل هذه التوراة التي نراها اليوم مزورة؟ أو هل جاء بها تحريف؟

بالنسبة لموسى (ع) قال تعالى: {وكتبنا له الألواح من كل شيء، موعظة وتفصيلاً لكل شيء} (سورة الأعراف آية 145). إن كل المواضيع التي ذكرت في القرآن الكريم نجدها متطابقة مع مثيلتها في أسفار التوراة.

ومع ذلك يقول بعض المفكرين من مسلمين ويهود أن التوراة الأصيلة لا وجود لها بهذه الصورة الإلهية التي كانت عليها زمن موسى، قد تخلص منها اليهود

وكتبوا سواها بما يتلاءم مع أهوائهم ويتواءم مع مخططاتهم، وزعموا بعد كل هذا أنها هي التوراة التي أنزلها الله على موسى[12].

إذا كانت الألواح قد كتبها الله لموسى، كما أفادنا القرآن الكريم، أليس الله هو الكفيل بحفظها؟ كما هو الحال في القرآن الكريم؟ إن تاريخ كتابة التوراة معروف، لقد أعاد كتابتها النبي عزرا حوالي عام 410 ق.م، وترجمت إلى اللغة اليونانية في الإسكندرية بين أعوام (285- 247 ق.م). وانتشرت تلك الترجمة والنسخ الآرامية والعبرية قبل الميلاد، وعثرنا على بعض الأسفار في كهف قمران، وكل هذه متطابقة، لا تحريف فيها ولا تبديل.

وإذا كان القرآن الكريم قال: {من الذين هادوا يحرفون الكلم عن موضعه} (سورة النساء آية 46). قالوا: إنهم يفسرون الآيات حسب أهوائهم ومن أجل منافعهم. وكان بعض اليهود يطلب منهم المسلمون كتابة نصوص من التوراة أو من الإنجيل، فيكتبون للناس للتكسب نقلاً عن التوراة. وقد أشار إليهم القرآن الكريم {ويل للذين يكتبون الكتاب، ثم يقولون هذا من عند الله، يشترون به ثمناً قليلاً، فويل لهم مما كتبت أيديهم، وويل لهم مما يكسبون} (سورة البقرة آية 79).

شاعت ظاهرة كتابة نصوص من التوراة على أوراق ويبيعها الكهنة في المدينة، رأى رسول الله (ص) ورقة من التوراة في يد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فأمره بإلقائها ثم قال له: ألم آتكم بها بيضاء نقية؟ والله لو أن موسى كان حياً ما وسعه إلا اتباعي!

كانت تجري بين اليهود والمسلمين في المدارس بالمدينة مناظرات حول صحة التوراة، وصحة القرآن، وكان اليهود يعرضون على المسلمين آيات تبدو لمن لا يعرف الناسخ من المنسوخ أنها متناقضة، كان هذا قبل جمع القرآن الكريم وتدوينه، في زمن رسول الله (ص) فقال تعالى: {أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله، لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً} (سورة النساء آية 82).

كانت المساجلات بين اليهود والمسلمين مستمرة، ولا يجدون في ذلك غضاضة، وكما كانت قديماً لا زالت. يقول الأستاذ محمود الشريف صاحب كتاب اليهود في القرآن الكريم: «التوراة المتداولة اليوم، والتي يترنم بها اليهود ويرددونها في معابدهم لا يعترف بها القرآن. بل سجل في عدد من الآيات أنها

محرفة ومزورة زيد عليها وأنقص منها، فوهت بما استحدث فيها، وحرفت بما نقص منها»[13].

إن التوراة الموجودة اليوم بالعربية هي نقل سعدية الفيومي (سعيد بن يوسف المتوفى 943م) وهي ترجمة مقبولة لدى اليهود والمسيحيين والمسلمين وقد ترجمها من النص الآرامي في مدرسة سورا لمنفعة اليهود الذين يتكلمون العربية، وقد أشرف على طباعتها بالعربية المستشرقان الفرنسيان البارون دي ساسي (1758- 1838) والمستشرق كاترمير (1782- 1852) في باريس، وأعاد طبعتها درنبورغ في باريس عام 1893م.

## صورة موسى على ضوء المكتشفات الأثرية

بعد كثرة النصوص الأثرية المكتشفة في مصر وبلاد ما بين النهرين، لاحظ العلماء أن الأنبياء الذين ذكروا في التوراة لا وجود لأسمائهم في اللقى الأثرية، فوضع العالم الألماني أتو رانك Otto Rank كتاباً عن أسطورة ولادة البطل عام 1909م، جاء فيه: إن الشعوب القديمة وضعت لأبطالها قصصاً متشابهة عن ولادة البطل وذكر مثالاً، أن قصة سرجون الأكادي (2267- 2221 ق.م) وما حكاه عن نفسه تشبه إلى حد كبير قصة النبي موسى. قال سرجون عن نفسه: «أنا سرجون الملك العظيم، ملك أكاد، كانت أمي سيدة عفيفة، ولا أعرف لي أباً، ولكن شقيق والدي كان يجوب الجبال، وفي بلدتي أوزبيراني Azupirani على ضفاف نهر الفرات، حملتني أمي السيدة العفيفة، ووضعتني سراً في سلة من البردي وأغلقت فوهتها بالقار وألقت بي في النهر، ولكن التيار لم يجرفني وإنما حملني إلى آكي Aki الذي كان يسحب الماء، وبسبب طيبة قلب آكي الذي يسحب الماء رفعني من الماء، ورباني كابنه الخاص، وعلمني زراعة الكروم، وأحبتني عشتار وجعلتني ساقياً في قصر الملك، وها أنذا أحكم منذ خمسة وأربعين عاماً»[14]. أثارت قصة سرجون الأكادي في ذهن سيجموند فرويد (1856- 1939) بعض الشجون وربط بينها وبين المكتشفات الأثرية في تل العمارنة عام 1887م، واطلع على أرشيف مكاتبات الفراعنة إلى تابعيهم ملوك آسيا والحبشة، فبدت له أن تلك المراسلات في غاية الأهمية لأنها تعرفنا على كيفية انتشار الفكر التوحيدي.

جاء في إحدى رسائل تل العمارنة، يأمر فيها الفرعون أخناتون (1375-1358 ق.م) بإزالة اسم الإله آمون من كافة معابد مصر وجنوب فلسطين والحبشة، وزجر كهنته ومنعهم من الدعاء إليه، كما عثر المنقبون على نشيد أخناتون الذي يدعو فيه الإله آتون، ويصفه «بالإله الخالق، والحافظ لكل المخلوقات داخل مصر وخارجها» ويجعل له خاصة التفرد والسيادة على كافة الآلهة، يقول أخناتون: «إنك الإله الوحيد ولا إله غيرك».

كتب على أثرها فرويد ثلاث مقالات حول موسى والتوحيد، وتمثل شخصية موسى من تمثال مايكل أنجيلو وكانت من سمات موسى الغضب والغيرة، نشر المقالة الأولى في مجلة إيماجو Imago عام 1914، والمقالة الثانية حول شخصية موسى القائد النبيل نشرها عام 1937، والمقالة الثالثة حول شخصية موسى مخلص شعبه من الأسر عام 1939م.

أثارت كتابات فرويد ضجة بين الأوساط اللاهوتية والتاريخية، وتعرض لحملة من النقد والكراهية من قبل اليهود المتعصبين. قال فرويد في المقالة الثانية: «أن تتكر على الشعب اليهودي الرجل الذي يجلونه، باعتباره أعظم أبنائهم، ليس بالعمل الذي يقدم عليه بخفة رأس، لا سيما من جانب شخص ينتمي إلى ذلك الشعب، وبالرغم من ذلك فعليّ أن أتكلم الحقيقة، وأن أخاطر واقول: إن ديانته الخاصة، تلك الديانة التي اعتنقها أخناتون (God frey) أي آتون راضٍ وديانة آتون التوحيدية هي التي أعطت للمصريين الختان كعلامة على الميثاق الذي عقد بين آتون وشعبه»[15].

وانتقل طقس الختان إلى الديانة اليهودية وأصبح علامة العهد بين إبراهيم وبين الرب (يهوه). لقد كانت علامة الختان عند المصريين دلالة على نظافة البدن ومن الوصايا الصحية قبل أخناتون[16].

يتابع فرويد فرضيته وهو أن موسى لم يكن عبرانياً وإنما كان قائداً مصرياً، معتمداً على معلومة جاءت في كتاب المؤرخ اليهودي يوسيفوس (37- 100م) في كتابه (العاديات اليهودية)، قال: «موسى كان قائداً عسكرياً مصرياً، وقد قاد حملة مظفرة على النوبة».

كيف فسر فرويد تلك المقولة؟

افترض أن موسى كان نبيلاً مصرياً، وأن المرأة التي سحبته من الماء هي الأميرة الفرعونية التي لا تعرف العبرية، اسمه العبري (موشيه) وكان الاسم

الصحيح (موسى) وهو اسم مصري معناه طفل وهو اختصار لكلمة (أمنموس) ومعناه آمون - طفل، ولكن أمه هي التي كانت تدلله باسم موشيه.

وكان فرويد مصراً على أن موسى لم يكن يهودياً بالجنس، وإنما كان مصرياً دماً وعقيدة، وإنما أعطى عقيدته المصرية (عبادة آتون) لبني إسرائيل وقادهم للخروج من مصر، عندما اختفى أخناتون في ظروف غامضة عام 1358 ق.م. وعادت عبادة آمون ولوحق أتباع آتون وطردوا إلى خارج حدود مصر. يقول فرويد: «وتنكر اليهود لسيدهم المصري وقتلوه وارتدوا عن دينه، ولم يعودوا إلى التوحيد إلا تدريجياً عبر قرون، وظلت ذكرى موسى قوية في أذهانهم، وحالوا كبت حقيقة موسى المصري وجريمة اغتياله واقترفوا في سبيل ذلك سلسلة من الأكاذيب والتشويهات لتمويه هذه الحقيقة المؤلمة»(17). وضمَّن اليهود كتاب التوراة سلسلة من أساطير الشرق الأدنى، وجعلوا محورها موسى البطل العظيم وهو مخلِّصهم من الشتات والضياع.

وأنا أفترض من جانبي أن أسطورة موسى التي جاءت بها التوراة قد دونت في زمن لاحق بعد مجيء اليهود من السبي، وجعلوا موسى بطلاً قومياً، وسيعيدن إنتاج تلك الصورة دائماً، لأنه المنقذ أو المخلص (المسيَّا المنتظر).

يرى العالم اليهودي إدوار ماثير Edward Mayer أن أصل أسطورة موسى كانت مختلفة، كانت في البداية كما يلي: «شهد فرعون رؤيا حذرته بأن ابنته ستلد ولداً يكون خطراً عليه وعلى مملكته، فأمر بإلقاء الطفل في مياه النيل بعد مولده بفترة قصيرة، ولكن الطفل أنقذته أسرة يهودية، وربته كابنها»(18). ثم يقول بعض علماء اليهود: إن طبيعة موسى النشطة لا بد أن تكون أقنعته بفكرة تأسيس إمبراطورية جديدة، ولا بد له من العثور على شعب جديد يمنحه ديانته، فاختار ديانة آتون، التي نبذتها مصر. وكان ذلك دون ريب محاولة بطولية من موسى ضد قدره، ولإيجاد تعويض عن الخسائر التي كابدها خلال مأساة أخناتون(19).

أراد إدوار ماثير التأكيد على أن موسى كان إلمامه ضعيفاً باللغة العبرية، أنه كان بطيء الكلام بالعبرية، وكان يطلب المساعدة من مساعده هارون.

ومن دراسة لاحقة قام بها أرنست سللين عام 1922م، لسفر النبي هوشع (المتوفى 750 ق.م) هناك إشارة إلى أن موسى لقي نهاية عنيفة عندما تمرد عليه شعبه العاصي والناكر للجميل. ولكن في أواخر عهد الأسر البابلي، عندما دوَّن

النبي عزرا كتابة التوراة حوالي عام 410 ق.م، انبثق الأمل بإعادة صورة الرجل الذي اغتالوه، أعادوه من مملكة الموتى ليقود شعبه النادم إلى مملكة البركة الخالدة أرض المعاد (فلسطين).

إذا قبلنا الفرضيات السابقة، وهي لعلماء يهود، فإن موسى كان رجلاً مصرياً وقد قتله شعبه، ونبذوا ديانته، وعبدوا الأفعى والعجل وأثناء حروبهم مع الأموريين والكنعانيين والعرب في مؤاب، وبعد استقرارهم في فلسطين، تكونت لديهم خلال ألف سنة من وفاة موسى، تكونت له صورة واضحة، وأصبح موسى رجلاً مقدساً، كلَّم الله وهو الرجل المتلعثم في عرفهم وقطعوا نسله وألحقوا ديانتهم بأولاد هارون (اللاويين) وقد أخذوا اسم (الله) من الكنعانيين وبدلوا اسم (آتون) بيهوه، وظهرت صفات للإله العلي القدير إله الكاهن العربي يثرون (شعيب) صهر موسى.

يرى العالم اليهودي فولز Volz أن عقيدة موسى لا تفهم في بداية الأمر، ولا يمكن تطبيقها لتعدد الآلهة فيها، ولكن مع مرور الأيام أنتج الشعب اليهودي ديانة جديدة لهم من خلال كتابات الأنبياء. وأصبح موسى بطلاً. ودليله على صحة رأيه تحريف التوراة وعدم انسجام حوادثها لما نراه فيها من آثار الحذف الملموسة، وأن بعض الأحداث منتزعة من مكانها الأصلي، قبل تدوينها على يد عزرا ونحميا عام 410 ق.م، ومثال على ذلك التناقض:

كان اسم الإله (يهوه) في قادش وهم كما يزعمون إله إبراهيم، فكيف اتحدت شريعة يهوه بشريعة أدوناي إله القبائل في مؤاب؟ وكيف تحولت تلك الآلهة إلى اسم الإله (إبراهيم) الله عند شعب مدين؟ ومن أخطائهم أن الرب غضب على موسى لأنه أغلف غير مختن، ولكن زوجته صفورة ابنة ثيرون أجرت له عملية الختان لكي لا يغضب الإله يهوه عندما قابله في الوادي المقدس. كيف حدث هذا وموسى كان مصرياً يختن وهو طفل صغير؟

يرى فرويد أن هذا التخبط والتحريف حدث في ذهنية الشعب قبل التدوين، الذي تم في فلسطين (أرض كنعان) ليبرروا احتلالهم لأرض فلسطين، التي أعطاها الله لهم (أرض الميعاد). إن هذا لتبرير اغتصابهم لفلسطين[20].

يستدل الدكتور سامي سعيد الأحمد على أن موسى كان مصرياً، هو عدم زواجه من الشعب العبري، لأنه يعتبرهم عبيداً للفرعون، ويقول: «من معرفتنا

لقانون وراثة العرش المصري القديم، لا يمكن أن يرشح للتاج أحد إلا إذا كان من السلالة الملكية، أو متزوجاً من امرأة يسري في عروقها الدم الأزرق، ومن الخط المستقيم للعائلة المالكة، ولما لم يكن موسى متزوجاً آنذاك كما تنص التوراة، لم يكن بد من أن يكون موسى مصرياً بحتاً»[21].

كتب الأستاذ سلامة موسى في كتابه (مصر أصل الحضارة): «وفينا من يعتقد أن درس تاريخ الفراعنة لا يفيدنا كثيراً، لأن الصلة بيننا وبينهم قد انقطعت في اللغة والدين والسياسة والتاريخ والاجتماع، لكن هذا خطأ فاحش، فإننا لا نزال من حيث السلالة مصريون يجري في عروقنا الدم الذي كان يجري في عروق جدودنا قبل خمسة آلاف عام، فلِمَ لا يؤلف إلى الآن كتاب عن أخناتون وموسى، وذلك مما يمس النفس المصرية ويؤثر فيها»[22].

لا زالت الشعوب والأمم الإسلامية واليهودية لا يأكلون لحم الخنزير، ويأمرون بالختان، وهذه عادات مصرية. يقول هيرودوت (480- 425 ق.م): «إن المصريين أكثر الشعوب تقوى ولهم طقوس تفرقهم عن بقية الشعوب هي الختان وعدم أكل لحم الخنزير لأن ست إله الشر، عقر الإله حورس، وكان متخفياً في هيئة خنزير أسود، ولهم عادة أخرى يكرمون البقرة الصفراء، فلا يأكلون لحمها، بل يقدمونه كأضحية للإله، وهم متكبرون ضيقو الأفق يعتبرون الشعوب الأخرى غير نظيفة وهم شعب الإله آمون المختار»[23].

كتب آرثر ويجال كتاباً عن حياة أخناتون وعصره، بيَّن فيه أن أخناتون كان موحداً، فقد ألقى في النار كل الصور والتماثيل للآلهة، واكتفى بوضع رمز صغير يمثل قرص الشمس، جعله دلالة على الإله الحقيقي (آتون) ولكن أخناتون تجاهل اليوم الآخر ويوم حساب العالم[24]. وهذه فكرة لم ترد في توراة موسى هي فكرة الجنة والنار.

### قصارى القول

كان اليهود في كل العصور يعتبرون موسى شخصية قومية، تدفعهم دائماً باتجاه أرض الميعاد (فلسطين). قال الحاخام إيلي ليفي أبو عسل: «إن ثيودور هرتزل هو صنو موسى، وهما لا يختلفان لا في المبدأ أو الغاية، التي كانا

ينشدانها، فموسى يريد أرض الميعاد للشعب اليهودي، وكذلك هرتزل الذي يرى أن الإقامة خارج الوطن ليست إلا مظهراً من مظاهر التفرقة الهدامة الأليمة مع ما تجره وراءها من محن وخطوب وتبديد للشمل»[25].

كان النبي موسى عند اليهود مثالاً للبطل القومي الصهيوني الذي يقتل الكنعانيين من أجل الوصول إلى هدفه ألا وهو (أرض الميعاد).

## كتاب التوراة

التوراة في العبرية تعني (الهداية والإرشاد) يقول الموروث اليهودي إن الله أنزل نصوصها على موسى، والصواب أنهم كتبوها بعد وفاة موسى واحتوت على أحداث تاريخية حدثت بعد وفاة موسى بمئات السنين. سجلت التوراة وقائع حياتهم المشتركة، وانتقالهم من البداوة إلى التحضر، وصارت تعاليم التوراة أداة التماسك فيما بينهم ومساعدتهم لتكوين مجتمعهم المدني.

قال العلامة ابن خلدون (1332- 1406م): قال الحكماء الإنسان مدني بالطبع أي لا بد له من الاجتماع الذي هو المدنية في اصطلاحهم وهو معنى العمران. ولا بد من اجتماع الجنس الواحد ليحصل لهم القوت وهؤلاء أهل الحضر والوبر، وخشونة البداوة حاصلة قبل رقة الحضارة، وهي قائمة على التعصب القبلي والحضارة قائمة على الدين[26]، الذي ينظم حياة الجماعة، وهذا ما تجلى في كتاب التوراة الذي احتوى تاريخ اليهود وجوهر ديانتهم، وفيه الوصايا العشر التي أنزلها الله على موسى وهو فوق الجبل (أنا الإله ربك لا تتخذ لي تمثالاً ولا صورة، ولا حجراً، ولا أحب أن يشرك بي) كانت هذه الوصية جوهرة التوحيد في الديانات السماوية.

كيف ينظر اليهود إلى التوراة؟

يقول اليهود إن الله أوحى بها على موسى وأوصاه أن يصنع لها تابوتاً من خشب، فصنع موسى صندوقاً طوله ذراعان ونصف، وعرضه ذراع، وارتفاعه ذراع ونصف، وهذا هو تابوت العهد، وقد صنعوه ن خشب السنط، وغلفوه بصفائح من ذهب نقي من الداخل والخارج، وزينوه بإكليل من ذهب عليه صور الملائكة، وله حلقتان لحمله (سفر العدد 3: 29- 31). يخيل إليَّ أن الله أنزل على موسى الوصايا العشر وبعض التعاليم، ثم ألحق التاريخ فيما بعد ونسبت إلى الوحي الإلهي، وإلى هذا أشار القرآن الكريم بقوله: {وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك موسى وآل هارون تحمله الملائكة} (سورة البقرة آية 248).

اختص أولاد هارون (اللاويون) بحفظ التابوت وقراءة التوراة كل سبعة أعوام. وكان اليهود قبل استقرارهم في بيت المقدس (أورشليم) يحملونه في حلهم وترحالهم. وبعد بناء الهيكل المقدس، وضعوه في قدس الأقداس بدلاً من

الخيمة، التي كانوا يزعمون أن عمداً من السحاب كان يظللها نهاراً وعموداً من النار في الليل. وكان الكهنة يذكرون عند بدء حملهم للتابوت «قم يا رب لتبدد أعداءك وليهرب مبغضوك من أمامك، وإذا حلَّ التابوت في مكان قالوا: ارجع يا رب إلى ربوات وألوف إسرائيل» (سفر العدد 10: 33- 36).

ويزعم اليهود أنهم عندما عبروا نهر الأردن، وهم يحملون التابوت أمامهم انشق النهر، ووقفت المياه وعبروا على اليابسة (سفر يشوع 3: 14- 17).

ويزعم اليهود أن الفلسطينيين أخذوا تابوت العهد، وبقي عندهم حوالي 400 سنة (سفر إرميا 7: 12- 15) ووضعوه في معبد اشدود بجانب صنم داجون إله الخصب والمطر (سفر صموئيل 5: 2).

وعندما سبى الآشوريون اليهود إلى أرض بابل، نقل التابوت بقدرة الرب إلى مملكة أكسوم (أثيوبيا). وعندما عادوا من السبي حوالي 440 ق.م، أعاد عزرا كتابة التوراة من صدور الرجال ومما حفظه الربانيون أو كتبوه وجمعوا الأسفار الخمسة (التكوين فيه وصف الخليقة وبدء العالم. والخروج وصف خروج بني إسرائيل من مصر ومجيء الوحي والوصايا العشر، وسفر اللاويين فيه طقوس الكهنة من أبناء لاوي، وسفر العدد فيه إحصاءات الشعب المختار، وسفر التثنية فيه تتمة شريعة موسى) هذه هي الأسفار المنسوبة إلى موسى وتسمى (التوراة).

كانت التوراة هي تاريخ اليهود الذي تناول حياة المجتمع والنظم والتعاليم المقدسة وفيه قصة الخلق البابلية (قصة آدم، وقصة الطوفان). وعندما انقطع الوحي الإلهي بعد وفاة موسى، قام الأنبياء من نسل هارون بكتابة الأسفار بإلهام رباني، وأطلق عليها اليهود (النبييتم) أي الأنبياء، وكتب الربانيون والملوك أشعارهم وأمثالهم وأطلقوا عليها (كتوبيم) أي الكتب وأطلق اليهود على المجموعات الثلاث (التوراة وأسفار الأنبياء والكتابات والأشعار) اسم الكتاب المقدس. وتولى شؤون اليهود أولاد هارون (اللاويين) ومنهم تنتخب هيئة تدعى (السنهدرين) كانت تعمل دوراً كبيراً في حياة اليهود الدينية والاجتماعية. صارت التوراة هي الكتاب الأيديولوجي الذي فيه تطلعات اليهود الذين يطمحون دائماً وأبداً، لتكوين حياة خاصة بهم.

## كتاب التلمود (التعليم)

بعد هدم الهيكل المقدس في أورشليم عام 70 م، من قبل القائد الروماني تيتوس، شعر اليهود بالظلم والتشرد من جديد، وتحطم الرمز (الهيكل) وتبدد الحلم والاعتقاد الراسخ بالتوراة، وقام الربانيون بكتابة كتاب جديد، سموه (التلمود). يقول الأستاذ ربحي كمال مدرس اللغة العربية في الجامعة السورية «بعد تخريب بيت المقدس، أدرك فقهاء اليهود أن عهد الشعب السياسي قد مضى وانقضى، فراحوا يعملون على إحلال وحدتهم الدينية محل وحدتهم السياسية فكتبوا التلمود»[27].

قام التنائيم (جمع تنا أي المعلم) وهي كلمة آرامية تطلق على طبقة علماء اليهود الذين أخذوا يشرحون تعاليم التوراة وتدوينها وتبويبها في مجموعة تعرف (بالمشنة)، وقد باشروا في تحريرها عام 10 ميلادي، وكان الفراغ منها في طبرية عام 220م، بعناية الحبر الأعظم يهوذا بن شمعون (135- 220م) وتابعه الربن الأكبر (الأقدس) يهوذا بن غمليال (المتوفى سنة 216م) وتمَّ التلمود الأورشليمي على يد الرابي آشي سنة 569م، وقد كانت شروحه متأثرة بتعاليم الفكر الأفلوطوني المحدث، ويضم التلمود 39 مبحثاً من المشنة. فيه بحوث الربانيين باللغة العبرية فيها شؤون الدين والقانون والتاريخ. وكانت هذه هي (المشنة) أي المتن، ثم جاء بعدهم المعلمون (الأمورائيم) وهم مدرسو المشنة التي أعدها التنائيم في طبرية، وصاروا يشرحون المتن شرحاً وافياً، وبلغت هذه الشروح حوالي 63 مبحثاً، أطلق على مجموعها (الجمارة) أو الشروح التي بلغت 524 فصلاً، وقام يهوذا هاناسي وتلاميذه وشرحوا الفصول السابقة وقسموا الكتاب إلى ستة أقسام، هي:

1)قسم البذور: وفيه قوانين الفلاحة والبذار والري وما يلازمها من طقوس وأدعية.

2)قسم الفصول: ويبحث في أعياد اليهود الفصلية، وفي أهمية يوم السبت، وهو يوم الراحة.

3)قسم النساء: ذكرت في هذا القسم بالتفصيل قوانين الزواج والطلاق وآداب المرأة، والنذور والوصايا الشرعية والمواريث.

4)قسم العقوبات: وتشمل أهم أبحاث الشريعة، العين بالعين والسن بالسن، وتعاليم التشريع المدني والجزائي. وهذا الفصل متأثر بالقوانين الرومانية المتطورة، وعن الحكومة والقواعد التي يجب أن يلزمها الحاكم لتحقيق العدل.

5)قسم الأمور المقدسة: وهذا الفصل وصف للهيكل المقدس (في أورشليم) وكيف تقدم القرابين والأضاحي.

6)قسم الطهارة والنجاسة: فيه البحث عن قداسة القلب وطهارته، وفي إزالة النجاسة عن الجسد باستخدام الماء الطاهر[28].

وفي مدرسة سوار (بابل) كتب اليهود شروحاً للتوراة، دعيت بالتلمود البابلي. وكان الشراح يدعون (سبوراتيم) وهم العلماء الذين شرحوا التوراة في سورا بين أعوام (500- 588م) وقد شرح التلمود البابلي عنا بن داود في بغداد وفسره أتباعه القراؤون، وقد تأثر بالفلسفة الإسلامية ومذهب المعتزلة. أما التلمود الأورشليمي فقد فسره واختصره موسى بن ميمون (المتوفى 1204م) وسمى كتابه (مشني توراه) وقد فسره على ضوء الفلسفة الإسلامية والأفلاطونية المحدثة، وحذف منه كل القصص والخرافات.

يزعم اليهود في التلمود، أن الله وملائكته في الليل يعكفون على قراءة التلمود، وقد ندم الله لأنه سمح بهدم الهيكل، وأن جزاء من يقرأ التلمود الجنة. بينما ترفض التلمود الطوائف اليهودية المستنيرة مثل طائفة القرائين أتباع سعدية الفيومي (المتوفى 943) لما فيه من كره للأمم المخالفة لليهود بالاعتقاد.

## الأنبياء في الاعتقاد اليهودي

يحتل الأنبياء دوراً بارزاً في الديانة اليهودية وقد نسبت إليهم عدة أسفار مقدسة، وبعض هؤلاء الأنبياء عرب (كإسماعيل وأيوب) والبقية إسرائيليين. وكل الأنبياء ينسبون إلى إبراهيم الخليل الذي دعوه بأبي الأنبياء.

## أبو الأنبياء إبراهيم الخليل

لا توجد لدينا مصادر تاريخية عن حياة إبراهيم الخليل سوى التوراة، وقد أيدها القرآن الكريم. ولم يستطع علم الآثار أن يسعفنا بشيء حول شخصيته.

تقول التوراة إن الله أعطى أرض فلسطين لإبراهيم ولأولاده، وجعلوا إبراهيم وبنيه قد ولدوا في حران ونشأوا فيها، ثم حرفوا وكذبوا بفرضهم أن الله منح أرض كنعان إلى إبراهيم وذريته، وأن الرب أمره بإبادة الكنعانيين هم وأطفالهم وشيوخهم ونساؤهم ليحلوا محلهم[29].

لكن القرآن الكريم ربط إبراهيم وابنه إسماعيل بأرض الحجاز وبالبيت العتيق (مكة)، بينما سكن يعقوب (إسرائيل) في فلسطين. وعندما جاء موسى إلى أرض فلسطين بدَّل عبادة الإله آتون بعبادة أيل وجعله كبير الآلهة في البداية، ثم أصبح الإله الوحيد، وظهرت عبادة التوحيد في الحجاز وفلسطين.

قال عباس محمود العقاد في كتابه (أبو الأنبياء): «من شكَّ في حقيقة إبراهيم الخليل، إنما هو شاك في بداهة العقل، وضرورة الزمن وحكم التاريخ فوق الشك في الكتب والأنبياء، وإنما المستحيل في العقول أن تبقى رسالة إبراهيم في أعقابه، فلا تأتي بعد رسالة في الأعقاب»[30]. وهكذا تحولت أساطير التوراة إلى حقائق عند مؤرخي التوراة والمسلمين من بعدهم.

حاول المؤرخ اليهودي يوسيفوس، أن يكتب عن إبراهيم وأن يؤكد وجوده، فاستند على رواية الأرستيبانوس المؤرخ الروماني الذي زعم أن إبراهيم أقام في مصر عشرين سنة، واطلع على أسرار الكهنة وعلم الفلك وطوالع النجوم[31]. وهكذا جعله منجماً تعلم السحر من كهنة مصر.

## صورة إبراهيم في التوراة

تزعم التوراة أن إبراهيم بن تارح ولد في مدينة أور، وعاش فيها 75 عاماً. وتزوج خلال المدة من أخته لأبيه ساراي (سفر التكوين 20: 12) كان أهل أور يعبدون مجموعة من الأصنام، وفكَّر أبراهام بهذه العبادة، عبادة الأصنام، فوجدها لا تفيد ولا تضر، وكسَّر الأصنام وعزا تكسيرها إلى كبير الأصنام (مردوخ)، وهاجر هو وابن أخيه لوط من المدينة بعد أن انكشف أمره، فهاجر إلى آرام الفدان (قرية قرب حران) ثم توجه بأمر الله إلى أرض كنعان، وفي طريقه مرَّ على الممالك الآرامية: حلب وحماة ودمشق، وسكن شكيم (نابلس)، ثم ذهب إلى بيت أيل (قرب بلدة الخليل).

ألمت بأرض كنعان مجاعة، فسار نحو أرض مصر، وفي مصر أعجب الفرعون بجمال ساراي وسأله عنها فقال إبراهيم: إنها أختي. وأخذها الفرعون زوجة، ولكن الله كشف للفرعون سر ساراي، وعرف أنها زوجة أبراهام، فلم يمسها وأعادها إلى زوجها أبراهام الذي تزوج بجارية مصرية هي هاجر.

عاد أبراهام إلى أرض كنعان واستقبله (ملكي صادق) ملك أورشاليم (القدس) وظهر الرب لأبراهام وهو ابن 99 سنة، وطلب منه تغيير اسمه من أبراهام إلى إبراهيم، وأن تغير زوجته ساراي اسمها إلى سارة، وأمره بالختان علامة للعهد بينه وبين الله، ووعده الله بميراث أرض كنعان.

وكان إبراهيم رجلاً مؤمناً كريماً يحب الغرباء، ونال صيتاً واسعاً بسبب طيبه وكرمه. أرسل إليه أبيمالك ملك جرار، يطلب منه الزواج من أخته سارة، فزوجها له، ولكن أبيمالك رأى في المنام ملاك الرب وطلب منه ألا يمس سارة، وأعادها إلى زوجها إبراهيم.

حملت الجارية المصرية هاجر بولد إبراهيم البكر إسماعيل، ثم حملت سارة وولدت ابنه إسحق بعد ستة اشهر. تقول التوراة إن إبراهيم نذر ابنه إسحق من أجل الرب (قرباناً) كعادة العرب، وعندما همَّ بتقديمه قال له ملاك الرب: لا تمد يدك إلى الغلام ولا تفعل به شيئاً. ورفع عينيه وإذا بكبش عظيم، وأصعده إلى المحرقة وقربه إلى الرب، ثم ذهب إلى بئر سبع (سفر التكوين 22: 1- 9). عاش إبراهيم فترة من الزمن في بئر سبع، ومنها انتقل إلى برية فاران (مكة) وهناك ترك زوجته هاجر وولدها إسماعيل، ثم رجع إلى أرض فلسطين.

في هذه الفترة ماتت سارة، وكان عمرها 127 سنة. وأرسل إبراهيم أليعازر الدمشقي إلى آرام الفدان وجلب لابنه إسحق فتاة هي رفقة بنت بتوئيل الآرامي، وكان إسحق قد بلغ سن الأربعين، وتزوج إبراهيم امرأة كنعانية هي قطورة، وبعد فترة توفي وهو ابن 175 سنة، ودفن في المغارة التي اشتراها من عفرون الكنعاني لدفن زوجته سارة ودفن إلى جانبها في مغارة المكيفلة في حبرون (التكوين 25: 7- 10).

ما هي صورة إبراهيم في القرآن الكريم؟

ذكر القرآن الكريم إبراهيم في 21 سورة. وخصه بسورة كاملة عدد آياتها 52 آية. صورته رجلاً مؤمناً موحداً. تابع القرآن خطوات التوراة دون زيادة أو

نقصان، إلا في سكناه في مكة، وسوف أعرض صورة إبراهيم القرآنية. قال تعالى: {وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر، أتتخذ أصناماً آلهة، إني لأراك في ضلال مبين} (سورة الأنعام آية 74) وكسر إبراهيم الأصنام في معبد أور وحوَّل الأصنام جذاذاً إلا كبيرهم لعلهم إليه يرجعون (سورة الأنبياء، آية 58).

وحكم عليه أهل أور بالموت حرقاً، ورموه في النار ولكن الله نجاه منها {يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم} (سورة الأنبياء، آية 69). وبعدها أمره والده بالهجرة وقال له {أراغب أنت عن آلهتي لئن لم تنته لأرجمنك أو اهجر ملياً} (سورة مريم، آية 46).

سافر إبراهيم إلى أرض كنعان، وقد مرَّ بحران والممالك الآرامية، وهو يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، واتخذه الله خليلاً (سورة النساء آية 125). {وكان إبراهيم حليماً أواهاً منيب} (سورة هود، آية 75).

ثم ينتقل القرآن الكريم إلى سكن إبراهيم في مكة، وهذا لم يكن موجوداً في التوراة. سكن إبراهيم أرض الحرم. قال تعالى: {وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائعين والعاكفين والركع والسجود} (سورة البقرة، آية 125).

ثم يتابع القرآن وصف إبراهيم وصفاً مأخوذاً من التوراة إلا أنه يوصي إبراهيم وأولاده قبل مماته التمسك بالإسلام، وهذا قد أغفلته التوراة. قال تعالى: {يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون} (سورة البقرة، آية 132).

حول بناء البيت وسكنى إسماعيل في مكة، اختلف اليهود والمسلمون في المدينة حول شخصية إبراهيم. فأنكر عليهم الوحي الإلهي ذلك. قال تعالى {يا أهل الكتاب لما تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون} (سورة آل عمران، آية 25)، {ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً، ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين} (سورة النساء، آية 125). وتتفق التوراة والقرآن الكريم بأن إبراهيم كان أباً للأنبياء كلهم. قال تعالى {ووهبنا له إسحق ويعقوب ويحيى وعيسى وأليسع ويونس ولوطاً، وكلاً فضلنا على العالمين} (سورة الأنعام، آية 86) {وأولئك أتيناهم الكتاب والحكم والنبوة} (سورة الأنعام، آية 85).

إذن: لماذا كان الخلاف بين اليهود والرسول حول شخصية إبراهيم؟

لأن إبراهيم كان أبا الأنبياء، ومنهم إسماعيل جد الرسول (ص)، وقد روى أبو هريرة عن رسول الله (ص) أنه قال: «ليلة أسري بي، لقيت موسى، وإذا به رجل كثيف الشعر. ثم لقيت عيسى فإذا هو ربعة أحمر كأنه خرج من ديماس (حمام). ورأيت إبراهيم وأنا أشبه ولده به». وخاض اليهود والمسلمون حول الكذب الذي أبداه إبراهيم حول تزويجه سارة بقوله إنها أخته. قال أبو هريرة: حدَّث رسول الله (ص)، قال: لم يكذب إبراهيم الخليل إلا ثلاث كذبات، اثنتين في ذات الله عند قوله (إني سقيم) وقوله (بل فعله كبيرهم هذا) والثالثة قوله عن سارة (هي أختي) وزوجها لجبار مصر(32). مما تقدم نرى أن القرآن الكريم يصدِّق التوراة ويعظمها ولا يخالفها.

## الأنبياء في التوراة

كل الأنبياء هم أبناء إبراهيم، الأنبياء الذين عاشوا في فلسطين والأنبياء العرب الذين عاشوا في شمال الجزيرة العربية، وقد أخبرتنا عنهم التوراة والقرآن الكريم معاً.

## صورة نبي الله إسماعيل في التوراة

إسماعيل هو الابن البكر لإبراهيم من زوجته هاجر جارية سارة المصرية، ومعنى إسماعيل بالعبرية (سميع الله). تقول التوراة إن إبراهيم تزوج هاجر بموافقة زوجته سارة لأنها كانت عاقراً، وبعد أن حملت هاجر غارت سارة من ضرتها وطردتها، فلاقى ملاك الرب هاجر في الطريق وأمرها أن ترجع إلى بيت إبراهيم، ووعدها بأنها ستلد طفلاً وتسميه إسماعيل، وسيكون أباً لجمهور غفير من الناس وأنه وذريته سيسكن البرية كحمار وحشي (التكوين 16: 4- 14)، أي أنه يبقى منفرداً في البرية.

ولد إسماعيل لأبيه إبراهيم وكان عمره 86 سنة. عاش إسماعيل في أرض كنعان حتى صار عمره عشر سنوات، ثم ختن في الثانية عشرة من عمره كعادة العرب. وألحت سارة على إبراهيم وطردت هاجر وابنها، فتاهت هاجر وابنها في برية بئر سبع، وكانت على وشك الهلاك من العطش، فأرى الله هاجر بئر ماء

رواها وابنها الذي سيصير مصدر أمة عظيمة، وسكن وأمه برية فاران، وصار كالعرب ماهراً في الصيد، ورمي القرص وأخذ له زوجة من أخواله أهل مصر (التكوين 21: 15- 21). وصار لإسماعيل اثنا عشر ابناً، صاروا آباء القبائل العربية (الإسماعيليون) وعاد إسماعيل إلى الخليل واشترك وأخوه إسحق في دفن أبيهما إبراهيم (التكوين 25: 9) ومات إسماعيل بعد أن بلغ من العمر 137 عاماً. وصار أبناء إسماعيل تجاراً ينقلون البضائع من مكان إلى آخر. وعرفوا قيادة الجمال في الصحاري. وسكنوا الخيام السود، وصاروا يتنقلون، وصارت سكناهم شمال الحجاز والبتراء وبصرى الشام (التكوين 37: 25- 28). وكان من نسلهم غسان ولخم وجديس وطسم. استخدم بولس الرسول أولاد إسماعيل في العهد الجديد رمزاً لأولاد إبراهيم حسب الجسد لا حسب الروح، وهم تحت عبودية الناموس.

اختلف المسلمون واليهود حول شخصية الذبيح. قال اليهود إنه إسحق، وقال المسلمون بل هو إسماعيل، واستشهدوا بالقرآن الكريم {فلما بلغ معه السعي، قال: إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ما ترى. قال يا أبت افعل ما تؤمر، ستجدني إن شاء الله من الصابرين. فلما أسلما وتله للجبين، وناديناه إن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا، إنا لذلك نجزي المحسنين. إن هذا هو البلاء المبين، وفديناه بذبح عظيم (سورة الصافات، آية 102- 107). وفي القرآن أن إسماعيل كان نبياً {واذكر في الكتاب إسماعيل، إنه كان صادق الوعد، وكان رسولاً نبياً، وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند الله مرضياً} (سورة مريم، آية 54- 55).

لقد أخطأ كتاب التوراة مرتين: فإسماعيل هو ولده البكر، وهو الذبيح كعادة العرب، وليس إسحق، والخطأ الثاني لم تذكره التوراة من بين الأنبياء. فالتوراة متحاملة منذ القديم على العرب. واعتبروا العرب (الإسماعيليين) عبيد سارة (ساراقينوس) وهذا المصطلح أخذوه عن السريان.

أخذ الخيال الشعبي العربي قصة التوراة حول إسماعيل وجرى فيها تحوير وتبديل بما يتفق والذوق العربي، قال عبد الله بن عباس (المتوفى 58هـ/ 678م) جاء إبراهيم بهاجر وابنها، ووضعهما عند البيت الحرام القائم عند دوحة زمزم، وليس بمكة ماء، فوضعها هناك في برية فاران، ووضع عندها جراباً فيه

تمر، وسقاء فيه ماء، ثم مضى فتبعته هاجر وقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا في هذا الوادي الذي لا أنيس فيه؟ كررت ذلك مراراً وهي تتبعه، فلم يلتفت إليها. فقالت له يائسة: هل أمرك الله بهذا؟ قال: نعم. قالت: إذن لا يضيعنا الله. فانطلق إبراهيم ورفع يديه وقال: رب إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك الحرام، فارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون.

جعلت هاجر ترضع ابنها وتشرب من ماء السقاء حتى نفد الماء. قال ابن عباس: فلما أشرفت على الهلاك سمعت صوتاً، وإذا هي بالملاك عند موضع زمزم، فبحث بعقبه حتى ظهر الماء، فشربت وأرضعت ولدها، وقال الملاك: لا تخافوا فإن هذا بيت الله، يبنيه هذا الغلام وأبوه[33].

هذه الأسطورة أضافتها المخيلة العربية على ما جاءت به التوراة لتؤكد أن إسماعيل هو نبي مثل بقية أبناء إبراهيم الخليل.

### أيوب نبي الله

إنه شخصية أسطورية جاء ذكرها في أساطير أوغاريت، قصة الرجل الصالح الصابر الذي كان يثق بالعناية الإلهية رغم ما مرَّ به من محن. أخذ كتاب التوراة هذه الأسطورة وضمنوها في سفر أيوب وجعلوه نبياً عربياً عاش في الصحراء، وسوس له الشيطان: لماذا يسمح الله بعذاب الإنسان البار؟ فكانت إجابة السفر: إن الله قال للرجل المبتلى: ليس الابتلاء دلالة على غضب الله وعدم رضاه على العبد البار. وكل ألم هو دليل على أنه كانت هناك خطيئة سبب هذا الألم، وإن الإثم هو نتيجة للخطيئة، ويظل الشر نذير الفشل والخيبة. هل ارتكب أيوب خطيئة ما في صباه؟

إن أيوب لا يذكر ذلك، وأراد الشيطان أن يمتحن إيمان أيوب بالله وصبره، على المحن، وصار أيوب مع مرور الأيام تتنازعه هواجس وازداد يأسه من الشفاء، ولكنه لم يفقد ثقته بالله. قال أيوب: «أما أنا فقد علمت أن قلبي حي، وبعد أن يفنى جلدي ويزول جسدي أرى الله» (سفر أيوب 42: 7- 17). إن هذا الجواب يتطابق والنصوص المكتشفة في أوغاريت عام 1957. مما دفع العلماء المختصون بالتوراة إلى أن يقولوا إن هذا السفر قد كتب بعد العودة من السبي عام 440 ق.م، وإنه قد تأثر بالفكر السوري وبالفلسفة الرواقية، فلسفة زينون السوري،

يقول المستشرق الإنكليزي مرجليوث: «إن أسلوب هذا السفر، يشبه أسلوب المتكلمين عن التوحيد في البيئة العربية، وهو أنزه من أسلوب الأنبياء الإسرائيليين الذين كانوا يتقلبون في بيئة وثنية»[34].

ويرى عباس محمود العقاد أن أيوب كان نبياً عربياً في أرض تيماء يدين بالتوحيد وينكر عبارة الكواكب والأوثان، ويدعو إلى المساواة بين الحر والعبد أمام الله والحاكم وهو القائل: «أليس الله صانعي في البطن وصانع العبد وقد صورنا رب واحد في الرحم»[35].

يخيل إليَّ أن اليهود اطلعوا على الأدب الكنعاني الأوغاريتي وترجموا السفر إلى العبرية واختلقوا شخصية أيوب. فجاء النبي أيوب نسيجاً لوحده، دون بقية الأنبياء. قال تعالى: {وأيوب إذ نادى ربه، إني مسني الضر، وأنت أرحم الراحمين، فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر، وآتيناه وأهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين} (سورة الأنبياء، آية 83- 84).

وفي بداية السفر، يذكرها القرآن، قال تعالى: {واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه، إني مسني الشيطان بنصب وعذاب، ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا، وذكرى لأولي الألباب} (سورة ص، آية 42- 43).

صارت صورة أيوب مثالاً للعبد الصالح الصابر، واستخدمت في الأدب الصوفي الإسلامي والصوفية اليهودية (القبالاة).

## يوسف الصديق بين التوراة والقرآن

يعتبر يوسف الصديق، من الأنبياء العظام، فهو سليل بيت النبوة. هو يوسف بن يعقوب بن اسحق بن إبراهيم الخليل، وهو بكر يعقوب من زوجته راحيل، ولد في تل الفدان وسمته أمه يوسف أي يزيد على أمل أن الله سيرزقها ولداً آخر. عاش يوسف في تل الفدان في ظاهر حران على طريق القوافل. وعندما بلغ يوسف السابعة عشرة أرسله أبوه إلى شكيم (نابلس) حيث كان أخوته يرعون أغنامهم، ثم لحق بهم يعقوب لتفقد أحوالهم. كان يوسف مثيراً للغيرة لوسامته ولذكائه وقدرته على تفسير الأحلام. وفي أحد الأيام لحق بأخوته في أرض الرعي، فتآمروا عليه. ورموه في بئر مهجورة.

مرت قافلة تجارية من العرب، بالقرب من البئر، فسمعوا أنين يوسف وحملوه معهم إلى أرض مصر. وادعى أخوته أن الذئب أكله. و باعه العرب إلى فوطيفار حاكم بلدة حبيسان، وصار يوسف المدبر لشؤون المنزل.

وعندما بلغ يوسف الثامنة والعشرين صار قوي البنية، جميل الصورة، بهي الطلعة. أحبت يوسف امرأة العزيز، وعشقته وهامت به وهام بها، ولكنه خاف الله فعفَّ. وراودته على نفسها ولكنه دفعها عنه فشق قميصه، وعندما جاء زوجها شكت إليه يوسف فوضعه في السجن.

التقى يوسف في السجن رئيس سقاة فرعون ورئيس الخبازين، ورأوا حلماً ففسره لهما، وصدق تفسيره. وبعد سنتين رأى فرعون حلماً، وعجز عرافو القصر عن تفسيره وذكر له يوسف، وفسر حلم الفرعون العجيب (رأى الفرعون سبع بقرات عجاف أكلت سبع بقرات سمان) وفسر يوسف الحلم، بأنه ستأتي سبع سنوات خصبة تتلوها سبع سنوات مجدبة. فجمع سنابل القمح وخزنها كي لا تكون مجاعة، وجعله الفرعون رئيساً لمخازن حبوبه، وكانت تلك الوظيفة (رئيس الميرة) جعلته من رؤساء مجالس الدولة. وعندما بلغ يوسف الرابعة والثلاثين من عمره زوجه الفرعون من ابنة كاهن معبد عين شمس (أون القديمة) وكانت أسنات زوجة يوسف امرأة جميلة أنجبت له عدة أبناء.

حدثت في أرض كنعان مجاعة، فخرج أخوة يوسف إلى أرض مصر لابتياع القمح، وقابلوه ولم يعرفوه، ولكنه عرفهم ودعاهم إلى بيته، وقدَّم لهم الطعام، ولكنه لم يأكل معهم. وتلك هي عادة الرؤساء الذين يأنفون من الأكل مع العامة. وزودهم بالحبوب وأرسل معهم قميصه لوالده. وكان والده قد عمي حزناً على فرقة يوسف. وعندما شمَّ القميص أبصر. وجاء يعقوب إلى أرض حبيسان قرب بلدة تنيس، وعاش هو وأولاده في أرض مصر، ومات يوسف في أرض مصر، وحنطت جثته وحمله قومه ودفن بالقرب من قبر والده يعقوب في شكيم (التكوين 41: 19- 36). في قصة النبي يوسف نلمح قصة الأخوين القصة الفرعونية التي كشفت في أرض مصر، مكتوبة على ورق البردي وهي اليوم محفوظة في المتحف البريطاني.

قال المؤرخ اليهودي يوسيفوس في كتابه (الرد على أبيون الكاهن المصري)، معتمداً كتاب مانيون أشهر المؤرخين المصريين في العهد اليوناني، وله كتاب عن

تاريخ مصر، قال فيه: «إن تلك الأمة كانت تسمى بالهكسوس (الرعاة) لأنهم كانوا يعيشون على تربية الأغنام مهنة آبائهم، وكان المصريون يسمونهم بالأسرى». يقول يوسيفوس: «لأن أحد أجدادنا وهو يوسف قال للملك مصر إنه كان بأسر، وبعد ذلك أرسل في طلب أخوته إلى مصر بإذن الملك»(36). وهكذا نرى أن مانيون ينسب العبريين إلى الهكسوس، واستمروا في مصر حتى زمن موسى، عندما خرجوا مع موسى كانوا قد مكثوا حوالي 511 عاماً، عندما طردهم ملوك طيبة من كل أجزاء مصر، وكانوا لا يقلون عن 240 ألفاً، وجاؤوا إلى أرض كنعان وسكنوا جيروساليم (القدس) وهؤلاء الناس كانوا عرباً[37].

## صورة يوسف في القرآن الكريم

جاءت صورة يوسف في القرآن مطابقة للقصة التي وردت في التوراة، ولكن القصة في القرآن لطيفة بديعة التكوين، وقد وصفها القرآن بأنها من أحسن القصص، فيها العبرة والجاذبية. وهي قصة حب ابتلى الله يوسف بالشهوة، ولكنه صبر وعفّ مخافة الله[38].

عرض الوحي الإلهي قصة يوسف بأسلوب بلاغي رشيق متألق، يعجز عنه البشر، في صياغة للأحداث متكاملة. قال تعالى: {نحن نقص عليك أحسن القصص، بما أوحينا إليك} (سورة يوسف آية 39). وتمضي القصة وهي كتلة من العواطف المشبوبة {وراودته التي هو في بيتها عن نفسه، وغلقت الأبواب وقالت: هيت لك، قال: معاذ الله، إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون} (سورة يوسف آية 23). وهكذا تتطابق أحداث القصة في التوراة والقرآن. ولكي لا أطيل في الكلام سأكتفي بموقفين، مكر أخوته. قال تعالى لأبيهم: {يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف، إنا له لناصحون، وجاءوا على قميصه بدم كذب} (سورة يوسف آية 11). ولكن الأب يعقوب لم تنطل عليه الحيلة، قال لهم: {بل سولت لكم أنفسكم أمراً، فصبراً جميل والله المستعان على ما تصفون} (سورة يوسف آية 18).

وخاتمة القصة المفرحة للأب، عندما أحضر أخوة يوسف قميصه {ألقاه على وجهه فارتد بصيراً، قال: ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون. قالوا يا أبانا استغفر لنا، إنا كنا خاطئين} (سورة يوسف 96- 98). يكاد يكون النص القرآني ترجمة حرفية، فكيف يدعي البعض أن التوراة محرفة أو مزورة؟ معاذ الله.

كان يوسف نبياً ذا ثقافة واسعة، وحكيماً إلهياً وهبه الله القدرة على تفسير الأحلام، وكانت الأحلام في مصر من العلوم النافعة. فإذا رأى المرء في رؤياه ناراً تحرق فراشه، فذلك شر تأويله طلاق زوجته. وإذا رأى وجهه في مرآة، فذلك شر أيضاً، وتأويله أن زوجته تخونه وعليه الزواج بأخرى، وإذا رأى أنه يخلع مقعداً في قاربه، فهو شر تأويله حرمانه من زوجته التي ستموت[39].

ما أود قوله إن التوراة تمثلت ثقافة الشعوب القديمة، وعرضتها بأسلوب جميل ونسبتها إلى أنبيائهم القدماء، عرفنا ذلك على أثر المكتشفات الأثرية.

## قصة داود الملك (1010- 970 ق.م)

ترد سيرة داود في التوراة على أنه ملك عظيم، ولكنه في القرآن الكريم هو نبي من أولي العزم. والسؤال المطروح: هل كان داود ملكاً أم نبياً؟ كان داود ملكاً على بني إسرائيل، وعندما تاب وهجر الملك أصبح نبياً.

ولد الفتى داود بن يسي في بيت لحم، عام 1010 ق.م، ومعنى داود (المحبوب) وفعلاً كان داود جميلاً، أشقر الشعر، مع حلاوة في العينين، وحسن صورة في الوجه، وكان قوي البنية، كلفه والده برعي الغنم. يقال إن أسداً هاجمه فقتله داود، وكان داود يجيد العزف على قيثارته أثناء الرعي. وعندما بلغ 16 من عمره مسح بحضوره نفر من شيوخ قبيلته، وكان هذا الطقس نقطة تحول في حياته (صموئيل1، 16: 11).

أصيب الملك شاؤول بمرض، وكان داود يعزف له ليهدأ، وفي الحرب أبدى داود بطولة وشجاعة تثير الإعجاب، وكان يجيد أساليب القتال بالسلاح، الرمح والرمي بالقوس والرمي بالمقلاع. اشترك في مهاجمة معسكر الفلسطينيين قرب بيت لحم. وتصدى داود لمواجهة الملك جليات (جالوت) العربي. واستطاع بمهارته، وبخفة تسليحه أن يصرع جليات بحجر من مقلاعه، تقدم إليه وحزَّ رأسه. فهلل الشعب وهرب الجيش المعادي.

بدأت الغيرة تنهش قلب الملك شاؤول، وصار يتحين الفرصة لقتل داود كي لا يستأثر بالملك دونه، فهرب داود وتوارى (صموئيل 1: 24- 29). هرب داود إلى بلدة (جت) وطلب حماية ملكها الفلسطيني أخيش، ولكنه شكَّ في نوايا داود ولم يثق به، وألقى القبض عليه، فتظاهر داود بالجنون، وأطلق الفلسطينيون سراحه،

وعاد داود إلى منطقة يهودا، وأقام في مغارة (عدلام)، والتفت حوله هواشل القبائل، وتكاثروا وكان على رأسهم الكاهن الكنعاني (نوب). وعندما علم الملك شاؤول طاردهم فاختفى داود وترك المنطقة. وتزوج أرملة (نابال) وبتدبيرها وتشجيعها نهض لمحاربة شاؤول (صموئيل1: 18).

استولى داود على حبرون (الخليل) وبلغ سن الثلاثين، وتزوج عدة نساء وجاءته ثلاث بنات وظل في حبرون سبع سنوات، وقوي مركزه بحسن إدارته (صموئيل 2: 5).

بعد وفاة الملك شاؤول تقدم داود على مهاجمة حصن اليبوسيين (أورسالم) وبنى فيه قصراً، جلب إليه الصناع من مدينة صور، وكبر حجم الحصن وسمي (أورشليم). ثم غزا داود الفلسطينيين وهزمهم، وبنى الهيكل المقدس لوضع تابوت العهد، ووجه عنايته للشؤون الدينية، وإن كان في سلوكه داعراً يحب النساء. وكان في قصره 300 محظية. كان يقول: «أنعشوني بأقراص الزبيب، دفئوني بأجساد الصبايا». وكان لا يتورع عن الزنى. كان مرة يتجول فوق سطح قصره، فشاهد عن كثب امرأة شابة تستحم، فأعجب بها، وسأل عن زوجها فقيل له إنها بتشابع امرأة قائدك أوريا الحثي، فجلبها إلى قصره، وضمها إلى حريمه، وأرسل زوجها في مهمة فقتل.

شاع الخبر في أورشليم فتصدى له النبي ناثان، ووبخه وضرب له مثالاً عن رجل غني له 99 نعجة، ولجاره نعجة واحدة، فجاءه ضيوف ونحر لهم النعجة الواحدة، وسأله النبي ناثان ما جزاؤه؟ قال داود: يدفع له أربعاً. قال ناثان: أنت الرجل الغني صاحب 99 نعجة. فأدرك داود مغزى القصة فندم وتاب إلى الرب.

وجاءه طفل من المرأة التي ضاجعها دون وجه حق، وكان الطفل مشوهاً، فتألم وسجد لله يصلي لمدة ثلاثة أيام وتوفي الطفل. وجاءه ولد ثان من المرأة هو سليمان الحكيم، وجعله داود وريثاً لعرشه، وعندما كبر سليمان تنازل له داود عن الحكم، وتاب إلى الله وقال أشعاراً في التوبة والندم هي المزامير ودعي بالمرتل. وحكم سليمان من بعده بالعدل وحارب الآراميين والعماليق والأدوميين. مات سنة (970ق.م) عن عمر يناهز (71 سنة) ودفن في أورشليم قرب الهيكل (صمويل2: 21- 25)، وقبر داود اليوم جنوب الحرم.

هذا ملخص لحياة داود الملك في سفري صموئيل الأول والثاني، واليهود يعتبرونه من أعظم ملوك بني إسرائيل، إلا أنهم لم ينزهونه عن ارتكاب المعاصي،

واعتبره القرآن الكريم نبياً من أول العزم لان له الحديد، وكانت حرفته صناعة الدروع.

تولى الحكم بعد داود ابنه الملك سليمان (970- 935 ق.م) وهولت التوراة في قصته، دانت له الجن والطير والحيوان، وكان يفهم على كل لسان، حكم اليمن وتزوج من الملكة بلقيس وبنى لها قصراً من المرمر، كان هذا في التوراة، أما في التراث الإسلامي فهو أسطورة يحتار العقل في تصديقها. كان جيش سليمان طوله مائة فرسخ، خمسة وعشرون منها للأنس وخمسة وعشرون للجن، وخمسة وعشرون للوحوش، وخمسة وعشرون للطيور[40].

يروي وهب بن منبه (كان يهودياً أسلم) أن النملة التي نبهت النمل من جيش سليمان اسمها (جرسا) وكانت من قبيلة يقال لها (بنو الشيطان). وكانت عرجاء إلا أنها كانت بقدر حجم الذئب[41]. ووادي النمل معروف بالطائف.

أما عرش سليمان الملك، بعد وفاته بعض بختنصر الكلداني أخذ الكرسي، فأراد أن يصعد عليه، ولم يكن له علم بالصعود عليه ولا بأحواله، فلما وضع قدمه على الدرجة السفلى رفع الأسد الذي يمثل قاعدته اليمنى، فضرب ساقه ضربة شديدة أدمتها ورماه أرضاً، فحمل بختنصر ولم يزل يعرج ويتوجع منها حتى مات[42].

عجباً لهذا الجهل وتلك الذهنية المظلمة، التي تحدث عن بني إسرائيل دون حرج بحجة الحديث المروي عن أبي هريرة «بلغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني إسرائيل بلا حرج»[43].

## سيرة داود النبي في القرآن الكريم

ذكر القرآن الكريم داود النبي في مرحلتين من مراحل حياته:

**داود الملك**

روى ابن عباس أن طالوت أصبح ملكاً لبني إسرائيل، ولم يكن من سبط النبوة، وهم بنو لاوي ولا من سبط الملك وهم بنو يهوذا. وفي زمنه جاءهم التابوت وكان العماليق قد سبوه، فجاءت الملائكة حاملة التابوت، بين السماء والأرض، وبنو إسرائيل ينظرون إليه حتى وضعه بجانب طالوت وفيه توراة موسى وبقية مما ترك آل هارون. وفي ذلك الوقت جرت معركة وتقدم جالوت أمير العمالقة

(العماليق) فتقدم إليه داود وقتله بإذن الله، قال تعالى: {وقتل داود جالوت، وأتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء} (سورة البقرة، آية 251). وقيل المقصود بالحكمة هي النبوة. وقال تعالى: {ولقد أتينا داود منا فضلاً، يا جبال أوبي معه والطير، وألنّا له الحديد} (سورة سبأ، آية 10). قال المفسرون {ولقد أتينا داود فضلاً منا} هو النبوة والزبور (المزامير) وقيل القوة لأنه ألان الحديد من غير نار.

كان عبد الله بن عباس صديقاً لكعب الأحبار الذي كان يقرأ له ما في التوراة. ويروي عبد الله للناس تلك الخرافات، وبناء على ذلك وصف بحبر الأمة.

## داود النبي

عن ابن عباس أن داود رأى امرأة أوريا الحثي، تغتسل فأعجبته، فقدم زوجها في الحرب حتى قتل، فلما انقضت عدتها خطبها داود وتزوجها. فتسور عليه الملكان المحراب، قال أحد الملكين لداود {إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة، فقال أكفلنيها وعزني في الخطاب. وعرف داود ماذا يقصدان؟ فخرَّ راكعاً وأناب فغفرنا له ذلك، وأنه له عندنا لزلفى وحسن مآب} (سورة ص، آية 23- 25).

جعل ابن عباس داود قد تزوج بتشابع زوجة أوريا الحثي، لما انقضت عدتها، والتوراة تجعله تزوجها وزوجها حي، والتوراة هي الأصح. لقوله تعالى: {فخرَّ (داود) راكعاً وأناب} قال المفسرون «إنه رجع إلى الله بالتوبة من ذنبه، إذ قدَّم زوج المرأة الواحدة في الحرب ليقتل، فقتل وتزوجها، وعندما نبهه الملكان إلى ذلك استغفر وتاب»[44].

كان اليهود في حكمهم على داود أكثر دقة، فهو عندهم رمز للإنسان الصهيوني. قال الدكتور عبد الوهاب المسيري: «إن الدعاية الصهيونية نجحت في ترسيخ صورة داود رمزاً لإسرائيل، الذي يستخدم ذكاءه في هزيمة عدوه، في مقابل صورة جوليات رمزاً للعربي الذي يتسم بضخامة الجسم وكثرة السلاح، لكنه لا يستخدم عقله فيمنى بالهزيمة»(45). إن اليهود لا ينظرون إلى داود من زاوية النبوة وإنما ينظرون إليه من زاوية الملك فلا يضيره إن تسرى أو زنى.

## نبي الله يونس

نبي عظيم له سفر يونان، اسمه في العبرية يونه أي الحمامة. وهو يونس بن أمتاي من سبط زبولون من أهالي (جت حاقر) قرب الناصرة وقصته في التوراة

أقرب إلى الحكاية الخرافية التي تروى للعظمة، وهو نبي عند المسيحيين والمسلمين لأن الإيمان بالله ليس وقفاً على اليهود فقط. جاء في سفر يونان «إن الله أمره بالذهاب إلى نينوى ليعلن خرابها، قال يونس: ويل لمدينة الدماء كلها ملآنة كذباً وخطفاً، جرحك يا نينوى عديم الشفاء وكل الذين يسمعون خبرك يصفقون بأيديهم عليك» (سفر يونان 3: 1 و19).

ركب يونان المركب وحدثت عاصفة فألقى يونان نفسه في اليم فابتلعه حوت عظيم، وبعد ثلاثة أيام وهو في بطن الحوت قال لهم «أكلني ملك بابل، وجعلني إناء فارغاً، ابتلعني كتين وأخرج من فمه ما ابتلعه». وعندما سمع أهل مدينة نينوى قصته تابوا على يديه، وجلس خارج المدينة بالقرب من شجرة يقطين، نمت بسرعة فظللته، وسمح للسكان الذين بينهم كثير من الأبرياء بالهرب والنجاة من الغضب الآتي عليهم[46].

لعبت شخصية يونس (يونان) دوراً هاماً في اللاهوت المسيحي لأن يسوع المسيح مثل محنته «إنه كان كما كان يونان في بطن الحوت كذلك هو».

اختلف مؤرخو اليهود في مكان قبر النبي يونان، يروي الرحالة اليهودي الأندلسي فناحية، أنه وجد له قبراً بالجليل (فلسطين) وعليه قيم من المسلمين، وحوله روضة غناء يقدم من فاكهتها لحجاج اليهود دون سواهم.

ويذكر الرحالة بنيامين التطيلي (1160) أن قبر النبي يونس في الموصل وأنه عاش حوالي سنة 587 ق.م، وهو مقدس عند المسلمين واليهود. ونينوى اليوم أطلال دارسة حولها قرى وضياع كثيرة.

أما الرحالة المسلمون فيذكرون أن هذا المقام يعرف قديماً بتل التوبة بالقرب من نبع ماء يقال له (عين يونس) وهناك شجرة اليقطين من غرس النبي يونس (سفر يونان 4: 6) ويضيف المقدسي (المتوفى 985م) وعنده جامع من بناء ناصر الدولة الحمداني.

لماذا يهتم المسلمون بقبر النبي يونس؟ لأنه من الأنبياء الصابرين. قال تعالى: {فالتقمه الحوت وهو مليم، فلولا أنه كان من المسبِّحين، للبث في بطنه إلى يوم يبعثون، فنبذناه في العراء، وهو سقيم، وأتينا عليه شجرة يقطين} (سورة الصافات آية 140- 146).

وعن إيمان النبي يونس وعدم قنوطه برحمة الله قال تعالى: {ونادى في الظلمات، أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، فاستجبنا له، ونجيناه من الغم كذلك ننجي المؤمنين» (سورة الأنبياء آية 87- 88).

من قصص الأنبياء تبين لي أن التوراة وأسفار الأنبياء كانت صحيحة، وأنه لا تزوير فيها في عهد الرسول (ص) بل إنها على الصورة التي كتبها عزرا والأحبار أما قبل ذلك فهي مكونة من صور ملفقة من تراث الأمم السالفة. وسأعطي الدليل الحاسم والجازم على ذلك من القصص الثلاث (خلق العالم، وقصة خلق آدم، وقصة نوح والطوفان). وهذه القصص قد جمعت من تراث الأمم السابقة.

**قصة الخليقة وخلق آدم**

يقول الأستاذ سيد محمود القمني «كان المظنون حتى عهد قريب، أن الكاتب التوراتي هو الناظم الأول لأسطورة الخلق بهذا الشكل الذي اكتسب ثباتاً عجيباً، وانتقل إلى الديانات الموحدة مع بعض التهذيب والتشذيب، حتى بدأت الكشوف الأركيولية (الأثرية) المعاصرة تأتي ثمارها، وتمَّ فك رموز الكتابة الهيروغليفية المصرية، والمسماريات الرافدية، والكتابة الأوغاريتية (الكنعانية) مما أثبت أن قصة الخلق التوراتية ليست إلا تهجيناً لمجموعة من الملاحم القديمة، أعاد اليهود صياغتها في توراتهم، واندثرت تلك الحضارات القديمة، ونسي تراثها، حتى العصر الحديث»[47].

ظهرت اللقى الأثرية فغيرت معتقدات الناس، وما ادعاه اليهود أن مصدرهم الوحي الإلهي تبين أنه اقتباس من ملاحم وأساطير سومرية وسورية أسطورة إينومايليش Enuma Elish وغيرها من الأساطير المصرية.

تقول الأسطورة التوراتية إن العالم قد خلقه الله من العدم، وهذه قفزة هائلة في تاريخ الفكر البشري الذي كان يقول إن العالم موجود منذ الأزل والآلهة هي المنظمة له. في البداية خلق الله الماء ثم خلق السموات والأرض والكواكب (الشمس والقمر والنجوم) ثم الحيوان والنبات والريح والملائكة، وأخيراً الإنسان. ولكن التوراة نسبت الخلق إلى عملية متدرجة في ستة أيام ثم استراح الرب في يوم السبت. وفي اليوم الأول خلق النور المنتشر، وفي اليوم الثاني نظم السموات وفصلها عن سطح الأرض بواسطة الجلد. وفي اليوم الثالث فصل المياه عن اليابسة وخلق الثبات والعمل. وفي اليوم الرابع أظهر نور السموات (الشمس)

والكواكب عن طريق تكسيره للأبخرة. وفي اليوم الخامس خلق الحيوانات الدنيا، الأسماك والزواحف والطيور. وفي اليوم السادس خلق الحيوانات البرية ثم خلق الإنسان على صورة الله. وفي اليوم السابع جعله الله لراحته، وبدأ يحرس العالم ويدبر شؤونه (سفر التكوين 2: 2-3).

وجدت مثيل هذه الأسطورة في أنقاض مدينة أريدو السومرية، قصت علينا تلك الأسطورة كيفية خلق العالم التوراتية بشكل آخر، حيث كان كل شيء مغطى بالماء، ثم جفت المياه عن سطح الأرض وظهرت الجبال. وخلق الإله الأكبر (مردوخ) الآلهة الأخرى، والحيوانات والنبات ثم الإنسان.

كيف خلق الإله مردوخ الإنسان الأول؟

خلقه من طين صلصال من وجه الأرض، خلقه كي يعمر الأرض ويزرعها، وعلمه كيفية الحرث والري والصيد، وصنع أدواته وسمَّى له الأشياء دفعة واحدة.

وجدت هذه الأسطورة السومرية على سبعة ألواح طينية في أنشودة تقول: وجد قبل السموات والأرض بزمن طويل إلهة اسمها تعامة Tiamet وزوجها أبسو Apsu ومن مضاجعتهما جاءت الآلهة الأخرى، ولكن الإله مردوخ إله النور قتل تعامة آلهة الظلمة في معركة نشبت بينهما، وفصل جسمها إلى جزأين:

-جزء صنع منه السماء وجعله مسكن الآلهة.

-وجزء صنع منه الأرض، التي خلق عليها البشر، وأوجد فيها مدينة بابل.

وفي اللوح الخامس من الأسطورة، أن الإله مردوخ خلق في اليوم الأول النور. وفي اليوم الثاني خلق القمر. وفي اليوم الثالث خلق الشمس. وفي اليوم الرابع خلق الليل. وفي اليوم الخامس خلق النهار. وفي اليوم السادس خلق الإنسان والحيوان والنبات.

هذه المعلومات وصلتنا عن طريق التنقيب الأثري الحديث، كما أنها وصلتنا عن طريق كتابات الكاهن البابلي بيروسس (برعشتا) كتبها حوالي عام 264 ق.م، في كتاب عن تاريخ بابل باليونانية في ثلاثة مجلدات.

ومن التنقيب الأثري في بلدة أريدو ظهرت كتابات الكاهن البابلي آدابا Adapa، الذي قدَّم لنا قصة حسابه أمام الإله مردوخ، لارتكابه بعض الآثام. ونتيجة الحساب رأت الآلهة مكافأة له منحه الخلود، ولكن الحكيم آدابا رفض الخلود وفضل عليه أكل الخبز وشرب ماء الحياة، وبذلك حرم نفسه من نعمة

الخلود. عاش آدابا الحكيم، يأكل من ثمرات الدنيا دون أن يخشى الموت الذي كان يتهدده في كل لحظة. هذه هي سمة الإنسان الفاضل عند السومريين الذي ينتظر الموت دائماً ويستعد له.

وفي تل العمارنة في مصر، عثر على أربع نسخ من أسطورة الخلق السومرية، مع قصة الحكيم آدابا. كانت هذه الكتابات رسائل أرسلت إلى الملك أمنحوتب الرابع (أخناتون) جاءته عن طريق سورية.

تدل هذه الرسائل على التواصل الحضاري بين أطراف الهلال الخصيب ومصر وبلاد الرافدين. يقول المؤرخ صموئيل نوح كريمر، إن المفكرين السومريين كانوا يعتقدون أن الإنسان خلق من الطين من أجل غرض واحد هو أن يعبد الآلهة ويخدمها بعمارته للأرض[48].

وفي رأس شمرا (أوغاريت) كشف عام 1974 على أصل ميثولوجيا الخلق التوراتية، وكان أهم ما ورد فيها تطابق الأحداث حتى اسم أبي البشر (آدم) بلفظه ورسمه، كما وردت عبارة (أب آدم ويقرب) أي ويقترب أبو البشر[48]، ويقرب من ذلك اسم آدابا.

## قصة خلق آدم التوراتية وسقوطه

خلق الله آدم على صورته، وجعله خليفته على الأرض، وكان في بداية حياته يعيش في الجنة، وكان فيها شجرة الحياة، أما كيف خلق الله آدم، فقصة التكوين لا تختلف عن الأسطورة السومرية التي كشف عنها في بلدة أريدو، أو قصة آدم التي كشف عنها في مدينة أوغاريت، وظهر اسم (آدم). تقول الأسطورة التوراتية «خلق الله آدم من طين، ونفخ في أنفه نسمة الحياة، وأعطاه العقل، وخلق له من نفسه زوجته حواء، وأن الله منعهما من أكل شجرة الحياة، الشجرة التي تحوِّل من يأكل مها، معرفة نفسه وما يحيط به وينشغل عن ذكر الله، وبواسطة الحية جعلهما إبليس يأكلان من الشجرة التي حرم الله عليهما أكلها. وعندما أكلا من الشجرة أنزلهما الله من الجنة إلى الأرض بسبب الخطيئة التي ارتكباها» (سفر التكوين 2: 10).

عثر في آثار سومر على رقم طيني عليه صورة تمثل ذكراً وأنثى يجلسان متقابلين، وبينهما شجرة نخيل، وخلف الأنثى تدلت حية رأسها بجوار رأس الأنثى، بينما تمد الأنثى يدها نحو الذكر الجالس أمامها، ليتناول من ثمار النخلة[50]. هذه الصورة تمثل أسباب خروج آدم من الجنة، كما وردت في التوراة.

## القصة القرآنية لخلق العالم

جاءت قصة خلق العالم في القرآن الكريم مطابقة ومصدقة لما جاء في التوراة. وحسب رواية عبد الله بن عباس (المتوفى 68هـ/ 688م) وهو الرجل الموصوف بترجمان القرآن، فهو يفسر القرآن طبقاً لما يرويه له معلمه كعب الأحبار.

عن علي بن الحسين المسعودي (المتوفى 346هـ/ 957م) قال: روي عن عبد الله بن عباس وغيره: «إن أول ما خلق الله، الماء وكان عرشه عليه. فلما أراد الله أن يخلق الخلق، أخرج من الماء دخاناً (بخاراً) فارتفع الدخان فوق الماء فسماه سماء، ثم أيبس الماء فجعله أرضاً واحدة، ثم فتقها فجعلها سبع أرضين في يومي الأحد والاثنين، وخلق الأرض على حوت والحوت في الماء والماء على الصفا، والصفا على ظهر ملك (ملاك)، والملك على صخرة، والصخرة على الريح، وخلق الجبال في الأرض وخلق أقوات أهلها في يومي الثلاثاء والأربعاء، ثم استوى إلى السماء وهي دخان، فكان ذلك الدخان من نفس الماء، حين تنفس فجعلها سواء واحدة، ثم فتقها فجعلها سبعاً في يوم الخميس والجمعة، وإنما سمي الجمعة لأن الله جمع فيه خلق السموات والأرض، وإن سماء الدنيا من زمردة خضراء، والسماء الثانية من فضة بيضاء، والسماء الثالثة من ياقوتة حمراء، والسماء الرابعة من درة بيضاء، والسماء الخامسة من ذهب أحمر، والسماء السادسة من ياقوتة صفراء، والسماء السابعة من نور، قد طبقها الله بملائكته قيام على رجل واحدة تعظيماً لله لقربهم منه، قد خرقت الأرض السابعة، واستقرت أقدامهم على مسيرة خمسمائة عام تحت الأرض السابعة، ورؤوسهم تحت العرش من غير أن تبلغ العرش، وهم يقولون: لا إله إلا الله ذو العرش المجيد، فهم على ذلك منذ خلقوا أن تقوم الساعة، وتحت العرش بحر تنزل منه أرزاق الحيوان، بوحي من الله - تعالى - فيمطر ما شاء من سماء إلى سماء حتى ينتهي إلى موضع يقال له الأبرم، فيوحي الله إلى الريح فتحمله إلى السحاب فتغربله، وتحت سماء الدنيا بحر من ماء تطفح فيه الدواب، مثل ما في بحور الأرض مستمسك بالقدرة. وإن الله تعالى أسكن ظهر الأرض، لما فرغ من خلق الجن قبل آدم، فجعلهم من مارج

من نار وإبليس فيهم، فنهاهم الله عن سفك الدماء، أو أن يظهروا المعصية بينهم، فسفكوا الدماء وعدا بعضهم على بعض، فلما رآهم إبليس، سال الله أن يرفعه إلى السماء، فصار مع الملائكة، يعبد الله أشد عبادة، وأرسل إلى الجن فريقاً من الملائكة فطردوهم إلى جزائر البحار، وجعل الله إبليس على سماء الدنيا خازناً، فوقع في صدره الكبر[51].

### خلق آدم وسقوطه

ويستمر ابن عباس في الرواية «ثم شاء الله أن يخلق آدم، فقال للملائكة (إني جاعل في الأرض خليفة) فقالوا: ربنا ما يكون ذلك الخليفة؟ قال: تكون له ذرية، ويفسدون في الأرض، ويقتل بعضهم بعضاً. فقالوا: ربنا أتجعل فيها من يفسد ويسفك الدماء؟ ونحن نسبِّح بحمدك، ونقدِّس لك؟ قال: إني أعلم ما لا تعلمون! ثم بعث الله جبريل إلى الأرض ليأتيه بطين منها، فقالت له الأرض: إني أعوذ بالله منك أن تنقصني. فرجع ولم يأخذ منها شيئاً. وقال: يا رب إنها عاذت بك! ثم بعث ميكائيل، فقالت له مثل ذلك، فرجع ولم يأخذ منها شيئاً. فبعث الله ملك الموت (عزرائيل) فعاذت بالله منه، فقال: وأنا أعوذ بالله أن أرجع ولم أنفذ الأمر. فأخذ منها تربة سوداء وحمراء وبيضاء، فلذلك خرج بنو آدم مختلفي الألوان.

سمي آدم لأنه خرج من أديم الأرض الأحمر، وجعل الله التراب وتركه حتى صار طيناً لازباً، يلزق بعضه ببعض أربعين سنة، ثم تركه حتى أنتن وتغير أربعين سنة أخرى، ثم صوره وتركه بلا روح من صلصال كالفخار، حتى مضى عليه 120 سنة، فكانت الملائكة عزبه، وكان أشدهم فزعاً إبليس، وكان كلما مرَّ بآدم ركله برجله، ويدخل من فيه ويخرج من دبره، ويقول: لأمر ما خلقت. ولما نفخ الله فيه من روحه، قال للملائكة: اسجدوا لآدم. فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر. وقال: يا رب أنا خير منه، خلقتني من نار وخلقته من طين، والنار أشرف من الطين، وأنا الموشح بالنور والمتوج بالكرامة، وأنا الذي عبدتك في سمائك وأرضك، فبعزتك لن أسجد إلا لك! فقال الله: اخرج منها، فأنت رجيم، وأن عليك لعنتي إلى يوم الدين. فسال إبليس ربه أن يمهله إلى يوم يبعثون، فأنظره إلى الوقت المعلوم.

وعندما نفخ الله في آدم الروح، عطس، فقال له الله: قل الحمد لله، يرحمك الله يا آدم. قال المسعودي: «وما ذكرناه من الأخبار في مبدأ الخليقة ما جاءت به الشريعة»[52].

كيف هبط آدم إلى الأرض؟ يقول المسعودي: «أما ما ذهب إليه الجمهور من أهل الفقه والآثار فهو أن الابتداء في خلق العالم كان يوم الأحد والفراغ منه كان يوم الجمعة، وفيه نفخ الله في آدم الروح، وهو اليوم السادس من نيسان. ثم خلقت حواء من ضلع آدم، وأسكنا الجنة لثلاث ساعات وبضع وهو ربع يوم وهو يعادل 250 عاماً من أعوام الدنيا. أين هبط آدم من الجنة؟ هبط بالهند في جزيرة سرنديب (سريلانكا) على جبل الراهون، وعليه الورق خصفه آدم من شجر الجنة، فيبس الورق وذرته الرياح، فانتثر الورق في بلاد الهند، وهذا هو على كون الطيب بأرض الهند. وقيل إن آدم لما هبط من الجنة، أخرج معه جرة من الحنطة وثلاثين قضيباً من أشجار الجنة من كل الثمار.

وقيل: إن آدم هبط من الجنة هو وحواء، هبطا متفارقين، فتعارفا في جبل عرفة، وغشى آدم حواء فحملت ذكراً وأنثى فسمي هابيل والأنثى (أقليمياء) والولد الثاني قابين ومعه أنثى، وذكر اليهود من أهل الكتاب أن آدم زوج أخت هابيل لقابين وأخت قابين لهابيل[53]. بهه الخرافات، نال عبد الله بن عباس عن جدارة عند جمهور المفسرين لقب (ترجمان القرآن).

عندما تجرأ القس جورج دارون (1809- 1882) على القول بأن آدم تطور من كائن يشبه القرد، وقفت ضده الكنيسة وتبعهم المسلمون، وجرت دراسات على عظام الإنسان القديم. قال كارل واشبورن إن التطور الهائل في عظام الحوض عند الإنسان، يشكل مرحلة انتقالية كبيرة من القرد إلى الإنسان. حدث هذا منذ أكثر من مليوني سنة، في نوع من القردة الأرضية أنجبت سلالة ذات حوض معتدل نتيجة تلك الطفرة الوراثية. وقد ساعد الانتخاب بعد ذلك والمواءمة في الوظيفة على اكتساب تلك الصفة وبقائها في الإنسان[54]. والدليل على صحة تلك الفرضية، الحفائر التي أجريت في فلسطين في الفترة (1929- 1935) حيث وجد السير آرثر كيث نحو 12 هيكلاً بشرياً لإنسان النياندرتال في كهوف جبل الكرمل، ويعتقد أنها تعود إلى سلالات متقدمة نوعاً ما في التطور[55].

طبعاً، هذه الأقوال تناقض النظرية التوراتية، وأيدها المسلمون، وهو أن الله خلق آدم من طين في أحسن تقويم، وكان ذلك منذ سبعة آلاف عام، ومن الغريب أنه في منطقة أرخبيل الملايو يعيش القرد المعروف باسم (الأورنج أوتان) وهي كلمة أندوسية تعني (إنسان الغاب). كان الفقهاء المسلمون يكفرون كل من يقول إن الإنسان خلق من خلية حية، وعندما كتب الدكتور عبد الصبور شاهين وهو مفكر إسلامي أصولي كتاباً ميَّز فيه بين آدم أبي البشر، وبين آدم الإنسان، فأقام عليه الأزهر الشريف دعوة وحاكمه على أقواله المنافية للدين، لأنه شكك بوجود آدم أبي البشر، الذي لا يوجد من هو أقدم منه، وقد خلق من طين في أحسن تقويم منذ سبعة آلاف عام. هذه هي فكرة التوراة التي لا تزال تسري في الفكر الإسلامي منذ أربعة عشر قرناً.

## قصة الطوفان التوراتية

قبل الاكتشافات الأثرية في بلاد الرافدين، كانت قصة الطوفان التي جاءت التوراة هي حقيقة أوحى بها الله تعالى على موسى وهي حقيقة لا يأتيها الباطل. وردت القصة في سفر التكوين، ترتبط القصة بالنبي نوح بن لامك، ومعنى نوح بالعبرية (الراحة). كان نوح ولداً باراً بوالديه، ومنذ يفاعته أعلن إيمانه المطلق بالله، إلا أن البشر في عصره قد فسدوا، وخرجوا عن الطريق القويم، وعملوا الشر، واقترفوا الآثام، فحزن الرب، وقرر أن يهلك البشر إلا نوحاً وأهله.

أمر الرب نوحاً أن يصنع فلكاً، ويحمل معه عائلته ومن الحيوانات النافعة من كل نوع زوجين. وبعد سبعة أيام هطل مطر شديد لمدة أربعين يوماً وليلة. فغرق كل من على وجه الأرض. وأطلق نوح غراباً من السفينة، فلم يعد لأنه التهى بأكل جثث الموتى. ثم أطلق حمامة فأتته بالخبر السار وهو انحسار المياه.

خرج نوح إلى اليابسة وبنى مذبحاً للرب، وقدَّم عليه بعض القرابين الطاهرة، وأوصى الرب نوحاً ألا يأكل الحيوانات النافقة أو المصابة بمرض. واشتغل نوح بالزراعة، وصنع من العنب خمراً، وشرب منه نوح، وسكر، فكشف ولده الصغير (حام) على عورة أبيه، ولكن أخويه (سام ويافث) وضعا الرداء على عورة أبيهما، فدعا لهما. عاش نوح 950 سنة (سفر التكوين 9: 1- 7) وكلَّم الله نوحاً قائلاً:

«هذه علامة ميثاقي معكم ومع نسلكم من بعدكم، وضعت قوسي في السحاب (قوس قزح) فتكون علامة ميثاق بيني وبينكم، وبين كل نفس حية، فلا تكون المياه طوفاناً بعد اليوم لتهلك كل ذي جسد» (التكوين 6: 9). ولكن الطوفانات لم تزل مستمرة وخير مثال على ذلك الطوفان الذي رافق زلزال تسونامي في أندونيسيا عام 2005م، والفيضانات الدائمة والمنتشرة في كل أنحاء العالم.

## قصة الطوفان السومري والبابلي

كشفت الأساطير السومرية عن أسطورة الطوفان في أور. تقول ألواح سومر إن الملك الورع التقي زيوسودرا Ziusudra الذي كان يؤدي النذور بانتظام لكهان الآلهة، فاختارته الآلهة لتخبره بقرارها في إفناء الحياة الأرضية بالطوفان ونصحته ببناء فلك عظيم فيه من كل زوجين اثنين، وتهطل الأمطار وتغمر العالم ويهلك البشر، وينجو الملك زيوسودرا وبنوه. وتأتي الدولة البابلية، فتتناول أسطورة الطوفان وتعيد صياغتها ويظل المحتوى ذاته، ولكن تتغير الأسماء. تقول الأسطورة البابلية: نزل جلجامش إلى العالم السفلي، وتأمل عالم الموتى، وجعل هدفه البحث عن الخلود، وسمع من أحد أسلافه المدعو (أوت - نابشتيم) أنه قد نجا من الموت، فجاء إليه وسأله: كيف دخلت مجمع الخالدين؟ فأخبره بسر الخلود، وعرفه بالغرسة العجيبة التي تنمو في قاع البحر والتي فيها سر الخلود. نزل جلجامش إلى أعماق اليم، ووجد النبتة وعاد بها، ولكن حية سرقتها منه. عاد جلجامش إلى العبد الصالح (أوت - نابشتيم) حزيناً وقصَّ عليه ما جرى له، ولكي يعزيه، قصَّ عليه قصة الطوفان، قال: غضبت الآلهة على بني البشر، واعتزم إله الحكمة آي Ai أن ينجي رجلاً صالحاً وامرأته لأنهما صالحان ويحفظان سر الخلق، وبينما كان (أوت - نابشتيم) نائماً جاءه صوت الإله (آي) في الحلم يقول له: انهض يا من أطعت الآلهة وحفظت العهد، انهض واهدم بيتك واصنع فلكاً من خشبه، وخذ معك بذرة من كل شيء حي، لتحميها كما نحميك.

نفَّذ (أوت - نابشتيم) ما أخبرته به الآلهة في الحلم، وصنع سفينة طولها 120 ذراعاً وارتفاعها 6 طوابق وعرضها 9 أذرع، وطلاها بالقار، ووضع فيها كميات من الخمر والزيت وأنواع الحبوب والبقول، وزوجين من كل حيوان نافع

يدب أو طير يطير. وبعد أيام قليلة، انهمرت الأمطار الغزيرة، من سحابة سوداء يسوقها الإله (رامان) مطلق الرعود، وأخذت الآلهة (أوجال ونابو ومردوك) تفتح كل طاقات السماء، وهطلت الأمطار الغزيرة، وتراكض الناس يبحثون عن ملجأ، فلجأوا إلى قمم الجبال كي تعصمهم من الغرق. واستمر هطول الماء ستة أيام، وقضى على كل من في فمه نسمة، وطهَّر الطوفان الأرض من الظلم والفساد، ولم يبق حياً إلا من حمله الفلك. وفي الليل السابع بدأت المياه تنجاب عن الأرض، وأطل الرجل الصالح من طاقة الفلك، وصرخ عالياً لمرأى الناس الغرقى في الطين وفي وحول المستنقعات، فبكى وأهله. وظل الفلك يسير على وجه الماء، وبدأت المياه تتناقص وظهرت قمة جبل Nazir، وأرسل (أوت - نابشتيم) غراباً، ليستطلع له الأرض، ومضى ولم يعد، وانتهى بنهش جثث الموتى، ثم أرسل الحمامة بعد سبعة أيام، فأبصرت أشجاراً خضراء وعادت بغصن زيتون أخضر، وفرح (أوت - نابشتيم) واستقر الفلك على الأرض وخرج العبد الصالح من الفلك وخرَّ ساجداً للإله مردوك، ثم بنى مذبحاً وقدَّم عليه قرابين الشكر، وأحرق أعواد المرِّ والبخور، وجاءت إلى المعبد عشتار وقالت: باسم جواهر الآلهة التي تحيط بعنقي لن أنسى هذا اليوم أبداً.

جاءتنا هذه الأسطورة البابلية من عدة ألواح طينية، من بابل ونينوى وحران، وقد استمد العبرانيون هذه الأسطورة من الأساطير القديمة. يقول صموئيل نوح كريمر: «تتألف أساطير العالم القديم غالباً من قصص الأرباب والأبطال، من حيث مولدهم وموتهم وحبهم وبغضهم، وانتصاراتهم وهزائمهم، وأعمال الخلق والتدمير كملحمة جلجامش في الخلق، وهناك غير قليل من الأساطير القديمة، فيها ما يتعلق بنظام الكون وشكل الإنسان، وإقامة الحضارة وهي وإن اختلفت من حيث دوافعها، فإنها تعكس خلق الشعب الذي أنتجها ومزاجه وتاريخ مستوى حضارته»[56].

لقد استمد سفر التكوين قصة الخلق البابلية ونسبها إلى الثقافة العبرية، التي تمثلت كل أساطير العالم القديم وكونت ثقافتها الخاصة بهم، وهذا دليل على حيوية الثقافة العبرية قديماً.

## قصة الطوفان في القرآن

ذكر النبي نوح في القرآن الكريم في 26 سورة ثم خصَّ بسورة خاصة به هي سورة نوح، عدد آياتها 28 آية. وجاءت قصته متطابقة مع قصة الطوفان التوراتية. قال تعالى: {إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه، أن أنذر قومك قبل أن يأتيهم عذاب أليم، وقال نوح: إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً، فلم يزدهم دعائي إلا فراراً، ثم إني دعوتهم جهاراً، وأسررت لهم أسراراً، وقال نوح: وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم. وقال لهم نوح: استغفروا ربكم إنه كان غفاراً. ولكن قوم نوح عصوه، ومكروا مكراً كباراً، فقال نوح: رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً، إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً، رب اغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمناً} (سورة نوح 1- 28).

نلاحظ من مقارنة سورة نوح بالتوراة نجدها متطابقة ونجد شخصية نوح قاسية تطلب هلاك قومه، بينما شخصية نوح البابلية رحيمة تبكي على البشر، ومصيرهم البائس، وشخصية نوح القرآنية، تتصف بالعدالة لأن الله لا يعذب قوماً إلا بعد إنذارهم على العكس من القصة التوراتية. ومهما يكن فنوح القرآني شخصية مؤمنة، وجد فيها الإرهابيون تبريراً لأفعالهم {إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً} (سورة نوح، آية 28).

## قصارى القول

حاولتُ أن أبيِّن في هذا الفصل الجذور التاريخية للعقيدة اليهودية، وما تمثلته من أساطير الأولين، ووجدتُ الأسطورة محاولة من الإنسان البدائي لتفسير العالم في فترة زمنية سبقت القراءة والكتابة، ثم تناقلتها الأجيال شفاهاً وأضاف إليها من خبراته. وفي زمن الكتابة حاول إعادة إنتاج الأسطورة كما فعل السومريون والبابليون والعبريون في أسطورة الخلق والطوفان التي اكتشفت في أريدو وبابل ونينوى وحران وطيبة في مصر. وخلال مئات السنين كان يحصل عليها تحوير وتطوير يتناسب والأفكار الحديثة في زمنهم. قال الأستاذ المفكر حسن حنفي: «إن كل شيء ينتج في التاريخ يجب تحليل خصوصيته الدينية باعتبارها نابتة من الأرض وليست هابطة من السماء، والتوراة لم تدوَّن إلا بعد الأسر البابلي من التراث الشفوي، وبالتالي دخل فيها كل تاريخ بني إسرائيل»[57].

والسؤال المطروح: هل يمكن اعتبار الأسطورة نصاً تاريخياً؟

نعم الأسطورة هي تاريخ الإنسان قبل أن يتمكن من السيطرة على ناصية اللغة، وقبل أن يتمكن من فهم أسرار الطبيعة التي حوله، وقبل تعلم الكتابة، فهي تاريخ إنسان ما قبل التاريخ، وهي تاريخ الإنسان عندما اخترع الرموز الأولى لفهم العالم، وعندما ربط الإنسان تلك الرموز بكائن أعلى، هو الإله الخالق. قال أرنست كاسيرر: «اللغة والأسطورة والفن والدين هي أجزاء من هذا العالم، فهذه الخيوط المتنوعة التي تحاك فيها (شبكة الرموز) أعني العالم المتصور. وكل تقدم إنساني في الفكر والتجربة، يرهف هذه الشبكة ويقويها. وبدلاً من أن يعالج الإنسان القديم الأشياء نراه يتحدث إلى نفسه، وقد تلفع بالأشكال اللغوية والصور الفنية والرموز الأسطورية التي هي شعائر دينية، وأصبح الإنسان لا يعرف الطبيعة والعالم من حوله إلا بوساطة هذه الرسائل المصطنعة»[58]. ومن هذا، يمكننا فهم قول الصوفي المسلم محي الدين بن عربي، عندما قال: «ما في الكون من شيء إلا ويمكن تأويله».

يرى الفيلسوف الفرنسي بليز باسكال (1623- 1662م) في كتابه (الدفاع عن الدين المسيحي): «إن الغموض والإبهام هما السبب في أن يظل الإله دائماً غائباً ومخفياً» ومهمة الأديان كلها محاولة للتوفيق بين العقل وضلالات الوهم، ويزعم الدين دائماً أنه يملك الحق وثصالحقيقة، وهو دائماً يعد أتباعه بعالم أفضل من هذا العالم، وتظل الأديان واحدة في جوهرها، وإن تغيرت فيها الرموز وتعددت الشعائر. ولكن العقل الإنساني، يستخدم الأسطورة وتأويلها في وجه معطيات الدين.

إن التصور التوراتي عن الخلق انتقل عبر الأجيال من بابل إلى أورشاليم (القدس) وتمثله أحبار الفكر اليهودي، وأنتجوا جذور العقيدة اليهودية المتمثلة في التوراة. و السؤال المطروح: كيف انتقل الفكر اليهودي إلى العرب؟ في ظني أنه انتقل بوسائل عدة، من أهمها تجارة القوافل وتبادل البضائع، وفي آن واحد تمَّ تبادل الأفكار معها، حيث قام المبشرون اليهود بنشر عقيدتهم في الجزيرة العربية. وفي اليمن تلاقحت فكرة اليهود عن الإله المتعالي وفكرة الإله الحكيم الحاكم المطلق الذي يكافح من أجل طهارة الإنسان وقد حفظوا وصايا الله في الحلال والحرام، وسرت أفكارهم هذه في كل أنحاء الجزيرة السامية. يقول

روبرتسون سميث: «إن حراماً واحداً، قد تسري عدواه في كل العالم، ولكن الإثم يطهَّر بالماء الجاري أو قد يحوّل الإثم إلى حيوان أو طير، كما في الديانة اليهودية حيث نظام المحرم الذي أخذوه عن جيرانهم الكنعانيين ونقلوه إلى العرب مع فكرة الطهارة والنجاسة، وأصبحت تلك التعاليم لا يمكن الفصل بين المقدس والنجس والخير والشر»[59].

وأدخلت العقيدة اليهودية فكرة العناية الإلهية إلى الفكر العربي الوثني، وتلاقحت في فكر الأحناف، الذين نما لديهم شعور ديني مرهف جعلهم يبتعدون عن عبادة الأوثان.

## انتقال التوراة بواسطة الوحي

تقر الديانة الإسلامية بموسى (ع) من الرسل أولي العزم، ومن درس القرآن الكريم يجد أن سفري (التكوين والخروج) قد اندرجا بالقرآن في عدة سور متفرقة يقرب من أن يكون النقل تاماً. ولأعطيك صورة مقربة:

1)ذكر في سورة الأعراف ويونس وهود والسجدة والبقرة: نجد أن الله خلق السموات والأرض في ستة أيام، ثم استوى على العرش، وأن الله علَّم آدم الأسماء. ونجد في قصة نهى الله لآدم وزوجه عن الأكل من الشجرة المحرمة أكلها وما فعله الشيطان بإغرائهما على الأكل منها، وانكشاف عريهما بعد أن أكلا وخصفهما من ورق الجنة للتستر، ومناجاة الله لهما بعد ذلك ثم هبوطهما إلى الأرض.

2)وفي سورة المائدة: حكاية قتل قايين أخاه هابيل من أجل القرابين، وتقديم بواكرها للرب.

3)وفي سورة الأعراف ويونس والمؤمنين وهود والعنكبوت: نجد قصة نوح ونجاته من الطوفان بواسطة عمله الفلك، وإشارة إلى حياة نوح بأنها كانت 950 سنة وازدادت خمسين أخرى.

4)وفي سورة هود والذاريات والصافات: نجد قصة الضيوف الذين زاروا إبراهيم وذبحه لهم عجلاً سميناً، وتبشير الله لإبراهيم بابنه إسحق من زوجته سارة، والإشارة إلى تقديم إبراهيم ابنه البكر قرباناً لله، وافتدائه بالكبش، ولكن هناك اختلاف بين القرآن والتوراة من هو المفتدى؟ إسماعيل أم إسحق؟

5)وفي سورة الأعراف والعنكبوت والحجر: نجد قصة لوط ونجاته دون امرأته، وهلاك القرية والذين كانوا فيها بما أنزل الله عليهم من العذاب.

6)وفي قصة يوسف: نجد ذكر تآمر أخوة يوسف عليه، وانتقاله إلى مصر، ومراودة امرأة العزيز له، وسجنه، وتفسيره للأحلام التي رآها، وارتقاؤه المنزلة التي صار إليها بد تفسيره للأحلام، وما جرى له مع أخوته ونزول أبيه إلى مصر.

7)وفي سورة البقرة وطه والقصص والأعراف ويونس والشعراء والمائدة: نجد قصة حياة موسى (ع) منذ صدور أمر فرعون بتغريق الصبيان من بني إسرائيل، وبقاء البنات، وولادة موسى ووضعه في التابوتوإلقاؤه في النهر، وإخراجه منه وإعادته إلى أمه، وما جرى لموسى بسبب قتله ذلك المصري وهربه إلى أرض مدين وزواجه، وظهور النار له في الطور، وتكليم الله له من الشجرة المباركة، وأمر الله لموسى وهارون لمقابلة فرعون وما عمله من المعجزات مع السحرة، والضربات التي ضرب بها الله المصريين، وقصة غرق فرعون في البحر ونجاة بني إسرائيل، وإقامة بني إسرائيل أربعين سنة في البرية، وإعالتهم بالمن والسلوى، وحكاية تضليلهم بالغمام، وانفجار الماء لهم من الصخر عندما ضربه موسى بعصاه، وذكر صعود موسى إلى الجبل وإعطائه الألواح التي كسرها بعد نزوله من الجبل، وبعد غيبته وعند عودته رأى بني إسرائيل قد عبدوا العجل في غيبته، ثم تجديده للألواح بعد أن سكن غضبه.

8)ومن سفر الخروج ما جاء في سورة المائدة والنساء والبقرة والنحل:

ذكر الأوامر والنواهي التي أقرها الدين الإسلامي من أحكام القصاص (كالنفس بالنفس، والعين بالعين، والسن بالسن) والجروح قصاص. وذكر درجة القرابة المحرمة، في الزواج ومن إباحة الطلاق، ولكن اختلف القرآن مع التوراة في أمر إرجاع المطلقة بعد زواجها برجل ثان، وعدم اقتراب الحائض، والغسل من الجنابة، وذكر عدد الشهود وتحريم الربا والميتة والدم ولحم الخنزير.

9)ولكن القرآن ذكر أن التوراة قد حرفت وأبدلت، ووصف اليهود بالعداوة للإسلام. ومهما يكن، فالعقيدة الإسلامية في التوحيد وقصص الأنبياء كلها مستمدة من التوراة، مما يجعلها مصدراً مهماً للقرآن الكريم الذي وصف التوراة بأنها نور وهدى للعالمين.

## مراجع الفصل الأول: الجذور التاريخية للعقيدة اليهودية


(1) هزيمة الهكسوس ص38، محمد العزب موسى، المكتبة الثقافية، القاهرة 1968.

(2) الكنز في قواعد اللغة العربية، ص25، محمد بدر، القاهرة 1954.

(3) دروس اللغة العبرية ص 19- 20، ربحي كمال جامعة دمشق 1966.

(4) الثقافة العربية ص18، عباس محمود العقاد، المكتبة الثقافية القاهرة، 1959.

(5) المصدر السابق، ص93.

(6) تاريخ اللغات السامية ص19، إسرائيل ولفنستون، القاهرة 1927.

(7) الثقافة العربية ص86.

(8) البحث عن منقذ ص95، فالح مهدي، دار ابن رشد، بيروت 1988.

(9) الأسرة في المجتمع المصري القديم ص52، عبد العزيز صالح، المكتبة الثقافية، القاهرة، 1961.

(10) المصدر السابق ص45.

(11) موسى مصرياً، ص52، محمد العزب موسى، المكتبة الثقافية القاهرة، 1969.

(12) العرب واليهود في التاريخ، ص36، أحمد سوسة، دار العربي دمشق، بلا تاريخ.

(13) اليهود في القرآن الكريم ص35، محمد الشريف، بيروت.

(14) قصة الحضارة في سومر وبابل، ص45، ج. مدرش، ترجمة عطا بكري، مطبعة الإرشاد بغداد 971.

(15) موسى مصرياً ص40.

(16) الأسرة في المجتمع المصري القديم ص49.

(17) موسى مصرياً ص5.

(18) المصدر السابق، ص25.

(19) المصدر السابق ص45.

(20) المصدر السابق ص72.

(21) الأسس التاريخية للعقيـدة اليهوديـة ص13، سـامي سـعيد الأحمد، بغداد، 1971.

(22) مصر أصل الحضارة، ص199، سلامة موسى، دار مصـر للنشر، القاهرة، 1997.

(23) تاريخ هيرودوت ص38، باللغة الإنكليزية، لندن 1944.

(24) موسى مصرياً ص39.

(25) يقظة العالم اليهودي ص34، إيلي ليفي أبو عسل.

(26) مقدمة ابن خلدون ص109، كتاب التحرير القاهرة 1966.

(27) دروس اللغة العبرية ص40.

(28) المصدر السابق ص42– 43.

(29) اليهود والعرب في التاريخ ص77.

(30) أبو الأنبياء ص10، عباس محمود العقاد، كتاب اليوم القـاهرة 1953.

(31) المصدر السابق ص52.

(32) المصدر السابق ص96- 97.

(33) المصدر السابق ص93- 94.

(34) Margolith, Relation between Arabs and Israelies p 80 London 1905.

(35) الثقافة العربية ص82.

(36) هزيمة الهكسوس ص85.

(37) المصدر السابق ص83- 84.

(38) زبدة التفاسير ص302، الإمام الشوكاني مكتبة دار الفيحاء دمشق 1994.

(39) الأسرة في المجتمع المصري القديم ص9.

(40) عرائس المجالس ص294 الثعلبي النيسابوري المكتبة الثقافية بيروت.

(41) البداية والنهاية ج2، ص18، ابن كثير دار المعرفة بيروت 1972.

(42) النور المبين في قصص الأنبياء والمرسلين، ص409، نعمة الله الجزائري مؤسسة الأعلى بيروت 1978.

(43) البداية والنهاية ج1، ص5.

(44) زبدة التفاسير، ص600.

(45) موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية ص237، عبد الوهاب المسيري مركز الدراسات بالأهرام، القاهرة 1982.

(46) قاموس الكتاب المقدس، مكتبة المشعل بيروت 1988.

(47) الأسطورة والتراث ص157، سيد محمود القمني، دار سينا، القاهرة 1993.

(48) الأساطير السومرية ص571 صموئيل نوح كريمر، ترجمة عبد القادر داود، مطبعة المعارف بغداد 1971.

(49) مغامرة العقل الأولى ص185، فراس السواح دار الكلمة بيروت 1980.

(50) الأساطير السومرية ص244.

(51) مروج الذهب ق1 ص57، المسعودي، تحقيق قاسم وهب، وزارة الثقافة، دمشق 1988.

(52) المصدر السابق ق1، ص60- 63.

(53) المصدر السابق ق1، ص64- 68.

(54) قصة الإنسان القديم وحضارته، ص86- 87، أنور عبد العليم المكتبة الثقافية القاهرة 1965.

(55) المصدر السابق ص81.

(56) أساطير العالم القديم ص7، صموئيل نوح كريمر، ترجمة أحمد عبد الحميد يوسف، الهيئة المصرية، القاهرة 1974.

(57) الأسطورة والتراث، ص282.

(58) مدخل إلى فلسفة الحضارة الإنسانية ص67، أرنست كاسيرر ترجمة إحسان عباس، دار الأندلس بيروت 1961.

(59) Robertson Smith, Lectures of the religion of semites, p134, London 1880.

# الفصل الثاني

# اليهود في فلسطين والجزيرة العربية

المدخل: في فلسطين ومملكتي إسرائيل ويهودا

-فلسطين تحت الحكم الفارسي واليوناني

-سفرا عزرا والجامعة

والطوائف اليهودية الأربعة

-فلسطين تحت الحكم الروماني،

الفيلسوف فيلون الإسكندري

المؤرخ يوسيفوس الأورشليمي

-التواصل الحضاري بين فلسطين والجزيرة العربية

-الأنباط واليهود،

المسيحية واليهودية في نجران

اليهود في المدينة المنورة

فتح الرسول لحصون اليهود

تهجير اليهود من أرض الجزيرة

-مراجع الفصل الثاني

# المدخل : أرض فلسطين ونشوء اللاهوت اليهودي

تكلمنا في الفصل الأول، عن القبائل العبرية والعربية والآرامية، وعن الأساطير التي كانت شائعة في بلاد ما بين النهرين وسورية ومصر، ومنها تشكلت العقيدة اليهودية. وفي هذا الفصل سنتحدث عن تكوُّن اللاهوت اليهودي في أرض فلسطين، ثم انتشاره في الجزيرة العربية.

كان الإله المحلي في فلسطين الكنعانية يدعى (أيل) أي الله، يقول مار يعقوب الرهاوي (المتوفى 708م) إن معنى الله في اللسان العبري هو المبادر، بينما هو باللسان اليوناني بمعنى المشاهد أو المراقب لأنه يرى كل شيء دون أن يفعل[1].

وعن الكنعانيين أخذ اليهود فكرة الله الخالق والمدبر للعالم وبنوا له الهيكل المقدس في أورشليم، وصارت الديانة اليهودية تدعو إلى الخلاص، وبعد وفاة الملك سليمان **انقسمت المملكة إلى قسمين:**

**مملكة إسرائيل في أرض السامرة:**

بنى الملك عمري (887- 843 ق.م) مدينة شكيم (نابلس) عاصمة له، وفرض على أرض مؤاب الجزية، ولكنه فشل في إخضاع آرام دمشق، وسمح الملك آخاب (875 ق.م) لزوجته إيزابيل بعبادة ملقارت إله صور، ودفع الجزية لشلمناصر الثالث (859- 824 ق.م) ووضع تمثالاً للإله آشور في المعبد اليهودي، وبذلك اختلطت عبادة التوحيد بعبادة الأوثان.

**مملكة يهودا:**

عاصمتها أورشليم القدس، ازدهرت تحت حكم رحبعام بن سليمان وظلت أورشليم العاصمة (933- 870 ق.م) وفيها ازدهر التوحيد الإلهي، إلى أن ضربها نبوخذ نصر عام 586 ق.م، وسبى اليهود إلى بابل، ونهب الهيكل وعاش اليهود في ذلٍّ.

## فلسطين تحت الحكم الفارسي

عندما تولى حكم بابل كورش عام 538 ق.م، أعاد لليهود حريتهم، وصار اليهود يصفونه بالمنقذ، ورأى النبي دانيال رؤيا عجيبة، رأى كبشاً له قرنان، رآه ينطح كل الحيوانات وينتصر عليها، وإذا بتيس ظهر من المغرب فجأة وركض وراء الكبش وكسر قرنيه وطرحه على الأرض وأرداه قتيلاً (سفر دانيال 8: 1-8) قص دانيال على كورش تلك النبوءة العجيبة، فسرَّ الملك كورش، وقال له إن الرب أرسل عبده كورش ليتمم مسيرة الرب في بناء أورشليم، وصار كورش هو المسيا المنتظر (المنقذ) وعادت إلى اليهود الثقة بالإله يهوه، وسمح كورش لزربابل ويشوع بن صاداق بالعودة إلى أورشليم لترميم الهيكل الذي بناه سليمان، كان ذلك عام (515 ق.م).

### عزرا بن سراي الكاتب

اسم عزرا اختصار لاسم عزريا ومعناه (عون) وكان موظفاً في البلاط الفارسي، ومستشاراً للإمبراطور أوتحتشتا الثاني، في تدبير شؤون الطائفة اليهودية، وعاد إلى القدس وأكمل بناء الهيكل، وأعاد كتابة التوراة باللغة العبرية، وكتبوا تعاليمه بسفر خاص به.

### سفر عزرا

دوِّنت في هذا السفر الحوادث التي جرت لليهود في بابل، وذكر أن اليهود الذين عادوا إلى القدس مع زربابل كانوا حوالي 50 ألفاً، أما من عادوا مع عزرا فلا ذكر لهم. وفي هذا السفر صورة للعهد الذي أعطاه الإمبراطور الفارسي لعزرا، جاء فيه: «إلى كل الخزنة الذين عبر النهرين أن يعطوا كل ما يطلبه عزرا منهم، وأن يعطى مئة وزنة من الفضة ومئة كر من الحنطة، ومئة مدٍّ من الزيت، ومئة مدٍّ من الخمرة ومن الملح من دون تقييد. وكل خدام الهيكل لا تقع عليهم الجزية. وأنت يا عزرا ضع حكاماً وقضاة يقضون لشعبك في عبر النهر. وليعلموا تعاليم إلهك. وكل من لا يعمل بشريعته وشريعة الملك فليحكم عليه بالموت أو بالنفي أو بغرامة المال أو بالحبس حسب جرمه» (سفر عزرا 7: 12- 27).

وبدأ اليهود ينظمون أحوالهم تحت رئاسة قضاتهم الذين حلوا محل رؤساء العشائر، وكان المجمع (السنهدرين) قد أوصى القضاة بالاستقامة والعدل وعدم قبول الرشوة (سفر التثنية 16: 19).

صار اليهود يحكمون فلسطين من خلال مدينتي القدس (أورشليم) ومدينة نابلس (شكيم). وصار القضاة يمارسون وظيفة حكام المدن والقادة العسكريون وكان الشعب يطلق عليهم أبطال الإيمان (سفر العبرانيين 11: 32) ولفظة القضاة في العبرية (شوفطيم) تؤدي اللفظة معنى الحكم والسلطة الإدارية، والمخلص لأن بيدهم تخليص الشعب من أيدي الأعداء[2]. وفي هذه المرحلة كانت بداية تدوين التراث والثقافة اليهودية المبكرة.

## فلسطين تحت الحكم اليوناني

دخلت فلسطين تحت حكم خلفاء الإسكندر البطالمة في مصر (323- 198 ق.م). وفي هذه الفترة تمت الترجمة السبعينية للتوراة العبرية إلى اللغة اليونانية بأمر الملك بطليموس فيلوباتر (285- 247 ق.م). أمر الملك بأن يجعل مع كل رجل عبري كاتب من الحذاق باللغة اليونانية فيكتب عنه ما يترجمه من اللغة الآرامية، وطلب منهم أن تكون الترجمة في غاية التحقيق. وعندما انتهوا قوبلت النسخ كلها فكانت بغاية التقانة، فابتهج الملك وأمر للشيخ الفيلسوف لعازر بجائزة جليلة[3].

ثم انتقل حكم فلسطين إلى السلوقيين حكام سورية في زمن أنتيخوس الرابع (أبيفانس) (175- 164 ق.م) وقاومه اليهود، فأعلن عدم شرعية الديانة اليهودية عام 168 ق.م، وقتل فيلكس أليعازر الملك الكاهن، وهو صابر تحت التعذيب، وقام بثورة بزعامة يهودا مكابيوس، وأعلن حرية العبادة والعقيدة عام 164 ق.م، وتوفي أنتيخوس الرابع، وظلت المعارك إلى سنة 142 ق.م، وهدأت البلاد في زمن يوحنا هيركانوس (135 ق.م) وأرستوبولس الأول (104 ق.م) ثم قامت الفتنة بين أرستوبولس الثاني وأخيه هركانوس (67- 63 ق.م)، مما أضعف البلاد وسقطت تحت الحكم الروماني.

ولكن في هذه لفترة أصبحت الثقافة اليونانية هي السائدة، وازدهرت الفلسفة وصارت نصوص التوراة تقارن وتؤول حسب فلسفة أفلاطون، بل قالوا: إن أفلاطون كان يردد أقوال موسى باللغة الإغريقية. وشاعت الفلسفة الرواقية، وظهر اللاهوت اليهودي الذي صار يبحث في الأمور الإلهية والأمور البشرية، لأن الأشياء في نظرهم مندمجة وهي تخفي السر الإلهي. و صارت فلسفة زينون الأكتيومي (336- 264 ق.م) تدرس في المدارس، لأنه كان على اطلاع على الفلسفة اليهودية وهو الذي يعتقد أن إدراك الحق أمر شائع يشترك فيه الناس كافة، ومعيار الحق هو العقل الصريح[4].

هنا، اختلف أحبار اليهود وفلاسفتهم، فالأحبار يعزون معرفة الحق إلى الوحي الإلهي وعلماؤهم يعزونه إلى العقل، واختلفوا حول مسألة هامة هي العناية الإلهية. جاء في سفر أيوب: إن كنت ساخطاً على ما قسم الله لك، فاذكر أنك مضطر إلى أن تختار:

-فإما أن تكون هناك عناية إلهية مديرة لأمور الكون،

-وإما أن تكون فيه فوضى واختلاط، فما هو السبب في ذلك؟

أجاب اللاهوتيون: إذا صح أن الآلهة لا تهتم بشيء، ولا تفكر في أمور العالم، فلتترك الضحايا والصلوات والنذور التي تمثل في اعتقادنا حضور الآلهة وقربها منا، من هنا لا بد لنا من طلب النعمة والدعاء، والتوكل والحمد، والتشبه بالله قدر الإمكان. وبحثوا في العدالة والموت والجزاء في اليوم الآخر.

أما العلمانوين: فهم يقرون بوجود الله باعتباره فكراً خالصاً، وهو تارك في الكون الإنسان الحر العاقل، وهو الذي يخلق أفعاله، وعلى الحكماء أن يبينوا للناس خطأهم، وينيروا لهم دربهم. نقل الفارابي عن زينون: «ينبغي لمن يتعلم الحكمة، أن يكون شاباً فارغ القلب من أمور الدنيا، وأن لا يخل بواجب من الواجبات التي أتى بها الأنبياء، وأن يحرم على نفسه ما كان حراماً في مله نبيه، وأن لا يكون متهتكاً ولا خائفاً من الموت، ولا جامعاً للمال إلا بقدر الحاجة»[5].

من هنا جرى صراع بين رجال الدين اليهودي ورجال الفكر الفلسفي، قال برتراند راسل: «تأثرت سورية بالفكر الهلليني من حيث اللغة والأدب، ما عدا سكان الريف، ثم زاد هذا التأثر بالغزو المكدوني، وتروي أسفار المكابيين أول الصراع الفكري بين الهللينية واليهودية»[6].

## سفر الجامعة

كتب هذا السفر في العهد المكابي، ونسب إلى الجامعة بن داود، وقال بعض المفسرين، إن اسم الجامعة هو اسم رمزي لسليمان الحكيم، قال القمص مرقس داود في شرحه لهذا السفر: «إن الدور المحزن الذي مثله سليمان في روايته، هو ما نقل إلينا من خبر ابتعاده عن الله في المدة الأخيرة من حكمه، وإن هذا السفر قد كتب في شيخوخته عندما رجع وتاب عن ارتداده بمساعدة نعمة الله»[7].

والجملة المحورية التي يدور حولها السفر كله (باطل الأباطيل، الكل باطل)، وعبارة (ما الفائدة للإنسان من كل تعبه؟) تتكرر هذه العبارة 28 مرة في سفر الجامعة. وفيه فكرة علمية لا تذكرها الكتب المقدسة قوله «دور يمضي ودور يجيء، والأرض قائمة إلى الأبد، وكل الكلام يقصر ولا يستطيع الإنسان أن يخبر بالكل، بأن العين لا تشبع من النظر، والأذن لا تمتلئ من السمع» أي الإنسان لا يشبع من الدنيا مهما عاش وتعرض لمآس.

يقول الجامعة: «أنا الجامعة، كنت ملكاً على أورشليم، ووجهت قلبي للسؤال والتفتيش بالحكمة عن كل ما عمل تحت السموات، هو عناء رديء، جعله الله لبني البشر ليعانوا منه، ورأيت كل الأعمال التي عملت تحت الشمس، فإذا الكل باطل وقبض ريح (سفر الجامعة ص1: 12- 13). يرى النبي سليمان أن في كثرة الحكمة كثرة للغم، وكلما ازداد الإنسان علماً ازداد حزناً (سفر الجامعة ص1: 18).

إني أنفي أن هذا السفر قد كتبه النبي سليمان الحكيم، وما دام قد كتب في العهد المكابي، فإني أراه للشيخ المؤمن فيلكس أليعازر الذي قُتل عام 168 ق.م، وكان ملكاً وكاهناً. يقول الجامعة (أنا الجامعة كنت ملكاً) قالها بصيغة الماضي، عندما عزله الملك أنتيخوس الرابع، وسجنه وفي سجنه جمع الذهب والمحظيات وأولاده ونساءه وقال قبل موته: «التفت أنا إلى كل أعمالي التي عملتها يداي وإلى التعب الذي تعبته، فإذا الكل باطل وقبض الريح ولا منفعة تحت الشمس» (سفر الجامعة ص2: 11).

ومما أثار حزن الجامعة أن موت الحكيم كموت الجاهل، وأنه لن يدوم لا ذكر الحكيم ولا ذكر الجاهل والكل سَيُنْسَى. فما العمل؟ إنه ليس للإنسان خير من أن

يأكل ويشرب باعتدال ويرى نفسه خيراً في تعبه، رأيت هذا أيضاً أنه من يد الله (سفر الجامعة ص2: 24). في رأي الجامعة أنه لا دور للعناية الإلهية وأن الدور كله لعمل الإنسان الذي عمله أيضاً باطل وقبض ريح.

يرى الجامعة أن لكل شيء زمان ووقت للولادة ووقت للموت، لغرس الشجر وقت ولقلعها وقت، للهدم وقت وللبناء وقت، للمعانقة وقت وللهجر وقت، وللقتل وقت، فأي منفعة لمن يتعب مما يتعب به (سفر الجامعة ص3: 1- 9). والإنسان لا مزية له عن البهيمة، فكلاهما يعودان إلى التراب، ومن يعلم أن روح بني البشر هي التي تصعد إلى فوق، وروح البهيمة هي التي تنزل إلى أسفل الأرض؟ (سفر الجامعة ص3: 19- 21).

وعندما اشتد العذاب على الكاهن الصالح فيلكس العازر قال لمعذبه:«غبطت الأموات الذين ماتوا منذ زمن، أكثر من الأحياء الذين هم عائشون بعد، وخير من كليهما الذي لم يولد، والذي لم ير العمل الرديء الذي عمل تحت الشمس» (سفر الجامعة ص4: 1-3). ثم التفت إلى أولاده والحضور وأوصاهم «إن غلب أحد على الواحد، فليقف مقابله اثنان، والخيط المثلوث لا ينقطع سريعاً» (سفر الجامعة ص4: 12). وكأنه يوصيهم بالوحدة في مجابهة العدو، وقال وهو يقف أمام الموت: «إن من ولد فقيراً وحكيماً خير من ملك شيخ جاهل لا يعرف أن يحذر بعد، لأنه من السجن خرج إلى الملك، والمولود ملكاً قد يفتقر، ولكن لا نهاية للشعب» (سفر الجامعة ص4: 13- 16).

ومن وعظه الكهنوتي «احفظ قدمك حين تذهب إلى بيت الله، فالاستماع لله أقرب إليه من ذبيحة الجهال، لأنهم لا يبالون بفعل الشر، لا يستعجل فمك ولا يسرع قلبك إلى نطق الكلام أمام الله، ولتكن كلماتك قليلة، لأن الحلم يأتي من كثرة الشغل، وقول الجهل من كثرة الكلام» (سفر الجامعة ص5: 1-3). «وإن رأيت أن الفقير قد ظلم، وأن العدل نزع من البلاد فلا ترتعب من الأمر، لأن فوق العالي عالياً يلاحظ والأعلى فوقهما» (سفر الجامعة ص5: 8). «وكل شيء كما جاء يذهب، وكما خرج الإنسان من بطن أمه عرياناً، يرجع كما جاء. إن كل تعب الإنسان لغمه، ومن ذلك فالنفس لا تمتلئ، والإنسان المعروف لا يستطيع أن يخاصم من هو أقوى منه» (سفر الجامعة ص6: 7- 10). «إن الله أسكت أيوب بقوله إن الله أعظم من الإنسان، ولا يليق به أن يقاوم أحكامه» (سفر أيوب 33:

12). «إن الحي أعظم من الميت، لأن الأحياء يعلمون أنهم سيموتون. أما الموتى فلا يعملون شيئاً، وليس لهم أجر بعد، لأن ذكرهم منسي، ومحبوهم ومبغضوهم قد هلكوا منذ زمان، اشرب خمرك بقلب طيب، ولتكن ثيابك في كل حين بيضاء، التذّ عيشاً مع المرأة التي أحببتها لأن ذلك نصيبك في الحياة، وكل ما تجده يدك لتفعله، لأنه لا حكمة ولا معرفة في الهاوية التي أنت ذاهب إليها» (سفر الجامعة ص9: 4- 10).

ويحذرنا الجامعة بن داود من العمل السياسي، وإياك والتعرض للملك حتى ولو في الخيال: «لا تسب الملك قولاً ولا فكراً، ولا تسب الحاكم في مضجعك، لأن طير السماء ينقل الصوت، وذوو الجناح يخبرنا بالأمر» (سفر الجامعة ص10: 20). وآخر قوله «اتق الله، واحفظ وصاياه، لأن هذا هو الإنسان كله» (سفر الجامعة ص12: 13). ضمن هذا المناخ الفكري الذي ساد فلسطين ومصر، ظهرت الطوائف والفرق.

## ظهور الفرق والطوائف في العهد المكابي

في العهد المكابي ظهرت الدولة، وتكوّنت فيها مدارس إلى جانب الكنيس، وظهر أحبار وفلاسفة، وجرى تفاعل بين الدين اليهودي والفلسفة اليونانية، والفكر الغنوصي الذي ورد على المنطقة من مدينة حران عبر تجارة القوافل. ونتيجة تلك الحوارات ظهرت الفرق والجماعات وصار لكل جماعة صفاتها المميزة، ولها رسالتها الخاصة، ولكل جماعة أزياؤها وطقوسها الخاصة بها، ولها أسرارها التي تقدم لمريديها دون غيرهم مما يجعلهم يقولون إن لنا ديناً[9].

وصار لكل جماعة شعور بأنهم أصحاب الحظوة عند الله، وكانوا أثناء ممارستهم لطقوسهم يشعرون أنهم الأقرب إلى الله، رغم انتمائهم إلى دين واحد، هو الدين اليهودي، الذي يعتقد أتباعه أنهم شعب الله المختار.

يؤكد الفيلسوف اليهودي هنري بيرجسون (1858- 19) «أنه لا لزوم للبحث عما يطلبه دين من الأديان من أمور الإيمان بها، لا ترضي العقول الفردية فحسب لأن التصورات الدينية ليست من وضع العقول الفردية، بل هي من وضع الفكر الجمعي للطائفة، التي لها وجود خاص بها، كما أن للفرد طريقته الخاصة بالتفكير»[10]. والطوئاف اليهودية التي ظهرت في العهد المكابي أربع، هي:

**1)طائفة الصدوقيين (الأبرار)**

تنتسب هذه الطائفة إلى أحد الأحبار (صادوق بن أخيطون) من ذرية أليعازر بن هارون. نشأت هذه الطائفة في زمن الغزو السلوقي لأورشليم (القدس) وقد أسس مدرسة لاهوتية حصرت تعاليمها في أسفار موسى الخمسة، وكان الملك هركانوس بن سمعان المكابي من أنصارهم (135- 105 ق.م) وكان العصر عصر قلاقل واضطرابات، وأصابتهم مجاعة، وقام الفقراء يطالبون بتأمين الطعام لهم، واعتدوا على الأغنياء، إلا أن الصدوقيين كانوا يناصرون الأغنياء[11]. وكانوا يناصرون الثقافة اليونانية ويهملون الموروث الشفهي، وكانوا ينكرون يوم القيامة لأن النفس في اعتقادهم تموت بموت الجسد (متى 23- 33). وكانوا يتساهلون في تفسير الشريعة، وكانوا ينتظرون المسيا المنقذ، واهتموا بالتعليم وبتدريس اللغة اليونانية في المرحلة العليا، وكانوا لا يعادون الحكم السلوقي بل لقد اقترح الكاهن الأكبر منيلاوس على أنطوخيوس الرابع زيادة الجزية على الشعب، فقلده الملك رئاسة الهيكل، فثار عليه الشعب وقاوموا المرسوم وتكتل أنصار أديناس الثالث وجيسون الكاهن في وجه مينلاوس[12].

صارت طائفة الصدوقيين منبوذة من العوام، وصاروا يبشرون بثقافة صوفية (القبالاة). يقول كيث وايتلام: «إن الشيء المثير في التوراة التي تدعي أنها الرؤية الصادقة للحقيقة والشريحة المتميزة والمثقفة في المجتمع، كالصدوقيين، لم تكشف إلا على ثقافة شبه الأميين الذين يعتقدون أن نهاية العالم قريبة، وهم بانتظار المسيا المنقذ»[13].

**2)طائفة الفريسيين (المنعزلين)**

ظهرت كردة فعل ضد طائفة الصدوقيين، وعلى رأسها الكاهن الحكيم أليعازر ذو الإقدام والجسارة، الذي وقف في وجه الملك هركانوس المكابي، وقال له: «يجب أن تخلع ثوب الكهانة، وتكتفي بثوب الملك، لأن أمك من سبي أنتيخوس الرابع، وابن المسبيَّة لا يحق له أن يكون كاهناً ولا يحق له أن يدخل قدس الأقداس في هيكل سليمان»[14].

كان الفريسيون يميلون إلى الطبقة الفقيرة، وكانوا يميلون إلى التأويل في تفسيرهم لنصوص التوراة. وفي زمن الملك هركانوس نالهم الاضطهاد، وكان شعارهم، يتبرر الإنسان بالعمل الصالح الذي هو أفضل من التدين وممارسة

الشعائر والطقوس، وأن الخلاص يتم بتعاليم الشريعة. وكانوا يكرهون الأغيار من غير اليهود، ويعتبرونهم أنجاساً. وهم الذين دفعوا هيرودوس بن أنطيروس إلى محاربة العرب في أرض مؤاب، وقتلوا منهم خلقاً كثيراً، واستباحوا ديارهم وخربوا مواطنهم، وألزموهم بالختان وحفظ التوراة[15]. ولما علم العرب في الجولان، قاموا هم والآراميون في بانياس الجولان ودمشق، وأغاروا على اليهود في أورشليم (القدس) وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وفيما بعد قام اليهود وأغاروا على نواحي دمشق وقتلوا من العرب والآراميين خلقاً وعادوا بغنائم وفرضوا الختان عليهم[16]. صار الفريسيون من أقوى الطوائف بين اليهود.

**3)طائفة الأبيونيين (المساكين)**

ظهرت هذه الطائفة بين يهود الإسكندرية أولاً، حول تعاليم الكاهن أبيون المصري، الذي يعني اسمه (المسكين). وكانت لهذه الطائفة تعاليم خاصة بهم، وكانوا يلبسون الثياب البيض، وكانوا يؤمنون بشريعة موسى، وأشفار الأنبياء، أشعيا ودانيال وأيوب، وكانوا يؤمنون بالإله العادل الرحيم، رب العالمين، وإن كانوا ينفرون من الديانة الوثنية، إلا أنهم لا يكرهون الأغيار، والإنسان في اعتقادهم أخو الإنسان وإن اختلف معه في المعتقد، وهذه نظرة جديدة في الفكر اليهودي. وكاهنوا يحرمون الرق، ويطعمون الغريب وفي عشائهم السري يرددون قول أشعيا النبي «ويحكم الرب بين الأمم، ويقضي للشعوب الكثيرة، ويوم مجيء المسيا المنتظر، سيضرب الناس سيوفهم سككاً، وأسنتهم مناجل، فلا ترفع أمة على أمة سيفاً، ولا يتعلمون الحرب بعد» (سفر أشعيا: 4).

كانوا يفسرون الأسفار على ضوء الفلسفة السائدة، في مدينة الإسكندرية، التي كانت مدينة أممية، وكانوا يعتقدون أن الإنسان مسؤول عن أعماله لأنه هو الخالق والمكتسب لها. وإن معرفة النفس تؤدي إلى معرفة الله. وكانوا يدعون إلى التطهر بالماء الجاري، وكانوا يتعمدون وهم دائماً مستعدون لاستقبال المسيا المنتظر.

انتقلت الدعوة الأبيونية إلى أورشليم، وكانوا غيورين على الدين، وقد تمرد زعيمهم يهوذا الجليلي على هيرودوس، لأنه رفع النسر الروماني في الهيكل المقدس. فمات هو وأبناؤه الثلاثة في أثناء الثورة في سنة 14 ق.م. وقد جمع القيصر أوغسطس في سنة 12 ق.م، قرابة ألفي قرطاس من نبوءات الأبيونية

والصلوات المكتوبة باللاتينية والإغريقية، وأمر بحرقها علانية، واحتفظ بالقليل من الحكم المأثورة في صندوقين مذهبين، ونقلهما إلى معبد الإله أبولون في روما[17].

كان الأبيونيون متأثرين بتعاليم الفيلسوف السوري بوزيدونيوس الأفامي (135- 51 ق.م) خصوصاً بفكرته عن الروح التي لا تفنى بفناء الجسد، والتي ترتقي إلى السماء، طبقاً لتدرجها في المعرفة الإلهية وعمل الفضيلة، وأن الأرواح الخيِّرة تحلِّق بين الكواكب العليا، بينما الأرواح الشريرة تظل دون فلك القمر، وتنتقل بين الأجساد الحيوانية بالتناسخ حتى تتحرر في النهاية من أدرانها، وتنطلق نحو عالم الغيب والشهادة[18]. وقدر وردت بين تعاليمهم صلاة يرددونها في المساء هي لكليانتس الرواقي (310- 230 ق.م) «اهدني يا إلهي، وخذ بيدي، أتبعك غير ناكص ولا واجل، فإن خامرني شك وتريثت في اتباعك، لا مهرب لي ولا نجاة». وكانوا يؤمنون بأنه لا حاجة للمعبد، فالصلاة الطبيعية أفضل، والاغتسال بالماء الجاري كافٍ لتطهير الإنسان المؤمن، وقد تسموا بالجليل الأعلى باسم النصارى، وكان يوحنا المعمدان منهم، قال عنهم أوسابيوس القيصري: «إنهم فرقة نصرانية (يهودية) نادت بضرورة التمسك بناموس موسى واعتبروا أن المسيح إنسان، قد تبرر بفضيلته السابقة»[19]. وكان الرسول بطرس من أنصارهم، وكانوا يسمون أنفسهم أبناء إسرائيل الجديدة، قال عنهم القديس أريناس المنبجي (130- 220 ق.م) في كتابه (الرد على الهرطقات): «إن الأبيونية فرقة من النصارى المتهودين، ويستخدمون إنجيل متى فقط وينكرون قول الرسول بولس في الطبيعة الإلهية للرب يسوع» (الكتاب الأول ف26، ع2) ويكثرون من ترديد أسطورة ملكيصادق الذي سيقودهم إلى الجبل المقدس، ويصبح بيته بيت صلاة لكل الشعوب، إنهم يقصدون ظهور السيد المسيح.

**4)الطائفة الأسينية (الأتقياء)**

ظهروا في لبداية في الإسكندرية، وكانوا يطلقون على أنفسهم (شعب العهد الجديد). وكانوا يعيشون في حالة زهد وتقشف، خارج المدن وفي القرى، ويلبسون الثياب البيض، ويعملون في الزراعة، والصيد والحرف المنزلية ويحرمون الاشتغال بالتجارة[20]. كان الغموض يلف تاريخهم وعقيدتهم، والسؤال المطروح:

**من هم الأسينيون وما حقيقة دعوتهم؟**

جاءت تسميتهم من الجذر الآرامي (ح س ن) بمعنى القوة والخشونة، أو من جذر الكلمة العبرية (ح س ا) بمعنى القداسة والطهارة أو من جذر الكلمة العبرية (ي ع ص) بمعنى العزلة والوعظ. ولكن الدكتور أنيس فريحة ردَّ كل تلك التسميات إلى الكلمة الآرامية (ح س ي) حسيا بمعنى الطهارة أو التقوى، وسماهم اليونان بالأسينيين. أما هم فيطلقون على أنفسهم (جماعة العهد الدائم) أي (جماعة الله)، أو جماعة العهد الجديد كما يسميهم المسيحيون[21].

وعلى أثر اكتشاف مخطوطات البحر الميت أو مخطوطات قمران عام 1947م، تبين أن الأسينيين فرقة يهودية ظهرت على أثر الاحتلال الروماني لسورية ومصر عام 64 ق.م، وكانت نصوص الكتاب المقدس تعتمد على الأدلة الداخلية، أما بعد اكتشاف مخطوطات البحر الميت، أصبحت دراسات الكتاب المقدس تعتمد على أدلة خارجية[22]. أو على وقائع تاريخية.

وأول تلك الوقائع التاريخية، إشارة المؤرخ الروماني بليني الكبير (4- 79م) في كتابه (التاريخ الطبيعي)، ذكر جماعة من اليهود على الساحل الغربي للبحر الميت، وكانوا ميالين للوحدة، غريبين في أمورهم، عاشوا بين أشجار النخيل والزيتون بدون نساء، وكانوا متحررين من النقود، وعلى الرغم من هذا فإن عددهم لم يهبط، لأن كثيراً من أتعبتهم الحياة، انضموا إليهم فخلدوا نوعهم[23].

ولهم تدرُّج في المراتب، هي:

**1)طبقة المرشحين للقبول**

كان هؤلاء من صبيان اليهود الفقراء، ولا يقبل العضو قبل سن الحلم (15 عاماً). وعندما يقبل العضو يعرض عليه دستور الجماعة. يقرأه ويحفظه عن ظهر قلب، ثم يفحصونه ولا يقبلون إلا الشاب الذكي ممن تتوفر لديه القدرة على البحث عن الله في قلبه، ويمارس الحق والعدل والاستقامة. وهؤلاء يطلق عليهم بعد قبولهم (ابناء النور) ويرددون كل صباح يوم قبل العمل:

«لقد كنا آثمين وندمنا، لمعارضتنا وصايا معلم الحق، عادل هو الله الذي أتم نعمته علينا وعلى آبائنا، عادل هو الله الذي وجه رأفته نحونا منذ الأزل وإلى الأبد» ويردد الكهنة والطلاب (أبناء النور) «ألا فليباركنا الرب، وليحفظنا من كل

شر، ولينر قلوبنا بذكاء أبناء الحياة ولييسر لنا المعرفة الخالدة، وليمنحنا الفرح الأبدي»[24]. ويضع هؤلاء قبعة صغيرة من الصوف على رؤوسهم.

### 2)طبقة الأعضاء العاملين

بعد انقضاء سنة في العبادة، والاطلاع التدريجي على الأسرار الكهنوتية، ومداومة الصلاة في الفجر والمساء، وتلاوة الأناشيد ودراسة كتاب (التأمل) لفيلون الإسكندري، وتطبيق يوم الراحة المقدس (يوم السبت)، يتنازل العضو العامل عن كل ما يملك، وينخرط في سلك الجماعة ويمارس أعماله بالمحبة والعدل نهاراً، والسهر على قراءة الكتب المقدسة ليلاً، ويستمر ذلك حتى سن العشرين، وبعدها يحق له الزواج من فتاة عرفت بالخير والصلاح ويرتدي اللون الأزرق، ويصبح من أبناء الحياة.

### 3)طبقة الأعضاء الواصلين

هؤلاء التزموا بطريق الجماعة وفضلوا العزوبية، ولا زالوا يلبسون اللون الأبيض، ويحملون فؤوسهم كل صباح لخدمة الرعية المقدسة، ويقسمون العهد للحفاظ على الجماعة وأسرارها. ويجوز للجماعة فصل العضو إن قصَّر أو ارتكب خطيئة تضرُّ بمصلحة الجماعة. جاء في قانون الجزاء: «إذا كان بينهم رجل يكذب، ويختلس أموال الجماعة، يفصل لمدة عام ويعاقب بحسم ربع غذائه. ومن يفشي (الاسم الموقر) يعاقب بالموت». أما من يفشي اسم صديقه يفصل عاماً كاملاً. ويستمر بالتدرج بالدراسة حتى سن الخامسة والعشرين. ثم ينصرفون لأمور الحياة العامة، ويختار منهم الصفوة.

### 4)طبقة الأعضاء الكاملين

هؤلاء هم الصفوة الاثنا عشر، ذوو سلوك متواضع، ونزوع تام عن التفكير بالظلم، ويمارسون الحق والعدل، وهؤلاء ينتظرون مسيح إسرائيل منهم، بعد الثلاثين من العمر، ويصبحون قادة وقضاة، إن كانوا من أبناء هارون، ويرتدون لباس الكهنة من الصوف الأبيض، ويتزنرون بأحزمة من الصوف القرمزي،

ويعتمرون بعمائم على شكل قلنسوة، وفي ثياب الحرب لا يدخلون إلى الهيكل المقدس[25].

وبعد الثلاثين يذهب بعضهم إلى الصحراء للاعتزال ليشقوا طريق (الهو) كما هو مكتوب «في الصحراء شقوا دروب يهوه، ومهدوا السهوب طريقاً لإلهنا، حسب ما كشفته الأنبياء بواسطة روح القدس منتظرين يوم الانتقام»[26].

ويشترط في المعتزل في الصحراء، أن يكون من أبناء هارون، الذين هم القادة والقضاة، أما أبناء اليهود الآخرين، فإنهم يخدمون تحت إمرة أبناء صدوق الكهنة[27].

كان الأسينيون يتبعون خطى النبي أشعيا بن عاموس الذي هرب وأتباعه إلى برية الأردن، وكانوا يلبسون الخشن من الثياب، ويأكلون من الأعشاب وثمار البرية، يلتقطونها ويشونها ثم يأكلونها. ويصف لنا فيلون حياتهم، بأنهم كانوا يعبدون الله، ويخدمونه بطهارة قلب، ويقطنون خارج المدن في البراري والجبال الموحشة، وكانوا يسيرون بسيرة الأنبياء. ووصف لنا بولس الرسول سيرتهم بقوله: «كل الذين كانوا أصحاب حقول أو بيوت، كانوا يبيعونها. ويأتون بأثمانها، ويضعونها عند أرجل الكهنة، ليوزعونها على كل واحد حسب احتياجه» (أعمال الرسل 4: 34- 35). ويصف لنا أوسابيوس القيصري حياتهم وطريقة معيشتهم اليومية، قال: «كانوا ينامون على الأرض، على فراش من القش، ولا يذوقون الخمر على الإطلاق، ولا أكل اللحم بل شرابهم الوحيد الماء، وأطيب طعامهم الخبز والملح والأعشاب، إلا في عشائهم السري فيتناولون قرباناً من الخبز والخمر، لأن حاجات الجسد لا تتفق إلا مع الظلام، لذا يخصصون النهار للتفلسف لأنه خليق بالنور، وكانت تتقد فيهم الرغبة الدائمة في المعرفة ويتلذذون بكتب الحكمة»[28].

كان الأسينيون يمارسون فكرة التصوف اليهودية (القبالاة) Kabalah.

**ما هو مذهب القبالاة، ومتى ظهر؟**

مذهب القبالاة، يزعم مؤرخو اليهود أنه مذهب قديم، ظهر بعد عودة اليهود من السبي، ويرى غيرهم أن مذهب القابلاة ظهر في العهد اليوناني في الإسكندرية، ثم انتقل إلى القدس (أورشليم) في العهد المكابي. وهو مذهب مزيج من الفلسفة الغنوصية والديانة اليهودية، ويرون أن المادة سرمدية، وأنه لا حياة

فيها إلا حينما اتصلت باللوغوس (العقل الفعّال). وأن الروح جزء من الله، وفي وسعها أن تسمو عن طريق العقل وتتصل بالله، عندما تتحرر من سلطان المادة الدنسة.

والسؤال المطروح: كيف تتطهر المادة من النجاسة في مذهب القبالاة؟

إنه يتم بممارسة الزهد والتقشف، وإذلال الجسد بالجوع والحرمان، وبذكر الله الدائم. ولهم أسرار ورموز تكمن في الأبجدية، فالله يرمز له بحرف الهاء، وهو الحرف السري الذي تكمن فيه الهوية الإلهية. والله في كل الوجود موجود.

## فلسطين تحت الحكم الروماني

كانت فلسطين تحت حكم هيركانوس المكابي (63- 40 ق.م)، عندما احتل الرومان سورية، وكان المجتمع الفلسطيني تمزقه الصراعات الداخلية، وصار هيرود العظيم حاكماً على القدس (37- 4 ق.م) وقد قام بترميم الهيكل القدس في أرشاليم، وبنى معبد الأوغسطس في السامرة، وأصلح ميناء قيصرية، وفي أواخر أيامه ولد يسوع الناصري.

خلف أرخيلاوس (4 ق.م - 6م) والده على القدس، وابنه الآخر أنتيباس حاكماً على الجليل (4 ق.م - 39م) وعيَّن ولده فيليب على الناصرة. وحكم أجريبا الثاني بن هيرود (50- 100م) على أورشليم. وفي هذه الفترة حدثت الحرب ضد روما (66- 73م) وهدم الهيكل المقدس على يد القائد الروماني طيطس سنة 70م، وبعد فترة في عام 135م، ثار اليهود على روما بزعامة بركوخيبا، ودمر الرومان القدس وجعلوها محرمة على اليهود. فهاجروا إلى الجزيرة العربية ومصر وسورية ومنطقة الخليج، وظهرت مرحلة ثقافية جديدة ظهرت فيها شروح التوراة الجديدة التي جمعت باسم كتاب (التلمود). وفي هذه الفترة ظهر عند اليهود مفكران كبيران لهما تأثير على الفكر اليهودي في كل العصور.

### الفيلسوف فيلون الإسكندري (20 ق.م - 54م)

ولد فيلون لأسرة يهودية، في مدينة الإسكندرية، وكان من أسرة ثرية مثقفة. فأخوه الأكبر كان مديراً لمرفأ الإسكندرية، ودرس في جامعة الإسكندرية الفلسفة

اليونانية، كما درس اللاهوت اليهودي وشروح التوراة. وتأثر بفلسفة فيثاغورس الذي أرجع الوجود إلى مصدر واحد هو الله الواحد الذي لا تدركه العقول ولا تراه العيون، واتهم العالم المرئي بالبطلان والخداع، فالعلم كالسطح العكر، الذي إذا انعكست عليه أشعة الضوء الإلهي تلاشى فيه وتعتَّم.

كان فيلون معلماً في جامعة الإسكندرية، وكان يفسر التوراة على ضوء كتابات أفلاطون وأرسطو، وله شرح وافي على كتاب فيدون في النفس لأفلاطون. وهو أول من علم أن النفس الكلية قوة روحية فاضت من العقل Logos بأمر الله، وميَّز بين النفس والروح، فالنفس علامة تدرك بها العلوم والأخلاق، والروح فعالة بها تتم الأشكال والهيئات، وتتطهر النفس بالمعرفة الإلهية. وفلسفة العقل الفعَّال عند فيلون متأثرة بتعاليم هرقليطس عن اللوغوس الذي هو قوة جامعة بين الأضداد، ومبدأ الفصل بين الأشياء، وجعله فيلون القوة السائدة في الكون، وهو حالٌّ في كل مكان وهو قوة الحياة المتطورة، ولكنه لا يذهب مع الفيثاغورية إلى القول إن اللوغوس هو الله، بل جعله فيلون وسيط بين الله ومخلوقاته.

يقول الدكتور عبد الرحمن بدوي: «لقد تطور اللاهوت المسيحي، عن فيلون، عندما جعلوا اللوغوس هو الكلمة (المسيح) وابن الله الكلمة الحية، وإذا كان اللوغوس عند فيلون ليس بأزلي، فهو في اللاهوت المسيحي أزلي، وهو ليس فانياً كالمخلوقات بل هو خالد مع الله، وهو دون الله مرتبة في الوجود والزمان»[29].
هذه هي نظرية آريوس القس الإسكندري، ولكن المسيحيين ينظرون إلى الكمة (يسوع) مساوٍ للأب في المرتبة والزمان.

كيف تجلى اللوغوس عند فيلون؟

يرى فيلون أن اللوغوس تجلى في ثلاثة مظاهر:

1) بقوة الخير، فهو القوة الخالقة التي تمَّ بها الاتحاد بين إله النور والحياة.
2) بقوة القدرة، فهو القوة التي تهيمن على العالم وتحكمه وهو رب العدل.
3) بقوة الكلمة، التي نظمت كل القوى السابقة، فهو ابن الله الحي في اللاهوت المسيحي.

وكان فيلون يرى أن فلسفة أفلاطون مستمدة من فلسفة موسى التوراتية. من هنا كان تفسيره لآيات العهد القديم تفسيراً رمزياً، واستبطن نصوص التوراة

واعتبرها رموزاً لمعانٍ تخضع للتأويل العقلي، وإلا بدت آيات الكتاب المقدس أساطير وقصص خرافية.

يرى المؤرخون الثقات أن إنجيل يوحنا كتب في الإسكندرية عام 98م، تحت تأثير فلسفة فيلون اللاهوتية، قال يوحنا: «في البدء كان الكلمة، والكلمة من عند الله، وكان الله هو الكلمة» (يوحنا 1: 1).

والخلاص عند فيلون يتم بواسطة شريعة موسى، والكلام عنده عبارة عن تصورات ذهنية، كامنة في العقل الإنساني ولكن الله كلَّم موسى في البرية بكلام خارجي، عبَّر عنه بألفاظ وأصوات. ونصُّ التوراة هو كالجسد، والمعنى الباطني فيه كالروح. كانت هذه الثنائية غريبة عن الفكر اليهودي قبل فيلون. قال بولس الرسول: «الحرف يميت والروح يحيي».

كان فيلون يهودياً، يدافع عن قومه. ذهب إلى روما عام 38م، لمقابلة الإمبراطور كاليجولا، الذي أراد من اليهود أن يصنعوا له تمثالاً ويضعوه في معبدهم، فثار يهود الإسكندرية، وترأس فيلون الوفد، ولكن الإمبراطور توفي، فعاد إلى الإسكندرية عام 40م، وألقى في روما عدة محاضرات أعجبت الإمبراطور كلوديوس الذي أعاد إلى اليهود حرية العبادة.

### المؤرخ يوسيفوس فلافيوس (37- 100م)

هو يوسيفوس بن كريون. كان سياسياً وقائداً عسكرياً ومؤرخاً واسع الاطلاع، شديد الطموح، سافر إلى روما حينما نشبت الثورة اليهودية، وعين قائداً عسكرياً لمنطقة الجليل الأعلى عام 66م، لأنه تنبأ للقائد الروماني فلافيوس فسبستيان بأنه سيتبوأ عرش روما. وهو صاحب التاريخ المشهور الذي أرَّخ فيه لليهود وعلاقتهم بالرومان.

يصوِّر يوسيفوس نزول تيطس على أسوار القدس في سنة 66م، وعرض على سكانها الصلح، ولكنهم أغلقوا الأبواب، فنزل على جبل الزيتون وهدم السور الأول واليهود يتقاتلون فيما بينهم داخل المدينة، وذلك أن شمعون وأليعازر اتفقا على محاربة يوحنان ملك القدس الذي كان معه ستة آلاف مقاتل ومع خصومه عشرة آلاف مقاتل. وعندما فتح تيطس ثغرة في السور الأول، هنا اتحد اليهود لمقاومة العدو الروماني.

أرسل القائد تيطس يوسيفوس لإقناع قومه بالعدول عن المقاومة، فقال لهم: «اسمعوا مني يا معشر بني إسرائيل، كيف تطمحون لمقاومة هذه الأمة القوية، وأنتم تعلمون أن الله هو الذي سلط هذه الأمة عليكم لسوء أعمالكم، ورداءة أفعالكم، وخالفتم شرائعه، وهذه المدينة هدم منها سوران وبقي سور واحد، وأنتم في كل يوم في تناقص. فلما سمعوا ما قاله رفعوا أصواتهم بسبِّه وشتمه ورموه بالحجارة وبالسهام ليقتلوه»[30].

واشتد القتال بين الطرفين، ولما علم يوحنان أنهم لا بدَّ وأنهم خاسرون قال لتيطس: اسمع يا ابن الملك العظيم، ليس لنا قرابين في هذا الهيكل المقدس، أجل من لحومنا ودمائنا، فقال له تيطس: كيف تقدمون أنفسكم كالقرابين وأنتم فاسدون، وتعلمون أن الله لا يقبل الضحايا إلا ما كان منها سالماً من كل عيب؟ واشتد الجوع على اليهود، وهربوا من القدس إلى جبل صهيون، فأحرق الرومان قدس الأقداس، واشتعلت النار في القدس، وأحرقوا كل القصور والمباني الجليلة، وأخذ تيطس معه جملة من السبي وقدمهم للسباع[31].

ولكن اليهود اليوم، يقدمون صورة البطل الأسطوري، على عادتهم في تزوير الوقائع التاريخية، وجعلوا من يوسيفوس بطلاً من أبطالهم، وهم الذين شتموه ورموه بالحجارة، وقد دوَّن ذلك بنفسه.

### صورة البطل الصهيوني

تقول الأسطورة: حاصر الرومان قلعة في شرق القدس من كل الجهات لعدة سنوات، مما دفع بالقائد اليهودي يوسيفوس بن كريون إلى الصمود في القلعة (المسادة) أو (المصدَّة) التي تقع في أعلى قمة صخرية عند البحر الميت. وعندما يئس اليهود من النصر، أقنع يوسيفوس رفاقه بالانتحار الجماعي بدلاً من الأسر، وقد عبَّر المفكر الصهيوني يوسف يادين Yadin عن أهمية صمود المسادة بقوله: «إن المسادة تمثل إلينا الوقفة الأخيرة Last stage لنا في إسرائيل وخارجها، سواء كنا من علماء الآثار أو من الناس العاديين، رمزاً للشجاعة والصمود، ولأبطالنا القومين، هؤلاء الأبطال الذين اختاروا الموت على حياة العبودية المادية والمعنوية». ولكن الدكتور عبد الوهاب المسيري له تفسير آخر يقول: «إنه برغم

كل الشكوك التي تحيط بهذه الواقعة، حينما وصل الرومان لمنطقة الجليل عام 66م، حاول يوسف بن كوهين الهرب ولكنه لم يفلح، إذ أبقاه جنوده على الرغم منه، وبعد ذلك تمكن الجنود والقائد من الفرار إلى أحد الكهوف، حيث قرر الجنود الانتحار بطريقة جماعية، فقام يوسف بن كريون بعمل القرعة بنفسه بطريقة كفلت له أن يكون آخر المنتحرين، ثم اشرف على عملية الانتحار وحينما لم يتبقّ إلا اثنان، هو وشخص آخر معه، أقنعه يوسف بالاستسلام للرومان بدلاً من الانتحار. وحين وصل يوسيفوس إلى القائد غيَّر اسمه واتخذ اسم القائد الروماني يوسيفوس فيلافيوس، وأصبح يعرف بهذا الاسم فيما بعد»[32]. وعينه الإمبراطور قائداً للجليل الأعلى كما يذكر هو في كتابه (العاديات اليهودية)، ولم يذكر واقعة (الماساداة). هرب معظم اليهود إلى شمال الجزيرة العربية ليجدوا الأمان في البتراء ودومة الجندل ويثرب وبصرى الشام.

## التواصل الحضاري والتجاري بين فلسطين والجزيرة العربية

لم تعق الصحاري والجبال في شمال وغرب الجزيرة العربية، القبائل العربية من التجارة مع اليمن وبلاد الشام، وكانت لدى أهل سبأ صناعة الحلي من الأحجار الكريمة والذهب والفضة، وقد كشف المعبد البيضوي في مأرب، مذبحان وبئر لسقاية الزوار، كما كشف عن مصباح برونزي عليه نقوش يونانية، وعلى سطحه الأعلى صورة جدي يقفز، كما كشف عن أختام عليها صور معارك بين حيوانات وآلهة، وهذا يذكر بالتواصل الحضاري وبالأختام الآشورية والبابلية.

## عرب الأنباط واليهود

الأنباط عرب، من عرب الجنوب، سكنوا مدينة البتراء (مدينة الحجر) ومدائن صالح وتيماء والعلا، وكانوا يتكلمون لغة عرب الشمال، ويستخدمون الخط الآرامي، وحاول البطالمة السيطرة على مملكة الأنباط وأرسلوا حملة إلى شمال الحجاز، وأنشأوا مستوطنات إغريقية للهيمنة على منافذ الطرق التجارية[33]. ولكنهم لم يفلحوا، مما دفع بالسلوقيين إلى نجدتهم، فتحسنت التجارة بين سورية وفلسطين وعقدوا صفقات مع مدن الساحل السوري: أنطاكية وصور وصيدا وبيروت وغيرها من المدن[34].

وفي زمن الحارث الأول (169- 146 ق.م) لجأ إليه الكاهن جاسون الذي طرده المكابيون فلم ينصره، ولكنه أواه.

وفي زمن الحارث الثاني (110- 96 ق.م) لجأ إليه جنوس ملك المكابيين هرباً من محاصرة السلوقيين لأورشليم، فلم ينصره، ولكنه أواه، وعندما حدث الخلاف بين الأخوين أرسطوبولس وهركانوس، ناصر الحارث الثالث (87- 62 ق.م) هركانوس، ولكن الإمبراطور الروماني بومبي، تدخل وساعد أرسطوبولس، فتراجع الحارث عن نصرة هركانوس، وأبدى خضوعه لسيطرة روما[35].

وفي زمن الحارث الرابع (9 ق.م - 40م) ازدهرت البتراء في زمن ملكها المثقف الذي يعرف عدة لغات، وفرض نفوذه على كل مدن الحجاز ما عدا مكة، وضرب عملة باسمه (الحارث ملك النبط، محب أمه) ويقال إنه اعتنق الديانة اليهودية، وزوج ابنته إلى حاكم القدس هيرودوس أنتيباس، وعندما تزوج عليها أرملة أخيه فيليبس، ثارت الحرب بينهما، وقاد هيرودوس حملة على البتراء ولكنها فشلت. يقول الدكتور إحسان عباس: «نالت البتراء نصيباً كبيراً من العمران في عهد الحارث الرابع، حيث تم بناء أكبر معلمين من معالم البتراء وهما (الطيطر) البناء المجبوب بالخصر، والمعبد القائم في مركز المدينة ويعرف باسم قصر البنت»[36].

والحارث الرابع هو حاكم دمشق، الذي حاولوا القبض على بولس الرسول سنة 39م. جاء في رسالة بولس إلى أهل كورنثوس: «في دمشق كان الوالي الحارث أبو مالك يحرس المدينة ويريد أن يمسكني فتدليت من طاقة السور في زنبيل ونجوت من بين يديه» (أعمال الرسل، الإصحاح 11: 32).

كان كتَّاب اليهود وأحبارهم يعرفون الجزيرة العربية جيداً، ومنذ القرن الرابع قبل الميلاد جاء في سفر أشعيا: «وقوافل الجمال تملأ أرضك، ومن مدين والذين من سبأ يجيئون كلهم حاملين الذهب والبخور ومبشرين بأمجاد الرب» (أشعيا 60: 6).

وعندما أمر الإمبراطور تراجان (97- 117م) بإنهاء مملكة البتراء وضمها إلى بصرى الشام سنة 106م، هاجر سكان البتراء من عرب ويهود إلى مدن الحجاز واليمن[37]. وجرى صراع ثقافي وديني بين المسيحيين واليهود، وقد عكس القرآن الكريم ذلك الصراع في قصة أصحاب الأخدود.

لقد كان كتّاب التوراة يعرفون الجزيرة العربية تماماً وبيئتها، ومنتوجات كل إقليم، آخذين بعين الاعتبار حقيقة أن طريق التجارة المعروف بطريق البخور والتوابل[38] يقطع الجزيرة العربية من الشمال إلى الجنوب.

## هل التوراة جاءت من جزيرة العرب؟

أصدر الدكتور كمال صليبي كتاباً بعنوان (التوراة جاءت من جزيرة العرب)، أثار الكتاب ضجة في الأوساط الثقافية حين صدوره عام 1985م. والفكرة المحورية فيه: إن تاريخ بني إسرائيل كما ترويه التوراة إن هو إلا تاريخ بني إسرائيل، وقد اتخذ مساره الكامل في أرض عسير وجنوبي الحجاز في غرب الجزيرة العربية، وإن أرض كنعان ليست فلسطين، وإنما هي المنحدرات البحرية لعسير من منطقة بلحمر في الشمال عبر منطقة رجال وألمع وحتى منطقة جيزان في الجنوب، وإن أرض فلسطين هي ساحل تهامة من جوار الليث في الشمال إلى جوار جيزان في الجنوب، وإن نهر مصرايم هو وادي أضم ويقع وادي فرات في قرية المصرامة بين أبها وخميس مشيط[39]. هذه الفرضية تبدو لنا مذهلة، تدعونا إلى إعادة قراءة جغرافية التوراة، وإزاحة وهم سيطر على الفكر الشرقي أكثر من ثلاثة آلاف عام.

والسؤال الذي يطرح نفسه: اين تحطّم كيان إسرائيل عام 586 ق.م؟ أليس السبي البابلي حصل في أرض فلسطين؟ وأين كانت دولة الحشمونيين عام 167 ق.م، أليس في القدس (أورشاليم)؟

يجيبنا الدكتور كمال صليبي: اعتبر الحشمنيون (المكابيون) أنفسهم الورثة الشرعيين لإسرائيل القديمة، وفي أيامهم اعتبر اليهود أن فلسطين الأرض الأصلية لشعب إسرائيل البائدة والتوراة العبرية[40]. ويقدم الدكتور صليبي دليلاً ملموساً وهو أن كل الحفريات التي جرت في أرض فلسطين لم تثبت آثاراً تعود إلى مملكة داود وسليمان، مما يجعل الفرض بأن أرض عسير هي أرض التوراة، ولكن عسير لم يقم بها تنقيب بعد. ويظل فرض الدكتور كمال صليبي، قابلاً للقبول أو الرفض.

وتاريخ الجزيرة العربية معروف منذ القرن التاسع قبل الميلاد في الكتابات الكلاسيكية، خصوصاً سواحل البحر الأحمر الذي يحاذي الحجاز وجبال عسير والسراة في اليمن ذات المناخ المعتدل والأمطار الصيفية.

جاء في بردية نفرتي الكاهن المصري من بلاط أفيس الأول 1892 ق.م، صوَّر فيها مأساة الدلتا وما جرى فيها من فوضى واضطرابات مما أحدثه البدو القادمون من أرض الحجاز، وتنبأ بعودة أميني المنقذ ليخلصهم من الأسويين ولسحق سكان الرمال. والإله آتوم الإله التام هو القادر على ذلك.

وذكر هوميروس (9 ق.م) أن اللبان والمرّ والقرفة تجلب من بلاد العرب. وكان اليونان مهتمين بمعرفة أرض الجزيرة العربية، لم يذكروا وجود شعب إسرائيل في تلك البلاد، وأرسل بطليموس فيلادلفوس (285- 247 ق.م) البحار أرسطون ليكشف سواحل الحجاز المطلة على البحر الأحمر، وقام برحلته في مضيق باب المندب، ولم يذكر وجوداً لليهود الذين كانت منهم جالية كبيرة في الإسكندرية وهم الذين ترجموا التوراة للملك بطليموس وعرفت تلك الترجمة بالسبعينية Seplaugint. وقد وصف العالم أيراتوستين (275- 194 ق.م) جزيرة العرب واليمن خاصة (اليمن الشمالي واليمن الجنوبي)، وصفها بالعرب السعيدة، وذكر إنتاجهم من المرّ واللبان والصمغ والقرفة والتوابل وأصناف الدواجن والطيور إلا الدجاج، وقد قال الدكتور كمال صليبي إن الدجاج لم يذكر في التوراة.

ولكن الرحالة سترابون قدَّم وصفاً للمدن الموجودة على البحر الأحمر، ومدائن صالح والعلا ودومة الجندل والبتراء حتى يصل إلى بصرى الشام، وذكر فيه أن الأنباط كانوا يتبعون نظاماً ملكياً، وكانت بيدهم تجارة التوابل والطيب، وكان في تلك المدن توجد جاليات يهودية عربية. ثم كتب الرحالة الروماني بلينوس الأكبر (23- 79م) كتاباً في الجغرافية وصف ثروات الجزيرة العربية والأنباط وتحدث عن دياناتهم وعاداتهم وذكر أنهم كانوا من رعايا روما، وكان بينهم رعايا يهود.

وعندما قضى تراجان على مملكة الأنباط عام 106م، هاجرت جاليات يهودية إلى عمان والبحرين[41]، وكان اليهود عرباً من قبائل يمنية حميرية.

## الصراع الديني في الجزيرة العربية

تجاهلت الأخبار العربية قبل الإسلام، الوضع الحقيقي لثقافة الجزيرة العربية. وأفضل كتاب أشاروا بصدق لما كان يجري في أعماق التاريخ العربي، هم أوسابيوس القيصري وشمعون الأرشمي.

دخلت الديانة اليهودية إلى اليمن ومملكة سبأ منذ دولة سليمان الحكيم، الألف الأول قبل الميلاد. عرفنا ذلك من الإشارة البسيطة عن علاقة سليمان بالملكة بلقيس. ودخلت المسيحية إلى الجزيرة العربية والحبشة منذ القرن الأول الميلادي. دخل المبشر برتولماي الرسول، أحد الرسل الاثني عشر، وصل إلى مدن العلا ويثرب وقد نصَّر خلقاً من اليهود وترك لهم نسخة من إنجيل متى باللغة الآرامية، وهي النسخة التي توصف (بالعبرية) وقد اطلع عليها الراهب بنتيتوس الإسكندري (القرن الثاني) أستاذ الدراسات اللاهوتية في جامعة الإسكندرية، وقد توغل في مدن الجزيرة العربية مبشراً بالإنجيل، ذكر ذلك مؤرخ الكنيسة أوسابيوس القيصري (ك5 ف10).

وفي القرن الثالث كانت في نجران واليمامة كنائس، ثم انتقلوا إلى حضرموت وإلى الساحل الشرقي للخليج وأقاموا ديراً باسم الرسول توما في باقطرايا (قطر حالياً) أسسه الناسك عبد يشوع الحيري، وقد زاره مار يونان الناسك عام 390م، فوجده آهلاً بالرهبان وفيه أكثر من 200 راهب وأقام فيه مدة يعلم النسك[42].

عندما أصبحت الديانة المسيحية دين الدولة، وأصبحت للجزيرة العربية أهمية اقتصادية وسياسية للدولة الرومانية، أرسل الإمبراطور قسطنطين الثاني وفداً برئاسة ثاوفيلوس السيلاني إلى اليمن عام 354ن، للتبشير في اليمن فبنى ثلاثة بيع في نجران وصفاء وظفار ونصَّر كثيراً من القبائل الحميرية التي كانت اليهودية فاشية بينهم، ونصَّر عبد كلال بن مثوب ملك نجران، وأحسن تدبير الرعية، وكانت الأسرة الملكية من قبل يهودية.

لأول مرة يتدخل الأحياش في شؤون اليمن، مما أثار غضب يزدجرد الأول (390- 420م) فتدخل في شؤون اليمن عن طريق ملوك الحيرة التنوخيين، واشتد الصراع بين أصحاب الديانتين اليهودية والمسيحية. وفي عام 451م، اجتمع مجمع مسكوني في خلقيدونية، وقرروا أن المسيح أقنوم واحد، إلا أنه إله تام صلب وقام، وليس في المسيح أقنومان كما يقول النساطرة[43].

صار أهل نجران من أتباع الطبيعة الواحدة في السيد المسيح، وظهرت في الحجاز بدعة تقول: إن المسيح وأمه إلهان من دون الأب، ذكرهم القديس أبيفانوس القبرصي (367- 403م) وكانوا يقدمون للسيدة العذراء قرابين فطائر

من عجين وتسموا بالمريميين، وكانوا يقولون: إن المسيح لم يرتكب خطيئة، لذا لم يصلب، والذي ارتفع على الصليب هو شبيه له، وارتفع إلى السماء لأن جسمه خيالي، وإن المسيح كلمة الله الحية، وإنه رسول الله. وكان أسقفهم في مكة ورقة بن نوفل.

## المسيحية واليهودية في نجران

تقول الروايات السريانية إن تاجراً من أهل نجران يدعى حيان، ذهب في تجارة إلى القسطنطينية، وعاد إلى بلده حوالي عام 500م، وفي طريقه مرَّ على الحيرة وتنصَّر وتعمَّد باسم فيميون، وعندما عاد إلى نجران نصَّر أسرته وجواره وخلقاً من القبائل المحيطة بنجران والمدن المتاخمة للحبشة[44].

في هذه المرحلة جرى صراع بين اليهود والمسيحيين وكان مار بولس النجراني قد استشهد من قبل يهود طبرية (عام 518م)، فقام مار توما أسقف نجران إلى الحبشة وطلب النجدة، فجاءت حملة من الأحباش عام 519م، وضغطوا على مسروق الملك اليهودي الحميري، وعادوا إلى الحبشة.

كان المسيحيون في هذه الفترة في صراع فيما بينهم، وكانوا يؤجرون أنفسهم لليهود طمعاً بالذهب، كما فعل التاجر الحميري جحشون الذي خلَّص الملك مسروق من الأحباش عندما حلف لهم بالإنجيل المقدس أنه مسيحي، ولم تمض مدة سنتين حتى فتك مسروق بالمسيحيين وأرسل أسلابهم إلى الحيرة.

هذا ما ذكرته المصادر السريانية، أما في المصادر العربية، فقد جاءت عن مصدر يهودي، لأن الراوي للأحداث هو وهب بن منبه الحميري اليهودي الذي أسلم، قال: «وبنجران بقايا من دين عيسى، كانوا أهل فضل واستقامة، دعاهم إلى دين المسيح رجل يقال له فيميون، وكان لا يأكل إلا من تعب يديه، وكان يعمل في صناعة الطين (صناعة الفخار) ويعظم يوم الأحد ولا يعمل فيه، سأله سيده عبد الله بن التامر عن دينه فأخبره به، وكان أهل نجران يعبدون شجرة نخل كبيرة، ويعيِّدون لها كل سنة، ويعلقون عليها الثياب الحسنة والحلي. فقال فيميون: إنها شجرة لا تضر ولا تنفع، ولو دعوت عليها باسم إلهي (المسيح) الذي أعبده لأهلكها، فقال عبد الله: افعل! فدعا فيميون عليها، فأرسل الله ريحاً

فجعفتها من أصلها فألقتها، فاتبعه عند ذلك أهل نجران وصاروا على دين عيسى»[45].

ويذكر الطبري في تاريخه، وصار عبد الله بن ثامر أسقفاً لنجران، وكان من بني وائل من عنزة، درس في الرها وأرسله ملوك بيزنطة إلى نجران وبنوا له الكنائس، ودعا إلى توحيد الله[46].

هذا ما ورد عن المسيحيين في المصادر العربية.

## قصة أصحاب الأخدود

هذه القصة هي أعظم حادثة تصور الصراع اليهودي المسيحي، في مدينة نجران، ولأهمية هذه الواقعة ذكرها القرآن الكريم في سورة البروج، وذكر أسباب نزولها، أن الملك اليهودي مسروق ذو نواس، أعلن الاضطهاد على مسيحيي نجران، إذ خدَّ لهم الأخدود، وحرقهم بالنار وقتلهم بالسيف، ومثَّل بهم كل مثلة[47]. أما كتب التفسير الأخرى، قالوا: إن أصحاب الأخدود هم ملوك الكفار وجنده، عندما آمن بعض رعيته شقوا له الأخدود، وأحرقوا فيه النار، ثم قالوا للمؤمنين: من رجع عن دينه تركناه، ومن لم يرجع ألقيناه في النار. فصبر المؤمنون فألقوهم في النار فاحترقوا والملك وأصحابه ينظرون. قال تعالى: {والسماء ذات البروج، واليوم الموعود، و شاهد ومشهود، قتل أصحاب الأخدود، النار ذات الوقود، إذ هم عليها قعود، وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود، وما نقموا منهم، إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد} (سورة البروج 1- 8).

كان لهذه الواقعة تأثير كبير في الوجدان الشعبي العربي، وصارت الأجيال ترددها وتأخذ العبرة عن الإيمان بالله من صمود مسيحيي نجران.

## أما في المصادر السريانية

إن لقصة أصحاب الأخدود تفصيل، يكشف عن عمق الصراع بين اليهودية والمسيحية، عندما احتل الأحباش مدينة ظفار، وضعوا فيها حامية، ولكن نجران استطاعت بفضل قوات الحيرة والفرس أن تحافظ على استقلالها، ولكنها كانت دائماً تتوجس الخوف من الأحباش، ويعتبر الملك مسروق ذو نواس أهل نجران المسيحيين عملاء للأحباش. وراح يفكر كيف يتخلص منهم؟ وبتدبير من

مستشاريه من أهل الحيرة أرسل وفداً من أهل نجران ليحضر له مسيحيي حضرموت وسبأ وديدان وتيمنة والقرى الخاضعة لنفوذه حول نجران وديار يدن. أوفد إليهم كاهناً يهودياً لاوياً ومعه شخصان مسيحيان هما عبد الله بن مالك من أهل نجران والآخر كونب بن موهوبة من الحيرة، وجمعوا حوالي 300 رجل من وجهاء القبائل العربية، رحب بهم اليهود بوجوه باشة مما أعطاهم الأمان والطمأنينة وقتلوهم في الليل، وفي الصباح وجدت جثثهم في أطراف نجران.

وأرسل الملك مسروق ذو نواس قوة عسكرية إلى ظفار وقتلوا القوة العسكرية الحبشية الموجودة في الكنيسة، وأمر أن يجتمع أهل نجران في 15 تشرين ثاني عام 523م، وأحضر ما إيليا أسقف حضرموت الذي كان تعلم في مار إبراهيم قرب تل موزل (ويران شهر اليوم في تركيا) وقد رسمه مار يوحنا (483- 538م) رئيساً للدير ومعه قسيس آخر هو مار توما من أهل نجران، وكان يقيم في حضرموت.

جاء إلى الملك مسروق كهنة يهود من طبرية حاملين توراة موسى وكتاب الأمان للقبائل المحيطة بنجران، وأقسموا للحاضرين بتابوت العهد أنه لن ينالهم أذى، وجاءهم حوالي 300 شخص من الأشراف من قبيلة الحارث بن كعب، ورحبوا بهم وكانوا لا يعلمون بقصة المسيحيين القتلى من قبل، وقسموا الضيوف إلى خمسين خمسين، وأحسنوا وفادتهم، وجردوهم من السلاح، ثم كبلوهم من أيديهم وأرجلهم وأرسلوا إليهم رجالاً وثنيين قتلوهم وأحرقوهم مع عظام لشهيد مار بولس الذي قتل في طبرية عام 518م، ثم جلبوا الحطب ووضعوه حول الكنيسة، ثم أضرموا النار فاحترقت الكنيسة، وما فيها من جثث[48]. لم يعرف العرب الغدر من قبل، ولكن اليهود زرعوا هذه العادة الذميمة.

يورد لنا المؤرخ شمعون الأرشمي (502- 540م) أسقف بيت أرشم على نهر دجلة قرب سليق، وروى الأحداث بالتفصيل نقلاً عن البلاطين الحيري والغساني في الشام.

### قصة الشهيد الحارث بن كعب الحميري

استدعاه الملك مسروق في صباح يوم الأربعاء في 16 تشرين ثاني عام 523م، وطلب منه أن يكفر بالمسيح، فرد عليه: إننا نكفر بكل من لا يقر بالمسيح هو الإله

وابن الإله، وها أنذا اسمي بنفسي ورفاقنا كعادتنا، بسمة الصليب الحية وباسم الأب والابن والروح القدس[49]. فأمر الملك بتعرية الشيخ وقال له: ها إنك عريان أمام رعيتك! فرد عليه: لو تراءى لك اللباس الذي أنا مرتديه، لما قلت هذا الكلام. إني لا أخجل بعري جسمي، ألا ترى أن ظهري لا يحمل أثراً للسيف أو للسهم، لأني لم أعط ظهري للعدو، وقد قتلت في الحرب ابن عمك. فقال الملك: لقد اتكلت على هذا وتمردت عليّ! دع هذا جانباً واكفر بالمسيح فتحيا، وإلا مت شر ميتة، فرد عليه الشيخ: ألم ترسل إلينا كلمة القسم، وأراك لم تتكلم كملك لأن الملك لا يكذب. إن الكنيسة التي أحرقتها اليوم ستبنى من جديد. ثم التفت إلى من حوله وقال: أسمعتم يا أخوتي ما قلته لهذا اليهودي؟ فصرخوا جميعاً: سمعنا، وإنه لقول حق. وقال الشيخ: لتخصص للكنيسة ثلاث قرى من ملكي تختارها الكنيسة لنفقتها، والآن لا مانع من جهتنا أن نموت من أجل المسيح. ورفع صلاته باسم الأب والابن والروح القدس، فصرخوا جميعاً: آمين. وبسط الشيخ يده وقال: سلام المسيح الذي أعطى للص الخلاص، وليكن معنا أيها الأخوة. وجثا على ركبتيه، فضربه الجلاد وحز رأسه. فأمر الملك بسحب جثته إلى أخدود في طرف مدينة نجران. وتابع الجلادون قتل المؤمنين وسحبهم وهم متعانقون. ثم سمح أن يدفن الشيخ الحارث بن كعب على طرف الوادي.

### قصة شهادة مالك بن معاوية الحميري

جاؤوا بمالك من عشيرة يقبول وقد دعي في العماد إبراهيم لما نذر، وكان من أهل نجران. وحينما رأى احتراق الكنيسة والكهنة والمؤمنين جاء مهرولاً ووقف بفناء الكنيسة، ونادى بأعلى صوته: اسمعوا أيها المسيحيون واليهود، كفراً باليهود، وكفراً بكل من لا يعترف بأن المسيح هو الله، وابن الإله الحق، ورسم إشارة الصليب، ثم ألقى بنفسه في النار مع الكهنة الذين احترقوا قبل: القس سرجيس الرومي والقس جبرائيل النجراني والقس إيليا من حيرة النعمان، وكان تلميذاً للطوباوي مار نعمان بن ميخلئيل الذي رقد في دير مار بس حوريم المقدس، والقس إبراهيم الفارسي، والأرخدياقون (رئيس الشمامسة) حنانيا الرومي والشماس يونان الحبشي، والشماس سليمان النجراني، والشماس موسى بن مازن النجراني، والشماس موسى الذي قتل بالسيف مع الشيخ الحارث

وإبراهيم بن معاوية، ومعاوية بن أحويه، وقيوس بن سليمان وباقي الكهنة النجرانيين والنذراء والنذيرات والعلمانيين والعلمانيات الذين بلغ على ما قالوه أن عددهم حوالي ألفين[50].

**قصة شهيدات نجران الحيمريات**

سارعت النسوة إلى الكنيسة مناديات بعضهن بعضاً قائلات: أيتها الأخوات لنتمتع برائحة الكهنة. وخاطبهن الملك مسروق: ها إنكن عاينتن أزواجكن قد قتلوا لأنهم قالوا: إن المسيح هو الإله وابن أدوناي، فردت عليه النسوة إن المسيح هو الإله وابن الرحمن. وتوجه لبعض الرجال الموجودين، إنكم تسجدون لشخص مائت ادعى أنه ابن الله أو الرحمن، في حين إنه إنسان، وبعد صلبه افتضح تعليمه الفاسد، وأدركت كل المعمورة إنه إنسان لا إله. وها إن الروم قد أدركوا أنه إنسان بحت، فما بالكم وأنتم الحكماء تضلون وراءه؟ أأنتم أفضل من الروم؟ إننا لا نسألكم أن تكفروا بالله خالق السموات والأرض بل أن تكفروا بيسوع الذي حسب نفسه إلهاً وأنه إنسان لا إله. وصرخ الرجال والنساء في وجهه، فكانت النساء يدخلن النار ويحترقن.

سأذكر أربعة نماذج من استشهادهن في يوم الأحد الموافق 20 تشرين الثاني عام 523م.

**1)قصة الشماسة أليشيع**

كانت أخت القديس بولس الأسقف الذي قتله اليهود دون علمها، ولما علمت كان بعض المسيحيين قد أخفوها قسراً في أحد بيوتهم خوفاً عليها، ولما سمعت بحريق النساء خرجت وهي تصرخ: ها إنني معك يا أخي أمضي إلى المسيح. كانت الشماسة في 47 من عمرها، ولما قبض عليها اليهود وكبلوها بالحبال، ثم غلوا زيتاً وسكبوه على رأسها، ثم أخرجوها إلى خارج الأسوار وعروها من ثيابها، وربطوها إلى جمل وأثاروه وتركوه يجرها في البرية. وفي اليوم التالي وجدوا الجمل مخنوقاً بحباله والطوباوية ميتة وحملوها إلى المدينة من مصرف المياه (نفق خروج مياه المطر) ثم كفنوها بكتان أبيض وبخور ودفنوها[51].

**2)قصة الشريفة روهوم بنت أزمع**

جلبوها إلى ساحة الكنيسة يوم الأحد، وطلبوا منها أن تكفر بالمسيح وبالصليب وإلا ماتت. *فلما سمعت ذلك هرولت إلى الشارع وهي سافرة وتصرخ:* اسمعنني أيتها النسوة، إنكن تعلمن أنني مسيحية، وتعرفن جنسي وعشيرتي، وإن لي ثروة من ذهب وفضة، ولي عبيداً وإماء ولا يعوزني شيء. وفي خزانتي أربعين ألفاً ذهباً دنانير مطبوعة ولدى بناتي جواهر وأحجار كريمة، وقد قتل زوجي من أجل المسيح، وها هي بناتي الثلاث قد زينتهن للمسيح بدلاً من أزواجهن، والآن أذهب مرفوعة الجبين إلى المسيح ربي وإلهي وها أنذا أذهب إليه دون دنس، فطوبى لي ولبناتي وليخيم السلام على شعب المسيح.

وتقدم بعض الأشراف إلى الملك قائلين: لقد أسدت رهوم بنت أزمع أيادي بيضاء إلى الفقراء، وقد أغنت بعضهم، فاعفو عنها، فلم يستجب الملك لطلبهم. وخرجت الأم وبناتها مرفوعات الرؤوس إلى الوادي ليقتلن أو يذبحن، وبعد قتلهن سمح الملك بدفنهن على طرف الأخدود.

**3)قصة الشهيدة حفصة بنت حيان**

كانت حفصة ابنة التاجر النجراني فيميون، قالت الشهيدة مخاطبة الملك مسروق أن أبي حيان حرق مجمعكم، وأن المسيح سيستأصل مجامعكم اليهودية من بلادنا. وحاشا لي أن أكفر بالمسيح الإله الذي آمنت به وآمن به أبي، المسيح إلهي الذي تألم بالجسد من أجلنا.

**4)قصة الأمة مانحة**

كانت مانحة أمة للشريف الحارث بن كعب، وكانت وقحة وسبابة، وكانت جريئة في كل أعمالها، أتوا بها مع الإماء، وقال لهن الملك مسروق: لقد رأيتن أسيادكن وسيداتكن قد ماتوا شر ميتة، لأنهم أبوا الكفر بالمسيح وبالصليب، فأشفقن أنتن على أرواحكن فتصبحن شريفات حرات، وأزوِّجكن من رجال أشراف، فتقدمت إليه مانحة، وشتمته وذكرته بجحشون التاجر الذي أنقذه من الأحباش. فأمر الملك بتعريتها من ثيابها، فقالت له وللحضور: كنت قد تعريت أمام النساء والرجال من قبل ولم أخجل من كوني امرأة كما خلقني الله.

أمر الملك مسروق الخدم، فجاؤوا بثور وحمار وربطوها بحبال إليهما، ثم أخذوا يضربونهما، وطافوا بها في شوارع نجران فأسلمت الروح من أجل المسيح[52].

### قصة الطفل بصير الحميري

خرجت أم الطفل لتقتل، فظل ممسكاً بيدها، ولما شاهد الملك بثيابه الملكية، ترك يد أمه وركض نحو الملك وقبَّل ركبته، فأمسكه وهش له وقال له: ماذا تريد؟ فقال الطفل: أريد الموت مع أمي! فدعني ألحق بها لئلا تموت ولا أراها. فسأله الملك: من أين تعرف المسيح؟ قال: أراه كل يوم في الكنيسة. وسأله الملك: أتحبني أم تحب أمك؟ فقال: أحب أمي أكثر. ثم سأله أتحبني أم تحب المسيح؟ فقال: المسيح خير منك. وأعطاه الملك جوزاً ولوزاً، فلم يأخذهما، وقال: لا آكل جوز اليهود ولا أمي تأكله. وسأله الطفل: أتكفر أنت بالمسيح؟ فقال الملك: نعم. فقال الطفل: لأنك يهودي. دعني ألحق بأمي. وطلب منه الملك: ابق معي وستكون ابني. فقال الطفل: إن رائحة أمي أفضل من رائحتك.

قال الملك لجلسائه: تبصروا كيف يتكلم هذا الطفل، لقد استطاع ذلك الساحر أن يضله. وحمله أحد الخدم وهو يبكي، وصاحت به أمه: اذهب يا بني، إني أستودعك المسيح، وانتظرني في الكنيسة.

وفي تلك اللحظة تقدم نحوها جندي يهودي وطعنها برمحه فسقطت جثة هامدة.

عقَّب يوحنا الأفسسي المؤرخ السرياني: إن هذا الطفل قد ترعرع وانتهى أمره إلى الملك المسيحي الذي حكم نجران بعد الملك مسروق اليهودي، وكبر وجعله الملك كبير أمناء سره، وجاء إلى القسطنطينية في زمن الإمبراطور جستنيان (527- 564م) واجتمعنا به وكان اسمه (بصير) وتعجبنا بقوة إرادته ووداعته وتواضعه وكانت تلازمه الكآبة والصلاة المتواصلة، ويمارس الصوم كل يوم حتى المساء، وكان يمانع أن تذاع قصته مع مسروق اليهودي، ولكنه أذاع قصة الشهداء الحميريين.

والسؤال الذي يطرح نفس: كيف استطاع الأسقف شمعون الأرشمي جمع تلك الوقائع؟

يقول الأسقف شمعون: جمعتها استناداً إلى الرسائل التي كان يحملها جندلة خال الطفل الصغير. وفي رسالة أرسلها الأسقف شمعون إلى رئيس دير الجبول (حلب) كتبها في شهر تموز عام 524م، من قصر الملك جبلة الغساني، من المكان الذي يسمى جبثيا (الجابية) قال: إن هذا النزر اليسير الذي كتبناه إلى محبتكم هو مما نقل لنا من الأشراف المؤمنين الذين وفدوا من نجران إلى حيرة النعمان، ومن الرسائل التي تليت أمامنا، وكانت باللغة العربية وباللهجة الحميرية التي لم نتمكن من كتابة كل ما سمعناه وقرأناه لضعف بصرنا، والحق أقول لقداستكم، إنني حين أطيل الكتابة يتشوش بصري، وترتعش يداي لهذا أهملنا كتابتها كلها[53].

يقول شمعون الأرشمي: في سنة 524م، تسلم المنذر بن النعمان رسالة من الإمبراطور يوسطينيوس (518- 527) في قصره بالحيرة مرسلة مع مار شمعون لأرشمي والأسقف إبراهيم بن أريوروس وسرجيوس أسقف الرصافة. فاستدعى المنذر كبار قادته وأشراف المسيحيين التنوخيين وتلا الرسالة على مسامعهم، وقال: انظروا ها إن المسيح قد طرد من بلاد الحميريين، من نجران وحضرموت، وظفار، والفرس والروم قد تخلوا عن المسيح، فما تقولون أنتم؟ أترضون أن تتخلوا عنه؟ وأنا لست خيراً من ملكي الفرس والروم ولا من ملك الحميريين الذي فتك بهم وأفناهم. فتصدى له أحد أشراف جيشه، قائلاً: إننا لم نتنصَّر في عهدك لنكفر بالمسيح! فسكت عنه المنذر من أجل قوة عشيرته وشجاعته في الحرب.

وفي ذلك الوقت وصل وفد الملك مسروق اليهودي مع الأسلاب التي أخذها مسيحيي نجران، طالباً النجدة لأن الأحباش هاجموه، وأجبروه على الفرار من نجران.

ووصل إلى الحيرة وفد الملك الحبشي كالب برئاسة الشريف النجراني أفعو رسول الملك أمية النجراني ومعه خبر مقتل الملك مسروق اليهودي وتنصيبه ملكاً بدلاً منه، ومعه رسائل عن الحالة المزرية التي تعرض لها الشهداء الحميريون في نجران.

شاعت قصة شهداء حمير، أصحاب الأخدود، فحزن عليهم المؤمنون ونظم يوحنا بسلطيوس رئيس دير قنسرين (525- 600) معنيثاً (ترتيلة) بالسريانية

عنوانها في الشهداء الحميريين الذين استشهدوا في نجران، جاء فيها: «إن سبسطية (نابلس عاصمة السامرة) كملت بشهادة أربعين شخصاً، في بحيرة الماء إبان البرد القاسي، أما نجران ففاقتها بعشرة أضعاف أولهم المعلم الحارث بن كعب، وقد جاهدوا في زماننا القريب، وأننا بحاجة لصلواتهم، ونطلب من المسيح أن يصرف الشكوك والعثرات عن البيع، ويدحض جميع الهرطقات والبدع ويثبت المؤمنين في الإيمان، ويجعلهم من مختاريه وينجيهم من الشرور»[54].

يعلق الدكتور أسد رستم على نصرة الإمبراطور جوستينيوس للشهداء الحميريين وهو الذي كان يضطهد أصحاب الطبيعة الواحدة في بلاده ويطلب من النجاشي الحبشي كالب نصرة أهل نجران، يقول: لأن الإمبراطور جوستينوس كان عليه حماية ذمار المسيحية في كل المسكونة[55].

هكذا نرى أن المسيحية كانت فاشية في الجزيرة العربية، وكانت في صراع دائم مع اليهودية مما هيَّأ الجو والمناخ لظهور الإسلام.

وقد أوقع أبو جبيلة الغساني بيهود يثرب وقتلهم بتحريض من مالك بن العجلان، سأله عن قومه فشكا إليه سوء حالهم، فأمره بالمضي إلى قومه وأخبره إني سائر إليهم. فرجع مالك بن العجلان ونزل بذي حُرُض قرب المدينة، ثم أرسل إلى الأوس والخزرج، وأعلمهم بخطة أبي جبيلة الغساني، وخشي إن لم يمكر بهم أن يتحصنوا بأطامهم (حصونهم) ويطول حصاره إياهم، فأمر ببناء حائر واسع وأرسل في طلب اليهود وأعلمهم بمجيء الملك الغساني أبي جبيلة، فلم يبق وجه من القوم إلا أتاه، وجعل الرجل يأتي ومعه خاصته وحشمه، ثم أمر الملك حجابه أن يأذنوا لهم في دخول الحائر (حوش كبير) والجنود في الداخل يقتلونهم حتى أتوا على آخرهم. فقالت سارة القرظية ترثيهم بقولها[56]:

بنفسي أمة لم تغن شيئاً ... بذي حُرُض تعفِّيها الرياحُ
كهول من قريظة أتلفتها ... سيوف الخزرجية والرماحُ
رزئنا والرزيئة ذات ثقل ... يمرُّ لأهلها الماء القراحُ
ولو أربوا لأمرهم لجالت ... هنالك دونهم حرب رداحُ

وقال الملك الغساني للأوس والخزرج: إن لم تغلبوا على هذه البلاد بعد من قتلت لكم من أشراف أهلها، فلا خير فيكم. ثم رحل فرجع إلى الشام.

وقسم السبي، وأخذ كل امرأة أعجبته من بني قريظة، وأعطى مالك بن العجلان منهم امرأة[57].

نرى من رواية الأغاني أن الغدر من شيم النفوس ومن لا يقدر فلعلة لا يظلم. اليهود غدروا بأصحاب الأخدود والمسيحيون غدروا بيهود بني قريظة.

### اليهود والإسلام في يثرب

تعرف الرسول (ص) على الديانة اليهودية من خلال رحلاته التجارية في اليمن والحجاز وسورية، وكان في مكة كنيس يهودي. ولم يتعامل الرسول بجدية مع اليهودية إلا بعد هجرته إلى يثرب عام 622م.

كانت يثرب مدينة ذات طابع ديني يهودي، وكانت القبائل التي تقطنها قبائل حميرية تعود إلى الأوس والخزرج، وحول المدينة توجد عدة حصون يهودية، من أهمها بلدة خيبر وفيها قبائل بني النضير وقينقاع، ومدينة خيبر مدينة صغيرة محصنة، فيها قلعة منيعة ذات نخيل وزرع وكانت داراً لبني قريظة، وكان السموءل بن عاديا الذي يضرب به المثل في الوفاء، أودع عنده امرؤ القيس بن حجر الكندي الشاعر (500- 450م) دروعه وابن عمه يزيد بن الحارث ومعه بنته هند، وأمواله، وسار نحو الشام يريد قيصر الروم، وكان السموءل يتحصن بحصنه الأبلق في تيماء. وجه المنذر بن ماء السماء الحارث بن ظالم في خيل وأمره أن يأخذ مال امرئ القيس من السموءل، وفي الطريق قبض على ابن السموءل، وطلب الحارث من السموءل أموال امرئ القيس وإلا قتل ولده، فقال السموءل: اقتله فلست أخفر ذمتي ولا أسلم مال جاري. فقطع الحارث الغلام قطعتين وانصرف عنه، فقال السموءل[58]:

وفيت بأدرع الكندي إني ... إذا ما ذُمَّ أقوام وفيتُ
وأوصى عادياً يوما بألا ... تهدِّم يا سموءل ما بنيت
بنى لي عاديا حصناً حصيناً ... وماءً كلما شئت استقيت

وكانت لليهود حصون حول خيبر منها دومة الجندل وتيماء وهي حصن عامر فيه مياه ونخيل ومنه تمتار البادية ومن تبوك إلى وادي القرى فيه مزارع وقبائل

لخم وجذام وجهينة وبلي، وكانت فيهم اليهودية فاشية وبلادهم بلاد إبل والبان واسمان وهم ينتجعون مراعي هذه الأراضي. وتبوك مدينة لها حصن وشرب أهلها من عين خرارة وبها كنيس يهودي، ومثلها مدينة الحجر (مدائن صالح) بها بيوت منقورة في الصخر، وفيها قبائل يهودية، ويحيط بها جبال ورمال وعلى ساحل البحر الأحمر مدينة مدين وهي مدينة النبي شعيب (ع).

يؤكد الدكتور كمال صليبي إن النبي موسى بعد خروجه من مصر توقف في موقع اسمه (الظل) يقع غرب المدينة (يثرب) من جهة نبع يدعى (النحك)، ولا زال أهل عسير يدعون أهل الحجاز باسم يهودنا، وكثير من القبائل العربية في الحجاز لا تخفي أصولها اليهودية لاعتقادهم أن اليهود كانوا يسكنون الأطم والجبال وأن أهل خميس مشيط كانوا في القديم يهوداً.

المستشرق الهولندي راينهارت دوزي (1820- 1884) رأى أن اليهود سكنوا الحجاز وعسير منذ زمن مملكة داود وأن دولة حمير في نجران كانت تدين باليهودية، ودليله على ذلك أن بعض المسلمين في عسير يحملون أسماء يهودية دون دراية بها مثل (مناحين وحبقوق).

وقد جمع عالم اللسانيات الإنكليزي ف. بيستون أعداداً هائلة من النقوش الكتابية من النصف الغربي من الجزيرة العربية من شمالها إلى جنوبها، فوجد أن الكتابات تتوزع في مجموعتين رئيستين:

-المجموعة الأولى: تستخدم (أل التعريف) العربية،

-والثانية: تستخدم (ها) أداة التعريف العبرية.

فاستنتج بتحفظ وحذر أن هذه الظاهرة تكفي للاعتقاد بوجود مجتمعين لغويين كانا متصلين بعضهما مع بعض جغرافياً، ثم تمازجا. وقد لاحظ العلماء منذ عشرات السنين وجود كمية من المفردات العبرية سائدة في جنوب الجزيرة العربية[59].

ولكن أوسفالد لوريتس أستاذ العهد القديم والدراسات الأوغاريتية في جامعة مونتسر الألمانية، يرى أن نقل أحداث التوراة إلى مسرح عسير الحجاز تهمل الأدلة غير التوراتية التي تؤكد أن أرض فلسطين الحالية نفسها فلسطين داود وسليمان. ولا بد أن تكون أرض كنعان في فلسطين لا في أرض الجزيرة العربية.

## الرسول الكريم في مكة

ولد الرسول محمد (ص) في مكة حوالي 570م، وكان الصراع السياسي بين البيزنطيين والفرس على أشده في الحجاز. في عام 567 غزا الفرس اليمن وطردوا الأحباش، وأصبح جنوب الجزيرة العربية وشرقها ولاية فارسية، ولكن الحجاز والبحر الأحمر لا زالا تحت التأثير البيزنطي.

وفي سنة 610م، هزم العرب الفرس في ذي قار، وأصبح هذا الحدث نقطة تحول عند العرب، ولا سيما وأنه رافق ظهور الدعوة الإسلامية. وفي سنة 614م، شنَّ الإمبراطور الفارسي كسرى أبرويز (585- 628) عدة حملات على سورية ضد الإمبراطور فوقاس (603- 610) ونهب أرض الجزيرة (دارا وآمد وحران والرها ومنبج وحلب ودمشق) في سنة 614م. وكان الخبر المحزن الذي هزَّ أركان الجزيرة العربية هجوم الفرس الخاطف على القدس ونهب الصليب المقدس سنة 615م. حزن المسيحيون والمسلمون، وكان الإسلام يعتبر المسيحيين في ذلك الوقت أهل كتاب وينعتهم بالمؤمنين، ونزلت سورة الروم، وعبرت عن حزن كل المؤمنين، ولكن الوحي الإلهي بشّر المؤمنين بالنصر القادم. وفعلاً قام الإمبراطور هرقل (610- 641م) بحملات مضادة ضد الفرس وعاصمتهم طيسفون (المدائن) واستعاد الصليب عام 628م، وفرح المؤمنون وتفاءل المسلمون بالنصر.

كانت مكة على طريق التجارة الدولي، إحدى المحطات الهامة على طريق التوابل، وكانت مكة ثنائية الوظيفة فهي مدينة للحج والتجارة، تقوم في منطقة جرداء لا زرع فيها، ومصدر رزق الناس على الحج في السنة، ويروي العرب أن البيت الحرام من بناء إبراهيم الخليل وإسماعيل وقد أيد تلك الأخبار القرآن الكريم. قال تعالى: «إن أول بيت وضع للناس الذي ببكة» وبكة اسم آرامي يعني الأرض المنخفضة، بين جبال بركانية، ولكن دعاء إبراهيم جعل هذا البيت آمناً في واد غير ذي زرع، وارزق أهله من الثمرات بواسطة التجارة مع الشام صيفاً ومع اليمن شتاء.

كان الرسول (ص) من أسرة تجارية، وقبل أن يبلغ الحلم مارس التجارة وصحب عمه في مرافقة القوافل. ولا نعرف عن حياته الخاصة قبل الخامسة

والعشرين سوى خبر صاغه كتاب السيرة، وهو أن الملائكة شقت جوفه وطهَّرته بالثلج. وخبر آخر متناقض نسبوه إلى راهب سرياني مجهول يقيم في بصرى الشام، تنبأ له بالنبوة، مرة عندما كان في الثانية عشرة عندما كان مع عمه أبو طالب. والخبر الآخر عندما كان يعمل في التجارة عند السيدة خديجة بنت خويلد، وكانت امرأة نصرانية وكان ابن عمها ورقة بن نوفل هو قسٌّ مكة. يقول محمد بن اسحق (المتوفى 768): كان ورقة بن نوفل نصرانياً تتبع الكتب، وعلم من علم الناس، وعندما أبلغ ميسرة غلامها ما قاله الراهب بحيرة بحق محمد، وهو أنه نبي هذه الأمة، نقلت الخبر إلى ابن عها ورقة، قال لها: إن كان هذا حقاً يا خديجة، فإن محمداً لنبي هذه الأمة وقد عرفت أنه كائن لهذه الأمة نبي ينتظر (المخلص) هذا زمانه. وكان ورقة قد استبطأ الأمر، وينسب إليه شعراً[60]:

لججت وكنت في الذكرى لجوجا لهمّ طالما بعث النشيجا
ووصف من خديجة بعد وصف فقد طال انتظاري يا خديجا
بما خبرتنا من قول قس من الرهبان أكره أن أعوجا
بأن محمداً سيسود فينا ويخصم من يكون له حجيجا
ويظهر في البلاد ضياء نور يقيم به البرية أن تموجا
فيا ليتني إذا ما كان ذاكم شهدت فكنت أولكم ولوجا

ومن الحوادث الهامة التي تروى عن الرسول (ص) أنه عاصر حلف الفضول بدار عبد الله بن جدعان كبير تجار مكة، وكان الرسول وعائلته يناصرون هذا الحلف، وهناك خبر آخر وهو أن الرسول حضر إعادة ترميم البيت في أيام شبابه قبل النبوة.

وكان كتاب السيرة يتعمدون تجاهل سيرة الرسول الثقافية ويكتفون بأنه كان أمياً بمعنى أنه لا يقرأ ولا يكتب، وأنه لا علاقة له بديانات أهل الكتاب (المسيحية واليهودية) علماً بأنه كان هناك كنيس يهودي في مكة، وبجانبه مدارس للتعليم وهناك كنيسة للمسيحيين، وكان الأسقف عثمان بن الحويرث، رجلاً مسيحياً أرثوذكسياً (روم أرثوذكس) نصبه الإمبراطور هرقل أسقفاً على مكة عام 615م. يقول ابن هشام: «كان عثمان من جملة من تنصروا وصارت بينه وبين هرقل صلات، واتفق معه أن من يدخل الشام من قريش يكونون معه، ولكن وجهاء

قريش رفضوا ذلك، ووقف في وجهه الأسود ابن أسد بن عبد العزى النصراني، وخرج عثمان وعاد إلى الشام وتوفي في الجابية عند عمرو بن جفنة الملك الغساني[61]. وتولى أمر المسيحيين الأسود بن أسد. والغريب أن كتّاب السيرة يحاولون إظهار دين الحنفية، وأن الرسول (ص) كان (حنيفاً مسلماً) بل يعادلون بين المسلم والحنيف. ويجعلون إبراهيم الخليل (ع) (حنيفاً مسلماً). وعندما أعلن الرسول دعوته، قاومته قريش، فهاجر أصحابه إلى الأحباش إلى بلاط النجاشي الرجل المؤمن وكان مسيحياً. وعندما اشتد الضغط عليه، هاجر سراً إلى المدينة (يثرب) وكانت تغلب عليها الديانة اليهودية، وتظهر لنا السور المكية الدراية الجيدة بالتوراة والإنجيل لا سيما إنجيل متى. هذه المسألة تحتاج إلى مزيد من الدراسة والتحقق.

## الهجرة إلى يثرب

كانت يثرب مجتمعاً زراعياً لتوفر المياه والتربة الخصبة، وكانوا يحسدون مكة لغناها ولوجود البيت الحرام فيها، وكانت المدينة (يثرب) على طريق الحج، ولكنها لا تمارس تجارة القوافل وتكتفي بالتجارة الداخلية مع القرى والبلدان العامرة حولها، ومعظمها حصون لليهود، الذين كانت لهم أصول من قبائل يمنية مثل بني النضير، وبني القينقاع، وبني المصطلق وبني قريظة، وكانت لهم حصون (آطام) أهمها (خيبر وفدك) كانت مركزاً لإنتاج التمور والحبوب.

كانت يثرب مركزاً حضارياً فيه مالك بن عجلان سيد الأوس والخزرج، وكان يميل إلى المسيحية وله صلات جيدة مع ملوك بني غسان في الشام، وعندما قتل زعيم اليهود عمران بن فطيون خرج إلى الشام يطلب نصرة ملوك غسان، فنصره أبو جبيلة الغساني، وجاء إلى حصن حُرُض وقتل اليهود، فسميت قبائل الأوس والخزرج بالأنصار[62].

كان الصراع بين الأوس والخزرج على الزعامة، وكان سيد الأوس أبو عامر عبد بن عمر بن صيفي بن النعمان المعروف بالراهب، وكان مسيحياً يتعاطف مع الغساسنة. وكان غريمه عبد الله بن أبي سلول العوفي، وكان ذا ميول يهودية، ويسعى لأن ينصبوه ملكاً على يثرب، لولا هجرة الرسول (ص) التي تمت عام 622م، وتغير التنظيم الاجتماعي بالتحالف الجديد الذي أحدثه رسول الله (ص)

عندما كتب صحيفة عهد وأمان لأهل المدينة، وطَّد فيه السلم الاجتماعي وأوجد صورة جديدة للعيش المشترك، وأشاع في المدينة (لا إكراه في الدين) وأن أصحاب الكتاب هم أخوة لأنهم كلهم مؤمنون بالله وباليوم الآخر وكتبه ورسله. وفصلت الآية الكريمة ذلك {إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين والمجوس والذين أشركوا، إن الله يفصل بينهم يوم القيامة} (سورة الحج آية 17). وكتب الرسول صحيفة حدد فيها حقوق وواجبات الطوائف المختلفة، حفظت الصحيفة للناس دينهم وأموالهم على ألا ينصروا مشركاً على مؤمن، لأن ذمة الله واحدة، ويجير بين الأنصار والمهاجرين أدناهم، وأن يثرب حرام جوفها على أهل هذه الصحيفة. ومضى على هذه الوثيقة الرسول وسادة المهاجرين والأنصار اليهود والمسيحيين، الذين كلهم مؤمنون. وخطب رسول الله (ص) في أول جمعة في مسجد قباء «أما بعد، أيها الناس، قدموا لأنفسكم، تعلمن والله ليصعقن أحدكم، ثم ليدعن غنمة ليس لها راع، ثم ليقولن له ربه، وليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه دون، ألم يأتك رسول فبلغك؟».

عمَّ الاطمئنان قلوب الجميع، ولكن الخوف والتوجس بالشر كان يراود قلوب اليهود، وكتموا العداوة، وأظهروا الوداعة والمودة، لأنهم ضعفاء في داخل يثرب. وألغى الرسول اسم يثرب الاسم العبري القديم وسماها المدينة، وحاول وضع أسس المدينة الجديدة، مدينة الإسلام، وعاصمة الدولة، وضع قاض، ونظام الحسبة في الأسواق، وجعل له أمين سر من الأنصار هو حذيفة بن اليمان (كاتم سر رسول الله (ص)).

وكان رسول الله (ص) قد أنشأ قافلة تجارية بين المدينة وبلاد الشام، وأشرك كل أهل المدينة في تجارة القافلة، فكانت أول جمعية تعاونية للجميع، وكان أول عمل سياسي له هو قطع التجارة على قريش، فقام بغزوة بدر عام 624م، وأعلن الحرب على قريش، فغزوه في العام التالي معركة أحد 625م، انتصر فيها أهل مكة على الرسول (ص) وعادوا لاعتقادهم أن الرسول قد قُتل.

## عداوة اليهود لرسول الله (ص)

كتم اليهود عداوتهم للرسول في البداية، ولكنهم بعد معركة أحد، بدأوا يظهرون أطراف العداوة. بدأت بثلب أبو رافع سلام بن أبي الحقيق النضيري

بخيبر للرسول والتشنيع عليه، فأرسل الرسول غارة سرية فقتل في خيبر، وبعد مدة يسيرة أظهر العداوة وجهر بها اليهودي أسير بن رزام فأرسل إليه الرسول (ص) سرية أخرى بقيادة عبد الله بن رواحة الخزرجي الأنصاري فقتله قرب خيبر.

صار اليهود يتراسلون مع قريش ويؤلبونهم على الرسول وصحبه، ولكن الرسول لم يأبه لهم في البداية، ونقل المشركون إلى هرقل أخبار الرسول، وكان على دومة الجندل أكيدر بن عبد الملك الكندي وكان يدين بدين المسيحية، وصار يتعرض لقافلة المدينة يريد منعها من الوصول إلى الشام، فغزاه المسلمون، وعندما سمع بخبر قدومهم هرب وترك البلدة فاحتلها المسلمون صلحاً، ومكث الرسول فيها عدة أيام ثم عاد إلى المدينة بعد أن استخلف فيها ابن أم مكتوم[63].

## غزوة الأحزاب أو (غزوة الخندق) عام 627م

بدأ اليهود يحرضون قريش والقبائل الأخرى فاجتمعت قبائلهم، قريش وغطفان وسليم وأسد وأشجع ومن اليهود بنو قريظة وبنو النظير وبنو المصطلق وبنو قينقاع، وغيرهم من اليهود، وهاجموا المدينة، ولكن بفضل خبرة سلمان الفارسي الذي أشار على رسول الله (ص) بحفر خندق حول المدينة للتصدي لجيش تعداده 24 ألف مقاتل بقيادة أبو سفيان صخر بن حرب، ونصر الله المسلمين وخذل الأحزاب[64].

أدرك اليهود أن الإسلام هو الدين المهيمن الوحيد في شبه الجزيرة العربية. فما العمل؟ قالوا للرسول (ص) إنك لم تأت بجديد، إن ما تدعيه بالوحي، هو النقل الحرفي من التوراة. ولكن الوحي الإلهي كذبهم: {هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وكفى بالله شهيداً} (سورة المائدة: 3) وأعلنت الحرب بين أصحاب الديانتين، اليهودية والإسلام.

## الصراع العلني بين الرسول (ص) واليهود

على أثر غزوة الخندق، قويت معنويات المسلمين، واشتد عداء اليهود للإسلام، وصاروا يحرضون حليفهم عبد الله بن أبي سلول على إخراج محمد والمهاجرين من المدينة، وطردهم نحو مكة، وكانوا يوصون أنصارهم أظهروا

الإيمان لمحمد في النهار وانقضوه في الليل. فأنزل الله تعالى قوله: {وقالت طائفة من أهل الكتاب، آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار، واكفروا آخره لعلهم يرجعون} (سورة آل عمران الآية 72). يقول الإمام القرطبي في تفسيرها: «إن اليهود قال بعضهم لبعض: أظهروا الإيمان بمحمد في أول النهار ثم اكفروا به آخره، فإنكم إذا فعلتم ظهر لمن يتبعه ارتياب في دينه، فيرجعون عن دينه إلى دينكم، ويقولون إن أهل الكتاب أعلم به منا»[65].

قد تنبه الرسول (ص) إلى مشكلة الإيمان والارتداد عنه. يروي ابن عباس عن رسول الله أنه قال: «من بدَّل دينه فاقتلوه» وهذا القول يتناقض وقوله تعالى {لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي}. وقد أكد عبد الله بن مسعود القول الأول لرسول الله (ص) بقوله: «لا يحل امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: كفر بعد إيمان وزنى بعد أحصان، وقتل نفس بغير حق».

بدأت الوفود من القبائل المحيطة بالمدينة ومن سائر مدن الحجاز تأتي إلى الرسول وتعلن إسلامها، واشتدت عداوة عبد الله بن أبي سلول واليهود، وكان عبد الله زعيم المشركين والمؤلفة قلوبهم قال تعالى: {هو الذي أرسل رسوله بالهدى، ودين الحق ليظهره على الدين كله، ولو كره المشركون} (سورة الممتحنة آية 8).

كان بنو قينقاع أول من أظهر العداوة العلنية ضد رسول الله، ونقضوا العهد فتوجه الرسول إليهم، وفي المحل المعروف بذات الرقاع، وكثرت الروايات عندما مر بجبل قريب من النخيل مما يلي السعدة أو الشقرة، مختلفة ألوانه فيه بقع حمر وبيض وسود، فأجفلت القبائل العربية التي مر بالقرب منها، ولحقوا برؤوس الجبال وبطون الأودية، فحاصرهم رسول الله (ص) فقام إليه حليفهم عبد الله بن أبي سلول وقال: يا محمد أحسن في موالي، وبعد إلحاح منه قال له: هم لك. وقام عبادة بن الصامت وكان له حلفة منهم فتخلى عنهم، فنزل قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء.. ومن يتولهم منكم فإنه منهم} (سورة المائدة آية 51). وكانت سبب حرب الرسول وغزوه لبني قينقاع أن امرأة من العرب المحيطة بالمدينة، جلبت بضاعة لها فباعتها في سوق بني قينقاع، وجلست إلى جانب دكان صائغ يهودي، فطلب منها أن تكشف له عن وجهها، فأبت فقام الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده دون علم منها، فلما قامت

انكشفت سوءتها، فضحكوا، فوثب رجل من المسلمين وقتل الصائغ، وشددت اليهود على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود، فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع[66]. فقام الرسول بحملة تأديب لليهود.

## غزوة رسول الله لبني النضير

بنو النضير عرب من جذام، انتقلوا من الشام إلى الحجاز، وكانت منازلهم بناحية الغرس، وما والاها، وكانوا موادعين لرسول الله، ثم هموا بالغدر به، فأنذرهم وخرج الرسول إليهم يطالبهم بدية عمرو بن أمية الضميري. قالوا في البداية: نعم يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت. ولما خلال بعضهم إلى بعض، وكان الرسول جالساً في فيء حائط، وقام عمرو بن جحاش بن كعب، وصعد ليلقي صخرة على رسول الله (ص) فأتى الخبر إلى الرسول من السماء بما أضمر القوم، وغيّر مكانه، وحاصرهم فتحصنوا منه بحصونهم، فأمر الرسول بقطع النخيل والتحريق فيها، فنادوه: يا محمد، قد كنت تنهي عن الفساد وتعيبه، فما بال قطع النخيل؟

وكان رهط من بني عوف من الخزرج ومنهم عبد الله بن أبي سلول قد بعثوا إلى بني النضير أن اثبتوا وتمنعوا، فإنا لن نسلمكم، وإن قوتلتم قاتلنا معكم، وإن خرجتم خرجنا معكم، وصدقوا واستمروا في الثبات، وأنزل الله بقلوبهم الرعب، وسألوا رسول الله الجلاء، وسمح لهم بأخذ أموالهم ما استقلت به الإبل فخرجوا يريدون خيبر، وهم يضربون بالدفوف ويزمرون بالمزامير، ونساؤهم مصبغات معصفرات وعليهن حلي الذهب[67]. ومنهم من سار إلى الشام لشعورهم بعدم الأمان في أرض الحجاز، وسار زعماؤهم إلى خيبر سلام بن أبي الحقيق، وكنانة ابن الربيع بن أبي الحقيق، وحيي بن أخطب، فلما نزلوا الحصن دان لهم أهلها.

قال عبد الله بن أبي بكر لما خرجوا ومعهم النساء وهن يغنين والقيان يعزفن بالدفوف والمزامير ومعهن أم عمر سلمى صاحبة عروة بن الورد العبسي، التي ابتاعها أحدهم بزق خمر، فقال:

سقوني الخمر ثم تكنفوني عداه الله من كذب وزور
فيا للناس غلبت نفسي على شيء ويكرهه ضميري

أخذ رسول الله ما خلفوه من أسلاب دون قتال. قال تعالى: {هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر، ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله، فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا، وقد قذف في قلوبهم الرعب، يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين} (سورة الحشر آية 2). وأرسل رسول الله (ص) سرية بقيادة محمد بن سلمة بن الحارث الخزرجي في أربعة نفر من الأنصار لقتل الشاعر كعب بن الأشرف الطائي، وكان كعب ينتسب إلى نبهان بن عمرو بن الغوث الطائي، وكانت أمه من بني النضير. كان أشرف يسكن في حصنه في بطن نخلة عند ماء قرقرة الكدر بناحية معدن بني سليم مما يلي جادة العراق إلى مكة، وبين المعدن والمدينة مسيرة يوم وليلة، كان أشرف شاعراً رقيق الشعر مشهوراً تنشد أشعاره في أسواق العرب لا سيما سوق عكاظ وبصرى الشام، وبعد وقعة بدر الكبرى صار أشرف يمدح أشراف قريش ويرثي قتلى بدر ويثلب من قدر رسول الله (ص) فقال الرسول «إن البلاء موكل بالمنطق» وأرسل إليه محمد بن سلمة وقتلوه في حصنه، وطمس شعره ولم تذكره كتب الأدب.

## غزوة بني قريظة سنة 627م

بعد الانتهاء من إجلاء بني النضير، همَّ الرسول (ص) بقتال بني قريظة، ولكنه توانى عن قتالهم فجاءه جبريل وقت الظهيرة معتمراً بعمامة من استبرق على بغلة عليها سرج من ديباج، فقال: أراك قد وضعت السلاح يا محمد؟ قال: نعم، فقال جبريل: فما وضعت الملائكة السلاح بعد! وإن الله يأمرك بالمسير إلى بني قريظة، فتوجه إلى صياصيهم (حصونهم). فأمر رسول الله (ص) القوم ألا يصلوا العصر إلا ببني قريظة. وأعطى الراية لعلي بن أبي طالب. فلما دنا الرسول من حصونهم، قال لهم: يا أخوة القردة، هل أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته؟ وقالوا: يا أبا القاسم، ما كنت جهولاً! ونزل قرب (بئر أنا) وتلاحق الناس من المدينة، ولحقوا بالرسول بعد العشاء الآخرة، ولم يصلوا العصر، فصلوها وقت العشاء، وحاصرهم رسول الله خمسة وعشرين ليلة، وقذف الله بقلوبهم

الرعب، فقال لهم سيدهم كعب بن أسود: يا معشر اليهود قد نزل بكم الأمر، فما ترون وإني عارض عليكم خلالاً ثلاثاً، فخذوا أيها شئتم. قالوا: وما هي؟ قال: نتبع هذا الرجل ونصدقه فتأمنون على دمائكم وأموالكم! قالوا: لا نفارق حكم التوراة أبداً. قال كعب: إذن لنقتل أبناءنا ونساءنا ونخرج لمحمد مقاتلين، فإن أبيتم عليَّ، فهذه ليلة السبت وعسى أن يكون محمد وأصحابه أمنونا ونخرج إليهم غرة، قالوا: نفسد سبتنا علينا وتحدث ما لم يحدثه من كان قبلنا إلا من قد علمت، ثم إنهم بعثوا إلى رسول الله أن ابعث إلينا لبابة بن عبد المنذر لنستشيره في أمرنا. فلما جاءهم قام إليه الرجال وجهش إليه النساء والصبيان يبكون في وجهه وقالوا: يا أبا لبابة أترى أن ننزل على حكم محمد؟ قال: نعم وإلا الذبح.

فلما أصبحوا نزلوا على حكم رسول الله، فتواثب الأوس وقالوا: يا رسول الله إنهم موالينا. وحكَّم رسول الله فيهم سيد الأوس سعد بن معاذ بن النعمان بن امرئ القيس بن زيد بن عبد الأشهل فحكم بقتل مقاتليهم وسبى ذراريهم. فقال له بنو قريظة: يا أبا عمرو أحسن في مواليك! فقال سعد: إني أحكم فيهم بقتل الرجال، وتقسم الأموال وتسبى الذراري والنساء، فقال رسول الله (ص): لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة سموات. فسيرهم الرسول وحبسهم في دار كيسة بنت الحارث ثم خرج إلى السوق، فخندق بها خنادق وقد بعث إليهم فضرب أعناقهم في تلك الخنادق، وكان فيهم عدو الله حيي بن أخطب وكعب بن أسد رأس القوم، وحين تقدم حيي بن أخطب وعليه حلة وردية، وكانت يداه مغلولتان إلى عنقه، فقال: أيها الناس لا بأس بأمر الله، كتاب وقدر وملحمة كتبها الله على بني إسرائيل. ثم جلس فضربت عنقه.

لم يقتل رسول الله (ص) من النساء إلا فتاة واحدة، قالت عائشة: والله إنها لعندي تحدثني وتضحك ظهراً وبطناً، ورسول الله يقتل رجالها في السوق، وإذا بهاتف يهتف باسمها: أين فلانة؟ قالت: أنا والله، قلت لها: ويلك مالك؟ قالت: لأقتل! قلت: ولِمَ؟ قالت لحدث أحدثته. طرحت حجر الرحى على خلاد بن سويد فقتلته، قالت عائشة: فانطلقت وهي مستبشرة، فضربت عنقها»[69]. تذكرنا مقتلة بني قريظة بمجزرة أصحاب الأخدود.

وكان رسول الله قد أمر بقتل كل من أنبت منهم، إلا رفاعة بن السموءل القرظي. كانت سلمى بنت قيس إحدى خالات رسوله، سالته أن يطلقه لها،

فوهبها إياه. وكان مجموع ما قتل حوالي 750 يهودياً. وكان رسول الله قد اصطفى لنفسه ريحانة بنت عمرو حناقة، وأبت إلا اليهودية وظلت جارية عند رسول الله ثم أسلمت بعد حين. وعلى أثر قتل بني قريظة، تألم وانفجر جرحه، فمات شهيداً.

عن الحسن البصري (المتوفى 719م) عن رسول الله قال: «والذي نفسي بيده، لقد استبشرت الملائكة بروح سعد واهتز له العرش».

تذكرنا مقتلة بني قريظة بأصحاب الأخدود، ويراها كل من جانبه. فالمستشرقون ومنهم الأب لامنس يرونها مجزرة لم تسبق في الإسلام. ويراها المسلمون أنها قصاص عادل، وأن سببها جاء من فوق السموات السبع.

### غزو بني المصطلق عام 628م

هم من بني سعد بن عمر وهو خزاعة، وكانت حصونهم على ماء يعرف (بالمريسيع) بطريق الفرع على بعد ثمانية مراحل من المدينة من ناحية قديد إلى الساحل غرب المدينة على مسيرة يوم وليلة.

على أثر مقتلة بني قريظة دبَّ الرعب في قبائل اليهود وحصونهم، فاجتمع بنو المصطلق عند قائدهم الحارث بن أبي ضرار أبو جورية بنت الحارث، فخرج لهم رسول الله (ص) حتى لقيهم على الماء، وبدأ القتال بين الطرفين فقتل من بني المصطلق خير شبابهم، وانهزموا ونقل الرسول من بقي من أبنائهم ونسائهم وأموالهم إلى المدينة واعتبرهم مما أفاء الله عليه.

وقبل المدينة وقف عبد الله بن أبي سلول واغتاب رسول الله وكان حليف بني المصطلق وقال: «والله ما عدنا وجلابيب قريش إلا كما قالوا: سمِّن كلبك يأكلك، أما والله إن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل». فسمع ذلك زيد بن الأرقم ونقل الخبر إلى رسول الله، ولكن عبد الله أنكر الخبر عندما وصلوا إلى المدينة، وحلف للرسول أعظم الإيمان. ولقي رسول الله أسيد بن حضير سيد الأوس وأخبره بمقولة عبد الله، فقال له يا رسول الله تخرجه أنت من المدينة إن شئت وهو والله الذليل وأنت العزيز، يا رسول الله لقد جئتنا، وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه وإنه ليراك قد استلبته ملكه». وتزوج رسول الله جويرية بنت

الحارث وكانت امرأة حلوة، شديدة الملاحة، فتزوجها وأعتق بزواجها مئة بيت من بني المصطلق[70]. وهاجرت هذه القبيلة إلى الشام وإلى سورا في العراق.

### فتح خيبر عام 629م

تقع خيبر على بعد يوم وليلة من المدينة، من جهة الغرب، وفيها مياه عذبة، وذات مناخ معتدل وتربة خصبة، مما يجعلها بلدة زراعية ذات تمور وحبوب وافرة.

بعد أن غزا الرسول حصن القنوص، فكَّر في فتح حصن خيبر، وحين خرج من المدينة سلك على جبل عصر بين المدينة ووادي فرع، ثم أقبل الرسول بجيش يقدر تعداده بـ 1400 راجل و200 فارس، وفتح عدة حصون لليهود، وأرسل إليه أهل فدك يطلبونه للمصالحة فأرسل سرية وعلى رأسها علي بن أبي طالب (ع) وصالح أهلها على نصف أموالهم.

نزل الرسول (ص) وجيشه في وادي الرجيع، فنزل بين اليهود وبين غطفان خشية أن يساعدوهم، وتوجه بسرية نحو حصن ناعم ثم حصن بني أبي الحقيق وأصاب منهم رسول الله سبايا واصطفى لنفسه صفية بنت حيي بن أخطب وكانت زوجة كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق. ثم فتح حصني الوطيح والسلالم، وحاز الأموال والسبايا، ثم حاصر حصن خيبر أكبر حصون اليهود في الجزيرة العربية. وفي اليوم ا لخامس عشر خرج الفارس مرحب الخيبري وقد جمع سلاحه وهو يرتجز، ويقول:

قد علمت خيبر أني مرحب    شاكي السلاح بطل مجرب
أطعن أحياناً وحيناً أضرب    إذا الليوث أقبلت تحارب

وتبعه فارس آخر وهو يرتجز. هو كعب بن مالك، قال:

قد علمت خيبر إني كعب    مفرح الغمى جريء صلب
إذا اشتدت الحرب تلتها الحرب    معي حسام كالعقيق عضب

بكف ماض ليس فيه عتب

وخرج إليهم محمد بن سلمة، فحمل عليه مرحب، وتصارعا وضربه محمد بن سلمة وقتله. ثم خرج من بعده ياسر أخو مرحب، فخرج إليه الزبير بن العوام وبعد عراك طويل قتله. وأعطى رسول الله الراية لعلي بن أبي طالب، وخرج إليه كعب بن مالك، وخاطب علياً والمسلمين: لقد علوتم بما أنزل الله على موسى. وتبارزا وفتح الله الحصن على يدي علي عندما خلع باب الحصن، ودخل المسلمون الحصن، وسبوا الأموال والذراري.

ثم توجه رسول الله إلى الحصن، فأولمت له زينب بنت الحارث زوجة سلام بن مشكم شاة مشوية، وسألته أي عضو أحب إليك يا رسول الله؟ فاطمأن إليها، فقال: الذراع. فدست له السم في الزند، وكان معه بشر البراء بن معرور. وعندما لاك الرسول أول لقمة، قال إن العظم يخبرني أنه مسموم. وتوفي البراء بعد أكله، وقبض عليها رسول الله وسألها: ما حملك على هذا؟ قالت: بلغت من قومي ما لم يخف عليك، فقلت في نفسي: إن كان ملكاً استرحت منه، وإن كان نبياً فسيخبر. فتجاوز عنها، وعندما جاءه خبر وفاة البراء قتلها رسول الله. وظل رسول الله يعاني من تلك اللقمة وهو يقول كل سنة «ما زالت أكلة خيبر تعاودني في كل عام». وفي خيبر أعرس رسول الله بصفية بنت أخطب وقد مشطتها أم أنس بن مالك، ووقف أبو أيوب خالد بن زيد يحرس رسول الله، وقد وهب رسول الله إلى ابن لقيم العبسي ما كان من دواجن في حصن خيبر، فقال[72]. :

ضجَّت بني عمرو بن زرعة غدوة   والشق أظلم أهله بنهار
جرت بأبطحها الذيول فلم تدع   إلا الدجاج تصبح في الأسحار
فرَّت يهود يوم ذلك الوغى   تحت العجاج غمائم الأبصار

بعد أن انتصر رسول الله (ص) على اليهود وفتح كل حصونهم الموجودة حول المدينة، قيَّم رسول الله الوضع، حسب رواية أبي هريرة قال: خرجنا مع النبي إلى خيبر، ففتح الله علينا، فلم نغنم ذهباً ولا فضة بل غنمنا المتاع والطعام والثياب[73]. وصار الرسول بعد فتح خيبر وذلة اليهود يوصي بعدم احترامهم. قال أبو هريرة: إن رسول الله قال: «لا تبدأوا اليهود في السلام، وإذا لقيتم أحدهم في طريق فاضطروه إلى أضيقه». لا أظن أن هذا الحديث صحيح، لأن

الرسول كان يوصي بحسن الجوار، وكان له جيرة من اليهود يبرُّهم ويحسن إليهم.

ولكن عمر بن الخطاب، طرد اليهود من الجزيرة العربية بحجة أن رسول الله قال: لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع فيها إلا مسلماً[74].

وهاجر اليهود إلى الشام وعمان وانتشرت منهم أقلية في أودية الحجاز وبواديه. فقال الشاعر سديد بن أدكن الخيبري، لعمر بن الخطاب، يا عمر ألا تذكر قول الله في القرآن: {إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا، والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتب الله} (سورة المائدة آية 44). قال عمر: بلى ولكني سمعت رسول الله يقول: لا يجتمع في جزيرة العرب دينان. فخرج الشاعر سديد بن أدكن الخيبري وهو يقول[75]:

| | |
|---|---|
| يصول أبو حفص علينا بدرة | رويدك المرء يطفو ويرسب |
| فلو كان موسى صادقاً ما ظهرتم | علينا، ولكن دولة ثم تذهب |
| ونحن سبقناكم إلى المين فاعرفوا | لنا رتبة البادي الذي هو أكذب |
| مشيتم على آثارنا في طريقنا | وبغيتم في أن تسودوا وترهب |

والسؤال الذي يفرض نفسه: هل فعلاً أخليت جزيرة العرب من اليهود؟

اليهود في الجزيرة العربية، هم عرب ينتمون إلى قبائل يمنية عاشت في أرض الحجاز وعسير، وكانوا فلاحين ورعاة، وهم مسالمون، فهذه أرض فدك، التي صارت من أملاك رسول الله (ص) كانت واحة قرب خيبر كثيرة الينابيع، وكان أهلها من المزارعين بسبب توفر المياه، وعندما هاجر رسول الله إلى المدينة لم يمس الأملاك الزراعية، وتركها بيد أصحابها، ثم صارت ملكية الأرض للدولة، وعندما أجلى الرسول اليهود عن حصونهم واعتبرت الأرض التي تركها بنو النضير فيئاً أي غنيمة يتصرف بها الرسول كما يشاء[76]. واختص رسول الله بأرض فدك دون غيرها من حصون اليهود.

عن محمد بن عمر الواقدي (المتوفى 822م) الذي وضع كتاباً في تاريخ فدك، قال: «كانت فدك أرضاً صفياً لرسول الله، فكانت لابن السبيل. وسألته ابنته فاطمة أن يهبها لها، فأبى، فلم يطمع بها طامع. ثم توفى رسول الله والأمر على ذلك، ثم تولى أبو بكر فسلك بها ما كان رسول الله يفعل، ثم كان عثمان، ولما

ولي عثمان مروان بن الحكم على المدينة أعطاه فدك، وكان عثمان بن عفان يبيع عشرها كل سنة بعشرة آلاف دينار، ثم غضب عثمان على مروان فقبضها منه، وأصبحت بيد وكيله على المدينة. ولما تولى معاوية بن أبي سفيان الخلافة ردها إلى مروان بغير طلب، فأعطى مروان نصفها عبد الملك بن مروان والنصف الآخر لابنه عبد العزيز، فوهب عبد العزيز نصفها لابنه عمر. فلما تولى عمر الخلافة (99- 101هـ) سأل عن فدك وفحص عنها فأخبر بما كان من أمرها، وهو أن علياً فتحها صلحاً على نصف أملاكهم فأعادها إلى فاطمة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب (ع) وقسمت فاطمة أملاك فدك على بني عبد المطلب، وأعطيت المرأة مثلما أعطي الرجل[77].

نرى مما تقدم أن الدوافع لطرد اليهود تدخل فيها العوامل الاقتصادية، ونرى من تاريخ فدك أنه لا وجود لليهود فيها، اللهم إلا إذا كانوا يعملون فلاحين في الأرض.

عندما زار بنيامين التطيلي عام (1136م) خيبر، قال: تقيم بقايا اليهود فيها وهي مدينة كبيرة آهلة بنحو خمسين ألف يهودي بينهم العلماء، وهم يعملون بالتجارة. ولا يرافقون القوافل لأن ديانتهم لا تسمح لهم بالسفر يوم السبت. وذكر عشائر بني ركاب حول تيماء وأن شيخهم حنان الغساني، وهؤلاء يخرجون مع جيرانهم وأحلافهم العرب للغزو والكسب، ولا زالوا يعيشون عيشة بدوية، يبيتون في الخيام، وهم مرهوبو الجانب بعضهم يرعى الماشية ويزرع الواحات. يتصدقون على رؤسائهم ونساكهم المعروفين بالبكائين، وهم الذي يعيشون عيشة التقشف والزهد ولا يذوقون لحماً ولا خمراً، ولباسهم السواد ومأواهم الكهوف والأكواخ، وهم دائماً عاكفون على الصلاة من أجل إخوانهم المشتتين، ويقضون سنتهم وأيامهم بالصوم ما عدا يوم السبت والأعياد[78].

إذن، ظل اليهود يعيشون في بوادي الحجاز وعسير، فقد شاهد الرحالة البرتغالي فيمودي فارتيما في عام 1503 يهوداً في أرض الحجاز، قال: «عقدت العزم على رؤية المقاطعات والممالك التي لم يقم أجدادنا بزيارتها إلا فيما ندر، وعندما وصلت إلى أرض الحجاز شاهدت بعض اليهود، واعلموني أن معظم هؤلاء ما عدا شيوخهم يركبون الخيل بلا سروج، يرتدون نوعاً من القمصان الطويلة، ويحملون رماحاً من الخيزران الهندي (10- 12) شبراً وينتهي طرف

الرمح بقطعة حديد، والحروب بين قبائل الحجاز قائمة دائماً. وحينما يرتحل اليهود يحملون نساءهم وأولادهم وخيامهم على ظهور الجمال، وخيامهم مصنوعة من الصوف والشعر الخشن. وإنه شاهد في الطريق أربعة أو خمسة آلاف يهودي شبه عراة، يتراوح طول الواحد منهم بين (150- 180 سم) وأصواتهم شبيهة بأصوات النساء وألوانهم أميل إلى السمرة، ولا يأكلون إلا لحم الغنم، ولا شيء غيره وهم مختونون، ويجهرون بيهوديتهم أمام الغرباء، ويقال: عندما يتمكنون من إلقاء القبض على أحد المسلمين يسلخون جلده حياً». علق العلامة حمد الجاسر على كلام الرحالة دي فارتيما بقوله: «ربما كانوا من بقايا العشائر التي كانت في خيبر وحصون اليهود الأخرى»[79].

لقد أكد الرحالة الألماني جوفان فاسلدن (نورمبرغ) واتخذ لنفسه لقب الحاج عبد الكريم، والذي زار الحجاز عام 1604م، قال: «ما يزال يقيم هناك عدد من اليهود، الذين يعتقدون أن ما من شيء يسر الله أكثر من ذبح حاج مسلم يؤم مكة، وقام أمير الحج التركي بقتل بعض اليهود الذين اتهموا بخطف ثلاثة حجاج من القافلة»[80].

ربما كانت هذه من تخرصات الرحالة الأجانب إلا أن الرحالة المسلم ابن المجاور (المتوفى 1263م) ذكر وجود اليهود في أرض الحجاز، وفي وادي فاطمة ووضعهم بأنهم أذلاء يخافون من سطوة المسلمين، ولا يحملون السلاح ولا أحد من العرب يقاتلهم، ويتظاهرون بأنهم مسلمون. وقد يغدرون بالمسلمين إذا وجدوا أحدهم ضالاً في البراري.

اختفت الديانتان المسيحية واليهودية من أرض الجزيرة العربية، وإن بقي أحد منهم فقد صار يمارس التقية، يظهر الإسلام ويبطن اليهودية. وأصبح حق المواطنة للمسلم دون غيره، وأصبح اليهود مواطنين من الدرجة الثانية. يقول المؤرخ الألماني لودفيج هاغمن: «كانت مثل هذه الممارسة، ولا تزال، تحيل تاريخ حياة من يُسمَّون بأهل الذمة، مرتبطة بكل حالة من الأحوال السياسية السائدة على حدة، وأصبح تاريخ هذه الطائفة (اليهودية) تاريخاً للآلام والمعاناة»[81].

# مراجع الفصل الثاني

(1) التدبير الخلاصي ص123، مار يعقوب الرهاوي، ترجمة ملاطيوس برنابا حلب 1985.
(2) الكتب التاريخية في العهد القديم ص62، مراد كامل مكتبة النهضة المصرية 1962.
(3) تاريخ يوسيفوس اليهودي، ص51، ترجمة سليم نقولا مدور وابراهيم سركيس، بيروت عام 1872.
(4) الفلسفة الرواقية ص98، عثمان أمين دار النهضة المصرية، القاهرة 1959.
(5) شرح رسالة زينون ص9، الفارابي طبع حيدر آباد الدكن، 1349هـ.
(6) تاريخ الفلسفة الغربية ص356، برتراند رسل ترجمة زكي نجيب محمود، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة 1957.
(7) تفسير سفر الجامعة ص7، القمص مرقس داود، مطبعة المحبة، القاهرة، 1982.
(8) المصدر السابق ص1، 4 و8.
(9) مجلة كتابات معاصرة، ص6، كليفور غيرتس، بيروت 1996.
(10) منبعا الأخلاق والدين، ص115، برجسون ترجمة سامي الدروبي وعبد الله عبد الدايم القاهرة 1970.
(11) تاريخ يوسيفوس ص95.
(12) مخطوطات قمران (البحر الميت) ج1، ص15، ترجمة موسى ديب الخوري، دار الطليعة الجديدة 1998.
(13) اختلاق إسرائيل القديمة ص355، كيث وايتلام ترجمة سحر الهنيدي، عالم المعرفة، الكويت 1999.
(14) كتاب يوسيفوس ص94.

(15) المصدر السابق ص170.

(16) المصدر السابق ص225.

(17) عبقرية المسيح ص56، عباس محمود العقاد، كتاب اليوم، القاهرة 1953.

(18) تاريخ الفلسفة الغربية ج1، ص411، براتراند رسل، ترجمة زكي نجيب محمود، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة 1957.

(19) تاريخ الكنيسة ص143، أوسابيوس القيصري، ترجمة القس مرقس داود، دار الكرنك القاهرة 1960.

(20) بحوث في الإسلام والاجتماع ص270، علي عبد الواحد وافي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر القاهرة 1978.

(21) دراسات في التاريخ ص142، أنيس فريحة، دار النهار بيروت 1974.

(22) أثار فلسطين ص215، وليم أولبرايت ترجمة زكي اسكندر ومحمد عبد القادر محمد، القاهرة 1971.

(23) مخطوطات البحر الميت ص46، حسين عمر حمادة، دار منارات عمان الأردن، 1982.

(24) مخطوطات قمران ج1، ص72، ترجمة موسى ديب الخوري دار الطليعة الجديدة دمشق 1998.

(25) المصدر السابق ج1، ص110.

(26) المصدر السابق ج1، ص95.

(27) المصدر السابق ج1، ص110.

(28) تاريخ الكنيسة ص87- 88، أوسابيوس القيصري.

(29) خريف الفكر اليوناني، ص137، عبد الرحمن بدوي، دار النهضة المصرية، القاهرة 1958.

(30) تاريخ يوسيفوس ص264.

(31) المصدر السابق ص313.

(32) موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية ص 459- 460، عبد الوهاب المسيري، مؤسسة الأهرام القاهرة، 1970.

(33) تاريخ العرب القديم ص104، نبيه عـاقل، جامعـة دمشـق، 1992.

(34) تاريخ العرب ص112، توفيق برو، دار الفكر، دمشق 1984.

(35) تاريخ دولة الأنباط ص40، إحسان عبـاس، دار الشـروق، عمان، 1975.

(36) المصدر السابق، ص61.

(37) تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ج1، ص226، فيليـب حتـي ترجمة جورج حداد، وعبد الكريم رافق، دار الثقافة، بيروت، 1958.

(38) تلفيق صورة الآخر في التلمـود، ص76، زيـاد منـى، دار قدمس، بيروت 2002.

(39) التوراة جاءت من جزيرة العرب، ص27، كمـال صليبـي، ترجمة عفيف الرزاز، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت 1985.

(40) المصدر السابق ص48.

(41) اكتشاف جزيرة العرب ص35، جاكلين بيرين ترجمة قـدري قلعجي، دار الكاتب العربي، بيروت 1963.

(42) الدرر النفسية في تاريخ الكنيسـة ج1، ص390، البطريـرك أفرام الأول برصوم دمشق 1937.

(43) الشهداء الحميريون العـرب ص85، أغنـاطيوس يعقـوب الثالث، دمشق 1966.

(44) تاريخ سعرت ص330، المطران أدي شير، بيروت 1913.

(45) السيرة النبوية لابن هشام ج1، ص33، تحقيق مصطفى السـقا ورفاقه، القاهرة 1965.

(46) تاريخ الطبري ج2، ص104، المطبع الحسـينية المصريـة، القاهرة.

(47) المصدر السابق، ج2، ص105.

(48) الشهداء الحميريون العرب ص48.

(49) الرسالة المطولة ج1، ص389، طبعة بيجان.

(50) الشهداء الحميريون ص59.

(51) الرسالة المطولة ج1، ص375.

(52) الشهداء الحميريون ص34- 35.
(53) المصدر السابق ص41.
(54) المصدر السابق ص78.
(55) كنيسة مدينة الله العظمى، ج1، ص390، أسد رستم، بيروت 1961.
(56) كتاب الأغاني ج22، ص101، أبو الفرج الأصفهاني، طبعة دار الثقافة، بيروت.
(57) المصدر السابق ج22، ص102.
(58) المصدر السابق ج22، ص109.
(59) مجلة دراسات تاريخية، ص149، أيلول وكانون الأول، دمشق 1987.
(60) تهذيب سيرة ابن هشام ج1، ص47، تحقيق عبد السلام هارون، دمشق.
(61) المصدر السابق ج1، ص222.
(62) كتاب وفاء الوفا، ج1، ص178، نور الدين بن علي السمهوري، دار إحياء التراث، بيروت 1984.
(63) التنبيه والإشراف، ص215، المسعودي، تحقيق إسماعيل بن عبد الله الصاوي، القاهرة، 1938.
(64) المصدر السابق ص216.
(65) تفسير القرطبي ج4، ص111- 112 القاهرة.
(66) تهذيب سيرة ابن هشام، ج1، ص165.
(67) التنبيه والإشراف، ص213.
(68) تهذيب السيرة ج1، ص195.
(69) المصدر السابق ج2، ص7-8.
(70) المصدر السابق ج1، ص18.
(71) التنبيه والإشراف، ص233.
(72) تهذيب السيرة لابن هشام، ج2، ص42.
(73) مختصر صحيح مسلم، ص377، للحافظ المنذري، تحقيق ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، دمشق 1972.

(74) المصدر السابق ص308.

(75) رسالة الغفران ص441– 442 أبو العلاء المعـــري، تحقيــق عائشة عبد الرحمن، دار المعارف، القاهرة 1963.

(76) ملكيات الأراضي في الحجاز، ص964، صالح العلي، مجلـــة العرب ج11، بغداد عام 1969.

(77) الطبقات الكبرى لابـــن ســـعد ج5، ص286– 287، تحقيــق عوني عبد الرؤوف، كتاب التحرير، القاهرة 1967.

(78) رحلة بنيامين التطيلي، ص148– 149، ترجمة عزرا حـــداد، مطبعة الزمان، بغداد 1945.

(79) اكتشاف جزيرة العرب، ص40– 41.

(80) المصدر السابق ص100.

(81) مسيحية ضد الإسلام (حوار انتهى إلـــى الإخفـــاق) ص37، لودفيج هاغمن، ترجمة محمد حديد، الطبعة الثانية، دمشق 2005.

# الفصل الثالث
# اليهود في بلاد الشام والعراق

-اليهود في بلاد الشام والعراق قبل الإسلام
-اليهود في الدولة الإسلامية
-الطوائف اليهودية
-أثر اليهود في الفكر الإسلامي
-اليهود في بغداد وأشهر مدارسهم
-تأثر اليهود بالفكر الإسلامي وظهور الفرق
-مذهب القبالاة والتصوف الإسلامي
-الأطباء اليهود في بلاد الشام والعراق
-الحكيم البغدادي ابن كمونة اليهودي
-مراجع الفصل الثالث

# المدخل

قام الإمبراطور هيدريانوس (117- 138م) بقتل عدد من اليهود، وخرَّبَ أورشليم (القدس) وهدم أسوارها، وبنى مدينة جديدة أسكنها جماعة من اليونان والرومان عام 130م، وأجلى عنها اليهود إلى العراق، وبنى مكان هيكل سليمان هيكلاً للزهرة (فينوس) وكتب في أعلاه لوحاً بالذهب اسم الملك (إيليا هيدريانوس). وقد شاهد هذا البرج الرحالة العربي علي بن الحسين المسعودي عام (345هـ/ 956م)، وكان يسمى في زمنه محراب داود وهو متصل بسور المدينة[1]. وشاهد عند محراب داود الفيلسوف اليهودي الصامت ساقندس. وكانت النصارى تقرأ في الكنائس من التوراة السفر الأول (سفر التكوين) وفيه أخبار الخليقة وأخبار العرب البائدة، كعاد وعيبل ابني عوص بن آرام، وثمود وجديس ابني عابر بن سام وعمليق وطسم وجرهم بن قحطان بن عابر بن آرام، وأخبار ملوك حمير من التبابعة ملوك اليمن وحضرموت ومنهم زيد بن سبأ وهو عبد شمس[2].

كان الصراع بين بيزنطة وفارس على أشده، في عام 614م، حاصر الإمبراطور الفارسي كسرى الثاني أبرويز (589- 628م) القدس، وخرَّب الأسوار، ودخل المدينة في 20 نيسان 614. يصف لنا المؤرخ أنطوخيوس ستراتونوغس هذا الدخول بقوله: «دخل العدو المدينة، بدرجة هائلة من الهيجان والغضب، مكشرين عن أسنانهم، لقد زعقوا كالوحوش الضارية، وقاموا بذبح كل ما لاقوه بطريقهم، وكانوا كالكلاب المسعورة. ذبحوا القسس والرجال والنساء والأطفال. أما المسيحيون الذين هربوا ناداهم الفرس: إذا أردتم النجاة من الموت، فتهودوا وأنكروا المسيح، ولكنهم صمدوا وفضلوا الموت، واشترى اليهود المسيحيين من الفرس وأعطوهم الفضة، ثم قاموا بذبح المسيحيين كالنعاج، وسبوا نساءهم وأرسلوهم إلى العراق، ونهبوا الصليب الحقيقي الذي أهدته الإمبراطورة ثيودورة عام 544م، إلى كنيسة القيامة. وبعد أن ترك الفرس القدس كانت جثث المسيحيين تملأ الآبار والمغاور، ومن التجأ إلى الكنائس التهمته النيران. وقدر عدد الذين قتلوا وسبوا حوالي 90 ألفاً»[3].

وعن أعمال اليهود يروي البطريرك مار ديونيسيوس التلمحري (818-845م) أنهم أمسكوا سأقف القدس أنستاسيوس وضربوه بكل وحشية وسحبوا جسده في الشوارع. وذكر المؤرخ ثيوفانس: «قام اليهود بنزع ما في أحشاء الأسقف، وأجبروه على التهام ما يخرج منها. وفي رواية أخرى قذفوا بها في وجهه. وذكر يعقوب المرتد أن يهود عكا أجبروا قساً على التهود ولكنه رفض وقتل[4].

أثار فتح القدس من قبل الفرس، وأعمال اليهود الرهيبة لدى سكان أطراف المتوسط، وأثار حزن المسلمين في الجزيرة العربية، وقد نزلت بذلك سورة الروم، توصي المؤمنين بالصبر وأن سوف ينتصرون مستقبلاً. وحتى وقتنا الحاضر تحاول المحافل اليهودية التقليل من عمل اليهود الوحشي. كتب المؤرخ سلمون منك لتعليل تلك الأعمال الوحشية: «ثأر اليهود من المسيحيين بسبب اضطهادهم الوحشي والإذلال الدائم الذي تعرض له اليهود خلال تاريخهم الطويل». كتب المؤرخ اليهودي نيزيون دينور أستاذ التاريخ في الجامعة العبرية: «يبدو أن اليهود ساهموا بشكل كبير في الاستيلاء عبر القتال ضمن الصفوف الفارسية، في فرق خاصة ساهمت في اقتحام القدس، وكانوا متحكمين بشكل كامل في المدينة»[5].

كانت واقعة غزو القدس من قبل الفرس، سبباً في شعور اليهود بأن المسيح المنتظر سيأتي مستقبلاً وسيحرر اليهود من الظلم، وسينشر نظاماً وشريعة جديدة للعالم. وكما قال الحاخام يهوشع بن لاوي (حوالي 250م): «عندما يأتي المسيَّا المنتظر (المخلص) ستأتي الشعوب إليه حاملين الهدايا وسيباركون اسمه جيلاً بعد جيل»[6].

### اليهود في الدولة الإسلامية

جاء الخليفة عمر بن الخطاب إيلياء عام 638م، واستلم مفاتيح القدس من الأسقف صفرونيوس الذي أخبره بمكائد اليهود، لأنه لا زالوا يراسلون هرقل الروم، ونصحه بطردهم من الجزيرة العربية لأنهم مفسدون في الأرض.

تولى معاوية بن أبي سفيان ولاية الشام فغي أيام عمر وعثمان وعلي، ثم تولى الخلافة على كل البلاد الإسلامية. وحاول اليهود العمل في دواوين الدولة فصدَّهم معاوية واستعان بالسريان، لأن اليهود كانوا من أهل الصنائع، التي سمح لهم المسلمون بممارستها بحرية.

لماذا لم يسمح عبد الملك بن مروان بعمل اليهود في الدواوين؟

يقول ابن خلدون: لأن الشروط المعتبرة في هذه الوظيفة. وقد وثق بالروم الأرثوذكس لأنهم المسيحيون العرب. وتابعه خلفاء بني مروان، ومن كتابهم البارزين كان عبد الحميد يحيى الكاتب (745- 750) كان كاتباً لمروان بن محمد (الملقب بالحمار) وهو الذي حدد شروط الكاتب، قال: «أما بعد، حفظكم الله يا أهل صناعة الكتابة، ووفقكم وأرشدكم، فإن الله - عز وجل - جعل الكتّاب بعد الأنبياء، والمرسلين وبعد الملوك المكرمين، بكم تنتظم محاسن الخلافة و تستقيم أمورها، وبنصائحكم يصلح الله للخلق سلطانهم، وتعمر بلدانهم، فموقكم من الملوك موقع أسماعهم، وأبصارهم، وألسنتهم التي بها ينطقون، وأيديهم التي بها يبطشون. وليس أحد من أهل الصناعات كلها أحوج إلى اجتماع الخبرة المحمودة، وخصال الفضل المذكورة.

فتنافسوا يا معشر الكتاب في صنوف الآداب، وتفقهوا في الدين، وبعلم كتاب الله، وبالفرائض ثم العربية والأشعار اعرفوا غريبها ومعانيها، وأيام العرب والعجم، وعلم الحساب، فإنه قوام كتّاب الخراج الذين معظمهم من العجم»[7].

هذه الشروط سارت عليها دواوين الخلافة الإسلامية، في كل العصور. ومنذ تلك الأيام لم يكن لليهود دور في الكتابة في وظائف الدولة. لهذا لجأوا إلى الصناعات المهنية، العلمية منها خاصة، كالطب والتنجيم والصياغة، والتجارة. وصار لهم رواج عند الخاصة والعامة.

لكن اليهود دخلوا في النسيج الثقافي للإسلام، في علم الكتاب والتفسير والحديث وعلم الكلام، وهذه من أخطر المسائل.

## اليهود وعلم الكتاب

أنزل الله القرآن منجماً على رسوله (ص) وكان يعلم ما ينزل إليه أصحابه، يقول عبد الله بن مسعود: «كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات، ولم يجاوزهن حتى يعرف كل معانيهن والعمل بهن». ومعنى هذا أن التفسير للقرآن بدأ في عهد رسول الله. ماذا نقصد بالتفسير؟ نقصد به إيضاح المعنى والمراد من السورة. قال تعالى: {ولا يأتونك بمثل، إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً} (سورة الفرقان آية 37).

فالتفسير كشف المراد من اللفظ المشكل، ولقد مرَّ التفسير بمرحلتين:

**المرحلة الأولى: في عهد رسول الله**

كان الصحابي يكتفي من الآية بالمعنى الإجمالي، بعد الرجوع إلى أسباب النزول، وكان الصحابة يسألون أهل الكتاب من اليهود لأنهم أدرى بالتوراة، وأحياناً يسألون النصارى لأنهم أعرف باللغة الآرامية، ومنها وردت كلمات في القرآن مثل (فاكهة وأبا) (سورة المائدة آية 3) عندما سأل أحد الصحابة عمر بن الخطاب عن معناها عرف معنى الفاكهة، وجهل معنى كلمة (أبا) قال عمر: «إن هذا لهو التكلف يا عمر»[8]. بدأ التفسير يقتضي من الصحابي، الاجتهاد وقوة الاستنباط ومعرفة أسرار اللغة العربية، ومعرفة كتب اليهود والنصارى وأسباب النزول، لأن القرآن الكريم تتفق سوره والتوراة في أكثر قصص الأنبياء[9].

**المرحلة الثانية: عصر التابعين**

توطدت أركان التفسير وبرع كثير من الصحابة والتابعين في التفسير ومن هؤلاء العلماء (كعب الأحبار، وعبد الله بن عباس ومحمد بن كعب القرظي ووهب بن منبه).

## كعب الأحبار

كان من أكبر أحبار اليهود في اليمن، جاء إلى المدينة في عهد عمر بن الخطاب (عام 638م) وأسلم وسكن المدينة، كان يهودياً عربياً من حمير إلا أنه كان من أهل الدراية في التوراة يعرفها بالعربية والعبرية، وهو القائل: «ما في الأرض شبر، إلا مكتوب في التوراة التي أنزلت على موسى، ما يكون عليه وما يخرج منه». وكان تلميذه أبو هريرة قد سبقه بالمجيء إلى المدينة في أواخر أيام رسول الله (ص) وكان يأخذ عن كعب الأحبار ويروري عنه، فنهاه عمر بن الخطاب لما أكثر من الرواية، وأمره بالذهاب إلى أرض الشام هو وكعب الأحبار بجعلهما معاوية من مستشاريه.

وعندما جاء عمر بن الخطاب إلى القدس رافقه كعب الأحبار، و قال له عمر: أين ترى أن نجعل المصلى؟ فقال كعب الأحبار: إلى الصخرة، فقال عمر: ضاهيتا والله اليهودية يا كعب».

وكان يروي عن كعب الأحبار عبد الله بن عمرو بن العاص، قال عبد الله: «قال كعب إن في البحر شياطين مسجونة، وثقها سليمان بن داود، توشك أن تخرج لتقرأ على الناس قرآناً»[10]. لماذا تقرأ القرآن؟ ولا تقرأ التوراة؟ أدخل كعب الأحبار كثيراً من الإسرائيليات في تفاسير أهل الشام، ومات كعب في حمص (38هـ / 659م).

## وهب بن منبه (المتوفى 731)

ولد في صنعاء وكان يهودياً من أصل فارسي. جاء إلى المدينة طفلاً في أيام مقتل عمر بن الخطاب وهو الذي روى قصة مقتل عمر نقلاً عن كعب الأحبار الذي قال لعمر: «أوصي يا عمر، إنك ميت بعد ثلاث ليال، فقال عمر لكعب: وما يدريك؟ قال: أجده في كتاب التوراة. قال عمر: أتجد عمر بن الخطاب في التوراة؟ قال: اللهم لا، ولكني أجد حليتك، وأنه قد جاء أجلك. فلما كان الغد جاءه كعب وقال: بقي لك يومان، فلما كان الغد جاءه كعب وقال: بقي لك يوم واحد. فلما أصبح عمر خرج إلى المسجد للصلاة، ودخل أبو لؤلؤة في الناس وبيده خنجر له رأسان، نصابه في وسطه، فضرب عمر ست ضربات إحداهن تحت سرته وهي التي قتلته وذلك في ذي الحجة 23هـ / 645م.

أليست تلك مؤامرة يهودية نفذها الهرمزان والخورشاه وأبو لؤلؤة الفارسي؟

روى وهب بن منبه، أن كعب الأحبار لما أكثر من الرواية توعده عمر بإرساله إلى أرض القردة (في جبال عسير)، ومن مزاعم وهب بن منبه أنه قرأ من كتب الأنبياء في العبرية 72 كتاباً، وروى البخاري عن أبي هريرة قال: كان اليهود يقرأون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية للمسلمين، فقال رسول الله (ص): لا تصدقوا أهل الكتاب (اليهود) ولا تكذبوهم، وقولوا: آمنا بالله، وما أنزل إلينا، وما أنزل إليكم[11]. وخشي رسول الله أن يدخل اليهود بعض الدس على أحاديثه، فنهى عن كتابة الحديث، فلم يكتب الحديث لا في عهده ولا في عهد الصحابة والخلفاء الراشدين، وإنما كتب في عهد التابعين، وكانت الإسرائيليات قد تسربت بل وتجذرت في أحاديث أصحاب الأهواء من المسلمين، ومن أعداء الدين المستترين من اليهود.

كان أول من دوّن علم الحديث والتفسير يزيد بن هارون السلمي (المتوفى 735) وكان يروي تفاسير وهب بن منبه الذي توفي في صنعاء سنة 731م، ثم تلاه شعبة بن الحجاج (المتوفى 777هـ___) وانفصل التفسير عن تدوين الحديث في زمن ابن ماجة (المتوفى 887) وقام التفسير على أسس فلسفية، منذ زمن الحسن البصري (المتوفى 729).

قام الحسن البصري ومعه المعتزلة ينزهون الله عن التجسيم وبذلك ابعدوا تعاليم التوراة المجسمة للإله، وبدأ التأويل، و صار يظهر معنى الآية هل هي موافقة للتنزيه أم مخالفة؟ قال السيوطي: «إن التفسير ما يتعلق بالرواية، والتأويل ما يتعلق بالدراية». و صار علماء التفسير يرفضون أقوال كعب الأحبار التي تخالف العقل والنقل معاً. سأل معاوية كعب الأحبار: «أنت تقول أن ذا القرنين، كان يربط خيله بالثريا! فقال كعب: إن قلت ذلك فإن الله تعالى قال: وأتيناه من كل شيء سبباً (سورة الكهف، آية)» وصار المفسرون يرفضون كذلك قول وهب بن منبه «أربعة ملائكة يحملون العرش على أكتافهم، ولكل واحد منهم أربعة أوجه، وجه ثور ووجه أسد، ووجه نسر ووجه إنسان، ولكل ملك أربعة أجنحة»[12].

وظهر التفسير الإشاري الذي تظهر إشارات خفية لأرباب السلوك، وهذا التفسير من ابتكار اليهود، من ذلك تفسير القرآن الكريم لسهل التستري (المتوفى 897) الذي قال في تفسير قوله تعالى {فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون} (سورة البقرة آية 22) قال سهل: «لا تجعلوا لله أنداداً أي أضداداً، وأكبر الأضداد هي النفس الأمارة بالسوء المتطلقة إلى حظوظها بغير هدى من الله» وقوله: «وأول بيت وضع للناس، بيت الله بمكة هذا هو الظاهر، وباطنها الرسول، يؤمن به من أثبت الله في قلبه التوحيد من الناس»[13].

وظل التأثير اليهودي يدخل في التفاسير ولو بصورة خفية إلا في تفاسير المعتزلة مثل تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التنزيل للزمخشري (المتوفى 1144م). وفي زبدة التفاسير للإمام الشوكاني جاء تفسيره غير مقنع، فهو يفسر قوله تعالى {إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور، يحكم بها التبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتب الله وكانوا عليه شهيداً} (سورة الأنعام، الآية 44) إنا أنزلنا التوراة فيها هدى

ونور. قال: هو بيان الشرائع والتبشير بمحمد (ص) وإيجاب اتباعه {ويحكم بها النبيون} قال: هم أنبياء بني إسرائيل {والذين أسلموا} صفة مادحة للنبيين، وفيه إرغام لليهود، بأن أنبياءهم كانوا يدينون بدين الإسلام الذي دان به محمد (ص) فلا يقال لنبي من الأنبياء إنه يهودي أو نصراني بل كانوا جميعاً مسلمين {والربانيون والأحبار} العلماء والحكماء، {بما استحفظوا من كتاب الله} أي أمرهم الأنبياء بحفظ التوراة عن التغيير والتبديل {وكانوا عليه شهيداً} أي على كتاب الله، والشهداء والرقباء فهم يحمونه عن التغيير والتبديل بهذه المراقبة والخطاب[14].

إن هذا التفسير لا يرضي أي مطلع على التوراة، وكتب اليهود، التي جعلها المفسر عرضة للتبديل والتحوير، وجعل التوراة كتاب بشارة بالنبي محمد (ص) وأنبياء اليهود هم مسلمون قبل مجيء الإسلام، لا أعلم كيف حدث هذا؟ وهل علم اليهود برسالة محمد (ص) قبل ظهورها؟ هذا هو اعتقاد جمهور المسلمين.

## اليهود والقرآن

بدأ الخلفاء الراشدون في تدوين القرآن وحفظه. وجعلوه مصدراً في التشريع والحكم، وكانت سمة الصحابة الأوائل كما وصفهم تعالى: {تراهم ركعاً سجداً، يبتغون فضلاً من الله ورضواناً، سيماهم في وجوههم من أثر السجود} (سورة الفتح، آية 29). وعندما تعرضوا لمناظرات حاخامات اليهود، بعد وفاة رسول الله وانقطاع الوحي، صاروا بحاجة إلى نص لمحاججة اليهود، فجمع القرآن ودوِّن في زمن عثمان بن عفان، كتبه زيد بن ثابت ومعه جماعة من قريش والأنصار، جمعوه من العسب واللخاف (رقاق الصخر) وصدور الرجال. وكان الأمر في غاية الصعوبة واستشاروا عبد الله بن سلام اليهودي الذي أسلم، وكانت لديه خبرة في كيفية جمع التوراة. وصار لدى المسلمين أن القرآن الحالي هو القرآن الذي كتب في عهد عثمان، وأرسلت منه سبع نسخ للأمصار، وأحرقت بقية الجذاذات الزائدة. وأشاع اليهود في المدينة أن عثمان أحرق الآيات التي لا يريد تدوينها في القرآن، وكادت أن تحدث فتنة لولا وقوف علي (ع) إلى جانب عثمان وقال: «لا تقولوا في عثمان إلا خيراً، فوالله ما فعل الذي فعل في المصاحف إلا على ملأ منا»[15]. ومنذ ذلك الوقت ساد الاعتقاد أن القرآن الكريم كامل لم يفقد منه شيء.

ولكن الاختلاف جرى في تفسير القرآن وتأويله، وكان لليهود تأثير كبير في ذلك. فهذا عبد الله بن عباس (المتوفى 58هـ‍___/ 678م) والذي يعتبر حبر الأمة وترجمان القرآن رغم ملازمته القصير للرسول (ص) بعد فتح مكة وكان عمره دون العاشرة، قال: أخذت تفسير القرآن عن علي بن أبي طالب (ع)[16]. والصواب أنه كان يعتمد على تفسير كعب الأحبار وأبي هريرة، وكان يعتمد على أسباب النزول وعلى قصص التوراة لأن العرب كانوا أميين لا علم لديهم بعلم الكتاب كاليهود والنصارى وكانوا يتبصرون دين القبائل ويذهبون مذهب بني إسماعيل[17].

كان اليهود يقولون للمسلمين، إن موسى أفضى بأسرار التوراة والألواح إلى يوشع بن نون وجعله وصيه والقائم بالأمر من بعده ليفضي بها إلى أولاد هارون لأن الأمر مشترك بينه وبين أخيه هارون عليهما السلام[18]. وأخذ الشيعة بهذا الاعتقاد، وصار علي (ع) والأئمة من أولاده أوصياء على علم الكتاب.

وكان اليهود يذهبون إلى أنه لا يجوز النسخ في الآيات لأن ذلك يؤدي إلى أمر البداء، ولا يجوز البداء على الله تعالى، ليظهروا للمسلمين أن هنالك تناقضاً في القرآن. وكان ابن فطيون يعلِّم المدراس في المدينة أنه يجوز الرجعة في حديث عزير الذي أعاده الله للحياة بعد مئة عام، واختلفوا حول موت موسى. فمن اليهود من قال أنه مات وسيرجع، ومنهم من قال «إنه غاب وسيرجع»[19]. وكان يحضر تلك المناقشات كبار الصحابة، وعندما أعلن موت الرسول (ص) نفى ذلك عمر بن الخطاب وقال:«إنه لم يمت وأنه غاب وسيرجع بعد حين» لولا وقوف أبي بكر بوجهه وقال: «وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل، فإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم». وكانت تلك الآية قد غابت عن عمر لأنه لم يسمع بها من قبل.

كان اليهود يعلِّمون المسلمين في البداية، أمور التوحيد وحقيقة النبوة وحقائق الصفات الإلهية، وكانوا يذهبون إلى التشبيه. وإن تساءل البعض: كيف حدث هذا؟ يقول ابن خلدون: لأن اليهود كانوا أهل التوراة، وكانوا عرباً، وأهل بادية مثلهم مثل جيرانهم، وكان معظمهم من حمير من عرب الجنوب. فلما أسلموا، أبقوا ما كان عندهم مثل أخبار بدء الخليقة والأحكام الشرعية، مثل كعب الأحبار وعبد الله بن سلام ووهب بن منبه وأمثالهم[20].

وجرى الخلاف حول ذات الله وصفاته، وأن الصفات ليست عين الذات، ونفوا السمع والبصر لكونهما من عوارض الأجسام، وكان ذلك أول خلاف بين المفكرين المسلمين والمفكرين اليهود، وقد تجمع المسلمون حول الحسن البصري وأتباعه. وظهرت مسائل علم الكلام وظهر علم جديد هو علم الإلهيات، وهو علم ينظر في الوجود المطلق، وصار علم الكلام محشواً بمسائل الحكمة التي استقوها من النصارى في البداية ثم استقلوا عنها.

### بداية الفتن

أدرك اليهود أنه لا قوة لديهم لمقاومة الإسلام علناً، فلجأوا إلى الدس، وأظهروا الإسلام شعاراً، وأضمروا الشر، وألقوا صورة اليهودي الذليل وراء ظهورهم، وخير مثال على ذلك:

عبد الله بن وهب بن سبأ الهمداني (المتوفى 675م)

كان عبد الله بن سبأ من أهل صنعاء، وأصله عربي من همدان. جاء إلى المدينة في بداية خلافة عمر بن الخطاب، وطرح شعار: «إني لأعجب ممن يقول برجعة عيسى ولا يقول برجعة محمد». وفسر قوله تعالى {إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد}، ولم يتعرض له عمر بن الخطاب. وفي خلافة عثمان بدَّل شعاره قائلاً: «إن علياً هو وصي الرسول» وعندما قتل الإمام علي (ع) ادعى أنه من أهل الحيرة، جاء إلى الكوفة فذكر لأهلها أنه وجد في التوراة أن لكل نبي وصياً، وأن علياً هو وصي محمد وأنه خير الأوصياء، كما أن محمداً خير الأنبياء، وبعد حين غالى في حب علي (ع) ونفي إلى المداثن[22]. ثم ادعى برجعة علي وكشف عن ادعائه لعلي بالألوهية.

قال الإمام زين العابدين بن علي بن الحسين (ع): إن عبد الله بن سبأ - لعنه الله - ادعى أن علياً هو الله، وعلي كان والله عبداً صالحاً، وأخاً لرسول الله، ما نال الكرامة إلا بطاعته لله ورسوله. وجاء عن الإمام جعفر الصادق (ع): «لعن الله عبد الله بن سبأ، إنه ادعى الربوبية في أمير المؤمنين، وكان أمير المؤمنين عبداً لله طائعاً، والويل لمن كذب علينا، إن قوماً يقولون فينا ما لا نقوله في أنفسنا، نبرأ إلى الله منهم»[23].

لقد أنكر وجود عبد الله بن سبأ كل من الدكتور طه حسين والمرتضى العسكري، والدكتور علي الوردي، واعتبروه من صنع سيف بن عمر التميمي، ولكن الأستاذ صائب عبد الحميد يجزم قائلاً: «تحت شعار الرواية التاريخية كان ابن سبأ أفضل خادم لليهود والزنادقة معاً، ليس في تصوير الأثر اليهودي في تاريخ المسلمين وحسب، وإنما في الطعن بأحاديث نبوية صحيحة»[24].

وللباحث الشيخ محمد زاهد الكوثري رأي آخر في عبد الله بن سبأ، وهو أن عبد الله بن سبأ شخصية تاريخية، وهو صاحب فتنة، سعى إلى فتنة في عهد عثمان، وعجز عن إشعال الفتنة ولكنه هيأ لها الظروف، وكما قال المستشرق اليهودي جولد زيهر فيه إنه يتحزب لليهود فوق اليهود أنفسهم، وسيف بن عمر التميمي وهو من رجال جامع الترمذي لا يستغني عن أنبائه[25].

صار أعداء الشيعة من السنة يقولون: إن أصل التشيع والرفض مأخوذان من اليهودية، على اعتبار نفي حديث غدير خم الذي قال بالوصية الجلية للإمام علي (ع) بالإمامة، تارة ينسبون هذا الحديث إلى عبد الله بن سبأ ومرة أخرى إلى ابن الراوندي وهو من أصل يهودي أيضاً.

### اليهود وعلم الحديث

بدأت رواية علم الحديث منذ أيام عمر بن الخطاب، وكان أبو هريرة يسمع من كعب الأحبار في عهد عمر بن الخطاب، قال الأستاذ صائب عبد الحميد «وأشد ما في الأمر هو اختلاط رواية أبي هريرة عن كعب الأحبار بروايته عن رسول الله (ص) إذ حصل هنا اختلاطان:

الأول: اختلط على أبي هريرة نفسه فيقول: قال رسول الله، ويأتي برواية كعب، وهو يقول: قال كعب، ويأتي بحديث رسول الله (ص).

الثاني: كما اختلط على تلاميذه فيحدثهم عن رسول الله (ص) ويخرجون من عنده فيخلطون أقواله بأقوال كعب ورسول الله (ص). وكان عبد الله بن عباس يرد أحياناً على كعب الأحبار على الرغم من أنه كان أستاذه ويقول: «لم يترك يهوديته بعد»[27].

أما العلامة محمد رشيد رضا فيقول: «إن كعباً أدخل على المسلمين شيئاً كثيراً من الإسرائيليات الباطلة والمخترعة، وخفي على كثيرين من المحدِّثين»[28].

كان الصحابة في البداية يتورعون عن نقل الحديث عن رسول الله (ص) وكان أجرؤهم كعب الأحبار وأبو هريرة وقد نهاهما عمر بن الخطاب لأنه كان يشم رائحة الدسيسة اليهودية، وبعد وفاة عمر صارا يقولان: «من قبل نهي عمر لنا»[29].

كان عمر بن الخطاب يحذر من أن يخلط الحديث بالقرآن قبل تدوينه وكان يقول: «لا كتاب مع كتاب الله»[30].

كان اليهود يجالسون النبي (ص) في المدينة ولهم معه حوارات في المدارس التابعة لكنيسهم. وكان حبرهم الأكبر يحيى بن فطيون يتهم الرسول (ص) بأخذه جوهر الإسلام عن التوراة. يقول للرسول: يا أبا القاسم نراك تأخذ الكثير عن توراة موسى. فيرد عليه الرسول «لو كان أخي موسى حاضراً لتبعني» ويذكرهم بقوله تعالى {نزل عليك الكتاب بالحق، مصدقاً لما بين يديه، وأنزل التوراة والإنجيل} (سورة عمران آية 3). وفي آية أخرى {ومصدقاً لما بين يدي من التوراة} (آل عمران آية 50). وجاء في زبدة التفاسير للشوكاني: «ونزل عليك الكتاب أي القرآن، مصدقاً أي موافقاً لما بين يديك وأنزل التوراة على موسى»[31].

وكانت الأحاديث المتواترة يعجز اليهود عن وضعها وهي كثيرة وصحيحة، قال فخر الدين الرازي (المتوفى 606هـ/ 1189م): «إن قلنا إن لم يكن التواتر في الحديث حاصلاً، فيلزم القول إن القرآن ليس بمتواتر في الأصل»[32].

## اليهود في العراق

فتح العرب العراق سنة (13هـ/ 635م) وأسسوا البصرة والكوفة في زمن واحد، في عهد عمر بن الخطاب، وسكنتهما قبائل عربية، من اليمن ومضر، وكان العرب من قبل يسكنون الحيرة وينتشرون في بواديها، وكان لبني شيبان تواجد، فهم الذين كسروا الفرس في يوم ذي قار سنة 610م، وكانت قبائل بكر بن وائل عليهم حنظلة بن سيّار من ربيعة، وسبب الحرب امتناع هانئ بن قبيصة من بكر

بن وائل عن تسليم ما كان للنعمان بن المنذر اللخمي ملك الحيرة من دروع وأموال وإلا تعرضوا لغزو دولة الفرس، وجاءت جموع بكر من اليمامة والبحرين تريد المضي إلى بكر لإنجادها، فوقف النبي بينهم يعرض نفسه، ويدعوهم للإسلام، فوعدوه إن انتصر العرب على الأعاجم صدَّقوا نبوته، فدعا لهم بالنصر، وانتصروا، فقال الرسول: «هذا أول يوم انتصفت فيه العرب من العجم وبي نصروا»[33].

كانت البصرة مدينة فارسية قديمة، بنيت على أطراف البراري جانب مدينة عتيقة من مدن الفرس تسمى (دهشتا باذ أردشير) فخربها المثنى بن حارثة الشيباني بشن الغارات عليها[34]. كانت البصرة مدينة متعددة الأعراق والطوائف فيها جالية يهودية كبيرة تضاهي ما بها من الجنس الآرامي (النبطي) جاؤوها من هجرة اليهود من الجزيرة العربية.

أما الكوفة، فقد بنيت بالقرب من الحيرة، وكان سكانها من العرب العبّاد وهم عرب من أهل اليمن، سألهم خالد بن الوليد عندما فتح الحيرة، سال الشيخ المعمر عبد المسيح بن عمرو: أعرب أنتم أم نبط؟ فقال: نحن عرب استنبطنا ونبط استعربنا، وكانت الديانة الغالبة على الكوفة هي الديانة المسيحية.

وعندما انتقل الإمام علي (ع) إلى الكوفة، استقبله النصارى بالترحاب، وكان الجاثليق ايشوعياب الجدالي (622- 647م) عند ظهور الإسلام قد أرسل إلى النبي محمد (ص) بعض الهدايا، فتعرض لاضطهاد الفرس. وعندما فتحت العراق، أعطى الخليفة عمر للمسيحيين (النساطرة) كتاباً للعهد. وبهلاك يزدجرد الثالث سنة 635، صارت العراق عربية. وعندما استلم الجاثليق مارامي (647-650) وفتح العرب الموصل ساعدهم المسيحيون وحملوا إليهم الميرة، فكتب إليهم الإمام علي بن أبي طالب (ع) كتاباً يوصي رعيته بمكافأتهم[35]. وهكذا صارت البصرة والكوفة مركزاً للثقافات المتعددة الإسلامية واليهودية والمسيحية.

## صناعة الكتابة والتدوين في العهد العباسي

عُرِّبت الدواوين في العهد الأموي، وحددت مهام الكتابة على يد عبد الحميد الكاتب، وحددت شروط الكاتب، أن يكون مسلماً وأن يلم بكتاب الله وحديث

رسول الله (ص). وأجاز العمل في دواوين الخراج والمساحة لأهل الذمة من النصارى حصراً، وأصبح من خواص الملك الكاتب والشاعر والمنجم والطبيب أربعة لا غنى للملك عنهم[36].

وفي العصر العباسي حدد شروط الكتابة الأديب عبد الله بن المقفع (المتوفى 759م) الذي حدد للكتابة مساراً جديداً، فلم يكتف أن تكون الكتابة السهل الممتنع. فقد فصل بجعله الألفاظ تابعة للمعاني، وأوجز وقصر العبارة، فخير الكلام ما قلّ ودلّ. وفرض على الكاتب أن يديم النظر في كتب الأولين، لكي يصقل ذهنه وينير طبعه.

نشأ ابن المقفع في بيئة البصرة حيث تتعدد الثقافات، الإسلامية - العربية والفارسية واليهودية والمانوية، صار كاتباً في البداية عند عيسى بن علي العباسي، ثم أصبح كاتباً عند الخليفة المنصور. كان ابن المقفع أديباً وفيلسوفاً، ترجم وكتب عدة رسائل وكتب منها رسالة الصحابة والأدب الصغير والأدب الكبير، وله عدة كتب مترجمة عن الفارسية و السريانية دلت على قوة عقله ونضج أسلوبه مثل كتاب كليلة ودمنة، الذي أصبح درة الأدب العربي والعالمي، وكتاب التاج فيه سيرة الملك العادل أنوشروان. قتله المنصور في ظروف غامضة ولأسباب خفية متهماً إياه بالزندقة. ورسالة الصحابة هي الدستور الذي سارت عليه الدولة العباسية. تناول مفاصل الدولة الست:

**أولاً: العناية بالجند**

أوصى الخليفة الاهتمام بالجند الخراسانية الذين هم عماد الدولة وقوة الخليفة. وأشار إلى ضرورة وضع قانون لهم، حدد فيه ما يجب عليهم فعله، وما يجب أن يتجنبوه، عدم ممارسة الجند للشؤون المالية، لأن ولاية الخراج مفسدة للمقاتلة، كما أنها ظلم للرعية، وإلى خروج الجند عن طاعة السلطان. وعلى الخليفة مراعاة الكفاية في اختياره لقادته، وعلى أن يكونوا من أهل المعرفة والحكمة في تدريب الجند على أمور القتال، وأن يتفقدوا أحوال الجند ويعرفوا أخبارهم لاستئصال الشر قبل استعماله، وأن يعين وقت محدد لكي يقبض فيه الجند أرزاقهم.

**ثانياً: العناية بأهل العراق**

لأن أهل العراق هم خاصة، وأن يعتمد عليهم في أمور الدولة، وأن يدافع عنهم لأنهم قد ظلموا أيام بني أمية، وأن ينصف أهل الذمة من مسيحيين ويهود ومجوس، لأنهم أهل الصنعة من رعيته.

**ثالثاً: العناية بالقضاء**

بيَّن ابن المقفع، ما يعتري القضاء من فوضى واضطراب وما ينجم عن ذلك من ظلم للرعية، وبيَّن أن حادثة واحدة يمكن للقاضي أن يحكم فيها بقرارين متناقضين، حسب المذهب الذي ينتمي إليه القاضي، وعلى الخليفة توحيد المرجعية الفقهية، واقترح عليه وضع فقه رسمي تجري عليه المملكة في جميع أنحائها، ويرجع إلى هذا الفقه أي ما يرشد إليه العقل في معنى العدالة.

**رابعاً: العناية بأهل الشام**

اقترح على الخليفة أن يحتاط لهم في سياسته وأن يشتد عليهم في عدالته، وطلب من الخليفة اختبار بطانته وولاته، لأنهم أسس بناء دولته وزينتها، وأن يحسن للعامة، لأن الخلافة لا يصلح حالها إلا بالرعية، ولا تستقيم أمورها إلا على أيديهم، واشترط في خيار البطانة شرطان هما:

-أن يكونوا من ذوي الرأي، الأمناء والعدول.

-وأن يكونوا من ذوي الحسب وشرف النسب.

**خامساً: لعناية بديوان الخراج**

على الخليفة أن يهتم بمعرفة المال المفروض على الأراضي الزراعية لأنها أساس ثروة الدولة، وشكا من الفوضى في هذا الموضوع في عصره وأيامه،وعرض بعض شروط الإصلاح، والعناية باختيار العامل وصاحب الخراج ويجب تشديد الرقابة عليهم كي لا يظلموا الرعية، وتغييرهم عند ظهور الخيانة منهم.

**سادساً: العناية بجزيرة العرب**

اقترح ابن المقفع على الخليفة المنصور الاعتناء بمكة والمدينة، بعد أن تحولت دار الخلافة والتجارة عنهما، وعليه أن يهتم بحال أهل البيت لأنهم أهله. وختم

الرسالة بما للخليفة من أثر عظيم، في صلاح الرعية، فالأمة لا تصلح إلا بصلاح إمامها[37].

صار الوزراء والكتاب يختارون حسب هذه الوصايا في الدولة العباسية، وكان من أعظم الوزراء جعفر بن يحيى البرمكي (145- 187هـ) الذي يوقع الكتب بين يدي الخليفة هارون الرشيد، فكانت توقيعاته يتنافس على اقتنائها البلغاء، حتى قيل إن القصاص التي يوقعها تباع بدينار ذهبي.

ظل اليهود بعيدين عن ديوان الخليفة، واضطر بعض اليهود إلى الإسلام لكي يوظفوا في الديوان كما هو حال أبي القاسم علي بن محمد الإسكافي، الذي كان يهودياً فأسلم وغيَّر اسمه، وصار من كتاب آل ساسان، وكان يحرر في ديوان هراة وطلب منه السلطان ايلتيكين الكتابة إلى نوح في بخارى، وكان نوح ذكياً وعاقلاً ولكن السلطان قال للإسكافي لا تتدخر وسعاً في الاستخفاف بنوح. فكتب إليه: بسم الله الرحمن الرحيم: يا نوح قد جادلتنا فأكثرت في جدالنا، فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين. فلما وصلت الرسالة إلى نوح تعجب كثيراً من بلاغة هذا الكاتب اليهودي الذي تمثل الثقافة الإسلامية بسرعة[38].

## طوائف اليهود في بلاد الشام والعراق

يتواجد اليهود في فلسطين والعراق، منذ السبي البابلي، وهم ينقسمون إلى طائفتين كبيرتين، هما:

### طائفة السامرة:

هم طائفة يهودية كانوا يعيشون في مملكة السامرة (شكيم) نابلس في شمال فلسطين، وفي بعض قرى دمشق ومصر والعراق، وعندما غزاهم الملك الآشوري تغلات فلاصر سنة 738 ق.م، قاوموه فنفاهم إلى شمال الموصل على نهر الخابور، وعندما سمح كورش لليهود بالعودة إلى أرض فلسطين، عادوا إلى شكيم وبنوا لأنفسهم هيكلاً في جبل جرزيم، وعزلوا أنفسهم عن اليهود.

كان السامرة يتقشفون ويتطهرون أكثر من سائر طوائف اليهود، ولا يعترفون إلا بتوراة موسى وهارون ويوشع بن نون، وينكرون ما بعدهم من الأنبياء، ويقرون

بـالآخرة والثـواب والعقـاب، ومنـهم فرقـة تدعـى الدوسـتانية تقـول: إن الثـواب والعقاب يحصل بالدنيا ولا وجود للآخرة[39].

وكان السـامرة يعتزلون كل البشـر ولا يتزوجون إلا من بنات نحلتهم، وينحـرون الأضاحي في وقفة عيد الفصح على مذبح لهم فـي جرزيـم، ويزعمـون أنـهم مـن سبط أفرايم، وعندهم قبر يوسف الصديق طبقاً لما جاء في التوراة «دفنوه في شكيم (نابلس) بعد أن حمل بنو إسرائيل عظامه من أرض مصر» يقول الباحث اليهودي عـزرا حـداد العُراقـي: «وليـس فـي لغتـهم لفظـة الإحسـان أو الـهدى أو التواضـع كمـا أنـهم لا يسـتطيعون كتابـة إبراهيـم وإسـحق ويعقـوب لأن كتابتـهم ينقصها ثلاثة أحرف وهي (الحاء والهاء والعين) ويعوضون عنها بحرف الألف، وهـم يبتعـدون عـن كل مـا يدنسـهم، فـلا يقربـون ميتـاً، أو عظمـاً لميت، أو جثـة أو قـبراً، وإذا قصـدوا كنيسـهم للصـلاة، انتضـوا عنـهم ثيابـهم واغتسـلوا بالمـاء، واستبدلوها بأثواب بيضاء غيرها»[40].

والسامرة مثل بقية اليهود يقدسون يوم السبت، فلا يرى عندهم نور ولا نار، ويصومـون يـوم الكفـارة ويحجـون إلـى هيكلـهم فـي جبـل جرزيـم (نـابلس) ويقربـون على صخرة معروفة فوق ظهر الجبل. وهـم ينتظـرون المسـيَّا المخلـص، ولكنـه عندهم من أولاد يوسف الصديق لا من أولاد داود.

ويسكن السامرة منعزلين عن اليهود الذين يعادونهم منذ أن دمر المكابيون هيكلهم المقدس عام 190 ق.م، وهـم يعيدون لذكرى هـذا اليـوم ويسـمونه عيـد جرزيم. وبعد أن هدم الرومان هيكل سليمان المقدس في القدس سنة 70م، فرح السامرة وأعاد لهم الإمبراطور اسبازيان بناء هيكلهم في بلدة شكيم، وأطلق اسم المدينة الجديدة (نابلس) سنة 132م، ووضع الإمبراطور هيدريانوس تمثالاً للإله جيوبيتر فوق جبل جرزيم، وأصبحوا في نظر اليهود وثنيين لا يجوز التقرب منهم.

وفي زمن الإمبراطور جوستينيان عام 530م، أمر بهدم هيكل جوبيتر وبنى محله كنيسة باسم العذراء سنة 538م، وهجَّر السامرة إلى العراق، وبقيت منهم أقلية في نابلس لخدمة المعبد ونصبوا عليهم الحاخام (بابارية) وشكلوا مجلساً يضم ثلاثة أحبار وأربعة يمثلون العلمانيين والعوام.

بعد الفتح العربي لفلسطين وسورية والعراق، اعتبروا السامرة جزءاً من اليهود، وضموهم إلى ديوان الجوالي باعتبارهم من أهل الكتاب. و أعطوهم في زمن الفاطميين الحرية التامة، ووضع عليهم الحاكم بأمر الله عاملاً يدعى تقوة ابن إسحق السامري عام 1021م.

وفي الحكم العربي الإسلامي حصل لهم غنى وثروات من صناعة الطب والتنجيم. وقد شاهد بنيامين التطيلي في مدينة نابلس عام 1168 حوالي ألف عائلة وحوالي 200 عائلة في قيسارية و300 عائلة في عسقلان و400 عائلة في دمشق، وجميعهم يعيِّدون في عيد جبل جزريم[41].

**طائفة اليهود الإسرائيليين**

هم مجموعة الطوائف اليهودية، وكانوا يتواجدون في العراق منذ أيام السبي البابلي عام 586 ق.م، وعندما عاد اليهود إلى فلسطين، بقيت منهم طائفة منظمة عليهم رأس الجالية (ريش جالوتا) ودعي في لإسلام (رأس المثيبة) وهو يمثل الدولة في تطبيق القوانين وتحصيل الضرائب من أبناء الطائفة، ويجب أن يكون رأس الجالوت من أبناء داود، ويجب أن يكون رأس الجالوت من العلماء المختصين بتعاليم التلمود والتوراة.

كان العلماء الذين اختصوا بشرح التوراة يدعون التنائيم، وقد دونوا (تلك الشروح بكتاب سموه 'المشنة') وقد بوشر في تحريرها حوالي عام (10م) وكان الفراغ من تبويبها عام 220م، بعناية الحبر الأعظم يهوذا بن شمعون (135-220م). وقد لقب بالربن الأقدس، وقد تولى تدريس المشنة، التي أعدها التنائيم في طبرية شراحاً ومدرسين يدعون السبورائيم. وتحت ضغط الرومان انتقلوا إلى العراق وأسسوا المدارس الثلاث واستمر نشاطهم من (250- 588م).

وفي العراق ظهر الربي حية البابلي، كان من أساتذة التلمود، درس في طبرية ودرَّس في العراق في مدرسة سورا، وكان من تلاميذه الحبر العظيم أبا أريخا (المتوفى عام 247م) وكان من المؤسسين لظهور التلمود البابلي. وأسس تلميذه ما صموئيل الفلكي (165- 275م) مدرسة فمبوديثة (أي فم البادية) بجوار الأنبار، وفيها برع (السبوارئيم) أي الشراح ومنهم الربي وربينه بن هنا (المتوفى 490م) الذي أسس مدرسة (نهردع) أي مدرسة عانة في غرب العراق،

واستمر نشاطهم حتى عام 578م، وأغلقت في زمن الإمبراطور الفارسي كسرى أنوشروان (531- 579م).

في العصر العباسي زاد التواصل بين اليهود والمسلمين، وزادت المناظرات في جو يسوده التفاهم والمودة. وصارت التوراة مركز اهتمام الباحثين المسلمين واليهود والمسيحيين، وكان أغلب الأطباء في قصور الأمراء وفي البيمارستانات من أهل الذمة من المسيحيين واليهود، وزاد غناهم وظهر ذلك من ملابسهم ودورهم ومساكنهم ومركوبهم. قال الجاحظ: «إن اليهود اتخذوا البراذين الشهرية والخيل العتاق، واتخذوا الجوقات وضربوا بالصوالجة ولبسوا الملحم والمطبقة (نوع من ثياب الحرير) واتخذوا الشاكرية (الخدم) وتسموا بالحسن والحسين والعباس والفضل وعلي»[42].

وكان محور النقاش بين المسلمين واليهود، كتاب التوراة. فما هو رأي الفقهاء المسلمين تجاه التوراة؟ التوراة كتاب أنزله الله على موسى وقال فيه {إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور} وهذه تزكية من الله تعالى في القرآن الكريم، بل جعل القرآن مصدقاً لها. ولكن في السيرورة التاريخية: هل كان الأمر كذلك؟ روى أبو داود عن عبد الله بن عمر، قال: «أتى نفر من اليهود، فدعوا رسول الله (ص) إلى القف (جماعة مجتمعة) فأتاهم في بيت المدراس، ووضعوا له وسادة جلس عليها الرسول (ص) ثم قالوا: يا أبا القاسم، إن رجلاً منا زنى بامرأة فاحكم! فقال الرسول: ائتوني بالتوراة، فأتي بها، فنزع الوسادة من تحته، ووضع التوراة عليها، ثم قال: آمنت بك وبمن أنزلك، ثم قال: ائتوني بأعلمكم بها، فأتوا بشاب ذكر لهم قصة إبراهيم» (صحيح البخاري، باب التوحيد والتفسير).

ولكن الفقهاء في العراق انقسموا حول تفسير التوراة وحقيقتها إلى ثلاث طوائف:

**الطائفة الأولى**: قالوا: إن أكثر التوراة مبدل ومغيَّر، وإنها ليست التي أنزلها الله على موسى (ع) وتعرضوا لتناقضها وتكذيب بعضها لبعض. ومن هؤلاء ابن حزم في كتابه الفصل في الملل والنحل، دون أن يحدد لنا مواضع التبديل والتغيير، وكانت التوراة مترجمة إلى العربية، ترجمها إسحق بن حنين، وترجمها

كذلك سعدية الفيومي وكان يمكنه الرجوع إليها، ولكنه لم يفعل وحكم بحكم معاد ساد الأمة الإسلامية.

**الطائفة الثانية:** قالوا: إنه قد زيد في التوراة ألفاظ يسيرة ولكن أثرها باق على ما أنزل على موسى (ع) والتبديل قد حصل أثناء الشرح. وهذا رأي ابن تيمية (المتوفى 1328) في كتابه (الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح)، وضرب مثلاً على ذلك قصة الذبيح إسماعيل {قال تعالى لإبراهيم اذبح ولدك البكر وولده البكر إسماعيل} ولكن اليهود جعلوه (إسحق).

**الطائفة الثالثة:** قالوا: إن التبديل وقع في الشرح والتفسير لا في التنزيل، وهذا مذهب البخاري (المتوفى 870م) واختاره فخر الدين الرازي، ودليله على ذلك أن التوراة كتاب توزعت نسخه في مشارق الأرض ومغاربها، ولا يعلم عدد نسخها إلا الله، ومن الممتنع أن يقع التواطؤ على التبديل والتغيير في جميع النسخ، وهذا ما يشهد العقل ببطلانه، واحتجوا بقوله تعالى {قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين}[43].

**كيف نظر علماء التفسير إلى التوراة؟**

كان أول المفسرين المسلمين عبد الله بن عباس ابن عم الرسول، وكان يخالط اليهود ويعرفهم وكان معلمه كعب الأحبار وعبد الله بن سلام يسكنون مع الأنصار. يقول عبد الله بن عباس: «كان حي الأنصار في المدينة وهم أهل وثن مع حي اليهود وهم أهل كتاب، فكان اليهود يرون أن لهم فضلاً على الأنصار في العلم، وكانوا يقتدون بكثير من فعلهم وكان ذلك قبل الإسلام»[44].

لقد اتفق المفسرون مع اليهود في قصص الأنبياء، التي اتفقت فيها التوراة مع القرآن، وتكاد تكون متطابقة لولا بعض التفاصيل الزائدة في التوراة والتي لا تؤثر على جوهر القصة. كما أخذ المؤرخون المسلمون عن التوراة، كما فعل الطبري في كتابه (تاريخ الرسل والملوك)، لأن التوراة كتاب صادق لم يعتريه تبديل أو تغيير.

ولكن المؤرخين المسلمين قد شكُّوا بتفسير كعب الأحبار، الذي قال: إنه مكتوب في التوراة، أن حواء عوقبت بعشر خصال، وإن آدم بعشر خصال، وإن

الحية عوقبت بعشر خصال، وذكرها، فيعلق الجاحظ بقوله: «وهذه الخصال ليست في التوراة التي ترجمها إسحق بن حنين، فإن صحت الرواية عن كعب، فإنه إنما كان يعني كتب اليهود الأخرى»[45]. يعني التلمود وفيه قصص ملفقة وكاذبة. رفضها علماء اليهود أمثال سعدية الفيومي.

هل تأثر علماء الفرق الإسلامية بالتوراة؟ نعم، لقد تأثروا بها في عدة مسائل، منها:

**مسألة خلق القرآن**: هذه المسألة أثارها المعتزلة في زمن الخليفة المأمون وامتحن بها الناس وزيره أحمد بن أبي داود (المتوفى 243هـ/ 858م) وكان أحمد قد أخذ تلك المسألة عن بشر المريسي (كان يهودياً وأسلم) وبشر أخذها عن الجهم بن صفوان، والجهم أخذها عن الجعد بن درهم، والجعد أخذها عن أبان بن سمعان، وأبان أخذها عن طالوت بن أخت لبيد بن الأعسم وختنه، ولبيد هو اليهودي الذي سحر رسول الله (ص). وكان لبيد يقول بخلق القرآن وكان زنديقاً، وهو الذي أفشى الزندقة[46].

كانت مسألة خلق التوراة قد أثارها علماء اليهود، غمليال الشيخ رئيس المجمع في طبرية (30- 50م) وكان من أشهر شراح التوراة عند اليهود، وكان ينعت عندهم بالزعيم، ونقلها عنه تلميذه حية البابلي إلى مدرسة سورا.

ومن علماء المعتزلة أبو صالح مسعود بن قنديل الفزاري، كان في البصرة وكان له أصحاب من اليهود يعاشرهم ويعجب بهم، ويذهب مذهبهم في خلق التوراة، قال بهم شعراً[47]:

وجدنا في اليهود رجال صدق — على ما كان دين مريب
لعمرك إني وابني غريض — لمثل الماء خالطه الحليب
خليلان اكتسبتهما وإني — لخلة ما جد أبداً كسوب

هذه الأشعار تدل على مدى اختلاط اليهود بالمسلمين والصحبة بينهم في العيش المشترك.

## مسألة النسخ والبداء

لا يجيز اليهود النسخ في الشريعة، لأن ذلك يؤدي إلى البداء، والبداء لا يجوز على الله وهو أن يقرر فعلاً، ثم يبدو له أن يغيره. بينما يرى المسلمون أن النسخ جائز في القرآن، ألم يقل تعالى: {ما ننسخ من آية إلا ونأتي بأحسن منها}. وكان المسلمون يقولون بجواز نسخ شريعة موسى والاستعاضة عنها بشريعة محمد (ص) بدلاً منها. وقد كتب ابن الراوندي (المتوفى 298هـ/ 911م) حسب رواية أبي العباس الطبري، قال: «إن ابن الراوندي ما كان ليستقر على مذهب، ولا يثبت على حال، وقد صنف كتاب البصيرة، رداً على الإسلام لأربعمائة درهم أخذها فيما بلغني من يهود سامراء، فلما قبض المال رام نقضها حتى أعطوه مائة درهم أخرى، فأمسك عن النقض»[48]. وقد اطلع إمام الحرمين أبو المعالي الجويني على الكتاب فقال: «لقد نبغت شرذمة من اليهود تلقنوا من ابن الراوندي سؤالاً علمهم إياه: إذا سألكم المسلمون عن النسخ قولوا: قال موسى نبي بعدي، واستدلوا به الطغام والعوام من أتباعهم. وقالوا النسخ جائز عند المسلمين، ولكنهم قالوا: بتأبيد شريعتهم التي تصرم عمر الدنيا، فإذا سئلوا الدليل على ذلك رجعوا إلى أخبار نبيهم إياه بتأبيد شريعته»[49].

إن كان ذل صحيحاً، فإنه يدل على حرية التفكير، والمثاقفة وتبادل الآراء والحوار بين الديانات في العصر العباسي.

## مسألة التشبيه والتجسيم

لقد اعترضت علماء المسلمين في تفسيرهم لآيات فيها التجسيم باد مثل {يد الله فوق الجماعة} وآية {كل شيء هالك إلا وجهه} وآية {الرحمن على العرش استوى}. لم يتخلص المفسرون من هذه الاعتراضات إلا بالتأويل والشرح، مثل يد الله تعني قوته، ووجهه يعني ذاته، وأما استواؤه قال ابن حنبل: «الاستواء معلوم والكيف مجهول» وكان الحنابلة وعلماء الحديث يجيزون على الله الانتقال والنزول والصعود والاستقرار. قال الشهرستاني: «قالوا إن العرش يئط تحت الله، أطيط الخرز، ويستندون في ذلك على حديث رسول الله (ص) لقيني ربي، فصافحني، ووضع يده بين كتفي حتى شعرت ببرد أنامله في صدري»[50].

وكان بعض الحنابلة في بغداد، ينتظرون كل صباح يوم جمعة نزول الله، ويسرجون له دابة ليركبها. ذكر ابن بطوطة أنه حضر في يوم الجمعة المصادف 20 رمضان سنة (726هـ/ 1326م) صلاة الجمعة في مسجد بني أمية بدمشق، «فسمعت تقي الدين ابن تيمية كبير علماء دمشق يخطب على المنبر، فكان من جملة كلامه أن قال: إن الله ينزل إلى سماء الدنيا كنزولي هذا، ونزل درجة من درجات المنبر، فعارضه فقيه مالكي يعرف بابن الزهراء، وأنكر ما تكلم به، فقاموا إليه وضربوه بالأيدي والنعال ضرباً كثيراً، فسقطت عمامته، وظهر على رأسه طاقية حرير، فأنكروا عليه لباسها، وحملوه إلى دار عز الدين ابن مسلم قاضي الحنابلة، فأمر بسجنه وعزّره بعد ذلك»[51].

## مسألة الجبر والاختيار

يؤمن اليهود بالجبر، وأن الإنسان مسيَّر، وأن الله خالق لأفعال الإنسان، وكانت تجري مناظرات بين المسلمين واليهود حول ذلك. ذكر صلاح الدين الصفدي (المتوفى 1363م) في كتابه (الغيث) أنه حصل تناظر بين مسلم ويهودي حول الجبر، وكانت المناقشة تضطر كل جانب أن يكون على علم بدين مناظره، وكتابه الذي يستمد منه حججه، ويدفع به حجة خصمه، فكان ذلك من أسباب انتشار الثقافتين اليهودية والإسلامية[52].

كان اليهود يسكنون في بغداد في عدة أحياء في الكرخ والرصافة، وكان ديوان الجوالي هو الديوان الذي يستوفي الجزية من أهل الذمة، وكان ما يجبى من اليهود في بغداد حوالي 130 ألف درهم، في دروب اليهود في أوائل القرن الثالث الهجري، وكان صاحب الديوان يعفي اليهودي الفقير ويأخذ منه أقل من دينار، أما إن كان متوسط الحال فعليه دفع دينارين وإن كان غنياً فعليه دفع أربعة دنانير. وكان على اليهودي الذي يقف بين يدي صاحب الديوان أن يقف ذليلاً ويؤدي ما عليه[53]. وكان الزواج بالمرأة اليهودية مسموحاً به بين الرجل المسلم والمرأة اليهودية حتى وإن بقيت على دينها، وكان ذلك من أسباب التواصل الثقافي أو حوار الأديان.

## اليهود في بغداد

على أثر بناء بغداد (145هـ/ 763م) زاد التمازج والاختلاط بين المسلمين واليهود، وظهرت في بغداد طبقة من العلماء يعرفون بالغاؤونية (أي أصحاب الفتية من اليهود) وقد تأثروا بعلماء الفقه الحنفي، وصاروا يعتمدون على القياس، ويحكّمون المصالح المرسلة والاستحسان في شروحهم لتعاليم التوراة، ومع ذلك ظلت مدرسة سورا (الحلة) لها القدح المعلى في إنتاج الفكر اليهودي وصار رأس المدرسة يدعى (بالميثبة) وصار لرئيسها حق انتخاب رأس الجالوت.

وفي عام 763م، انتقل رأس الجالوت إلى بغداد، يقول الباحث اليهودي عزرا حداد: «وكانت مدرستا سورا وفومبديثة (الأنبار) توجهان اليهود في أمور دينهم، وقد أدرك اليهود عزاً وبسطة عيش في صدر الدولة العباسية، إلا أن حالتهم ساءت في خلافة المتوكل (235- 247هـ) وأجبر يهود سامراء وبغداد وبقية المدن العراقية على لبس الغيار، ومنذ ذلك الحين انحط مقام رأس الجالوت، وألغي نظام الوراثة وتدخل الغاؤون في أمر انتخابه»[54].

وفي أيام البويهيين والسلاجقة لحق الاضطهاد باليهود، فأغلقت مدارسهم الكبرى في سورا عام (1031) ومدرسة فومبديثة (الأنبار) عام 1034م، في زمن خلافة القادر بالله العباسي (991- 1031).

وقد اضطهد الحنابلة آخر رؤساء مدرسة سورا الغاؤون حي بن شريرا (المتوفى عام 1038) والحاخام صموئيل بن كوهين بن حنفي (المتوفى 1034م) وانتقل معظم علماء الغاؤون إلى الأندلس، وهناك ازدهرت الثقافة اليهودية. ولكن في عهد الخليفة العباسي المقتفي لأمر الله محمد (1136- 1160م) قضي على نفوذ السلاجقة وأعاد للدولة العباسية عزها، فعاد لليهود عزهم، لأن اليهود في دولة الإسلام هم عرب الأصل والجنس ولكن دينهم اليهودية، فعزهم مرتبط بعزّ العرب. وكان اليهود يعتقدون أنهم عرب وأن دينهم الدين اليهودي.

فتحت في بغداد مدرسة علمية لليهود هي ميثبة بغداد باسم الغاؤون يعقوب، وعهد برئاستها للحبر الرباني إبراهيم بن إسرائيل اللاوي (المتوفى 1152م) ومن بعده انتقلت رئاسة المدرسة إلى الحاخام علي بن إسرائيل اللاوي (1152- 1160) وازدهرت غاؤونية بغداد وذاع صيتها في العالم الإسلامي في زمن الربن

دانيال بن سليمان (1160- 1174) وازدهرت الفلسفة اليونانية والشروح التي اعتمدت عندهم هي شروح الفارابي وأبي بكر الرازي وابن سينا، وساهمت هذه المدرسة في الطب والرياضيات والفلك. وانتقلت رئاسة المدرسة إلى صموئيل بن رين إسرائيل الملقب بابن الدستور.

صار الدور العلمي والاجتماعي لرؤساء الميثبة وتولى الرين دانيال بن ألعازر بن هبة الله (المتوفى 1238) رئاسة الميثبة، فأعطاه الخليفة الناصر (1180- 1225) كتاباً للعهد جاء فيه (لما خرج دانيال بن ألعازر بن هبة الله وصار رأس الميثبة عوضاً عن ألعازر بن هلال بن فهد، درج على عادة أهل ملته ونحلته، واستحقاقاً لما خرج فيه بحسن طريقته فيهم وسلامة مذهبه، رسم الخليفة الناصر لدين الله، ترتيبه رأس ميثبة اليهود على عادة الدارج المشار إليه ابن الدستور رأس ميثبة بغداد من قبل وأن يكون لرأس الميثبة حق النظر على جميع الأماكن التي جرت عادته بتوليها والتصرف فيها، وله الحق أن يتميز عن نظرائه في أشكال اللبسة التي عهدت لأمثاله، وسبيل طوائف اليهود وحكامهم بمدينة السلام (بغداد) وأكناف العراق، وأن يخرج إليه من الرسوم التي جرت العادة تقديمها له في الأماكن التي كان يتصرف فيها من غير معارضة له، مع التزامه ومحافظته بالامتثال بواجب الإعظام والإجلال، إن شاء الله تعالى وبه الثقة. كتب سنة 605هـ/ 1209م).

اهتم دانيال بفتح المدارس وترميم البالي منها، وحسَّن المناهج وأصبحت تدرس ما يدرس في جامعة المستنصرية، وكان يدرس فيها أولاد النصارى والمسلمين، الرياضيات والفلك والفلسفة وكتب الطب، وبلغ عدد مدارس بغداد اليهودية عشر مدارس.

بعد أن تولى رأس الميثبة هبة الله بن أبي الربيع وكان في الستين من عمره (المتوفى 1242) وبعده تولى أبو الفتح إسحاق بن الشويخ (المتوفى 645هـ/ 1247م) وقد جاوز الثمانين، وكان حبراً جليلاً، وعالماً بأحكام التوراة، وعارفاً بعلم النجوم واشتغل بالنحو العربي والعبري وله نظم مليح بالعربية. وكان فوق كل هذا جميل الخط والأخلاق، وتولى من بعده رأس الميثبة دانيال بن صموئيل بن أبي الربيع (650هـ/ 1252م) ثم تولى من بعده علي بن زكريا الأربلي (عام

656هـ/ 1258م) وفي زمنه دخل المغول بغداد، وفي هذه السنة أسدل لستار على غاؤونية بغداد ومدارسها التي ازدهرت عشرات السنين.

ولكن الأستاذ المؤرخ الثقة عباس العزاوي ذكر أنه جاء في كتاب (معجم الألقاب) لابن الفوطي، جاء اسم فخر الدولة هارون بن يوسف بن دانيال الداوودي رأس الجالوت سنة (706هـ/ 1306م)، ثم لم يذكر لليهود تاريخ بعدها.

### أشهر مدارس بغداد اليهودية

كان اليهود يشكلون ثمن سكان بغداد، ويقدرون بـ 60 ألف يهودي، وكانوا يسيطرون على تجارة التوابل والحرير، والحرف الهامة مثل صناعة الزجاج وصياغة الذهب والتنجيم والطب، ومنذ بداية القرن الرابع الهجري بدأت المدارس اليهودية تأخذ الطابع العلمي، وكان يشرف عليها رأس الميثبة. إلا أن المدرسين كانوا من أهل العلم المدني. ومن هذه المدارس:

1)المدرسة الكبرى: وتقع في الرصافة ويشرف عليها رأس الميثبة، وازدهرت في زمن الربي صموئيل بن علي اللاوي، وقد اشتهرت بدراستها اللاهوتية، وكانت تقع في درب اليهود.

2)مدرسة الكرخ: وكان يشرف عليها الربي حنينة بن علي اللاوي، نائب رأس المثيبة، وقد خصصت للطب والرياضيات والفلك.

3)المدرسة التي كانت في باب النوبي، وكان يشرف عليها الربي دانيال بن سعيد البغدادي وكان طبيباً حاذقاً في المعالجة والتدريس، وتعتمد على منهج أبي بكر الرازي في التدريس.

4)مدرسة درب اليهود، وكان يشرف عليها الحبر العالم العازر بن يحيى العالم الرياضي والفلكي. وقد اعتمدت على كتب ثابت بن قرة فلي الرياضيات وكتب البتاني في الفلك.

5)مدرسة الكرخ الفلسفية، وكان يشرف عليها ألعازر بن صمح رأس المجمع العلمي. كان فيلسوفاً من أتباع المدرسة المشائية من أتباع أرسطو، وله شروح على كتب ابن سينا في الشفاء، وكان بالإضافة إلى اشتهاره بالعلم الرياضي حسن الترتيل للتوراة، وقد تعلم في مدرسة القدس وطبرية.

6)مدرسة الرصافة قرب جامع الخلفاء: كان يشرف عليها الربي حسداي الملقب بفخر الأحبار، وكان صوفياً وله إسهامات في تكوين مذهب (القبالاة) وله صداقات مع كبار متصوفة عصره، أمثال الشيخ عبد القادر الكيلاني والشيخ عدي بن مسافر والشيخ عقيل المنبجي، وكانوا يحترمونه. وكان من شراح كتب أبي حامد الغزالي.

7)المدرسة التي كانت عند باب الزعفرانية ويشرف عليها الربي حجاي، وكان يجيد العربية شعراً ونظماً وله كتابات في النحو العبري. وكان من أنصار مدرسة البصرة ويأخذ بمنهج سيبويه.

8)مدرسة طاق الحراني في الجانب الغربي: كان يشرف عليها الربي عزرا بن داود صاحب سر الميثبة، وكانت مختصة بشروح التوراة والتلمود، وعلم الفلك والتنجيم. وله شروح على كتابات أبي معشر الفلكي.

9)مدرسة سويقة الورد: كان يشرف عليها الربي إبراهيم بن كوهين ويكنى أبا ظاهر، وكانت له صلات بالفيلسوف اليهودي موسى بن ميمون أثناء محنته.

10)مدرسة شارع الأنبار قرب مدينة المنصور من جهة الأنبار: كان يشرف عليها الربي زكاي بن بستناي وكان منجماً يعرف بمنجم بغداد، ودستور المنجمين. وضع عدة مؤلفات ولكن معظمها ضاع.

وكان هناك من العلماء اليهود بعض العلماء يعرفون بالمعتكفين أو المنقطعين للتدريس، وهم صوفية اليهود القبالاة، وكانوا يجتمعون في مجلس كبيرهم في غاؤون يعقوب، وكان اتصالهم برأس الجالوت مباشرة في زمن الربي دانيال بن حسداي، الملقب بسيدنا ابن داود، وحتى المسلمين يخاطبونه بسيدنا.

وكان في بغداد حوالي 28 كنيساً موزعة في أنحاء بغداد، معظمها في الجانب الشرقي من بغداد (الرصافة)، والقسم الآخر على شاطئ دجلة الغربي (الكرخ).

كانت كنيسة رأس الجالوت تقع في باب الرصافة وتتوسط درب اليهود، وهي كنيسة ضخمة فيها أساطين من الرخام الأبيض والملون، وتزدان رؤوس الأساطين بكتابات من المزامير وبحروف من ذهب بالخط العربي والعبري. وفي صدر الكنيسة مصطبة يصعد إليها بعشر درجات من رخام وفيها الأريكة المخصصة لرأس الجالوت.

إذاً، اليـهود كمـا وصفتـهم مـن قبـل، ذوو سـلوك جيـد ومعاملـة حسـنة، مـع جوارهـم مـن العـرب والمسـلمين، والسـؤال الـذي يطـرح: لمـاذا يحـب المسـلمون النصارى أكثر من اليهود؟ نجد الجواب عند الجاحظ الذي قال: «الصفات التي بها صـارت النصـارى، أحـب إلـى العوام مـن المجوس، وأسـلم صـدوراً عندهـم مـن اليـهود، اعتقـادهم أن النصـارى أقـرب مـودة وأقـل غائلـة وأقـل كفـراً وأهـون عذاباً»[55]. ثم يقول: «وليس النصارى كاليهود، لأن اليهود كلهم من بني إسرائيل، إلا القليل، فلم يختلط فيـهم غـيرهم، لأن مناكحتـهم مقصـورة فيـهم ومحبوسـة عليهم، وعقول أسلافهم مردودة على أخلاقهم، ثم اعتبروا بقولهم لنبيهم 'اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة' حين مروا على قوم يعكفون على أصنام يعبدونها»[56].

مـن نصـوص الجـاحظ نـدرك أن الفتـى اليهودي يتعلم اشـكال السـلوك التـي تتقبلها الجماعة، ويبنـي الشـخصية النموذجيـة التـي ترغـب بهـا الجماعـة، وكـانت المدارس اليهودية تميز بين طريقين للتفاعل بين الفرد ووسطه الثقافي.

الطريق الأول: طريق الأشكال الثقافيـة العاديـة التـي تحبذهـا الجماعـة فـي حياتها المعاشية.

الطريق الثاني: تمثل الشخصية النموذجية التي يرغب فيها المجتمع اليهودي. كالأنبياء والمصلحين، وهذا ما كانت تحققه المذاهب الصوفية (القبالاة)[57].

## الفرق والمذاهب اليهودية

أثرت الثقافة الإسلامية في تكوين الثقافة العبرية لأن الثقافة الإسلامية هـي الثقافـة السـائدة، ثقافـة الدولـة والمجتمـع الإسـلامي الصـاعد، وكـانت المنـاظرات التـي تدور بين الخليفة وأهل الذمة تدوَّن وتحمـل إلـى دكاكين الوراقـين، ثـم تنسـخ وتـذاع فـي الأوسـاط العلميـة والثقافيـة الراقيـة، وقـد أعطانـا الرحالـة المسـعودي صورة عن اليهود في دار الإسلام، قال: «الإسرائيليون هم الجمهور الأعظم فهم الأشمعث، وكان منهم أبو كثير يحيى بن زكريا الكاتب الطبراني الأشمعثي المذهب (المتوفـى 321هـــ/ 933م) وقـد جـرت بينـي وبينـه منـاظرات كثيرة فـي القـدس حول نسخ الشرائع، ومع يهوذا ابن يوسف المعروف بأبي الثناء تلميذ ثابت بن قرة الصـابئي فـي الفلسـفة والطـب فـي الرقـة مـن ديـار مضـر، ومعـه سـعيد بـن علـي

المعروف بابن أشلميا بالرقة، وجرت بيننا مناظرات حول الحشر والمعاد. وفي بغداد جرت مناقشات بيني وبين يعقوب بن مردويه، ويوسف بن قيوما في بغداد. أما إبراهيم التستري اليهودي فكان من أحذق من تأخر من اليهود في النظر وأحسنهم تصرفاً فيه، شاهدناه في بغداد بعد عام (330هـــ/ 911م) وكان منهم داود المعروف القومسي كان مقيماً في بيت المقدس ولكني لم اشاهده»[58].

ومن الشخصيات العلمية التي لقيها المسعودي سعيد بن يعقوب الفيومي (892- 942)، ولد في الفيوم عام 892 وتعلم في الفسطاط والإسكندرية، وكانت الفيوم مدينة مصرية تقع على شاطئ النيل فيها كنيسان يهوديان الأول كنيس اليهود الشاميين والثاني كنيس اليهود العراقيين (القرائيين). تزوج سعيد من الفيوم ورحل إلى العراق، ودرس في مدرسة سورا. وكان من كبار العلماء ترجم التوراة إلى العربية ترجمة أخملت الترجمات التي سبقتها والتي أحدثت بعدها. وكان المسيحيون الأقباط والروم الملكية يستخدمونها في كنائسهم لجودة عباراتها في العربية، ووضع معجماً باللغتين العبرية والعربية، وكان سعدية الفيومي يميل إلى مذهب القرائيين، ويكره الربانيين أتباع التلمود وهو القائل عنهم «لو كنت أحمل أرباب التلمود في بطني، لقتلت نفسي وقتلتهم معي». كان سعدية قد تأثر بعلماء الكلام المسلمين خصوصاً المعتزلة منهم، بل إن القرائيين يطرحون الأصول الخمسة للمعتزلة كالعدل وحرية الإرادة وتحكيم العقل في الشريعة، وتنزيه الله عن التجسيد والتشبيه، والإيمان باليوم الآخر، وله كتاب عنوانه (الأمانات والاعتقادات) طبع في ليدن عام 1880م، فيه أفضل ما وصفه فلاسفة اليهود حول التوراة وطريقة التأويل والشرح والتفسير، وكان مثار إعجاب الفيلسوف موسى بن ميمون الذي قال «لولا سعدية لاندثرت التوراة».

أصبح سعدية مديراً لمدرسة سورا عام 928م، واصبح (جاؤوناً) وأبدى نشاطاً فلسفياً ولاهوتياً، وتعرض فيه للتلمود وكان يسفه علماء التلمود (الربانيين) وكان يشترك معهم المسلمون في النقاش. وقد ناقشه المسعودي في مدينة سورا. كثر أتباعه في سورية وشرق إيران وانتقلت نحلتهم إلى القرم وإلى الأندلس. ذهبت جماعة منهم عام 950م، ولكن يهود الأندلس قاوموهم برئاسة الحاخام الأكبر يهوذا بن عزرا الذي قدم شكوى ضدهم للملك ألفونسو ملك قشتالة الذي أمر بطرد القرائين (1150م) من كل الأندلس، وانتشروا في المغرب، وعظم شأنهم بين

الشبيبة اليهودية المثقفة وصار معظمهم من أتباع فلسفة ابن رشد وابن باجه، وكان المترجمون اليهود منهم، وهم الذين ترجموا الفلسفة العربية الإسلامية إلى اللاتينية[59].

**والسؤال المطروح: من هو مؤسس مذهب القرائين؟**

حدث خلاف بين زكي بن داود رأس الجالوت وعنان بن داود (المتوفى 790م) وكان يكره الربانيين، وكان متعمقاً في شريعة موسى، وفي الفقه الإسلامي، وكان يرى أنه الأولى في رئاسة الميثبة، فعقد اليهود مجلساً في بغداد بحضور الأخوين بصير بن نحمن (عميد مدرسة سورا) وداود بن نحمن (عميد مدرسة فومبديثة) ولكن المجلس وقف ضد ترشيح عنان بن داود، وتبعه كثير من العلماء الربانيين أمثال أفاريم وأليشع المعلم، والرابي حنوكة القرطبي، وكانوا من أشهر علماء اليهود في عصرهم. ونصبوا عنان بن داود رأساً للميثبة بدلاً من بصير بن نحمن، وكادت أن تجري فتنة في بغداد وفي بقية مدن العراق الأخرى، فرفع الأمر إلى الخليفة المنصور، فأمر بحبس عنان بتهمة العصيان على رأس الجالوت، وهو صاحب الشريعة على أبناء ملته، وفي السجن التقى عنان بالإمام أبا حنيفة النعمان وكان صديقاً له، فنصحه بالابتعاد عن العراق، فذهب إلى القدس[60].

وفي القدس شيَّد عنان كنيساً خاصاً بالقرائين، ووضع كتابين، كتاب (الفرائض) وكتاب (الفذلكة) ضمنهما فلسفة القرائين، واتهم الربانيين بتزييف ترجمة التوراة وتفسيرها. ومن مقالات القرائين:

-تركهم لقواعد التقويم القديم في تعيين مواسم الأعياد اليهودية، والشهر عندهم لا يثبت إلا برؤية الهلال كما هو الحال عند المسلمين، من هنا جرى الاختلاف بين أعيادهم وأعياد اليهود الإسرائيليين، وهذه مسألة خطيرة في الفكر اليهودي.

ولم يتشددوا كثيراً بحرمة السبت رغم قول التوراة «ليلزمن كل مكانه ولا يخرج أحد من مكانه في اليوم السابع» (سفر الخروج 16: 29).

وكان الربانيون لا يستسيغون طبخ الطعام وإشعال النار ولا إضاءة المصابيح ولا حتى استدعاء الطبيب يوم السبت. وكان القراؤون يتساهلون بذلك. قال المسعودي «الإسرائيليون (الأشمعت) هم الجمهور الأعظم يراعون رؤية الهلال وعدد الشهور وحصروا أيامها في تقاويم خاصة ويسمون ذلك العبور»[61].

ومن حكم القرائين: «إن الجسد إذا صلح كفاه القليل من الطعام، وإن القلب إذا صلح كفاه قليل من الحكمة». وقولهم: «كم من سراج أطفأته الريح، وكم من عابد أفسده العجب» ولهم حكمة من أقوال النبي أشعيا يرددونها دائماً: «يا بني إسرائيل اسمعوا أقوالي فإن قائل الحكمة وسامعها شريكان وأولاهما بها من حققها بعمله». وعن مذهب القرائين والفلسفة الإسلامية ظهر مذهب (القبالاة) الصوفي اليهودي.

كان يعيش في بغداد عام 1160م حوالي أربعين ألف يهودي في زمن رأس الجالوت علي بن إسرائيل اللاوي (1152- 1160) وفي زمنه انتشر العلم والمدارس اليهودية مضاهية لمدرسة المستنصرية، وعمت الثقافة اليهودية كل طبقات المثقفين المسلمين والمسيحيين. ذكر ابن خلكان (1221- 1282) «أن أبا الفتح موسى ابن الفضل الملقب كمال الدين الفقيه الشافعي، كان ملماً بشروح التوراة، وكان أهل الذمة من اليهود يقرأون عليه التوراة، وكان يشرح لهم الأسفار شرحاً يعترفون أنهم لا يجدون من يوضحها مثله»[62].

وكان لأعياد اليهود دور كبير في تلك المعرفة، حيث تقوم زيارات بين أفراد المجتمع المسلم واليهودي، يتعرف فيها الفقهاء على تاريخ تلك الأعياد ومواعيدها. ومن تلك الأعياد والزيارات إلى قبور الأنبياء والصديقين، كانت تحصل المعرفة.

1)عيد رأس السنة: يقع في الأيام العشرة الأولى من تشري (تشرين الأول) وتسمى أيام التوبة أو عيد المظلة، وهناك عيد نزول التوراة أو عيد العنصرة، يقع في أوائل شهر حزيران.

2)عيد الكفارة: تتلى في هذا العيد فصول من التوراة من سفر حزقيال وتوقد قناديل القبر في اليومين الأولين من عيد رأس السنة، واليوم العاشر من عيد الكفارة، وتقام الأفراح والمهرجانات قرب مرقد النبي حزقيال على شاطئ الفرات في (ذي الكفل) ويحج إليه اليهود من كل مدن العراق وفارس، ويحضر هذه الاحتفالات رأس الجالوت ورأس الميثبة، ويقيمون الخيام في العراء، ويقيم الأعراب سوقاً عظيمة يبيعون فيها كل أنواع السلع للحجاج والزوار، ومكتبة النبي حزقيال تهتم به طائفة من المجاورين (رجال التصوف اليهودي) يشرفون على المكتبة. وتقبل الهدايا ويكونون مهتمين بالزوار والحجاج الآتين من كل فج عميق. يقول بنيامين التطيلي: «ولمرقد النبي حزقيال (ذي الكفل) مكانة عند المسلمين،

وإليه يهدون الهدايا الثمينة، وينحرون الكباش في عيد الكفارة، ويسميه اليهود والمسلمون (دار المليحة)». ويقول ياقوت الحموي: «في أرض بابل قرب حلة دبيس بن مزيد شرقي قرية يقال لها القوسنات (دار الميلحة) التي بها قبر النبي حزقيال النبي بذي الكفل، يقصده اليهود من البلاد الشاسعة للزيارة والعمرة، وللمرقد أوقاف كثيرة من بساتين وضياع وأكثرها في قرية القوسنات، على بعد ثلاثة مراحل من الحلة، ويسكن القرية حوالي 300 يهودي، وبها قبور الصالحين الربيين، بابه وهناء وسينا ويوسف وابن حامه ولكل قبر من هذه القبور كنيس. ويزور اليهود مرقد الإمام علي (ع) في النجف إذ يقيم في الكوفة سبعة آلاف يهودي ولهم كنيس كبير جوار مسجد الإمام علي»[63].

أما بالنسبة لأعياد السبت ليهود بغداد، ذكر الأديب علي بن محمد الكازروني (المتوفى عام 697هـ/ 1298م) في مقاماته: «على أن الأيام كلها كانت تمضي أفراحاً، والناس يبدون نحوها ارتياحاً، ففي كل سبت عيد جديد يخرج الناس فيه إلى الرياض والأزاهير، لسماع صوت الشحارير، والغلمان كالولدان، والجواري كالحور الحسان، ما بين أهيف وأحور وأكحل وأغيد وأعطر»[64].

في البدر من وجنته نكتة وفترة في العين من طرفه
إذا مشي جاذبه ردفه كأنه يمشي إلى خلفه

وقال في وصف فتيات اليهود:

وتنال منك بحد مقلتها ما لا تناله بحدها النصل
إذا نظرت إلى محاسنها فلكل موضع نظرة نبل

## قبور الأنبياء والصديقين في العراق

لها في العراق ومصر وبلاد الشام مواسم تدعى مواسم زيارة الترب، لها عند المسلمين مواسم في الأعياد (عيد رمضان وعيد الأضحى، وعيد المنتصف من شعبان) ويطلق على هذه الزيارات، يقول الكازروني: «موسم زيارة الترب، إليها المنقلب، يركب الوزراء والأمراء، والصدور والكبراء، في موكب مشهر إلى الرصافة، وهي من مدن ولاة الخلافة، فيجتمعون بها للقراءة والدعاء، وأهداء

الثواب للخلفاء. فإن كان الليل اجتمع المتصوفةوالفقهاء، وأوقدت الشموع، وقرأ القراء، وساح الوعاظ في الكلام، والإحياء إلى آخر الظلام. فإذا أسفر الصباح، بادر المؤذن بالفلاح، وزع على المذكورين من الأطعمة وأطايب الطعام والغذاء، ما يستغرق حد الإكثار ويعم ذوي الاقتدار»[65].

ولليهود قبور للأنبياء والصالحين يزورونها كالمسلمين، في أوقات معلومة، وهي كالحج عند المسلمين للقبات المقدسة، ومن هذه القبور خارج بغداد:

قبر النبي دانيال:

يوجد هذا المزار في بلدة خوزستان (قرب قلعة شوشتان) على نهر الكارون في الأهواز، عاش النبي دانيال على ما يزعمون في قصر الملك داريوس في مدينة شوستر (اصطخر) وعاش معه عزرا بن سراية واستير، وكان يعيش في المدينة آلاف اليهود وعندهم أربعة عشر كنيساً في أحدها قبر النبي دانيال، وقد شاهد القبر الأثري الإنكليزي لايارد عام 1839، عند زيارته لبلدتي شوشتر ودزفول، وذكر أنه في مدينة خوزستان يمر نهر الكارون ويقسم المدينة إلى قسمين:

القسم الشمالي: هو القسم المعمور فيه المتاجر وبيوت الموسرين من ايهود. وفيه قبر النبي دانيال.

القسم الجنوبي: يسكنه فقراء اليهود، وطالبوا أن يكون قبر النبي دانيال عندهم، لأنه سبب غنى اليهود في القسم الشمالي. فأمر الملك سنجر بن ملكشاه السلجوقي (1140- 1157) بأن يذرع النهر من كلا الجانبين وأن يوضع الناووس (القبر الحجري) في وسط النهر على جسر ويعلق بسلاسل من حديد، وأن يقوم عنده مصلى يؤمه اليهود والمسلمون لإقامة الصلاة. وفعلاً شاهده الرحالة اليهودي فتاحية، فقال إن الناووس مصنوع من نحاس له بريق الزجاج وأنه يعلق على ارتفاع عشرة أذرع عن الماء، وتحت الناووس تعيش أسماك في خياشيمها أخزمة من ذهب. وفي عام 1393م، عندما زار المدينة تيمورلنك، أمر بأن ينقل التابوت إلى سمرقند كرسي مملكته.

**قبر النبي حزقيال**

يقع مزار النبي حزقيال في مدينة الحلة، ويعرفه المسلمون باسم (ذي الكفل) وسميت الحلة لأن الناس حلوا بها، وتقع على الضفة الشرقية لنهر الفرات،

وصارت المدينة القديمة الحلة الغربية. ووصل الجانبان بجسر من القوارب، وكانت طريق الزوار تعبر الجسر القائم فوق (سورا) وعندما اتسعت الحلة الجديدة وشيد جسرها، ترك الزوار الطريق القديم واتخذوا طريق الكوفة، المار من الحلة، وكان أهل الحلة يعتقدون أن المهدي المنتظر اختفى في سرداب سامراء عام (264هـ/ 878م) وسيظهر في الحلة[66]. وعندما مرَّ الرحالة الإيطالي بترو دلافاله بخرائب بابل عام 1620م، قال: اقترح عليّ زيارة قبر النبي حزقيال في الكفل لمشاهدته. لكنه لم يذهب إليه. وقد ندم على ذلك كثيراً[67]. ولكن الرحالة الفرنسي جان باتيست تافرييه (1605- 1689) زار بابل عام 1632 قال: ويمر كثير من اليهود الأغراب ببغداد في طريقهم لزيارة مرقد النبي حزقيال في ذي الكفل، وشاهد المرقد الرحالة الإنكليزي لوفتس عام 1853، قال: على الضريح قبة والسقوف مزينة بتوقيعات رمزية من ذهب وفضة، وفي أحد أركان الضريح أسفار موسى الخمسة بالعبرية، قيل إن حزقيال كتبها بنفسه، وفي المزار مصباح دائم الاشتعال، يقولون إن النبي حزقيال أوقده بنفسه[68].

كانت بلدة سورا بقرب الحلة، وكانت مقر رأس الجالوت، قبل الانتقال إلى بغداد، في زمن الخليفة المنصور. وفي مدينة سورا من قبور العلماء والرجال الصالحين أمثال الربي شريرة بن حنية (910- 1000م) وخلفه ولده الربي حي بن شريرة (المتوفى 1034) آخر رؤساء الميثبة، وفي الحلة قبر الربي مئير والربي زعيري بن حامة.

**قبر النبي عزرا بن سراية**

يوجد هذا القبر في بلدة سمرة في أرض ميسان، قيل إن عزرا توفي فيها أثناء قدومه من القدس لمقابلة الملك أرتحستا، وبني عند قبره كنيس يهودي وجامع للمسلمين لأنهم يسمونه النبي عزرا. قال يهوذا بن سليمان الحريزي صاحب المقامات العبرية إن قبر عزرا الكاتب في موقع بلدة تدعى سمرة، وفي رواية ياقوت الحموي أن قبر النبي العزير في قرية هورتا من أعمال نابلس. ولكن الرحالة اليهودي فتاحية الذي زار القبر عام 1180م، قال إن القبر في بصرة بابل، وقد بني عليه الربي حنينة البغدادي هذا القبر وهو غير قبر عزرا بن سراية، الكاتب المشهور. ويصف المزار الرحالة اليهودي الأندلسي بنيامين التطيلي

الذي زار القبر عام 1163، قال: يقع على الضفة الغربية من قرية العزير وهو مزار اليهود منذ قرون، كما ورد أنه مات في بابل في مكان يدعى زمزومو عند دجلة السفلى. ويقول زكريا بن محمد القزويني (المتوفى 1283): «إن اليهود كانوا يقومون على خدمة المرقد» ويرى الرحالة الإنكليزي ريج Rich الذي زار المرقد عام 1808، قال: «في 27 نيسان وصلنا موقعاً يزوره اليهود، إنه بناء يشبه المسجد، ويقوم على أكمة تكونت عند انعطاف نهر الفرات، وعنده تجمع قليل من الأعراب، وأقاموا عنده قرية ذات أكواخ من قصب، وفيه المزار مكسوة بالقاشاني الأخضر، ومن باب خفيض دخلنا الغرفة، التي تضم المرقد الذي يقدسه اليهود، والغرفة ذات شبابيك عالية صغيرة، وسقف القبر مصنوع من خشب، وأبعاد الغرفة 8× 4 من الأقدام والارتفاع 6 أقدام، والمسلمون يسمون المرقد بالعزير، ويجعلونه ابن أخت النبي موسى، والقبة الحالية بناها الصيرفي الخواجة يعقوب البصري قبل ثلاثين سنة[69]، وكان صرافاً يهودياً لوالي بغداد سليمان باشا، بنى القبة بعد حصار كريم خان للبصرة عام 1775م.

أما الأستاذ عباس العزاوي فلديه مخطوطة تذكر بأن باني تربة العزير الحالية هو الوزير أحمد باشا بن حسن باشا فاتح همذان أيام رجوعه من غزوة لبني لام (الطائية) عام 1151هـ/ 1685م.

### قبور علماء اليهود في الأنبار

كانت الأنبار تدعى بالعبرية فومبديثة أي فم البادية، وفيها مدرسة لتعليم الشريعة منذ زمن العلامة الرابي بستناي رأس الجالوت عند الفتح الإسلامي عام 635، وفيها قبره. ذكر بنيامين التطيلي أنه كان يعيش فيها عام 1163م، نحو ألفي يهودي وفيها قبر كوهين بن حفني (المتوفى 1034م) وعنده كنيس، وبعد موته انتقل اليهود إلى الأندلس.

## الفرق والمذاهب اليهودية

يحاول معظم المؤرخين المسلمين، عن قصد وتصميم، أن يقولوا إن الشريعة اليهودية منسوخة بشريعة محمد (ص). وبعد تهجير اليهود من جزيرة العرب

تكونت صورة نمطية للرجل اليهودي عند المسلمين، إنه خانع وذليل، وإنه صاحب غدر ومكر لا يؤمن جانبه، وقليل هم المؤرخون العرب والمسلمون الذين أنصفوا اليهود. من هنا كان دور اليهود الحضاري مغيَّب عن عمد وتصميم، مما ولد فعلاً لدى اليهود شعور بالدونية، وصاروا يعرفون أنفسهم بأصحاب الدين الذليل، وأفضل المؤرخين الذين تعرضوا للفكر اليهودي هو المؤرخ محمد بن عبد الكريم الشهرستاني (1076- 1153) صاحب كتاب (الملل والنحل)، وقد فصل بفرق اليهود في العراق في عصره:

**1)الفرقة العنانية**

نسبها إلى العالم اليهودي عنان بن داود، الذي طالب بأن يكون رأس الجالوت وأنشأ مذهب القرائين، الذين صاروا يخالفون اليهود في السبت والأعياد، وينهون عن أكل لحوم الطيور والظباء والسمك الجري والجراد، ويذبحون الحيوان على القفا، ويصدقون المسيح في مواعظه على الجبل ويقولون: إنه لم يخالف التوراة البتة، إلا أنهم لم يقولوا بنبوته ورسالته.

ومنهم من يقول: إن المسيح لم يدع أنه نبي مرسل، وليس هو من بني إسرائيل، وهو ليس صاحب شريعة ناسخة لشريعة موسى، بل هو من أولياء الله المخلصين، العارفين بأحكام التوراة، واليهود قد ظلموه، لأنهم لم يعرفوا حقيقته، وحقيقة دعواه، وأنهم لم يقتلوه وإنما قتلوا رجلاً آخر[70].

**2)الفرقة العيسوية**

تنسب هذه الفرقة إلى أبي عيسى إسحق بن يعقوب الأصفهاني ولقبه عند أتباعه (عوفيد ألوهيم) أي عابد الله، ظهر في زمن المنصور، وكان ابتداء دعوته في زمن مروان بن محمد (الملقب بالحمار) واتبعه كثير من اليهود وحارب ضد المنصور الخراسانية في الري، وقتل منهم جماعة كثيرة، ثم قتل وتفرق أصحابه في البلاد، وكانت دعوته تقول: إن الله أرسله ليخلص بني إسرائيل من أيدي الأمم العاصية والملوك الظالمين، وحرَّم في كتابه الذبائح كلها، ونهى عن أكل كل لحم على الإطلاق، طيراً كان أم بهيمة، وأوجب عشر صلوات، وخالف اليهود في أمور كثيرة من أحكام التوراة[71]. يخيل إلي أن دعوتهم كانت دعوة مانوية أو أنها

مزيج من الدعوتين اليهودية المانوية، ليكسب جماهير بلاد الري، وأنه كالمسيح المنتظر في مذهب القبالاة.

### 3)الفرقة اليوذعانية

نسبوا هذه الفرقة إلى يوذعان الهمذاني، كان رجلاً زاهداً، كثير الصلاة ينهى عن أكل اللحوم وشرب الأنبذة، وكان يزعم أن للنبوة ظاهراً وباطناً، وتنزيلاً وتأويلاً، وكان يميل إلى مقولة المعتزلة، يتحكيم العقل في الشريعة، وأن العبد خالق لأفعاله، وأن إرادته حرة، وينفي التشبيه عن الله[72]، وكان لا يدعو إلى الخروج على الحاكم.

### 4)الفرقة الموشكانية

انشق أصحاب موشكان الهمذاني عن جماعة يوذعان. وجوَّزوا خروج المظلوم لقتال الظالم، فقاتلوا المسلمين في مدينة قم وقتلوا وقتل منهم خلق كثير. قالوا: إن محمداً كان لناس كافة وإلى العرب وسائر الناس ما عدا اليهود، لأنهم أهل كتاب التوراة، وقد استمد القرآن منه الكثير.

وقالوا: إن الله خاطب الرسل بواسطة ملك اختاره هو جبريل. وكل ما في التوراة من وصف هو وحي منزل من ذلك الملك، ولا يجوز وصف الله بصفة البشر، وإن الذي كلَّم موسى في العليقة، وفوق الجبل هو ذلك الملك جبريل، وليس الله. لأن الله لا يكلم بشراً تكليماً. وإن الله لم يكتب التوراة بيده، ولم يستو على العرش استقراراً، وليس له صورة آدم.

كان الرين بنيامين النهوندي منهم، لكنه قال: إن الآيات المتشابهات في التوراة كلها مؤولة، لأن الله لا يوصف بأوصاف البشر، ولا يشبهه شيء من المخلوقات[73].

من دراسة أفكار هذه الفرق الأربع، نجد أن هناك أفكاراً لازمت اليهود طوال تاريخهم المديد، هو أنه أصحاب حضارة، ولهم فضل على المسيحية والإسلام، ولولا التوراة ما كان الإنجيل ولا القرآن.

وعندهم فكرة ملازمة لشعورهم اللاجمعي، وهي يجب العمل على خلاص اليهود من الظلم الذي حاق بهم، وهم بانتظار الإنسان المنقذ، وما الثوار اليهود

الذين مروا بنا إلا أصحاب ضمائر قلقة، ويحملون أحلاماً لعالم غير متحقق، وعندما تعرف الشباب اليهودي وعلماؤهم على الفكر الصوفي الإسلامي، خرجوا عن الفكر اليهودي التقليدي، وصاروا يتحدثون بمصطلحات التصوف الإسلامي والفكر الباطني الإسلامي، كالعدل ونفي الظلم، ودون علم منهم أخذوا بفكرة المهدي المنتظر وكيفوها مع فكرة المسيا المنتظر، وأصبحت تعني في فكرهم الصوفي (القبالاة) الرجل العارف الصديق، وخلق نماذج من الثوار جدد.

## أثر التصوف الإسلامي في القبالاة

القبالاة Kabalah كلمة آرامية تعني ما يتلقاه الخلف عن السلف، ولكن هذا المصطلح تغير معناه وصار يعني ما يتلقاه العارف عن ربه.

فكر القبالاة مزيج من الأفكار اليهودية والغنوصية الشرقية، والتصوف الإسلامي. وجوهر المذهب ولبه، أن الله كائن مطلق، وأن الإنسان يتوصل إليه ويتحد به عن طريق المحبة، ودوام التفكير والتأمل. ويصبح العلم الرباني نور يقذفه الله بقلب العارف بالله، ويصبح شخصية لها تأثير في أحداث الكون، فهو يمشي على سطح الماء، وقد يطير في الهواء، ويصبح الشخصية الفريدة التي وعدت بها التقاليد الشفوية اليهودية، المسيا المنتظر، وسيعم السلام العالم في زمنه، وسيختفي البكاء والأنين، وتطلب الشعوب كلها الدخول في الدين اليهودي، وتختفي الحروب من على ظهر البسيطة، ويرعى الذئب مع الغنم والعجل مع الشبل، والطفل الصغير يسوقها إلى المرعى.

وضع اليهود عدة كتب تتضمن تعاليم فلسفة القبالاة وأسرارها منها:

-كتاب الخلق (سفر جزيرا): وهو مجموعة من الأحاديث والخطب، رويت على لسان النبي إبراهيم (ع) دون الكتاب بالعربية ولكن بأحرف عبرية.

-كتاب الاستنارة (سفر هازوهر): كتب بالآرامية ويعتقد أنه من جمع وتأليف موسى بن عزرا اللاوي الأندلسي (1250- 1305م)، والكتاب فيه أسرار الحروف، وهو مأخوذ من كتابات محمد عبد الله بن مسرة القرطبي، ومنه استمد البناة الأحرار (الماسونيون) عقيدتهم.

الحياة في عرف الزوهر صراع بين الخير والشر، وكلاهما يخدمان غاية مقدسة. فكل عمل خير، وكل صلاة من قلب خاشع تبعث في النفس قوة روحية،

تؤدي إلى انتصار الخير على الشر، وسيظهر ذلك في شخصية المسيا المنتظر الذي يجب أن يكون حصراً إما من نسل داود أو من نسل يوسف الصديق.

يقول الأستاذ عجاج نويهض: «القبالاة أو الزوهر، مجموعة من التعليم الشرقية لها علاقة بأسرار الكون، لهذا دعيت (بالحكمة المستورة) وتقتصر تعاليمها على نخبة من أولياء الله، الذين انصرفوا لمعرفة السر الإلهي، فيما يتعلق بمصير الإنسان، ويتحدثون عن العلائم التي تنبئ بظهور المسيح اليهودي (المسيا المنتظر) الذي سينقذ شعبه من الآلام التي يعانونها، ويدعي القباليون، أن سفر التكوين مستمد من موسى وأن موسى استمده من إبراهيم، وإبراهيم استمده من آدم وآدم استمده من أعلى مقام، من الذات الإلهية»[74].

في مذهب القبالاة جموح في الخيال وفيها صيغ ميثولوجية لا تخرج عن حدود التعاليم الموسوية. ويرى الحاخام بوكس في كتابه (تراث إسرائيل) أن المنابع الرئيسية التي استقت منها القبالة تعاليمها، من مذهب التصوف الذي راود أحبار الغاؤون (أهل الفتيا) والفلسفة الإسلامية الأفلاطونية، وقد جمع تلك التعاليم موسى اللاوي. ودوَّن كتابه (الزوهر) ومعناه النور أو الضياء بالآرامية، والكلمة مستمدة من التوراة. جاء في سفر دانيال 3: 12 (والعارفون بالله يضيؤون كضياء الجلد 'السماء'). وفي الكتاب حكم تعود إلى العالم الرباني سمعان بن يوشاي، الذي انفرد واعتزل العالم في إحدى مغاور صفد ثلاثة عشر عاماً كشف له الرب خلالها أسرار السماء والأرض، وكل حرف من حروف التوراة له معنى باطني. وأن أحرف اللغة العبرية الـــ 22، نزلت من السماء قبل الخليقة بستة وعشرين جيلاً، وأنها نقشت بنار ملتهبة. ومن علماء القبالة موسى بن ميمون الفيلسوف اليهودي صاحب كتاب (دلالة الحائرين). ولمذهب القبالاة جذور تاريخية قبل الإسلام وبعده.

في عام 640م ادعى اليهودي موسى الفلوجي (بيت رامايا) أنه المسيح المنتظر وتجمع حوله حوالي 40 ألف يهودي من مختلف المدن العراقية، ومن مختلف المهن وطبقات اليهود، وأحرقوا ثلاث كنائس من بيت رامايا. ولكن المسلمين قبضوا عليهم وأعدم هو وجماعته. وتكررت هذه الظاهرة في زمن الخليفة الأموي يزيد بن عبد الملك (720- 724) عندما ظهر يهودي وادعى أنه المسيح المنتظر ووعد أتباعه أنه سيحقق معجزة استعادة الهيكل المقدس في أورشاليم، وقبض عليه

وأعدم. وفي زمن مروان بن محمد، آخر خلفاء بني أمية، ظهر عبيد الله أبا عيسى إسحق بن يعقوب الأصفهاني واختفى عام (756م)، وقال إن عودة فلسطين لا تتم إلا بالقتال. واستمرت دعوته حوالي عشر سنوات. وأعد جيشاً من عشرة آلاف يهودي وعاث فساداً في منطقة الري، ولكن الخليفة السفاح وجه نحوه جيش الخراسانية وهرب وأتباعه واختفوا. ولكن ظهرت في شمال العراق شخصية متمردة، وادعى أنه المهدي المنتظر، وهو داود بن روحي.

### الصدِّيق داود بن الروحي (1099- 1160م)

ولد داود في بداية حروب الفرنجة عام 1099م، في بلدة العمادية شمال العراق، وكان في العمادية حوالي 25 ألف يهودي يتفاهمون بالعربية والسريانية. تلقى العلم في مدرسة حسداي في بغداد على يد علي بن إسرائيل اللاوي رأس المثيبة (1152- 1160). كان داود شاباً ذكياً وسيماً طليقاً في الكلام، حضر دروساً في الجامعة النظامية وحضر حلقات أرباب التصوف في بغداد، أمثال الشيخ عبد القادر الجيلاني (1078- 1165) وسمع منه كتابه (الفتح الرباني والفيض الرحماني) كما حضر دروس عدي بن مسافر في الموصل، وبعدها سافر إلى دمشق وانتقل بعدها إلى بيت المقدس، فوجدها بيد الفرنجة، فعاد إلى بغداد وانتقل إلى خراسان، وكان اليهود وفيري العدد قدرهم آدم متز بأكثر من ثمن سكان العراق وخراسان[75].

لمعت في خيال داود فكرة تحرير القدس من يد الفرنجة، فكيف الوصول إلى ذلك؟ حوَّل الفكرة إلى عمل وادعى أنه المسيح المنتظر، وأن الله أوكل إليه مهمة تحرير القدس الشريف، وأنه سيعيد العدل إلى هذه الربوع. نالت فكرته الرضى والقبول، وادعى أنه يعرف اسم الله الأعظم، فهو إذن من العارفين بالله. قال بنيامين التطيلي: «لقد تضلَّع بالتوراة والفقه والتلمود وسائر العلوم، وبرع بلغة المسلمين وديانتهم، ونبغ بفنون السحر والشعوذة، ودخل في روحه أن يعلن العصيان على السلطان سنقر بن مودود التركماني (المتفى 1161) في طبرستان. وجمع حوله يهود جبال تلك المناطق، ودعا إلى مقاتلة الفرنجة، وقال لليهود: إن الله قبضني لفتح القدس، وإنقاذكم من نير الاستعباد، فآمنت به جماعة من البسطاء وحسبوه المسيح المنتظر»[76].

ولما خرج طلبه عامل السلطان مودود وسأله: أمِنَ الصحيح أنك ملك اليهود؟ قال داود: نعم، فأمر بالقبض عليه وزجه في السجن، وعقد مجلساً للنظر في هذه الفتنة، فإذا بداود قد اختفى وظهر في بلاد السلطان في الموصل، وهو طليق من الأغلال والقيود، فدهش السلطان وقادة الجيش وسأله السلطان: كيف شخصت إلى هنا؟ ومن أطلق سراحك؟ فأجابه داود: بحكمتي ودهائي! وأنا لست خائفاً منك. ولا أخشى عمالك وأعوانك. فأمر السلطان حراسه بالقبض عليه، فاختفى داود، وسمع الجميع قوله وهو يفارقهم: إني الآن ذاهب في طريقي. وتابعه الجنود ولم يعثروا له على أثر.

أما أتباع داود فقد قالوا: إنه نطق باسم الله الخفي، ووصل إلى العمادية، وقص على أتباعه، ما حدث!

كتب السلطان سنقر بن مودود إلى الخليفة المقتفي لأمر الله بأخبار داود بن الروحي اليهودي فطلب الخليفة رأس الجالوت ورأي المثيبة في بغداد، وحرروا كتاباً إلى داود: «ليكن بمعلومك أن موعد ظهور المسيح لم يحن بعد، وليس لدينا براهين عن قرب ظهوره، وهذا الأمر لا يتم بشق عصا الطاعة. وإنا مطالبوك بالكف عما أنت فيه، وإلا حرمناك من أن تكون من جماعتنا». وأرسلت نسخة من الكتاب إلى الرئيس زكاي وإلى الفلكي المعروف ببرهان الفلك في الموصل، ليردعوا داود عن زيفه وأباطيله، ولكن داود لم يرتدع. يقول بنيامين التطيلي: «وبواسطة الحيلة أرسل الرئيس زكاي إلى حمي داود عشرة آلاف دينار، فدخل على داود وهو يغط في النوم، وذبحه في فراشه وتخلص العباد من شره، وأرسل الجالوت إلى الأمير زين الدين علي بن بكتين التركماني مبلغاً جسيماً وقدره مائة ألف دينار ذهباً، لكي يعفو عن اليهود في منطقة العمادية»[77].

لقد تجاهلت الكتب العربية قصة داود بن الروحي، ولم تذكره، والسؤال: هل قصة داود مختلقة؟ أم هي حقيقة؟ يبدو لي أن قصة داود بن الروحي حقيقة تاريخية، ولكن البلاط في بغداد، أهملها ولم يتعرض المؤرخون لتدوينها. إلا السموءل بن يحيى بن عباس المغربي اليهودي، بعد اعتناقه الإسلام سنة (558هـ/ 1162م) كتب كتاباً سماه (بذل المجهود في إفحام اليهود) تعرض فيه لقضية داود بن الروحي جاء فيه: «خاطب داود اليهود بقوله 'لعلكم تقولون، لأي شيء استفزنا داود؟ لسنا نريدكم لحرب أو لقتال، ولكن لكي تكونوا واقفين بين

يدي هذا القائم ليراكم هناك، من يخشاه من رسل الملوك الذين ببابه، وينبغي أن يكون مع كل واحد منكم سيف يخفيه تحت أثوابه!»

تعاطف اليهود في البداية مع داود، وعندما انكشف أمره وقتل، وصفوه بصاحب الفتنة المحتال. ولكن اليهود عانوا وبال المشقة والخسارات والفقر في منطقة العمدرية، أما ماذا حدث ليهود بغداد أثناء ظهور داود؟ قال يحيى بن عباس المغربي: فرح اليهود به، وقدموا أموالهم إلى ممثلي المسيح المنتظر، واكتسى الفقراء ثياباً، واجتمعوا على السطوح ينتظرون الطيران على أجنحة الملائكة إلى بيت المقدس، وارتفع من النساء بكاء خوفاً على أطفالهن من أن يطيروا قبل طيرانهن، فيجوع الأطفال بتأخر الرضاع عنهم. وعندما لم يحصل الطيران، تعجب المسلمون لما اعترى اليهود عندما أسفر الصبح، واختفى ممثلو الدجال داود وانكشفت الحيلة، فسموا ذلك العام عام الطيران وهو عام (556هـ/ 1160م). وفي خبر يورده بنيامين التطيلي: «أن موسى بن ميمون عندما قبض على داود، و عرف بمصيره قال داود للوالي: إذا قطع رأسه لا يلبث أن يعود للحياة، فأمر الوالي بحز رقبته، وعاجلته المنية وانتهت هذه الفتنة»[78].

هذه هي صورة اليهودي المتمرد الذي دفعته القبالاة للخروج على السلطة من صورة اليهودي الذليل، إلى صورة الرجل الثائر الذي أراد تحرير القدس من يد الفرنجة.

## الطب عند العرب واليهود

صناعة الطب ضرورية في العمران البشري، غايتها حفظ الصحة ودفع المرض عن المرضى بالمداواة حتى يحصل لهم البرء من أمراضهم، وكان العرب في الجاهلية يعرفون بعض مبادئ الحمية كقولهم: «البرد أصل كل داء، والمعدة بيت الداء والحمية رأس كل دواء، والوقاية خير من العلاج». وكانت الحمية تقترن بالصوم، كما كان هناك الكي والبتر. أما أسباب الأمراض وتشخيصها فلم يعرفوه، وكانوا ماهرين في تجبير العظام، تعلموه من تجبير كسور المواشي، ولديهم خبرة في أمراض الجلد وطلي الجمال الجربانة.

أما علم الطب فقد عرفوه عندما انتقلوا إلى بلاد الشام ومصر والعراق، وعرفوا أن أصل الأمراض هي الحميات، وعلاجها يكون إما بقطع الغذاء عن

المريض أسابيع معلومة، ثم بتناول الأغذية الملائمة وبشرب الدواء، واعتبرت التخمة والسكون والراحة هما أصل الأمراض.

عرف البدو أن وقوع الأمراض بين أهل الحضر أكثر، لخصب عيشهم وكثرة مأكلهم وقلة اقتصارهم على نوع واحد من الأطعمة، ولكثرة ما يخلطون أغذيتهم بالتوابل والبقول، فيصير للطعام مزاج غريب. والرياضة والمشي والأهوية مفقودة عند أهل المدن، من هنا تقع أمراض السمنة عندهم. وأما البدو فمأكولهم قليل في الغالب، والجوع أغلب عليهم، وعادة الأدام عند البدو مفقودة، وطعامهم مقتصر على الحليب والتمر، ولا يدخلون الطعام على الطعام، ويكثرون من المشي في الهواء الطلق.

كان الطب عند أهل البادية خبرة متوارثة تنقل من كبار السن وعجائز الحي إلى أبنائهم أو بناتهم، وكان عند العرب طبيب مشهور هو الحارث بن كلدة له وصايا في الطب نسب معظمها إلى الرسول (ص) وسموا طبه بالطب النبوي، وهو طب ضعيف في رأي ابن خلدون «إنما بعث الرسول ليعلمنا الشرائع، ولم يبعث لتعريفنا بالطب ولا غيره من الصنائع، فعندما تدخل في تأبير النخل أخطأ فقال لأهل المدينة (أنتم أعلم بأمور دنياكم) فلا ينبغي أن يحمل شيء من الطب الذي وقع في الأحاديث الصحيحة المنقولة على أنه مشروع، فليس هناك ما يدل عليه اللهم إلا إذا وقع على جهة التبرك وصدق الاعتقاد الإيماني فيكون له أثر عظيم في النفع»[79]. هذا الطب عرف عند العرب بالطب الروحاني، أي الطب النفسي بمصطلحات عصرنا.

## علم الطب عند اليهود

بدأت صناعة الطب تتضح معالمها عندما ترجمت الكتب الطبية عن اليونان والفرس وصارت غاية علم الطب حفظ الصحة والبرء من المرض بالأدوية والأغذية، وصارت للمرض علامات تظهر عن طريق النبض أو البول، وصار الطبيب حين وصفه للدواء عليه أن يجاري قوة الطبيعة، ويقال إن كتب أبقراط وجالينوس هي الكتب التي اعتمد عليها أطباء اليهود قبل أن يترجمها السريان للعرب.

## مشاهير أطباء اليهود في بلاد الشام

انتقلت الخبرة الطبية من الأمصار إلى حاضرة الخلافة الأموية بدمشق، والخبرة كالسلع والبضائع تنتقل إلى الأسواق التي تجد فيها رواجاً، والطبيب من مستلزمات الملك. وأول الأطباء الذين عرفهم العرب:

### الطبيب اليهودي ماسرجيس البصري

أصله من البصرة ولكنه عاش في دمشق عند خلفاء بني مروان، وقد ألف كتباً لينتفع بها الناس الذين انتابتهم الأمراض لحياة الرفاهية، وتعرضوا للتخمة.

كان الأطباء اليهود يحذرون الأطباء الأغيار وكانت خبراتهم من قبل تعتمد على الوصايا التلمودية، ويتجنبون العلاج عند الطبيب غير اليهودي، ولكن الحاخام عقيبة الطبري (220م) سمح لليهود أن يعطوا الدواء للمريض الأمي (غير اليهودي).

عاش ماسرجيس الطبيب عند عمر بن عبد العزيز، وكان يعالجه. قال ابن جلجل (سليمان بن حسان) «كان ماسرجويه يهودياً من أهل البصرة تولى في الدولة المراونية تفسير كتاب أهرون بن أعين القس، وجده في خزائن كتب عمر بن عبد العزيز، فأخرجه عمر ووضعه للمسلمين للاستفادة منه»[80].

ووضع ماسرجيس ثلاثة كتب نالت شهرة واسعة عند العرب كتابه (قوى الأطعمة ومنافعها) وكتابه (قوى العقاقير ومضارها) والكتاب الثالث (كتاب العين) اعتمد عليه حنين بن اسحق في العصر العباسي. عاش ماسرجيس في دمشق وكان يعالج الخلفاء وتوفي عام 720م، ودفن في دمشق.

عاش اليهود في بلاد الشام مسالمين، وكانوا يمارسون الطب والتنجيم والتجارة والمهن. وكانت أحوالهم المعاشية جيدة. وفي الدولة الأيوبية نضجت معارفهم الطبية المستمدة من الثقافة الإسلامية العربية، وصاروا يكتبون ويؤلفون بالعربية. وفي هذه الفترة ظهر عدة أطباء في بلاد الشام منهم:

### الطبيب عمران بن صدقة الإسرائيلي

كان مولده في دمشق في حي اليهود (حي الأمين) عام (561هـ/ 1165م) تعلم الطب على والده صدقة الإسرائيلي ثم انتقل إلى البيمارستان وتعلم الطب

على علامة زمانه رضي الدين الرحبي (المتوفى 1275) وكان رئيساً لأطباء عصره في البيمارستان الكبير. وصار عمران من أكابر أطباء دمشق المعنيين بالمعالجة، ونال حظوة لدى الملوك واختص به الملك العادل أبو بكر بن ايوب، وكان يستخدمه في الصحبة، لحسن منظره وطيب مخبره، وكان عمران لا يتقيد مع الملوك في السفر، وإنما إذا كان عرض لأحدهم مرض يطلبه للمعالجة.

قال المؤرخ ابن أبي أصيبعة (1190- 1292): «حدثني الأمير صارم الدين البتيثي أنه كان بالكرك وكان صاحبها داود بن الملك المعظم، وكان الملك الناصر قد توعك مزاجه، فاستدعى الحكيم عمران إليه من دمشق، فأقام عنده حتى صلح حاله، فخلع عليه ووهب له مالاً كثيراً، وقرر له راتباً شهرياً قدره 1500 درهم ناصري، إن لازمه في الكرك. ثم عاد إلى دمشق. كان الحكيم عمران يتردد على خدمة الدور السلطانية بالقلعة، وكان أكثر عمله بالبيمارستان الكبير يعالج ويدرس الطلاب، وكان يجالس مهذب الدين عبد الرحيم بن علي في أمور الطب، ونحن نستمع إليه، وكنت أتدرب عندهما. وقد رأيت من تحقق الحكيم عمران في معالجة الأمراض ما يتعجب منه. جاءه مرة إلى البيمارستان رجل مفلوج، والأطباء قد ألحوا عليه بالمغالي إلا الحكيم عمران أمر بفصده وعالجه، وصلح أمره وبرئ برأ تاماً. توفي الحكيم عمران بعد أن أسنّ في مدينة حمص سنة (637هـ/ 1240م) ودفن في دمشق»[81].

كان اليهود في دمشق ينقسمون إلى طائفتين: السامرة والإسرائيليين:

السامرة طائفة صغيرة يسكن معظمهم في جبل جزريم ( قرب نابلس) وفي بعض قرى مصر ودمشق وبغداد، ويعيشون عيشة تقشف أكثر من سائر الطوائف اليهود. وهم لا يعترفون إلا بتوراة موسى وينكرون ما بعده من أنبياء، ويقرون باليوم الآخر ولكن منهم فرقة تدعى الدوستانية تقول إن الثواب والعقاب لا يحصلان إلا في الدنيا[82].

والإسرائيليين وهم الطائفة الكبرى من اليهود، يتوزعون في كل أنحاء العالم خاصة في بلاد الشام والعراق ومصر، وفي مصر يعرف الزعيم أو رأس الجالوت بالناغيد وهي لفظة عبرية تعني الزعيم، والناغيد في زمن بنيامين التطيلي 1163 هو نثانيال بن صموئيل واسمه العربي الشيخ الموفق شمس الرئاسة أو

العشائر هبة الله بن زين بن حسن بن أفرايم بن إسماعيل الإسرائيلي، كان من الأطباء المشهورين خدم الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي.

### الطبيب أبو الفضل بن يامين الشريطي

ولد في حلب وقرأ على شرف الدين الطوسي العلم الرياضي والتنجيم عندما ورد إلى حلب عام 1161م. وأحكم أبو الفضل علم العدد وعلم حل الزيج وتيسير المواليد وعملها لمحمد بن جابر البتاني (المتوفى 929م) وشارك في ممارسة الطب وعالج الفقراء والمحتاجين بالمجان، وقد اشتهر بين الناس بالتنجيم والطب، وقد أسنَّ وغلبت عليه السوداء فأفسدت منه محل التخيل ومات دون وارث سنة (604هـ/ 1208م) ودفن في حلب[83].

### الطبيب موفق الدين يعقوب بن سقلاب السامري

ولد يعقوب في نابلس عام (535هـ/ 1141م) وتعلم الطب في دير سابا (قرب القدس). درس كتب جالينوس باليونانية على يد راهب خبير باللغة اليونانية وبعلم الفلك وأحكام النجوم، ثم انتقل إلى القدس ودرس الطب على الشيخ أبي منصور الطبيب النصراني، وباشر الطب عليه وانتفع حتى أصبح أتم الناس عقلاً في زمنه ونال شهرة. وجاء إلى دمشق وخدم الملك المعظم عيسى بن أبي بكر بن أيوب، وصار معه في الصحبة، وكان الموفق يعقوب حسن السمت والتدريس. قال عنه ابن أبي أصيبعة: «كنت أدرس عليه في أوائل اشتغالي بصناعة الطب، وكنا نقيم في المعسكر المعظمي، ولأن أبي كان في خدمة الملك المعظم، كان موفق الدين يأتي إلى دارنا ويأتي بكلام أبقراط حفظاً واستشراحاً، بأحسن عبارة، وأتم معنى، حتى لا يبقى من كلام أبقراط إلا وشرحه شرحاً لا مزيد عليه في الجودة، وكنت أراجع ما حكاه عن جالينوس. وكان موفق الدين يجلس هو ومهذب الدين عبد الرحيم بن علي في الموضع الذي يجلس فيه الأطباء في دار السلطان وكانا يتباحثان في أمور كثيرة في الطب. وكنت أرى الحكيم يعقوب أكثر سكينة وأحسن بحثاً، وأوسع نقلاً حتى إنه كان بمنزلة الترجمان لأقوال جالينوس». وكانت عنده بعض كتب جالينوس وأبقراط باليوناني مثل (حيلة البرء والعلل والأمراض). وكان الحكيم يعقوب يتبع طريقة أبي بكر الرازي في التشخيص أولاً ثم المعالجة والمداواة.

كان الملك المعظم يشكر الحكيم يعقوب ويقول: «لو لم يكن في الحكيم يعقوب إلا شدة استقصائه في تشخيص الأمراض، حتى لا يعالجها على الصواب، ولا يشتبه عليه شيء من أمرها لكفاه».

عاش الحكيم يعقوب طويلاً، وأصيب بمرض النقرس في رجليه، فقال له الملك المعظم: يا حكيم لِمَ لا تداوي المرض الذي في رجليك؟ فقال: يا مولانا الخشب إذا سوّس ما يبقى في إصلاحه حيلة.

توفي الحكيم يعقوب في عيد فصح النصارى بدمشق سنة (625هـ/ 1228م).

على الرغم من المديح الذي كاله ابن أبي أصيبعة للحكيم يعقوب إلا أن ابن العبري (1226- 1286) قال عنه: «كان الموفق يعقوب السامري طبيباً مصيباً في علاجه، مستحضراً للشروح إلا أنه كان ضنيناً بما يحسنه، ويشارط من قصده، من سائر البلاد، للاستفادة على أسماعه أي كتاب أراد قراءته، دراهم معلومة، وهذه خساسة مباينة للأنفس الفاضلة»[85].

### الطبيب صدقة بن منجا السامري

ولد في حران عام (548هـ/ 1154م) وتعلم فيها الطب والفلسفة، ثم انتقل إلى دمشق، وكان يعتبر من أكابر صناعة الطب، ومن المتميزين بين أهل الصنعة، وكان كثير الدراسة والبحث وافر العلم جيد الفهم، حسن الدراية بالفلسفة متقناً لغوامضها.

كان الحكيم صدقة يدرّس الطب ويعالج المرضى في البيمارستان الكبير، خدم الملك الأشرف موسى بن الملك العادل، وكان الأشرف يحترمه غاية الاحترام ويكرمه ويعتمد عليه في المعالجة.

كان للحكيم صدقة تصانيف في الطب منها (كتاب النفس) فيه كثير من تعاليق الطب، وذكر الأمراض وعلاماتها و(شرح كتاب الفصول) لأبقراط، ومقالة في أسامي الأدوية المفردة، أبان فيها عن مسائل ساله عنها الأسعد المحلي الطبيب اليهودي، وفي التوحيد كتاب سماه (الكنز في الفوز)، وكتاب (الاعتقاد) له شرح على التوراة بالعربية.

جمع الحكيم يعقوب ثروة طائلة، ولم يكن له ولد وتوفي في حران سنة (623هـ/ 1126م).

### الطبيب أمين الدولة السامري

ولد أبو الحسن علي بن غزال بن أبي سعيد السامري في دمشق. ودرس الحكمة والطب على مهذب الدين السامري، وكان له من الذكاء الذي لا مزيد له، فلقب بكمال الدين عندما أسلم. كان كمال الدين غاية في معرفة الأصول والفصول في الطب، واختص به الملك الأمجد بهرام شاه بن عز الدين فروخشاه أيوب، وكان يعتمد عليه في المعالجة، وعندما توفي الملك الأمجد عام 1231م، انتقل أمين الدولة إلى الملك الصالح عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن الملك العادل في حماه، وصار وزيراً له فساس الدولة بالعدل وحسن التدبير، وثبت قواعد الملك ورفع مباني العلم، وقرب إليه العلماء. ولما تولى الملك الصالح نجم الدين أيوب وجعل نائبه في دمشق الأمير معين الدين بن شيخ الشيوخ عام (643هـ/ 1246م) قام الوزير جمال الدين بن مطروح وقبض على أمين الدولة واستصفى أمواله بدمشق ثم سيره إلى القاهرة. وعندما جاء الملك الناصر يوسف بن محمد من حلب وملك دمشق عام (648هـ/ 1251م) سأل أمين الدولة منجماً في القاهرة عن خلاصه من الحبس، أجابه المنجم: عن قريب، ففرح فرحاً شديداً. يقول ابن أبي أصيبعة: «كان أبي صديق أمين الدولة، وبينهما مودة، فقال لأبي: بلغني أن ابنك قد صنف كتاباً في طبقات الأطباء ما سبق إليه، واشتهر وأرغب أن تبعث إليه بمن يكتب لي نسخة من هذا الكتاب. وكان للصاحب أمين الدولة نفس فاضلة وهمة عالية في جمع الكتب، فلما وصلت إلى دمشق جاءني كتاب أبي، واستدعيت الشريف الناسخ وهو شمس الدين محمد الحسيني، وكان ينسخ لي، وأرسل لي الصاحب أمين الدولة مع القاضي رفيع الدين الجبيلي المال الجزيل والخلع الفاخرة وكان ذلك في أوائل عام (643هـ/ 1246م).

كان لأمين الدولة نساخاً يكتبون له، وقد وزع كتاب الحافظ ابن عساكر عن تاريخ دمشق على عشرة نساخ، فكتبوه له في سنتين وصار الكتاب بكمال له».

ويتابع ابن أبي أصيبعة: «وكان بيني وبين أمين الدولة أنس كثير، وقد قرأت عليه كتاب (الإشارات والتنبيهات) لابن سينا. وللصاحب أمين الدولة عدة كتب من أهمها كتاب (النهج الواضح في الطب) جمع فيه القوانين الكلية والجزئية، وهو ينقسم إلى خمسة أقسام:

القسم الأول: ذكر فيه الأمور الطبيعية والحالات الثلاث للأبدان، وأجناس الأمراض، وعلائم الأمزجة المعتدلة، والطبيعية والصحية للأعضاء الرئيسية، وما يقرب منها، وما يتبعها بالنبض والبول والبراز والبحران.

القسم الثاني: في الأدوية المفردة وقواها النافعة والضارة.

القسم الثالث: في الأدوية المركبة وقواها النافعة والضارة.

القسم الرابع: في تدبير الأصحاء وعلاج الأمراض الظاهرة وأسبابها وعلائمها وما يحتاج إليه من عمل اليد فيها، وفي أكثر المواضيع يذكر تدبير الزينة وتدبير السموم.

القسم الخامس: في ذكر الأمراض الباطنة أسبابها وعلائمها وعلاجها وما يحتاج إليه الطبيب من عمل اليد[87]. وقد نال هذا الكتاب الشهرة بين أطباء بلاد الشام ومصر والعراق.

## أشهر الأطباء في العراق

كان الطب في العراق بيد السريان وفي مدرسة جنديسابور، ولكن بعد أن ترجم حنين بن إسحاق مؤلفات جالينوس وأبقراط وأريبانيوس وتمثلها العرب أصبح الطب مهنة يتولاها العرب، وصار المسيحيون واليهود تلاميذ للعرب والمسلمين منهم. ومن أشهر أطباء اليهود:

### الطبيب علي بن سهل بن ربن الطبري

ولد علي بن سهل في طبرستان عام 807م، وكان والده من مقدمي علماء اليهود. درس على يد والده، وفي مدرسة جنديسابور، ثم انتقل إلى بغداد عام 845م، وكان علي يكتب للمازيار بن قارن، ولما اضطهد الخليفة المعتصم (847-861) أهل الذمة، أسلم على يديه في سامراء، وكتب للمعتصم كناش الحضرة في

الطب وأدخله المتوكل في جملة أطبائه وندمائه في سامراء، وفي ذلك الزمن كتب كتابه الشهير (فردوس الحكمة) وهو يحتوي على سبعة فصول وعلى ثلاثين مقالة تحتوي على 360 باباً، وهذا الكتاب يعتبر بحق أول موسوعة في الطب العربي، درسه محمد بن زكريا الرازي، وانتفع به وأشار إليه أكثر من ثلاثين مرة من بين مراجعه في كتابه (الحاوي).

كان علي بن سهل طبيب المعتضد، له أصدقاء يجلونه أمثال حنين بن إسحق وثابت بن قرة الصابئي وإسحق بن حنين، وقد خلفه في الطب ولده الذي كان مسلماً، لذا لن أذكره بين أطباء اليهود، وكان علي طبيباً نصوحاً له صداقات مع الجاحظ والفيلسوف الكندي، وكتب عدة كتب في الفلسفة والطب، وله كتاب (الدين والدولة) طبع في مصر عام 1923، وله كتاب (إرفاق الحياة) وكتاب (تحفة الملوك في الطب) وكتاب (حفظ الصحة)، وكتاب (منافع الأطعمة والأشربة والعقاقير) وكتاب في الحجامة، وكتاب (ترتيب الأغذية)[88].

ومن الحكم المنسوبة إليه: طول التجارب زيادة في العقل، والتكلف يورث الخسارة، وشر القول ما نقض بعضه بعضاً[89]. ولما توفي علي بن سهل عام 880م، في بغداد، حزن عليه الخاصة والعامة ومعظم الطوائف.

**الطبيب اليهودي هبة الله بن ملكا أبو البركات**

ولد في بغداد عام 574هـ/ 1083م، في حي اليهود بالرصافة، ودرس في المدرسة التي كان يشرف عليها الربي ألعازر بن صمحا رأس المجمع العلمي في بغداد في حي الكرخ. وكان هبة الله طبيباً فاضلاً وفيلسوفاً مشائياً (من أتباع أرسطو)، وكان يعالج الفقراء بالمجان، مما جعله ينال شهرة واسعة في بغداد، فاستدعاه السلطان السلجوقي قلج أرسلان بن سلمان صاحب مدينة قونية من بغداد، فتوجه إليه إلى أرضروم ولاطفه إلى أن برأ، فخلع على هبة الله العطايا الجمة، والأموال والمركوب والملابس والتحف، وعاد إلى بغداد على غاية ما يكون من الغنى، ولما سمع بذلك الطبيب البغدادي ابن أفلح حسده وهجاه بقوله:

لنا طبيب يهودي حماقته ... إذا تكلم تبدو من فيه

يتيه والكلب أغلى منه منزلة ... كأنه بعد لم يخرج من التيه

فلما سمع بذلك هبة الله قرر أن يسلم، ولكنه خاف أن بناته لا يسلمن ويبقين على دينهن، فتضرع إلى الخليفة المقتفي بن المستظهر (1096- 1160) في الإنعام عليهن، إن مكثن على دينهن، فوضع له الخليفة أمراً بذلك.

أسلم هبة الله وجلس للتعليم والإفادة في جامعة المستنصرية، لتعليم الرياضيات والفلك والطب، وأملى على طلابه كتابه (المعتبر) احتوى على المنطق الطبيعي والإلهي، فجاءت عباراته فصيحة في غاية الإيجاز، و مقاصده في ذلك الطريق صحيحة.

كان هبة الله يعالج ويدرِّس مجاناً، فظل سعيداً إلى أن أسنَّ، فأدركته عدة علل، قصَّر طبه عن معالجتها، واستولت عليه الآلام، فلم يطق حملها جسمه ولا قلبه، وذلك أنه في آخر عمره عمي وطرش، وبرص وجذم، فقال اليهود: أصابته العلل لأنه أسلم وترك دينه. وقال المسلمون: بل لأن المؤمن ممتحن. فلما قرب أجله طلب أن يكتب على قبره «هذا قبر أوحد الزمان ابي البركات صاحب كتاب المعتبر».

توفي هبة الله في بغداد سنة (560هـ/ 1165م) ودفن في مقابر المسلمين في الكرخ[90].

يقول ابن العبري: «اجتمع في عصر واحد ثلاثة أطباء من ثلاث ملل، يشار إليهم في الآفاق، كل منهم لقبه (هبة الله) اسماً ومعنى من النصارى واليهود والمسلمين، هم هبة الله بن صاعد النصراني، وهبة الله بن ملكا أبو البركات أوحد الزمان، وهبة الله بن الحسين الأصفهاني»[91].

**الطبيب اليهودي أبو داود بن سليمان الشريطي**

ولد في بلدة سورا، ودرس في مدرستها ثم انتقل إلى بغداد، وعلت منزلته فيها، برز في علم التنجيم حوالي سنة (300هـ/ 913م) وله يد مبسوطة في علم الحدثان والأخبار بالكائنات، وقد سلِّم له في صناعة التنجيم أكثر من الطب، وحكوا أقواله وانتظروا وقوع ما يشعر به، وتوفي في بغداد عام (320هـ/ 933م)[92]. وله مناظرات مع المسعودي في بغداد، من أقواله في الطب: من تناول الطين تسدر العينين ويصفر اللون، ويبخر الفم، وتحفر الأسنان. وقال: عجبت لمن اقتصد في الخبز الحنطي، واللحم الحولي، واحترز من الهواء السوي والماء الروي كيف يمرض؟[93].

وكتب أبو داود ترجمة لحياة أبي بكر محمد بن زكريا الرازي، وكانت تربطه به صداقة، ذكر ذلك في كتابه في حفظ الجسم من الصحة والمرض، وفي حفظ كل عضو على حدة[94].

**الطبيب اليهودي أبو الحسن كوشيار الجيلي**

ولد أبو الحسن كوشيار بن لبان بن باشهرو في جيلان (جنوب قزوين) وكان يهودياً عام 971م، درس الطب والرياضيات والفلك في الري، وكان يمارس الطب، إلا أنه كان يميل إلى الفلك والتنجيم. ألف كتاباً في الأزياج الفلكية، واعتمد على كتاب الزيج الصابئي للعالم محمد بن جابر البتاني الرقي، وأسهم أبو الحسن في تطوير علم حساب المثلثات، توفي في بغداد عام 1029م[95].

**الطبيب اليهودي إبراهيم بن يعقوب البغدادي**

ولد في بغداد وتعلم فيها الطب والفلك والجغرافية، ذكره المستشرق الألماني ماكس مايرهوف بين الأطباء اليهود في الشرق الأوسط في بحثه عام 1938م. ولد إبراهيم بن يعقوب حوالي عام 930م، وكان يحب السفر والرحلات، فتوجه إلى بلاط القيصر الألماني أوتو الأول حوالي عام 965م، وترك لنا وصفاً دقيقاً لبلاط الصقالبة (سلوفينية الغربية). يوجد وصف لهذه الرحلة ضمن كتاب الجغرافي الأندلسي البكري، ونشر العلامة روزن قصة إبراهيم بن يعقوب مستقلة في نص عربي، وترجمه إلى الروسية في سان بطرسبورغ سنة 1878م، ثم نشره المستشرق الهولندي م. دي جويه في سلسلة الأعمال التذكارية الأكاديمية في أمستردام عام 1880م[96].

كان لعلماء اليهود دور في إغناء الدراسات العربية في الفلك والرياضيات. وقد أسهم العالم الجغرافي والفلكي سند بن علي اليهودي في قياس طول درجة الأرض مع حبش الحاسب وخالد بن عبد الملك الروزي عام 829م، وفي تأليف الزيج الذي كتب في دار الحكمة للمأمون[97].

علق المستشرق الهولندي ف.ج. دي بور على ممارسة أطباء اليهود في المجتمع العراقي، بقوله: «ظهر أن علم الطب له أكبر النفع، لذا اعتنى به الخلفاء، وعهدوا إلى المترجمين السريان والعرب لنقل الكتب اليونانية إلى اللسان

العربي. وكان لأطباء اليهود إلمام بطبائع الأغذية والأطعمة والأدوية وأمزجة الجسم، كما كان على الطبيب أن يلم بفعل الكواكب في كل ما يعرض للجسم البشري من حالات الصحة والمرض، وكان الطبيب اليهودي أخاً للمنجم بل إن موضوع التنجيم صار لديهم أشرف من موضوع صناعة الطبيب[98].

## أشهر رجال الفكر اليهودي في العراق

رجال الفكر اليهودي في العراق مغيبون عن قصد وعمد، لذلك لا يذكر منهم إلا المشهور بالطب والفلك وله علاقة بالدولة. ذكر المؤرخ الملك الأشرف الغساني في حوادث سنة (645هـ/ 1248م) أنه مات رأس الميثبة اليهودي (أبو الفتح إسحق بن الشويخ) وكان شيخاً صالحاً مسناً قد جاوز الثمانين من عمره، كان يكتب خطاً حسناً وينظم شعراً جيداً. مع معرفة تامة بعلم النحو وعمل المواليد وتحويلها وتسيير الكواكب والحكم عليها[99].

وفي حوادث سنة (646هـ/ 1249م) عين بدلاً منه شمويل بن أبي الربيع رئيساً للميثبة، واستقبله الوزير ابن العلقمي وسلم إليه العهدة وأجلسه القاضي بين يديه، وخاطبه: «عينت زعيماً على أهل دينك الذي نسخته الشريعة المحمدية، لتأخذهم بحدود دينهم وتأمرهم بما أمروا به، وتنهاهم عما نهوا عنه في شريعتكم، وتفصل بينهم في خصوماتهم، بموجب شريعتكم، والحمد لله على الإسلام». ثم نهض الرأس شمول بن دانيال بن أبي الربيع ولبس طرحته في دهليز القاضي، ثم توجه راجلاً إلى داره في جمع كثير من اليهود ونقباء باب النوبي وغلمان ديوان الحكم[100]. وبعد أن توفي دانيال عين بدلاً منه علي بن زخر الأربلي عام (648هـ/ 1251م) ووجهه الوزير مؤيد الدين ابن العلقمي بالولاية، وأنفذ معه حاجباً إلى قاضي القضاة. وأجلسه كالعادة بين يديه وخاطبه: «قد وليت الزعامة على أهل شريعتك المنسوخة بالشريعة المحمدية (وكرر عليه ما يجب أن يقال في هذا الموقف) وخرج ماشياً ومعه تقليده الذي كتب له ومعه جمع من اليهود[101]. وكان شاعراً بالعبرية ونحوياً، وله شروح على نشيد الإنشاد بالعربية، وقد فُقد.

وبعدها لم تذكر كتب التاريخ أخبار رجالهم المرموقين ما عدا الفيلسوف اليهودي عز الدولة سعد بن منصور بن كمونة.

**الحكيم سعد بن كمونة اليهودي (1214- 1283)**

ولد سعد بن منصور في عائلة يهودية عريقة في بغداد عام 1214م، وكان شخصية جذابة، حسن الصورة، طويل القامة، ذا حضور في المجالس، جهير الصوت وذا منطق عذب الكلام.

تلقى سعد تعليمه الأولي في مدرسة درب اليهود في الرصافة، على يد معلمين من أبناء طائفته، وأكمل تعليمه في مدرسة الكرخ على يد الربي أبو الفتح إسحق ابن الشويخ رأس الميثبة، تلقى منه علم النحو العربي والعبري، وعلم الفلك وحسن الخط، كما تلقى عن الربي شمويل بن أبي الربيع تفسير التوراة وعلى الربي علي بن زخر الأربلي مبادئ الفلسفة وفلسفة موسى بن ميمون في كتابه دلالة الحائرين، ودرس كتاب الاعتقادات والأمانات لسعدية الفيومي، وتعلم في مدرسة المستنصرية الفلسفة الإشراقية والمنطق على الفيلسوف أثير الدين الأبهري (المتوفى 1264) كتابه الهداية و فيه خلاصة فلاسفة العرب (الفارابي وابن سينا والرازي والكندي) وشرح كتاب الإيساغوجي (المدخل) لفرفوريوس الصوري.

وصار الشاب منصور عالماً وحكيماً يدعى بابن كمونة، وهو في الثلاثين من عمره. وصار حكيم اليهود في العلم والثقافة، وتصدى لتدريس الفلسفة وعلوم الأوائل في مدرسة المستنصرية. وكان ابن كمونة واعياً للظروف السياسية المحدقة بالمنطقة، فالفرنجة يحتلون الساحل السوري وهاجموا مصر، والمغول احتلوا بلدان الخلافة الشرقية، والخطر القادم من الشرق يتهدد بغداد والخليفة المستعصم بالله (1242- 1258) يتلهى الغناء ورقص الجواري، وعندما نبهه الوزير ابن العلقمي قال له إن بغداد محروسة بقدرة إلهية وإن ملك بني العباس سيدوم إلى يوم القيامة، وإن بغداد ستكفيه. وأرسل حملة في رمضان عام (655هـ/ 1257م) لتهاجم دور الشيعة في الكرخ وهو حي ابن العلقمي وسبى النساء، مما أثار حفيظة الوزير ابن العلقمي وكاتب المغول يطمعهم في بغداد[102].

دخل الجيش المغولي بغداد في يوم الاثنين في 4 شباط 1258 وقبضوا على الخليفة العباسي وقتلوه بعد عشرة أيام، وأطلق على ملك المغول لقب مالك ملوك العرب والعجم (شاه جيهان) هولاكو المعظم[103].

قتل المغول آلاف الناس ونهبوا المكتبات وحملوها إلى مراغة عاصمة الدولة المغولية، ولا صحة للشائعة أن المغول ألقوا الكتب في دجلة. انفرط عقد الدولة الإسلامية، وبكت عيون الناس على صرح الحضارة الذي انهدم.

قال الشاعر إسماعيل بن أبي اليسر[104]:

لسائل الدمع عن بغداد أخبار    ما وقوفك والأحباب قد ساروا
تاج الخلافة والربع الذي شرفت    به المعالم قد عفاه أقفار
أضحى لعطف البلى في ربعه أثر    وللدموع على الآثار آثارُ

حدث هذا التصدع الهائل في بغداد والحكيم سعد ابن كمونه مذهول، وقد انهارت الخلافة والمؤسسات التابعة لها ومن جملتها الميثبة اليهودية. فهذا الطبيب السموءل بن يهوذا المغربي يعلن إسلامه مع ولديه ويتوجه إلى مراغة وعاش هناك حتى وفاته عام 1272م، قال عنه ابن العبري وقد عايشه: «وله هناك أولاد سلكوا طريقته في الطب وأظهر كتاباً في معايب اليهود، ومواضع الدليل في تبديلهم التوراة»[105].

اسم كتاب السموءل (إفحام اليهود) وقد رد عليه الحكيم قدوة الحكماء وعلامة العراقين ابن كمونة في رسالة في العقليات ذكر فيها العقائد اليهودية والإسلامية والمسيحية. يقول المؤلف أكثر كلامه ملتقطاً من كلام من تقدمه من علماء اليهود، والأقل النزر هو الذي أدركه بفكره أو من سنواح خامره، ويعترف فيه بقلة البضاعة من العلم وهذا الكتاب هو الأساس لكتابه (تنقيح الأبحاث في الملل الثلاث)[106].

أصبح أبو الرضى سعد بن منصور عالماً بالقواعد الحكمية والقوانين المنطقية. وتولى التدريس في المستنصرية، وذاع كتابه (شرح الإشارات لابن سينا) بين طلاب العلم. قال عنه كمال الدين أبي الفضل ابن الفوطي (1244- 1295) الذي استلم خزانة كتب المستنصرية في بغداد عام 1274م: لم يتفق لي الاجتماع بابن كمونة وحضور دروسه، وكتبت إليه ألتمس شيئاً من فوائده لأطرز بها كتابي (معجم الآداب) فكتب لي في سنة (683هـ/ 1283م) نصيحة شعرية[107]:

صن العلم عن أهل الجهالة دائماً    ولا تولـه من لا يكون له أهلاً
فيورثه كبراً ومقتاً وشراً    ويقلبه النقصان من عقله جهلاً

فكـن أبـداً مـن صونـه جـاهداً    ولا تطلبن الفضل من جاهل أصلاً

ذاعت شهرة ابن كمونة خارج حدود بغداد، وشاعت عنه مسألة في الفلسفة شغلت أذهان علماء الكلام هي (لِمَ يجوز أن تكون هويتان بسيطتان مجهولتان، مختلفتان بتمام الماهية، يكون كل منهما واجب الوجود بذاته ويكون واجب الوجود منتزعاً عنه، مقولاً عليها قولاً عرضياً) وفي قوله هذا اعتراض على قول علماء الكلام: إن واجب الوجود أحدي الذات من جميع الجهات[108].

لم تصل تلك المخالفة التي أبداها ابن كمونة إلى ذهنية التحريم عند عوام الحنابلة وإلا لهاجموه.

كان ابن كمونة واسع الفكر يعمل لوحدة المعتقد اليهودي وهو صاحب كتاب (الربانيين والقرائين) ويمتاز الكتاب بالنزعة التوفيقية) فهو كان من المعجبين بسعدية الفيومي وبموسى بن ميمون وهما من القرائين، وكتابه (في بقاء النفس) مملوء بالاستشهادات الفلسفية الإسلامية فلسفة الفارابي وأبي حامد الغزالي وبكتابات موسى بن ميمون في رسالته (في المعاد الجسماني) وكتابه (شرح الأصول والجمل في مهمات العمل) قائم على الفلسفة الإسلامية. مما يبين أن الفكر اليهودي في القرون الوسطى كان نتاج الحضارة الإسلامية.

وكان الطلاب يدرسون عليه كتاب شهاب الدين السهروردي المقتول في حلب (1191) كتاب (حكمة الإشراق) وكتاب (هياكل النور) وصارت هذه الكتب وأمثالها هي الأساس لفلسفة القبالاة في المشرق، وقد درس ابن كمونة على شهاب الدين عمر السهروردي (1144- 1234) شيخ صوفية بغداد كتابه (عوارف المعارف) عندما كان سعد بن منصور طالباً في المستنصرية، وقد ضمّن فلسفته في كتابه (التنقيحات في شرح التلويحات). وأما كتابه الهام في المنطق (في العقليات في المنطق والحكمة) فقد اعتمد على كتاب (الشفاء) لابن سينا وكتاب (المحصل) للفيلسوف نصير الدين الطوسي، ومثله كتابه (الحكمة الجديدة في المنطق) فهو زبدة خبرته في الفلسفة والمنطق، درسه في المستنصرية عام (676هـ/ 1277م).

ولابن كمونة من الكتب العلمية الصرفة كتاب (الكيمياء) اعتمد فيه على جابر بن حيان وعلى محمد بن زكريا الرازي ذكر فيه الأملاح والحموض وتفاعلها

مع المعادن. وفي عصره يعتبر ابن كمونة عمدة الأطباء الكحالين ووضع كتاباً كبيراً سمَّاه (الكافي الكبير في الكحل) وذكر فيه تركيب طبقات العين، وآلية الرؤية وأمراض العين وعلاجها، وإجراء عمليات القدح في العين، ذكره الطبب صدقة بن إبراهيم المصري الحنفي الشاذلي الساكن في الفيوم، وقد ضاعت هذه الكتب، ولم يبق سوى كتابه الشهير (تنقيح الأبحاث في الملل الثلاث) أنجزه في عام 1280م، ويعتبر هذا الكتاب أعظم كتاب في الجدل الديني في العصور الوسطى ومثال للحوار بين الأديان في العصر الحديث. حاول أن يكون حيادياً، قال في المقدمة «لم أمل في شيء من ذلك مع الهوى، ولا تعرضت لترجيح ملة على أخرى، بل قررت مباحث كل ملة إالى غاياتها القصوى»[109].

عندما عرف العامة بمضمون الكتاب ثار عوام الحنابلة. يقول ابن الساعاتي في حوادث سنة (683هـ / 1283م) اشتهر في بغداد عز الدولة ابن كمونة بأنه تعرض لذكر النبوات، فثار العوام، وهاجوا واجتمعوا لكبس داره وقتله. فركب الأمير المغولي شحنة بغداد ومجد الدين أثير الدين الأبهري المدرس في المستنصرية، واستدعوا قاضي القضاة ابن الزنجاني وتاج الدين علي بن الساعاتي، وعندما حضروا إلى دار ابن كمونة لم يجدوه، وكان ذلك اليوم يوم الجمعة. فركب قاضي القضاة ليذهب للصلاة فمنعه العوام، فعاد إلى المستنصرية وخرج للعوام لكي يقنعهم أثير الدين الأبهري فأسمعوه قبيح الكلام ونسبوه إلى التعصب لابن كمونة، فرجع ثم تفرقوا عند الغياب، أما ابن كمونة فقد وضع في صندوق مجلد، وحمل إلى الحلة لأن ولده كان كاتباً فيها، فأقام ابن كمونة أياماً ثم توفي في (683هـ / 1283م) ودفن في واسط.

بعد وفاة ابن كمونة، ظهرت عدة رسائل إسلامية تهاجمه منها كتاب (الدرّ المنضود في الرد على فيلسوف اليهود) لابن الساعاتي (1233- 1295)، كان أصله من بعلبك، وجاء والده إلى بغداد لوضع ساعة في المستنصرية عام 1228، وولد ابنه أحمد في بغداد، وكان يحضر دروس ابن كمونة، وكان معجباً به لمعرفته بمذهب ابن كمونة انتدب ليكون عضواً في المحكمة التي تنظر في قضية ابن كمونة، وظهر كتاب آخر ردّ فيه على ابن كمونة (نهوض حثيث النهود إلى خفض خبيث اليهود) للكاتب سريجة زين الدين محمد الملطي (المتوفى 1387) وضاعت كل الكتب الإسلامية التي ردت على ابن كمونة ولم يبق إلا حواشي ابن المحرومة

الكاتب المسيحي (إبراهيم بن يعقوب بن نختوما بن الخباز 1260- 1339) واقتصرت حواشيه على مناقشة ملتي اليهود والنصارى. ونشر الكتاب دافيد بانيث David Baneth بالألمانية عام 1925 وقال عن الكتاب «كتاب التنقيح بالرغم مما يدعيه ابن كمونة بالبقاء على الحياد والإنصاف، فإنه يبدو لي أنه كتاب طعن في الإسلام أكثر منه دفاع عن اليهودية، رغم سعيه للتحيد الديني وانتسابه إلى مدرسة الفارابي وابن سينا والطوسي، لا يبدو أنه ممن يؤمنون بتكافؤ الأديان الثلاث فطعنه الشديد في الإسلام وتجريحه المتحامل على المسيحية يظهران عداء مبيتاً وتعصباً لليهودية»[111].

ومهما قيل في شأن ابن كمونة، فإن خير من أنصفه المطران حبيب باشا الذي حقق ونشر حواشي ابن المحرومة، قال: «إن ابن كمونة وفق في التلطف في نقده والتخفيف من طعنه، باعتماده ذلك اللون من التأدب والاحترام الذي يميز الحوار الحقيقي، بل إنه ليعتبر الكتاب خير مثال للحوار الديني، وإن ما لاقاه ابن كمونة من ثورة شعبية عارمة على نفسه ورداً قاسياً على كتابه، هذا دليل مؤسف على أن الدعوة للحوار الصريح لا تورث أصحابها دائماً رغد العيش وسلامة المصير»[112].

ولسوف أعرض صورة بسيطة وموجزة عن كتاب ابن كمونة الذي يتألف من أربعة فصول ومقدمة، معتمداً على كتاب نشر حواشي ابن المحرومة الذي حققه ونشره المطران حبيب باشا ونشره في سلسلة الحوار العربي المسيحي عام 1984م.

**المقدمة**

دعا ابن كمونة في المقدمة إلى الصراحة في مواجهة الحقيقة، وإلى المودة في مخاطبة المحاور الآخر مع رفضه المساومة في الدين، وهذا لا يفترض اللباقة في معاملة الآخر. ومن شروط الحوار الديني الصحيح، الصمت والإصغاء إلى حديث الغير من حيث هم. والانتقال بالحديث من مرحلة التهجم إلى مرحلة التفهم، ويكون الدفاع بتتبيه الغير لا بالتهجم الصريح.

وقال ابن كمونة إنه سيلتزم بالحياد المطلق في عرضه لمباحث الديانات الثلاث، ولكن هذه مسألة صعبة لا تظهر في هذه المواضيع.

**الفصل الأول: (في النبوة)**

تحدث ابن كمونة عن النبوة وعلاقتها بالوحي الإلهي، وقدَّم مثالاً على ذلك النبي موسى الذي شرفه الله بالحديث معه مراراً لا تحصى، وبذلك صار موسى أسمى شأناً من محمد والمسيح، الذي لم يكلمه الله إلا مرة واحدة عندما جاءه صوت من السماء يقول له: «مجّدت وأيضاً أمجد» (يوحنا 12: 28).

ولكن ابن المحرومة ردَّ عليه قائلاً: إن شرف المسيح الباطن أغنى من كل شرف ظاهر، والمخاطبة تكون لمن بينه وبين المخاطب حجاب يستر عنه الأمر، ونحن لا نعتقد أن بين المسيح وبين الله حجاباً وإلا لتكررت المخاطبة.

**الفصل الثاني**

ناقش ابن كمونة في هذا الكتاب (كتاب السموءل المغربي في إفحام اليهود) والذي قال: إن التوراة ملفقة، لا شتمالها على كثير من القصص الخلاعية، ودعوتها إلى المخازي، واتباع الهوى، والدعوة إلى سفك الدماء، وتضمنها كثيراً من المغالطات والتناقضات، واشتمالها على عبارات التشبيه والتجسيم، وخلوها مما يعتبر من أركان كل دين كان لدعوة إلى الصلاة والصوم والإيمان باليوم الآخر.

ردّ ابن كمونة عليه قائلاً: كانت اليهود في قديم الزمان تسمي فقهاءها بالحكماء وكان لهؤلاء الفقهاء مدارس في طبرية وبابل وسورا والمدائن وعانة، ما لم يكن لأحد من الأمم مثلهم، وهذا يعني تواتر التوراة ولم يكن حفظها عندهم لا فرض ولا سنة، بل كان كل واحد من الهارونيين يحفظ فصلاً من التوراة. فلما رأى عزرا أن القوم قد أحرق هيكلهم المقدس في أورشليم، وزالت دولتهم وتفرق جمعهم في البلاد، وضاع كتابهم قام عزرا بجمعه من محفوظاته ومن الفصول التي يحفظها الكهنة، وتكونت التوراة التي بين أيدينا الآن. والدليل على صحة التوراة الحالية أن اليهود عدة فرق يخالف بعضهم بعضاً، فروع، ولم يقع بينهم اختلاف في نفس التوراة وكتب أنبيائهم، وإن اختلفوا في تأويل مواضيعها لا في نصوصها وترتيبها، مما يزيل توهم تبديلها أو تحريفها. فإن قيل إن توراة النصارى مخالفة لتوراة السامرة، قلنا:

-إن النصارى لم تكن التوراة عندهم بلغة تنزيلها التي هي اللغة العبرانية، بل نقولها من اليونانية إلى السريانية وصارت عندهم على نسختين:

الأولى: التوراة البسيطة (بشيطا) مثل التي عند اليهود بالألفاظ وإن اختلفت في تفسيرها.

والثانية: يسمونها بالسبعينية وهي التي ترجموها عن اليونانية، هناك اختلاف قليل في ألفاظها لاختلاف التاريخ والأجيال.

النسخة السامرية: تخالف النسختين السابقتين بشيء يسير، لأنهم في الأصل ما كانوا يتعبدون بها، ثم نقلوها من الآرامية من غير ضبط وتحرير ولما رأوا التعبد فيها زادوا في ضبطها، فاستمرت عندهم كذلك. ومع ذلك ففرق اليهود لم يختلفوا على لفظة واحدة منها ولا في كتب النبوات التي بأيديهم، وكل من يتعبد بالتوراة، لا بد وأن يكون يهودياً بلا شك. وهم فرق تفترق إلى مذاهب مختلفة متباينة، ولم يكذبوا عزرا أو اختلفوا في صدق جمعه للتوراة، وهو مشهور عندهم بالتعظيم وكثرة الخبر وهو الذي يسميه المسلمون (العُزَّير) ويدعون هم والمسلمون بنبوته فلا يتصور في حقه أن يستحل تحريف كتاب الله وتبديله.

**ردّ ابن المحرومة:**

ربما يكون عزرا قد زاد أو نقّص حسب أغراضه، فالتوراة تصبح عندها ليست كتاب الله بل كتاب عزرا. وكيف للتوراة أن تكون موحاة من الله وفيها متناقضات، مثل تحريم الربا مطلقاً في البداية، ثم جرى تحليلها لليهودي إذا أخذ الربا من الغريب دون اليهود. وفي التوراة حرمت عورة امرأة الأخ، وكل من ينكح امرأة أخيه بعد وفاته لأنها تبقى عورة أخيه، ثم قال الله لموسى: قل لبني إسرائيل إذا كان أخوان، ومات أحدهما، وليس له ولد، فلا تخرج امرأته من بيته ولينكحها أخوه، فإن ولد له ولد فليسمه باسم أخيه الميت لئلا يبطل اسمه من بني إسرائيل.

قال ابن المحرومة: إن الشريعة الموسوية تحمل في ذاتها جرثومة الانتساخ، كانتقاص السبت المقدس يوم حصار أريحا، وتقريب الذبيحة خارج الهيكل المقدس على يد إيليا النبي، وإقدام الملك داود وصحبه على تناول خبز التقدمة وهذا لا يحل إلا لكهنة الهيكل.

طعن ابن كمونة في اعتقاد المسيحيين في التثليث والتأنس، كما هاجم فكرة طبيعة المسيح (اللاهوتية والناسوتية). قال: قد كان بين النصارى اختلاف في العقيدة. فمنهم من أثبت أن للابن كوناً زمانياً، وهو أن الله أحدث الابن وفوض إليه خلق العالم (هذا رأي الأسقف آريوس الإسكندري).

وقال آخرون: إن المسيح إله ولد من أبيه قبل كل العالم، وليس بمصنوع كما هو في الأمانة المتفق عليها عام 325م.

ثم جرت بينهم خلافات فعقدوا عدة اجتماعات مسكونية لإزالة الخلاف، فأحرم فيها بعض المخالفين، وأدى ذلك إلى سفك دماء يعرف ذلك من تواريخهم (النساطرة واليعاقبة والروم الملكية).

وأما معجزات المسيح، فقد دونت بعد زمانه ولا يمنع العقل أنها وقعت بالحيل والمواطأة عليها منهم، وأنه لا فرق في عدم احتمال الحيلة بينها وبين معجزات موسى، كانشقاق البحر وتحول العصا إلى حية تسعى، وما يجري مجراه.

**رد ابن المحرومة:** إن من أحياه المسيح وأبرأه من العمى والمرض لم يقع شك في موته أو مرضه، ولو كان مشكوكاً فيه لاشتهر ذلك الشك بين أعدائه اليهود، وغيرهم في زمانه، وحيث لم ينقل من نسبه إلى السحر أو إلى إعانة الشيطان له أو إلى تعلم الاسم الأعظم، علم أنهم قد كانوا متيقنين من عدم الحيلة والتواطؤ عليه، وإنه صادق في إحداث معجزاته.

ويقول **ابن المحرومة:** لقد كان كافة اليهود في انتظار المسيح عن قريب كما هو حالهم اليوم الذين يظنون أن ظهوره في هذا الزمان سيظهر في القران القريب. والقران هو اجتماع الشمس وزحل والمشتري في خانة واحدة ويتم ذلك كل عشرين سنة، ويسمى هذا عند اليهود بالقران الأصغر، وهناك قران يتم كل 240 سنة وهذا هو القران الأوسط، ومرة كل 960 سنة وهذا القران الأكبر.

ويقول **ابن المحرومة:** جاء المسيح لإتمام التوراة لقوله: «إني ما جئت لأنقض التوراة ولكني جئت لإتمامها» لأنه إله.

وهاجم **ابن كمونة**: فكرة ألوهية المسيح قائلاً: كيف يكون الإله خاضعاً لأحوال البشر؟

يقول **ابن المحرومة**: إن الله كونه عقلاً مجرداً هذا هو الآب، وكونه عاقلاً لذاته هذا هو الابن، وكون ذاته معقولة له فهذا الروح القدس. وإن خضوع المسيح لأحوال البشر منسوبة إلى الناسوت، أما اللاهوت فهم ينزهونه تنزيهاً مطلقاً، وإنما ساوى المسيح الناس بناسوته في جميع أحوالهم ما عدا الخطيئة.

هاجم ابن كمونة فكرة اتحاد الطبيعتين في المسيح، وتمثل ذلك الاتحاد بنفس فص الخاتم في الشمع، وكلاهما مصنوعان من المادة.

رد ابن المحرومة: هذا تشبيه على سبيل التقريب إلى أذهان العوام، وليس من شرط المثال المماثلة من جميع الوجوه. ويعلم ابن المحرومة مدى اختلاف الطوائف المسيحية في مسألة الاتحاد والوحدة، لذلك استدرك بقوله: على أني لا ألتزم رضى جميع فرق الملة النصرانية، لكني ألتزم رضى النصرانية مطلقاً لا غير وبالله التوفيق. وكانت ردود ابن المحرومة وحواشيه 133 حاشية، جمعها المستشرق اليهودي سوشي برلمان مع تنفيحات ابن كمونة، وترجمها إلى الإنكليزية، وأصدرها من منشورات جامعة كاليفورنيا 1948م.

وقام المطران حبيب باشا بنشرها في سلسلة كتب الحوار العربي المسيحي المطبوع في المطبعة البولسية في جونية لبنان عام 1984م.

### الفصل الرابع (في الإسلام)

يرى ابن كمونة إن تعاليم القرآن كلها مستمدة من التوراة، دون زيادة أو نقصان. وأما ما قاله الطبيب اليهودي السموءل بن يهوذا المغربي الذي أسلم وحاول إرضاء المسلمين في كتابه (إفحام اليهود) وذكر بعض المواضع التي تدل على تبديلهم وتحريفهم للتوراة، هي أدلة باطلة وتناقض ما جاء في القرآن، وقال: إن الإسلام لم ينتشر بالإقناع والمحاجة وإنما انتشر بالرهبة والقهر بالسيف، فالرسول محمد هو سيد الملحمة (أي القتل) وهو القائل نصرت بالرهبة لمسيرة شهر. ومن الأسباب التي تدفع بمريضي النفوس إلى انتحال الإسلام ممن نراهم كثيراً في زماننا، أنهم يدخلون الإسلام ليستظهروا به على الأقران، وهم مسلمون في الظاهر مع كونهم لا يؤمنون به في الباطن، وإننا لم نر أحداً إلى اليوم دخل

الإسلام من أهل الذمة عن قناعة وإنما دخولهم إما أن يكون عليه خوف أو في طلب للعز، أو يؤخذ في خراج ثقيل ويريد التخلص منه، أو ليهرب من الذل، لأن اليهودية والمسيحية دين ذل عند المسلمين، أو يؤخذ في سبي فيود تحرير نفسه بالإسلام، أو يعشق امرأة مسلمة ويود الزواج بها فيسلم، أو ما أشبه ذلك. ولم نر عالماً بدينه وبدين الإسلام، وهو في عز ويسر انتقل إلى دين الإسلام رغبة بغير شيء من تلك الأسباب التي ذكر منها أو ما يماثلها[113].

## قصارى القول

في ذكرنا لهذا الفيلسوف الذي اعتبر عند معاصريه حكيم العراقين وقدوة اليهود، نكون قد عرضنا تاريخ اليهود وحالة العصر في أيام المغول. يقول دافيد بانيث عام 1925: «كتاب التنقيح لابن كمونة يحتوي على مناظرات وحوادث دينية سوغتها أحوال المنطقة الواقعة تحت حكم المغول، وهي تحمل طابع المودة والصراحة. وفي كتاب التنقيح تقريظ لنبي الإسلام والمسيحيين لا إقراراً بنبوتهما بل تودداً واحتراماً لأتباعهما»[114]. مما ذكرته سابقاً عن دور اليهود في الحضارة الإسلامية، يدل على سماحة الإسلام وحسن معشر المسلمين.

# مراجع الفصل الثالث : اليهود في بلاد الشام والعراق


(1) التنبيه والإشراف ص111، المسعودي، تحقيق عبد الله إسماعيل الصاوي، القاهرة 1938.

(2) المصدر السابق ص157.

(3) تلفيق صورة الآخر في التلمود ص152- 153، زياد منى شركة قدمس للنشر، بيروت 2002.

(4) المصدر السابق ص259.

(5) المصدر السابق ص262.

(6) المصدر السابق ص227.

(7) مقدمة ابن خلدون ص212- 213، كتاب التحرير القاهرة 1966.

(8) الإتقان في علوم القرآن ج2، ص113، السيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية بيروت 1988.

(9) علم التفسير ص23، الشيخ محمد حسين الذهبي، كتابك، دار المعارف المصرية، 1977.

(10) قصة الحديث المحمدي ص59، محمد أبو رية، المكتبة الثقافية، القاهرة، 1969.

(11) المصدر السابق ص65.

(12) علم التفسير ص62.

(13) تفسير القرآن العظيم، ص41، سهل التستري، القاهرة.

(14) زبدة التفاسير ص134، الإمام الشوكاني، دار الفيحاء، دمشق 1994.

(15) الإتقان في علوم القرآن ج1، ص170.

(16) الجامع لأحكام القرآن ج1، ص29، القرطبي، دار الكتب العلمية الإسلامية، طهران 1988.

(17) الملل والنحل ج2، ص13، الشهرستاني، تحقيق عبد العزيز محمد الوكيل، مؤسسة الحلبي القاهرة 1968.

(18) المصدر السابق ج2، ص16.

(19) المصدر السابق ج2، ص17.

(20) مقدمة ابن خلدون، ص375.

(21) تاريخ الطبري ج4، ص340، دار التراث، بيروت 1967.

(22) الفرق الإسلامية ص138، عبد القاهر البغدادي دار الكتب العلمية، بيروت 1965.

(23) تاريخ الإسلام الثقافي والسياسي ص445- 446، صائب عبد الحميد دار الغدير، بيروت 1998.

(24) المصدر السابق ص448.

(25) المقدمات الخمس والعشرين، المقدمة الأولى ص5، محمد زاهد الكوثري، دار الكتب العلمية، بيروت.

(26) تاريخ الإسلام الثقافي والسياسي، ص268- 269.

(27) الجامع لأحكام القرآن، ج14، ص227.

(28) تفسير المنار ج8، ص449، محمد رشيد رضا، دار المعرفة بيروت 1978.

(29) تذكرة الحفاظ ج1، ص7 الذهبي، دار إحياء التراث، مكتبة الحرم مكة المكرمة.

(30) جامع بيان العلم ج1، ح78، ابن عبد البر، بيروت 1995.

(31) زبدة التفاسير، ص62.

(32) تفسير مفاتيح الغيب، ج1، ص195، فخـــر الديـــن الـــرازي، القاهرة، 1298هـــ.

(33) التنبيه والإشراف، ص217.

(34) الجاحظ حياته وآثاره، ص21، طه الحاجري، دار المعـــارف بمصر القاهرة، 1969.

(35) ذخيرة الأذهان ج1، ص260، القس بطرس نصري الموصــلي 1905.

(36) جهار مقالة ص20، السمرقندي، ترجمة عبد الوهاب عـــزام، مطبعة لجنة التأليف والترجمة القاهرة 1949.

(37) تـــاريخ الأدب العربـــي ص440- 441، حنـــا الفـــاخوري، المطبعة البولسية لبنان.

(38) جهار مقالة ص24.

(39) الملل والنحل للشهرستاني ج2، ص23.

(40) رحلة بنيامين التطيلي ص96، عزرا حداد المطبعة الشـــرقية بغداد 1945.

(41) المصدر السابق ص98.

(42) ثلاث ر سائل ص18، الجاحظ، تحقيق يوشع فنكـــل القـــاهرة 1934.

(43) ضحى الإسلام ج1، ص328، أحمد أميـــن مكتبـــة النهضـــة المصرية القاهرة 1933.

(44) المصدر السابق ج1، ص331.

(45) كتاب الحيوان للجاحظ، ج4، ص64، تحقيق فوزي عطوي مكتبة دار المعرفة بيروت.

(46) الكامل في التاريخ ج7، ص26، ابن الأثير، تحقيق عمر طبارة، بيروت 1957.

(47) كتاب الحيوان للجاحظ، ج5، ص52.

(48) معاهد التنصيص ج6، ص155، أبو الفتح عبد الرحمن العباسي، تحقيق محي الدين عبد الحميد، القاهرة 1947.

(49) الإرشاد إلى قواطع الأدلة ص343، إمام الحرمين الجويني تحقيق محمد يوسف موسى، القاهرة، 1950.

(50) الملل والنحل، ج1، ص27.

(51) رحلة ابن بطوطة، ج1، ص93، كتب ثقافية، القاهرة 1960.

(52) ضحى الإسلام ج1، ص339، أحمد أمين، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة 1952.

(53) الجامع المختصر ج9، المقدمة (ص) ابن الساعي تحقيق مصطفى جواد المطبعة السريانية الكاثوليكية بغداد 1934.

(54) رحلة بنيامين التطيلي ص199، ترجمة وتقديم عزرا حداد المطبعة الشرقية 1945.

(55) ثلاث رسائل للجاحظ ص37.

(56) الجاحظ حياته وآثاره، ص367، طه الحاجري دار المعارف القاهرة 1969.

(57) أسس الأنثروبولوجية الثقافية، ص47، ميليفيل ج. هرسكوفيتز، ترجمة رباح النفاخ وزارة الثقافة دمشق 1974.

(58) التنبيه والإشراف ص98- 99.

(59) قصة الحضارة ج14، ص42، ول ديورانت، ترجمة محمد بدران، الإدارة الثقافية، القاهرة، 1964.

(60) ضحى الإسلام ج3، ص316.

(61) التنبيه والإشراف، 187.

(62) وفيات الأعيان ج4، ص397، ابن خلكان، تحقيق إحسان عباس، دار الأندلس بيروت 1965.

(63) رحلة بنيامين التطيلي ص144.

(64) مقامات الكازوروني، ص45، تحقيق كوركيس عواد وميخائيل عواد، مطبعة الإرشاد بغداد 1962.

(65) المصدر السابق ص76.

(66) رحلات إلى العراق ص133، سير والس بدج، ترجمة فؤاد جميل، مطابع دار الزمان بغداد 1966.

(67) المصدر السابق ص172.

(68) المصدر السابق ص60.

(69) Rich, Residence in Koordstan vol2 p73 London 1840.

(70) الملل والنحل ج2، ص20.

(71) المصدر السابق ج2، ص21.

(72) المصدر السابق ج2، ص21 – 22.

(73) المصدر السابق ج2، ص23.

(74) بروتوكولات حكماء صهيون ج2، ص191، عجاج نويهض، بيروت.

(75) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الـــهجري ج1، ص62، آدم متز، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة. القاهرة 1938.

(76) رحلة بنيامين التطيلي ص154– 155.

(77) المصدر السابق ص157.

(78) المصدر السابق ص209.

(79) مقدمة ابن خلدون ص420.

(80) طبقات الأطباء والحكماء ص61، ابن جلجل، تحقيـــق فـــؤاد سيد، القاهرة 1955.

(81) عيون الأنباء في طبقات الأطباء ج4، ص313– 315، ابـــن أبي أصيبعة، تحقيق قاسم وهب وزارة الثقافة دمشق 1997.

(82) الملل والنحل ج2، ص23.

(83) تاريخ الحكماء للقفطي ص426، نشر جوليـــوس جليـــبرت، ليبزيغ، 1903، وأعادت نشره دار المثنى بغداد.

(84) عيون الأنباء في طبقات الأطباء ج4، ص316– 321.

(85) تاريخ مختصر الدول ص275، ابن العـــبري دار المســيرة، بيروت، 1986.

(86) عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ج4، ص322– 334.

(87) المصدر السابق ج4، ص336، وما بعد.

(88) المصدر السابق ج3، ص87.

(89) تاريخ حكماء الإسلام، ص23، ظهير الدين البيهقي، تحقيـــق محمد كرد علي، مطبعة الترقي دمشق 1949.

(90) تاريخ مختصر الدول ص210.

(91) المصدر السابق ص209.

(92) تاريخ الحكماء للقفطي، ص487.

(93) تاريخ حكماء الإسلام، ص23.

(94) العلم عند العرب ص452، الدوميلي، ترجمة محمد يوسف موسى وعبد الحليم النجار، دار القلم القاهرة 1962.

(95) المصدر السابق ص213.

(96) المصدر السابق ص234.

(97) المصدر السابق ص151.

(98) الفلسفة في الإسلام، ص146، ف.ج. دي بور، نقله إلى العربية محمد عبد الهادي أبو ربدة، القاهرة 1957.

(99) العسجد المسبوكة ص559، الملك الأشرف الغساني، تحقيق شاكر محمود عبد المنعم، دار البيان بغداد 1975.

(100) المصدر السابق ص560.

(101) المصدر السابق ص575.

(102) المغول في التاريخ ص254، فؤاد عبد المعطي الصياد دار النهضة العربية بيروت 1970.

(103) ذخيرة الأذهان، ج2، ص9، بطرس نصري الكلداني، طبع الموصل 1913.

(104) تاريخ الخلفاء ص473، السيوطي، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد مطبعة المدني القاهرة 1964.

(105) تاريخ مختصر الدول ص217، ابن العبري، دار المسيرة بيروت، 1986.

(106) كشف الظنون ج1، ص303، حاجي خليفة، ليبزيغ، 1835.

(107) تلخيص مجمع الآداب في معجـــم الأســماء والألقـاب ج1، ص160، ابن الغوطي، تحقيق مصطفى جواد، بغداد 1932.

(108) المصدر السابق، ج1، ص161.

(109) كتاب تنقيح الأبحاث في الملل الثلاث ص1، ابن كمونة.

(110) الحوادث الجامعة ص441 -442 ابـــن الســاعاتي، تحقيــق مصطفى جواد بغداد 1934.

(111) حواشي ابن المحرومة ص32، تحقيق المطران حبيب باشـــا، جونية لبنان 1984.

(112) المصدر السابق ص73 -74.

# الفصل الرابع

# اليهود في مصر والأندلس

-فتح مصر وأرض المغرب، وأشهر الأطباء اليهود
-فتح الأندلس، تاريخ اليهود قبل الإسلام
-حياة اليهود في الأندلس الإسلامية
-إبداع علماء اليهود في الشعر والأدب
-مراجع الفصل الرابع

# مصر ، الموقع والتاريخ

تقع مصر في شمال شرق القارة الأفريقية، على ساحل المتوسط، ويخترقها نهر النيل من الجنوب إلى الشمال، يحدها من الشرق البحر الأحمر وصحراء سيناء، ومن الغرب ليبيا، ومن الجنوب السودان.

مناخ مصر جاف قليل الأمطار، ومعظم أراضيها صحارى، والشريط الخصب هو المحاذي لنهر النيل الذي ينبع من أواسط القارة الأفريقية، ويخترق مصر بطول 1500 كم، والأرض التي يرويها النيل من أخصب الترب في العالم، وتقدر مساحتها بـ 4٪ من مساحة مصر.

لقد تحدى الإنسان المصري القديم قوى الطبيعة، وابتكر طرقاً للري، وحراثة الأرض، وإن كان قد قيل (مصر هبة النيل) فالصواب أن مصر هبة أبنائها. ومنذ الألف الرابعة قبل الميلاد قامت إمبراطورية في مصر، هي الإمبراطورية الأولى في الشرق الأوسط.

لقد تعاقبت عشرات السلالات الفرعونية، وكان منهم ملوك مصلحين أعطوا للإنسانية نواة الفكر التوحيدي، أمثال الفرعون أمنحوتب الرابع (أخناتون) الذي نقل عن ديانته اليهود توحيدهم. ثم توالت على مصر شعوب من حكام من خارج أرض مصر، كالآشوريين والفرس واليونان والرومان، وأخيراً العرب المسلمون.

تنوعت في أرض مصر الخبرات البشرية، وتفاعلت العلوم والديانات فتكونت حضارة متميزة هي الحضارة المصرية الخالدة. كان اليهود، وإن كانوا من أصل سامي، فهم نتاج الحضارة المصرية وحضارة الهلال الخصيب، وقد أمدنا العبريون بكتابهم المقدس (التوراة) وأسفار الأنبياء، وكتب القضاة والأمثال التي امتدت ما بين (750- 200 ق.م) ويغلب عليها الطابع السوري والعربي.

## اليهود في مصر

بعد أن خرج موسى بقومه، لم تنقطع العلاقة بين مصر واليهود، وعلى أثر غزو الإسكندر الكبير المكدوني لمصر عام 333 ق.م، حكم خلفاؤه البطالمة أرض

مصر، وبنوا مدينة الإسكندرية على أنقاض مدينة راكودة القديمة عام 305 ق.م، وكانت فيها جالية يهودية ولهم معبد. وعندما عرف الحاكم بطليموس الثاني (285- 247 ق.م) بوجود كتاب اليهود المقدس (التوراة) أمر بترجمته من الآرامية إلى اليونانية، وسميت تلك الترجمة (بالسبعينية).

تأثر اليهود بالثقافة الهلنيستية، وصاروا يتكلمون العبرية والآرامية واليونانية، مما جعلهم متعددي الثقافات، وعندما احتل الرومان أرض مصر (31 ق.م) ظهرت حضارة جديدة، واعتبر اليهود مواطنين صالحين، وتولوا التدريس في الجامعات وأصدروا الكتب الفلسفية واللاهوتية والمعاجم اللغوية. وظهر من بينهم فلاسفة، مثل:

**فيلون اليهودي (20 ق.م - 54م)**

كان فيلون سليل أسرة يهودية عريقة. كان أخوه الأكبر مديراً لمرفأ الإسكندرية. وكان فيلون ذا ثقافة رفيعة. كان يدرس الفلسفة والفلك والرياضيات في الجامعة، وصار له صيت في روما، وذهب إليها وألقى فيها عدة محاضرات، وكانت له طريقة في فهم نصوص الفلسفة اليونانية على ضوء معطيات التوراة، وكان يؤثر تفسير الدين اليهودي على معطيات العقل الإغريقي، وصار موسى عنده وأفلاطون توأمان في الفكر، بل إن أفلاطون هو موسى إلا أنه يرطن بالإغريقية. وكان يعتقد أن الوحي الإلهي لا تصدر منه إلا حقائق، وإذا وجدنا في التوراة ألفاظاً تخالف العقل فلا بد لنا من تأويل النصوص لتصبح الألفاظ رموزاً تطابق العقل. وكان فيلون لا يتعصب ضد الأساطير الوثنية لدى الشعوب الشرقية والفلسفات العرفانية (الغنوصية) وكان يتسلح بفكر نيِّر يسلك طريقان:

الطريق الأول: اعتقاده الذي لا يتزعزع بصدق الديانة اليهودية وتأثير على الفكر اليوناني.

الطريق الثاني: يجب اتخاذ طريقة التأويل والتفسير الرمزي في فهم النصوص التوراتية[1].

أثر منهج فيلون في الدراسات المسيحية والإسلامية. كان أحبار اليهود قبل فيلون يقولون بأنه يجب تفسير التوراة مع المحافظة على ظاهر النص، لأنه يعبر عن حقيقة كونية مصدرها الوحي الإلهي، وقصة التكوين يجب أن تؤخذ حرفياً

(خلق آدم من طين، وخلق حواء من ضلعه، وإبليس خلق من نار). ولكن فيلون طالبنا بدراسة نصوص التوراة وقراءتها قراءة مغايرة، إذ أدخل التأويل متأثراً بأفلاطون في تفسيره لأساطير اليونان. كان فيلون يرى أن الحقيقة واحدة في العالم، وأن الأنبياء تكلموا بالمجاز ستراً للحقيقة عن غير أهلها، وإن التأويل غايته إبراز المعنى الخفي للنص، ومثَّل للمعنى الحرفي بالجسم والمعنى الخفي بالروح، وأن من الواجب العناية بالروح والجسم معاً.

اتخذ فيلون نماذج من قصص التوراة، وأجرى عليها طريقته في التأويل كقصة تضحية إبراهيم بابنه البكر، وبلبلة الألسن وظهور اللغات بين البشر، واستراحة الله يوم السبت بعد لأن خلق العالم في ستة أيام. ثم انطلق في تأويلها، فاستراحة الله، لا تعني أن الخالق كان في حاجة إلى مدة من الزمن وأنه استراح من التعب الذي حلَّ به، إن ما ذكره موسى، أراد أن يعرفنا باللغة التي نفهمها نحن البشر، بنظام العالم الذي خلقه، ومنزلة بعضه من بعض. وإني أرى أنه من السذاجة أن نعتقد أن هذا العالم خلق في ستة أيام، أو بفترة من الزمن[2].

وفي تأويله لتابوت العهد، قال: إنه يرمز إلى الروح غير القابلة للفناء، الروح الكاملة التي لا ترى إلا من خلال أعمالها المشاهدة والمرئية، وعلو التابوت هو رمز لعظمة الروح التي تضحي وتقدم قرباناً، وأما زيت المصباح في الهيكل فهو رمز للحكمة الإلهية. وبعد فيلون قامت عند اليهود مدرستان، أو منهجان:

1)منهج التفسير الحرفي القديم: هذا المنهج أخذ به الأحبار الربانيون، وخلقوا من التوراة أساطير تجافي العقل، ومنها خلقوا شروح التلمود التي تجعل من الله كائناً بشرياً يعيش وسط الملائكة في السماء.

2)منهج التأويل العقلي الجديد: يعتمد هذا المنهج على التأويل العقلي، وعلى الإلهام الرباني، ويحاول أن يجعل من نصوص التوراة فكراً يؤثر في القلب (الوجدان) والعقل معاً، وعندما انتقل سعدية بن يوسف الفيومي (870- 943) من مصر إلى العراق ترجم التوراة إلى العربية بأسلوب جذاب، جعل المسيحيين يعتمدون عليه، وانتشر من مدرسة سورا إلى بقية المدارس اليهودية، وانقسم يهود العراق إلى قسمين: الربانيون الذين حافظوا على التقاليد القديمة في التفسير، والقراؤون أتباع سعدية الذين اتبعوا التأويل وقالوا: كل من لا يقبل التأويل

والتفسير الرمزي، هو ملحد بل كافر، وصار القراؤون يصفون الله بأن ليس كمثله شيء، وأنه لا يحد ولا يدرك بالحواس، لا يدرك إلا بالتأمل العقلي، ونفوا عنه التجسيم والتبعيض، والصفات. وكانوا كالمعتزلة، بل لقد تأثروا بأقوال إبراهيم بن سيار النظام (المتوفى 751م). قاوم الربانيون سعدية، واتهموه بالمروق من الدين، وأنه من أتباع محمد، فهاجر إلى بيت المقدس.

## فتح المسلمين لمصر والمغرب

بعث الرسول (ص) رسولاً إلى المقوقس عظيم مصر مع حاطب بن أبي بتلعة، وتقبل المقوقس الرسول بالترحاب وأرسل للرسول (ص) هدية وجارية هي مارية القبطية، فاستوصى الرسول بالقبط خيراً[3].

وفي زمن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب، استأذن عمرو بن العاص سنة (21هـ/ 643) الخليفة بأن يفتح مصر، فطلب منه عمر أن يصف له حالة شعب مصر فقال: «في أهلها صخب وطاعتهم رهب، وسلامهم شغب، وحروبهم فيها الهلاك، وهم عبيد لمن غلب»[4].

أذن الخليفة عمر بن الخطاب بفتح مصر، بعد أن توقف نهر النيل عن الفيضان، وحاصرت قوات المسلمين حصن بابليون القديم (قرب الفسطاط) على أطراف الدلتا في مكان القاهرة، واستسلمت المدينة، وخط عمرو بن العاص الفسطاط، وبنى مسجداً، ثم استسلمت له الإسكندرية بعد موت هرقل عام 643م، وحاول البيزنطيون استرداد مصر ولكنهم فشلوا[5].

قال السيوطي: «فتحت الإسكندرية عنوة سنة (21هـ/ 643م) ولم يكن للأعاجم بعدها جماعة»[6]. وقاد عمرو بن العاص حملة على القيروان، ثم تابع الفتوح بعده عقبة بن نافع.

أصبحت الفسطاط عاصمة مصر الإسلامية، وظلت الإسكندرية مدينة العلم والثقافة. وفي العصر العباسي عيِّن صالح بن علي العباسي والياً على مصر (750- 755م) وشعر أن مدينة الفسطاط أصبحت تضيق بالعسكر، فاختار الموضع المعروف بالحمراء القصوى[7]، وسمح الوالي لليهود بعمارة حي لهم بالفسطاط. وفي زمن الخليفة الرشيد تولى حكم مصر الوالي موسى بن عيسى

(788- 796) واشتهر بالعدل وإذن لليهود بفتح الكنيس والمدارس. وفتح اليهود مدرستان، الأولى بالفسطاط للدراسات اللاهوتية، والأخرى مدرسة للعلوم والطب في الإسكندرية. وصار اليهود يملكون ثلاث مدارس، المدرسة الثالثة في مدينة الفيوم، وكان تواجدهم فيها قديم قبل الفتح الإسلامي، وكانت الفيوم مشهورة بتدريس الطب وفيها كتب جالينوس وأبقراط قبل أن تترجم في العهد العباسي من قبل مدرسة حنين بن إسحق العبادي، كانوا يقرأون تلك الكتب باليونانية، ولها مجاميع (كناشات) بالعبرية، وضما إلى خبراتهم السابقة الخبرات التي وجدوها في كتب أبي بكر الرازي (الحاوي) وكتب ابن سينا (القانون) وكتب علي بن ربن الطبري (فردوس الحكمة)، وصار أطباء اليهود ينالون الشهرة في دار الإسلام. وسأذكر بعض الأطباء اليهود في تلك الفترة.

**الطبيب إسحق بن عمران (المتوفى 905م)**

كان يهودياً ولد في بغداد حوالي عام 830م، وتعلم الطب على حنين بن إسحق وثابت بن قرة الحراني، وتعلم الرياضيات والفلك، وأسلم في زمن المعتضد، وذهب من بغداد إلى القيروان، وكان يلقب (بسم ساعة). دخل القيروان في دولة زيادة الله بن الأغلب (المتوفى 909م). يقول ابن جلجل عن إسحق: «وبه ظهر الطب في المغرب وعن طريقه عرفت الفلسفة».

كان إسحق طبيباً حاذقاً مميزاً في ممارسة الطب، وبتركيب الأدوية، ألّف في الطب كتابه المعروف (نزهة النفس) وكتابه في أدوية الماليخونيا، الذي لم يسبق إلى مثل أحد، وله كتابان مدرسيان هما كتاب (الفصد) وكتاب (النبض).

كانت في القيروان جالية يهودية كبيرة، تدرس في جامعة القيروان مع أبناء المسلمين العلوم (الفلك والرياضيات والطب) وعلوم التربية، والفلسفة. وكان أول من بدأ التدريس هو الطبيب العلامة إسحق بن عمران.

استأذن إسحق بن عمران الأمير زيادة الله بالانصراف إلى بغداد، فلم يأذن له لحاجة البلد إليه في التدريس والمعالجة، ولكي يشرف على طعام وعلاج الأمير نفسه، وحدثت المشكلة التالية:

دخل إلى بلاط ابن الأغلب طبيب يهودي شاب من تلاميذ إسحق، وتقدم الطعام لابن الأغلب، وكان به شره، وتقدم الأمير، فقال له إسحق: لا تأكل من

هذا الطعام وتشرب اللبن، ولكن الطبيب الشاب، قال للأمير: كل منه وسنصلحه لك. وكانت بابن الأغلب علة النسمة (الربو). وفي الليل عرضت للأمير نوبة الربو، فأرسل لإسحق وسأله: هل عندك علاج؟ قال له: لقد نهيتك! فقال زيادة: هذه خمسمائة دينار وعالجني. فأبى وزاده إلى الألف، فأخذها وأمر بإحضار الثلج، وأمره بالأكل حتى امتلأ جوفه، ثم قيأه، فخرج اللبن من جوفه وقد تجمد، وقال إسحق: أيها الأمير لو وصل هذا اللبن إلى شرايين رئتك لهلكت. فقطع زيادة رزق الطبيب اليهودي[8].

كان زيادة الله بن الأغلب مصاباً بالماليخونيا، وبدس الطبيب اليهودي السابق، غضب يوماً على إسحق وأمر بفصده، وسال دمه حتى مات عام 905م، ثم أمر بصلبه على جذع شجرة، وطال مقامه في الصلب حتى عشش في جوفه صقر لطول مقامه، ومات زيادة الله مجنوناً عندما حاصرته قوات عبيد الله المهدي الفاطمي عام 909م.

**الطبيب إسحق بن سليمان الإسرائيلي (835- 932م)**

كان إسحق يهودياً من أهل الفسطاط، درس فيها الطب، وعندما سمع بصيت إسحق بن عمران، هاجر إلى القيروان، ولازم إسحق بن عمران، وتتلمذ له. وبعد وفاة زيادة بن الأغلب خدم إسحق بن سليمان في بلاط عبيد الله بن المهدي في بلدة المهدية، وكان عبيد الله يثق به، ويأتمنه على تطبيب نفسه وعياله، وكان إسحق فيلسوفاً لسناً، عالماً بتقاسيم الكلام، وبتفريغ المعاني، عاش حوالي مئة سنة، لم يتزوج، وقيل له: أيسرك أن يكون لك ولد؟ قال: أما بعد أن صار لي كتاب (الحميَّات)، فلا! يعني أن بقاء ذكره عن طريق العلم أفضل[9].

خلَّف إسحق عدة كتب في الطب والفلسفة:

1)كتاب الحميَّات، قال عنه الطبيب المصري علي بن رضوان (المتوفى 1068م) رأيت الكتاب إنه نافع وهو جمع لرجل فاضل، وقد عالجت كثيراً مما فيه فوجدته لا مزيد عليه.

2)كتاب الترياق: وهو أدوية تضم السموم التي تنفع في بعض الأمراض.

3)كتاب الغذاء والدواء، هذا الكتاب يعتمد على التغذية في تقوية البدن فهو نوع من الطب الوقائي.

4)كتاب الحدة (الغضب): قدمه للخليفة عبيد الله المهدي الفاطمي (909-934). كان الطبيب إسحاق جليساً للخليفة، يستمع إلى محاضراته وآرائه في الطب الروحي، وفي الفلسفة والعلم الإلهي، وقد جمع هذه المقالات والمجالس في كتاب سماه (بستان الحكمة).

5)كتاب البول: بيَّن فيه كيف يفحص المريض عن طريق فحص بوله.

6)كتاب عن حياة أبي بكر الرازي، وآرائه في الطب والفلسفة، أرسله إسحق إلى ملك صقلية، وعن طريق هذه الكتب تطورت صناعة الطب في المغرب والأندلس، وكانت أعظم تراث قدَّمه اليهود للفكر والثقافة الإسلامية[10].

نشر الفيلسوف إسحق بن سليمان فكرة التجلي الإلهي في البشر، وذلك عند الأنبياء والرجال الصالحين، ويمكن أن تحل روح الله في الأئمة الطاهرين، وصارت هذه التعاليم محور الدراسات اللاهوتية في البلاط الفاطمي.

## اليهود في العهد الفاطمي

بعد بناء القاهرة عام 969م، أعلن الخلفاء الفاطميون أنهم خلفاء المسلمين قاطبة، وفي زمنهم انتعش الاقتصاد وزادت ثروات البلاد، وسيطروا على المتوسط والبحر الأحمر، فتغيرت طرق التجارة ووصلت تجاراتهم إلى مدينة سيراف في الخليج العربي، وصارت القاهرة قبلة العلماء من كل الطوائف، وبنوا الجامع الأزهر لتخريج الدعاة الإسماعيلية (فلاسفة الإسلام بلا منازع) وصارت القاهرة تنافس بغداد وقرطبة.

كان الفاطميون متسامحين في الأمور الدينية والأمور العقلية، قربوا اليهود خاصة وجعلوا يعقوب بن كلس أستاذ الحضرة والمشرف على ديوان العزيز (976- 995م) وهذا الديوان يشبه مجلس الوزراء اليوم، وجعلوا فيه قاعة خاصة لاجتماع كبار الدعاة ورجال الفكر من أهل الطوائف الأخرى، ووضع للخليفة عرش محجوب بستائر ليسمع المناقشات التي تجري في الديوان، وأحياناً يشترك الخليفة في هذه المناقشات والحوارات التي تدور حول الله والنبوة والإمامة ويوم القيامة[11].

**الطبيب اليهودي الحقير النافع**

كان هذا الطبيب من أهل الفيوم، يهودي النحلة، درس في الفيوم ودرس منها، كان يدعى أبو زكريا يحيى بن يهوذا بن سعدية الفيومي، كان في زمن الحاكم بأمر الله (996- 1021) كان طبيباً جرائحياً بارعاً، حسن المعالجة للجروح والقروح، والأمراض الجلدية عامة. وكان في زمن الحاكم قد انتقل إلى القاهرة وكان يرتزق بصناعة الطب ومداواة الجروح خاصة، وأصيب رجل الحاكم بأمر الله (996- 1021) بجرح (عقر) وأزمن ولم يبرأ منه، وكان الطبيب علي بن رضوان (المتوفى 1037) كبير أطباء الحاكم، لم تؤثر علاجاته وعلاجات الأطباء الآخرين في شفائه، فأحضر علي بن رضوان الطبيب أبا زكريا، وكشف على الجرح، وركّب له علاجاً، وذرَّ عليه دواء يابساً، فنشفه وشفاه في ثلاثة أيام، فتعجب الحاكم بأمر الله، وأطلق للطبيب ألف دينار، وداعبه وخلع عليه لقباً (الحقير النافع) وجعله من أطبائه الخاصة.

وكتب أبو زكريا علي بن رضوان مقالة في النظام الذي استعمله جالينوس في تحليل الحدة (الغضب) في كتابه المسمى (الصناعة الصغيرة)[12]، وكان مصدر علي بن رضوان كتاب إسحق بن سليمان في الحدة، وهو الكتاب الذي قدمه للخليفة المهدي الفاطمي جدّ الخليفة الحاكم بأمر الله، وكان الكتاب من كتب دار الحكمة في القاهرة التي كانت تنافس بيت الحكمة في بغداد، ومكتبة قرطبة في الأندلس.

## اليهود في الأندلس

تقع شبه جزيرة إيبريا في الجنوب الغربي من القارة الأوروبية، وتتصل بالقارة عن طريق شاهقة وعرة تدعى (جبال البيرينيه) هي التي صدت العرب من التقدم نحو أوروبا.

لما فتح العرب شبه الجزيرة أطلقوا عليها اسم الأندلس، في القسم الجنوبي المسمى فاندالسيا. قال ابن سعيد المغربي: «إنها جزيرة قد أحدقت بها البحار، فأكثرت فيها الخصب والعمارة من كل جانب، وقسمها العرب إلى ثماني ولايات (ولاية المرية وقادش، وقرطبة وغرناطة، وجيان، وملقة وإشبيليا، وحولقا) والعرب لم يملكوا الجزيرة بأسرها وإنما فتحوا معضمها».

قال المسعودي: «إن مسيرة عمارة الأندلس ومدنها نحو من شهرين. ولهم من المدن الموصوفة نحو أربعين مدينة، وفي وسط الجزيرة هضبة كبرى تنحدر سفوحها نحو المشرق، مطلة على سواحل البحر (المتوسط) الذي يتصل بالمحيط (الأطلسي) عن مضيق الزقاق (جبل طارق)».

ويتخلل الهضبة عدة أنهار تنحدر من الشمال إلى الجنوب وهي (نهر الميثو ونهر دويرة ونهر تاجة الذي تقع عليه مدينة مجريط (مدريد) وطليطلة وإشبيليا، ومنه يتفرع نهر شنّيل ماداً ذراعاً له نحو غرناطة، وجنوبه يمتد نهر لكة قرب قادس). وهناك عدة أنهار أقل أهمية مثل نهر الوادي الأبيض الذي تقع عليه مدينة بلنسية، ونهر الوادي الكبير الذي تقع عليه قرطبة. سكن الأندلس أقوام متعددة يغلب عليهم عرق الفندال، ثم زاحمتهم وزحزحتهم إلى الجنوب قبائل القوط، وسمي الإقليم الجنوبي باسم (فاندالوسية) الذي عرّبه وحوله العرب إلى الأندلس.

دخلت المسيحية الأندلس منذ القرن الأول الميلادي، ولكن الدولة الرومانية كانت تحاربهم، فالإمبراطور ماركوس أوريليوس (161- 180) على الرغم من ثقافته الواسعة وتسامحه وهو فيلسوف رواقي له كتابات فلسفية (كتاب الأفكار). أما اليهود الذين كانوا يسكنون الأندلس قبل ذلك، فقد نالوا حرية أكثر من المسيحيين لأنهم لا يشكلون خطراً على الدولة الرومانية، وكان الربي صموئيل الرواقي مستشار الإمبراطور الفاضل ماركوس أوريليوس، وفي هذا الزمن جاءت جاليات يهودية من القدس هرباً من اضطهاد الرومان لهم. امتلك اليهود الأراضي الخصبة وصاروا يعملون فيها طبقاً لتعاليم التلمود «الرجل الذي لا يملك أرضاً لا يعتبر إنساناً» (التلمود بياموت ص63أ) لأن مصدر الثروة في القديم كانت الأرض، وكان اليهود من كبار الملاكين العقاريين للأراضي الزراعية، وكانت لهم قصور في الريف، أما في المدن فكان التجار يختارون بيوتهم بالقرب من قصور الحكام ومنازلهم.

خلق الربي صموئيل الرواقي وهماً لدى الإمبراطور ماركوس أوريليوس الذي كان يؤمن بالسحر «إن المسيحيين يجلبون أمراضاً معدية، فأمر بطردهم من روما، بينما صار لليهود حرية الإقامة في أي إقليم يريدونه، ولهم الحرية في

إقامة أعيادهم العلنية، والتي يحرقون فيها صليباً إرضاء للسلطات الرومانية»[13].

## اليهود والقوط في الأندلس

كان اليهود يشكلون أكبر جالية في الأندلس في عهد ملوك القوط (الفيري - جوت) الذين كانوا على المذهب المسيحي الأريوسي، وكانوا معادين للمذهب الكاثوليكي، لذا شجعوا اليهود وأعطوهم الحرية الدينية. ولكن في زمن الملك هيلدريك دخلت إسبانيا في طاعة البابوية عام 610م، وهنا بدأ اضطهاد اليهود وقتلوا منهم ألوفاً، وكان من أشدهم الملك سنسبت Sensebut (المتوفى 621) وضاق الخناق على اليهود وحرموا من إقامة شعائرهم الدينية علناً، وأمرهم بالهجرة وإلا تعرضوا للقتل ومصادرة الأملاك.

والسؤال: ماذا فعل اليهود نتيجة الاضطهاد؟

إنهم تظاهروا باعتناق الديانة المسيحية خوفاً على أرواحهم وأموالهم. وصار اليهود المرتدون يرتادون الكنائس، ويضعون الصلبان الكبيرة في أعناقهم، ولكنهم يحتفلون بأعيادهم ويختتنون سراً.

تنشطت الدراسات اللاهوتية وظهر علماء أمثال أزيدور الإشبيلي (المتوفى 635م) ودارت المناقشات حول نسخ شريعة موسى والناسوت وتحاوروا حول الآية (سمعتم أنه قيل عين بعين وسن بسن، وأما أنا أقول لكم، لا تقاوموا الشر بالشر، بل من لطمك على خدك الأيمن، فحول له الخد الآخر) (متى الإصحاح 5: 38- 39). ولكن البابا بيلاجيوس الثاني (579- 590) كان يدرك خطر اليهود فأصدر من قبل غرامات عليهم[14] احتفظ بها ملوك القوط.

صار ملوك القوط يفرضون على اليهود جمع العملات الذهبية والفضية ثم يطرحونها في الأسواق ثانية، ليبتزوا اليهود، الذين صاروا يلجأون إلى رشوة الحكام المشرفين على الأسواق لمساعدتهم فأفسدوهم. ولكن الكنيسة تنبهت إلى هذا الأمر فانعقد في طليطلة سنة 589م، مجلساً، اشترك فيه الأسقف أيزيدور الإشبيلي وأصدروا القرارات التالية:

1) منع اليهود المسيحيين في أي نوع من الأعمال خصوصاً في الأعمال الزراعية.

2)ضرورة عتق أي عبد مسيحي أو إذا اعتنق العبد الوثني المسيحية، إذا كان مملوكاً ليهودي.

3)فصل كل اليهود الذين في خدمة الحكومة، خاصة المشرفين على الأسواق وعدم تعيينهم مستقبلاً.

4)منع زواج المسيحيات باليهود المرتدين.

5)منع الختان، ومعاقبة أي يهودي يفرض الختان على خدمه، وذلك بمصادرة أرضه وأملاكه المنقولة.

6)ضرورة تعليق اليهودي شارة مميزة في مكان ظاهر حتى يعرفه الجميع.

وافق المجلس على هذه المقترحات وأرسلها إلى البابا لتكون قوانين لكل الولايات الأوروبية.

أعاد تلك القرارات عندما استعاد العرش الملك سيسناد عام 633م، وعقد في طليطلة مجمعاً أضاف إلى المقررات السابقة:

1)يتحتم على كل يهودي أن يسلِّم أبناءه عند بلوغهم السابعة للكنيسة لتقوم بتعميدهم وتربيتهم تربية مسيحية.

2)يُسلَّم كل يهودي ارتد عن المسيحية، لأحد المسيحيين ليتخذه عبداً.

وفي عهد الملك شنتيلا 648م، قرر المجمع الكنسي في طليطلة طرد اليهود من البلاد، ولكنهم تعهدوا للملك أنهم سيكونون مسيحيين مخلصين للكنيسة والملك. وفي عام 653م، اعتلى العرش الإسباني الملك ريشوسويند Receswind وأصدر أمراً ملكياً، كل إنسان يقوم بشعائر غير مسيحية يعاقب بالقتل أو الحرق أو الرجم حتى الموت. ولأول مرة صار اليهود يربون الخنازير التي صارت تزدحم بها شوارعهم، وتذبح وتباع في الأحياء اليهودية، وكان اليهود يشترون لحوم الخنازير في العلن ويرمونها في السر، ولا يأكلونها.

واقترح الملك إرفيج Erwig على المجلس الكنسي الثاني عشر الذي عقد في مدينة طليطلة سنة 661م، المنعقد تحت رئاسة الأسقف اليهودي المرتد جوليان أمراً بمنع الكتب التي تعادي المسيحية وبحرقها. وقام الملك إيجيكال Egical بمصادرة أملاك اليهود عام 672م، وتوزيعها على المسيحيين، ومعاقبة كل مسيحي يعتق عبداً يهودياً[15].

هذه هي حال اليهود المزرية والمهينة، وصار على اليهودي أن يلازم الأسواق الأسبوعية خارج أسوار المدن والقرى، وعندما تقفل أبواب الأسوار عند هبوط الليل يطرد اليهود منها جميعاً[16].

وفي مدينة تولوز جنوب فرنسا كان يستدعى الحاخام الأكبر إلى بيت الحاكم يوم أحد الفصح، ويتلقى أمام الناس صفعة انتقام المسيح، وفي هذه الفترة حرم اليهود من الكتابة في دواوين الدولة، وضحل الأدب والشعر العبري، ولكن زاد اتصالهم بيهود المشرق الذين كانوا ينعمون بالحرية تحت الحكم العربي الإسلامي.

كتب هنري بيرين: «إن يهود إسبانيا في القرنين (الخامس والسادس الميلاديين) كانوا شراذم من المشردين يعيشون خارج أسوار الموانئ»[17].

صار يهود إسبانيا يكتبون إلى الحكام العرب المسلمين يغرونهم بفتح إسبانيا ليخلصوهم من ظلم الملك رودريك الذي يسميه العرب لذريق الملك، وكان قد اغتصب العرش من الملك ويتز Witts الذي يسميه العرب غيطشة. زادت المراسلات بين اليهود والملك جوليان حاكم سبتة من قبل العرب، وأكدوا له أنهم سيضعون تحت تصرفه كل عون ممكن، وعندما ركب طارق بن زياد السفن وتم تحرير الأندلس عام 712م، سماه اليهود بالمخلص[18].

إذاً، كانت حال اليهود مزرية لا يحسدون عليها قبل الفتح العربي للأندلس.

## يهود الأندلس في العهد العربي

لما فتح موسى بن نصير أرض المغرب عام 706م، جعل حاضرته طنجة، وأرسل مولاه طريف في 400 رجل ومعهم 100 فارس ونزل بجزيرة على الساحل دعيت فيما بعد (جزيرة طريف) وعاد طريف إلى المغرب غانماً سالماً، وقد جسَّ وضع المقاومة في الأندلس، وتبعه طارق بن زياد وفتح الجزيرة الخضراء عام 712م، وبنى فيها مسجداً، ثم تقدمت القوات العربية بقيادة موسى بن نصير وتم له فتح الجزء الجنوبي (إقليم الأندلس) وقامت بإشبيلية ثورة فأخمدها عبد العزيز بن موسى بن نصير، وتم فتح الأندلس كاملة في عهد الوليد بن عبد الملك.

عين عمر بن عبد العزيز على ولاية المغرب السمح بن خولان، فأنصف وعدل، وتوالت انتصارات العرب في شبه جزيرة الأندلس وامتدت تلك الانتصارات إلى جنوب فرنسا إلى مدينة تولوز. وتوقفت حدود العرب، عندما استشهد القائد

العربـي عبـد الـرحمن الغـافقي سـنة 732م، ثـم تـولى الإمـارة كلثـوم بـن عيـاض القشيري، وقامت ثورة البربر عام 750م، فأخمدها بلج بن بشر القشيري.

استقر الأمـر للعـرب في الأنـدلس، ولكـن بـدأت الصـراعات بـين الجنـد العـرب الشاميين وجند البربر المسلمين. وبعد قتال مرير اتفقوا تحت راية يوسف بن عبد الرحمن الفهري واستتب الأمن حتى دخول عبد الرحمن الداخل عام 756م.

أصبح أهل الأندلس يتشبهون بجيرانهم من أهل الذمة (اليهود والمسيحيين) وامتزج المعاهدون بجيرانهم الفاتحين وكثرت الزيجات، وكان اليهود يدفعون ببناتهم الجميلات للزواج بالعرب أو البربر المسلمين، فتحسنت صورة الأبناء. قال ابن بسام: «في جزيرة الأندلس أشراف عرب المشرق، وسادات أجناد الشام والعراق، فتحوا الأندلس ونزلوها وبقي النسل فيها بكل إقليم على عرق كريم»[19]. وقال صاحب (فرحة الأنفس): «أهل الأندلس عرب في الأنساب والعزة، والأنفة وعلو الهمة، وفصاحة الألسن، والسماحة فيما بين أيديهم، وهم هنديون في إفراط عنايتهم بالعلوم، وضبطهم لها. وهم بغداديون في ظرفهم ورقة أخلاقهم، وذكائهم وحسن نظرهم وجودة قرائحهم ونفوذ خواطرهم، ويونانيون في استنباطهم للمياه واختيارهم لغراس أجناس الفواكه وتحسينهم للبساتين، وتحسين الصنائع»[20]. وقال ابن حزم (995- 1068م) «بل أهل الأندلس صينيون في إتقان الصنائع العملية وإحكام المهن الصورية، تركيون في معاناة الحروب ومعالجة آلاتها»، وهذا دليل على تراكم الخبرات وتواردها على الأندلس من كل جهات الدنيا.

كان اليهود يسيطرون على الرقص والغناء وقد كيفوا ذلك مع الذوق العربي والحشمة الإسلامية، وكانوا كذلك يسيطرون على حرف البناء، يبنون القصور للحكام والأمراء ويزينون الساحات العامة بالتماثيل. قال أبو عامر الرياني في وصف الصنم الذي كان بشاطبة:

بقيـة مـن بقايـا الـروم معجبـة    أبدى البناة بها من علمهم حكما
كأنـه واعـظ طـال الوقـوف بـه    مما يحدث عن عاد وعن إرما
فـانظر إلى حجـر صـلد يكلمنـا    أشجى وأوعظ من قس لمن فهما

وأما عن حال العلم وانتشاره في قرطبة عاصمة الدولة، قال الشاعر:

بأربعة فاقت الأمصار قرطبة     منهن قنطرة الوادي وجامعها
هاتان ثنتان والزهراء ثالثة     والعلم أعظم شيء وهو رابعها

كان لليهود دور كبير في ازدهار العلم، بسبب الحرية والنعمة التي جنوها من العرب المسلمين. وصاروا يقلدون المسلمين في لباسهم، وفي عاداتهم وفي علومهم حتى الفقه درسوه والشعر على القافية العربية نظموه. ومن فرحهم بالعرب لم تعد تسعهم الدنيا. أتقنوا العربية وبرعوا في آدابها والحكمة وعلوم الأوائل حتى إنه لا يمكن فصل تراثه اليهودي عن التراث الإسلامي الذي سمح لهم بالكتابة والتفكير والإبداع.

**الأمير عبد الرحمن الداخل (756 788م)**

هرب عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك من مدينة الرقة، وكان لهشام فيها قصور وسوق يعرف بسوق هشام حتى في العصر العباسي. هرب من الرقة مع مولاه بدر البربري الذي بقيت أسرته في الرقة وكان منهم عبد الله بن سابق البربري. خرج عبد الرحمن من الرقة عام 750م، ووصل إلى الأندلس في عام 756م. فكيف هرب من الرقة؟

يقول الأمير عبد الرحمن: «كنا أنا وأخي سليمان وولدي الصغير يلعب بين يدي وهو ابن أربع سنوات (اسمه معاوية) خرج أخي سليمان فعاد وهو يقول: النجاة، النجاة، جاءت رايات المسودة (العباسية)، فأخذت دنانير وخرجت ومعي مولاي بدر البربري، وأحاطت الخيل بالمحلة، فلم يجدوا أثراً لي، فأتيت رجلاً واشتريت منه دواب. فخرجنا هرباً على أرجلنا، وعبرنا النهر سباحة، وفي منتصف النهر خاف أخي سليمان، وأمنوه ورجع وقتلوه وأنا أنظر إليه وهو ابن 13 عاماً، ومضيت ومعي بدر، وتوارينا في غيضة طرفاء حتى انقطع الطلب عنا، وخرجنا وقصدنا المغرب فبلغت أفريقية»[21].

وصل الأمير عبد الرحمن الداخل إلى أرض الأندلس عام 756م، فوجد العلاء بن مغيث اليحصبي وقد لبس السواد (علامة على خضوعه للعباسيين) وجمع حوله خلق كثير، واستطاع الأمير عبد الرحمن التغلب عليه لحب الناس

لبني أمية. بعث أبو جعفر المنصور للأمير عبد الرحمن الداخل خبراً من مكة يهنئه بسلامة الوصول. وكان المنصور قد سأله أصحابه: من هو صقر قريش؟ فقالوا: أنت يا أمير المؤمنين. فاعترض عليهم وقال: إن صقر قريش هو عبد الرحمن بن معاوية، قطع القفر، ودخل بلداً أعجمياً مفرداً، فمصَّر الأمصار وجنَّد الجند، ودوَّن الدواوين، وأقام ملكاً بعد انقطاعه، بحسن تدبيره وشدة شكيمته»[22].

استقر صقر قريش في قرطبة، وبنى فيها قصراً وقرب إليه أهل البلاد، واليهود خاصة، واستدعى إليه يحيى بن الليثي المصمودي البربري وأجلسه في الجامع لتدريس الموطأ للإمام مالك، وذلك عام 760م.

**والسؤال: كيف كانت البلاد في فترة الفوضى؟**

يجيبنا عبد الرحمن بن خلدون: «وجد فيها رسوم الصنائع قائمة، وأحوالها مستحكمة، راسخة في جميع ما تدعو إليه، وعوائد أمصارها كالمباني والطبخ وأصناف الغذاء، واللهو من الآلات والأوتار والرقص، وتنضيد الفرش والرياش، وحسن الترتيب، والأوضاع في بناء القصور، وصوغ الآنية من المعادن والخزف على أحسن حال»[23]. من النص السابق نتعرف على مدى ما وصلت إليه الأندلس من الحضارة ورسوخ أسس التمدن.

قال عبد الرحمن الداخل، وهو يزرع شجرة نخل جلبت له من الشرق العربي:

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة     تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت شبيهتي في التغرب والنوى     وطول اكتئابي عن بنيّ وعن أهلي
نشأت بأرض أنت فيها غريبة     فمثلك في الإقصاء والمنتأى مثلي

إن الرصافة هي حي في قرطبة، سماها عبد الرحمن الداخل على اسم مدينة جده هشام بن عبد الملك الرصافة في محافظة الرقة، إنه يحنّ إلى زوجته وولده معاوية الذي قتله العباسيون عندما استولوا على داره في الرقة.

أصبحت قرطبة حاضرة الأندلس في زمن عبد الرحمن الداخل، وبدت النعمة على صور أهلها ذوي الأنوف المعتدلة والقدود الحسنة، والوجوه الجميلة، المشربة بالحمرة وشعور أهلها سود مرسلة، وقد اعتادوا على أن يسيروا في الطرقات ورؤوسهم عارية كاليهود والنصارى إلا شيوخهم وعلمائهم فهم يلبسون

العمائم، وكانت من عادات أهل البلاد لبس البياض عند الحداد، وهذه عادة اليهود، قال الشاعر:

يقولون البياض لباس حزن ... بأندلس فقلت من الصواب

ألم ترني لبست بياض شعري ... لأني قد حزنت على الشباب

وكان يغلب على الحرائر من النساء لبس الحجاب، ولكن كانوا يتسامحون مع الإماء والسراري ونساء أهل الذمة، وقد تأثروا بمذهب مالك في الغيرة على الدين. وكانت مساجدهم مراكز العلوم ومنار التقى، والجميع يعملون إما بتجارة أو حرفة أو زراعة ويكرهون البطالة والتسول. وقد اشتهرت الأندلس باستخراج المعادن خصوصاً بالمناجم الواقعة على نهر تاجة قرب قرطبة، الفضة، والحديد من جبال طليطلة، والنحاس والرصاص من غرناطة، ومقاطع الرخام المجزّع الأبيض والخمري والأخضر من إشبيليا. وكانت قرطبة مركزاً لصناعة الجلود والسُّرج، وكانت هذه الصناعة متوارثة بيد عائلات يهودية منذ مئات السنين، بينما استخراج الزيت من الزيتون والخمرة من العنب بيد المسيحيين من أهل البلاد، وكانت مهنة القصابة والذبح الحلال بيد اليهود.

وكانت التجارة البعيدة بيد المسلمين، أما تجارة الأسواق في المدن والقرى فهي بيد اليهود والنصارى الذين أسلموا، وكانت العطارة وصنع الأدوية بيد اليهود، وكان الدستور المعتمد في هذه الصنعة كناش كوهين العطار الذي شرح فيه طريقة صنع الأدوية المفردة والمركبة شرحاً وافياً، وأوضح فيه طريقة عمل المشروبات والجرعات والمساحيق والمعجنات وغيرها[24]. توفي عبد الرحمن الداخل عام 788م، وكانت قرطبة عاصمة مزدهرة.

**الأمير هشام بن عبد الملك (788- 796م)**

كان هشام بن عبد الملك، قد تلقى تعليماً جيداً، وكان بعض معلميه في الحكمة والأدب يهود، مما جعله يتقرب إليهم ووضعهم في بلاطه وأشفق عليهم، مما دفع الفقيه المالكي يحيى الليثي، وطالوت الفقيه المالكي إلى مهاجمته واتهامه بأنه اتخذ اليهود بطانته، فقاتلهم الأمير هشام، وهدم دورهم ومساجدهم فلحقوا بفاس من أرض المغرب، ووصل بعضهم إلى الإسكندرية. وقام هشام بإعادة بناء

قنطرة الوادي على أيدي مهندسين يهود، كان طول القنطرة 80 ذراعاً وعرضها 20 ذراعاً وارتفاعها 60 ذراعاً وعدد حناياها 18 حنية، وعدد أبراجها 19 برجاً، مما جعلها أعجوبة أبنية الأندلس[25]. وكان الأمير هشام مثالاً للعدل حتى لقبه الناس بالشفيق العادل، وكان يحارب الإسبان ويوسع حدود مملكته.

**الأمير الحكم بن هشام (788- 797م)**

كان أميراً شجاعاً وباسلاً، ترهبه ملوك الفرنجة، وقامت بينه وبين الملك شارلمان ملك الفرنجة (742- 814) بعد فشله في سرقسطة 778م، صداقة. أرسل إليه الأمير الحكم وفداً مؤلفاً من رجلين أحدهما نصراني والآخر يهودي لتسهيل التجارة بين البلدين، وللحصول على كتب العلوم وتبادل السفراء والهدايا. وفي هذه الفترة جاء علماء اليهود من العراق (بغداد) والتحقوا بقرطبة، قال ابن خلدون: «إن الأمير الحكم هو أول من جند بالأندلس الأجناد المرتزقة، وجمع الأسلحة والعدد، واستكثر من الحشم والجواري، وربط الخيول على بابه، واتخذ المماليك الصقالبة، وكان يسميهم الخرس لعجمتهم، وبلغت عدتهم خمسة آلاف (هم حرسه الخاص) وكان يباشر الأمور بنفسه، وكانت له عيون يطالعونه بأحوال الناس وهو الذي وطأ الملك لعقبه بالأندلس»[26].

كان الحكم يقلد بلاط الرشيد في بغداد، فيه من المغنين زرقون الإشبيلي ومنصور اليهوديان وقد اشتهرا بالغناء، وهما اللذان طبعا أذواق الناس بألحانهما وغنائهما، من طبيعة الموشحات والزجل أنهما يسمعان أفضل مما يقرآن، ويقوّمان بالأذن أكثر مما يقومان بالعين، والموشحات هي فن ملتقى العشاق، وساحة اللهو والطرب ومبعث الحب والحنين، وما إن ظهرت الموشحات ومن بعدها الأزجال باللغة الدارجة حتى استجاب لها أهل الأندلس، وكانت بمثابة الأدب الشعبي الذي يغنى في الطرقات والأسواق والحفلات والأعراس، وكان يشرف على رقصات السماح جواري من اليهود والنصارى، قال أحد الشعراء:

وقد سكنت حركات الأنس قيان تحرك أوتارها

فهذه معانقة لعودها وتلك تقبل مزمارها

وراقصة لقطت رجلها حساب يد نفرت طارها

كان من ذوق اليهود في الأندلس أن تكون الجارية تشبه الغلام في حركاتها وقصة شعرها، وقد رسم لنا الشاعر علي بن يوسف بن خروف القرطبي صورة لراقصة تبدو للعين فتى مذكر، قال[27]:

ومنـوّع الحركـات يلعـب بالنـهى    لبس المحاسـن عنـد خلـع لباسـه

متـأوداً كـالغصن وسـط رياضـه    متلاعبـاً كـالظبي عنـد كناسـه

بـالعقل يلعـب مقبـلاً أو مدبـراً    كـالدهر يلعـب كيـف سـاء بناسـه

وبضمـه للقدمـين منـه رأسـه    كالسـيف ضـم ذبابـه لرأسـه

جاء **علي بن رافع الملقب زرياب** (777- 852) إلى بلاط الحكم، وأحسن استقباله وأجرى عليه الأموال الطائلة، وأعطاه الضياع والقصور حول قرطبة، قدرت بأربعين ألف دينار ذهبي. والسؤال: هل كان زرياب يستحق هذا التقدير؟ نعم لقد كان زرياب عبقري الموسيقى العربية في كل العصور، فهو الذي زاد على العود وتره الخامس، وجعل مضربه من قوادم النسر، وهو الذي حسّن الطنبور والقيثارة، والمزهر والكنارة والقانون، وأدخل الرباب إلى الأندلس، واستخدم في العزف المزمار والناي والشبابة، والقصبة والصفارة، ومن آلات النقر التي استخدمها في الفرقة الموسيقية، الدفوف والصناج والنقارة والطبل، ومن الآلات النحاسية التي وجدها من قبل تستخدم في أرض الأندلس البوق والنفير، وكانت له طريقة في تلقين الألحان، في المدرسة التي بناها الخليفة عبد الرحمن بن الحكم (821- 852) لتعليم الجواري المشرقيات سماها (دار المدنيات) وهي أول معهد موسيقي في الأندلس (عام 840) استخدم فيه زرياب منهج تلقين الألحان:

1)تعليم الإيقاع في قراءة الشعر، وأن ينقر المدرب الدف ليظهر له زمن الإيقاع ويضبط الحركات.

2)دراسة اللحن في شكله الساذج المبني على السماع الأولي.

3)ترجيع الصوت بعد التدريب مع حلية الغناء وإظهار العواطف.

وكان يفحص المتدرب أو المتدربة، بأن يشد صوته إذا كان قوي الصوت، أما إذا كان لينه يأمره أن يشد على بطنه عمامة أو عصابة حرير بالنسبة للفتيات، فإن ذلك مما يقوي الصوت، ولا يجد متسعاً في الجوف عند خروجه من الفم، فإذا كان المتدرب متقارب الأضراس (ألصق الأضراس) لا يقدر أن يفتح فاه، أو

كانت عادية زمَّ أسنانه عند النطق، راحته بأن يدخل في فيه قطعة خشب عرضها ثلاثة أصابع يبيتها المتدرب في فمه ليال حتى ينفرج فكاه[28].

وإلى جانب ذلك كان لزرياب ذوقه الخاص في تنسيق الموائد، وتنظيمها واتخاذ الأكواب من الزجاج الرقيق بدلاً من المعادن، واصطناع الأصص للأزهار من الذهب والفضة، تغير ذوق الناس الموسيقي، ولم تعد السيطرة لمطربي اليهود الذين صاروا من تلاميذ زرياب، وتطور الزجل على يد أبو بكر بن عبد الملك بن قزمان القرطبي (1067- 1160) وكان ابن قزمان قد وجد في الأندلس ضربان من الزجل جنباً إلى جنب:

أولهما: الضرب الشعبين الذي طوره المغنون اليهود وهو جاف غليظ نسبياً، يستعمله الزجالون باللغة الدارجة، ولهجة أهل الأندلس وهو ما يوافق ذوق العوام.

وثانيهما، الضرب المصقول المهذب، وهو مصطنع ومتكلف يستعمل فيه الناس حركات الإعراب التي لا تجري بها ألسنتهم في دارج الحديث، ولكنها لا تخلو من الجاذبية وسهولة الطبع وهذا هو النوع الذي طوّر موسيقاه زرياب[29].

## التركيب الاجتماعي والطبقي في زمن الحكم

كانت القبائل العربية التي انتقلت إلى الأندلس، قليلة نسبياً، وكان أكثر الجيش العربي الفاتح من البربر الذين أسلموا، قال لسان الدين بن الخطيب: «نزلت القبائل العربية في كور على شبه منازلهم التي كانت في كورشامهم، وجعل لهم ثلث أموال أهل الذمة طعمة، وصار العرب والبلديون والبرابرة شركاء، وسكنوا واغتبطوا وكبروا وتمولوا».

أنزل الأمير عبد الرحمن الداخل البربر في كل الأندلس، وأنزل في كورتي لشبونة وباجة جند مصر، مع البلديين الأول واليهود، وأنزل في كورتي لبلة وإشبيلية، جند حمص مع البلديين الأول ومعهم اليهود، وأنزل البيرة جند دمشق، وأنزل في كورة جيان جند حلب، واختلط العرب مع أخلاط اليهود من يهود وروما وغوط وهم نصارى، ومهاجرة من أقطار شتى جاؤوا من المشرق وامتزجوا كلهم في بوتقة واحدة، لعاملين هما:

-الحرية الدينية والاجتماعية التي توفرت للسكان والتي لم تعرفها شعوب أوروبا من قبل.

-وكان لتعدد الثقافات وكثرة العلم والإبداع، أثراً في سهولة الاندماج والعيش المشترك جعلهم يشعرون بأنهم أمة واحدة.

قال المستشرق كليمن هيوار: «وعندما صار عبد الرحمن الناصر خليفة، استند على قتال الأشراف من نسل العرب المهاجرين، على الإسبانيين الذين دانوا بالإسلام وعلى كثير من الإسرائيليين والمسيحيين فتوصل بذلك إلى جعل سكان إسبانيا أمة واحدة عرفت في الشرق باسم الأندلس»[30].

كان عرب الأندلس متسامحين، اكتفوا من أهل الذمة بالجزية وأعطوهم الحرية والأمان وحرية العمل للحصول على الرزق الحلال. فأعجب بهم أتباعهم ومخالفوهم. لم يكن خلفاء بني أمية يسمعون للفقهاء {يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء} (سورة المائدة: 51). بل اعتبرتهم الدولة الصاعدة في الأندلس عمالاً مخلصين. قال جوستاف جروينباوم: «إن في الإسلام عنصراً من التعقل المتزن على تطبيق مبادئه تطبيقاً فيه رفق ورحمة، فالمنفعة هي المعيار الذي ينبغي أن يسترشد به في اختيار المعرفة والعمل»[31].

يروي ابن الفقيه (المتوفى 902م) عن الفضل بن يحيى البرمكي (المتوفى 803) أن الناس أربع طبقات، هي:

1)ملوك قدمهم الاستحقاق، وهم الذين أوجبت نعمتهم تعظيمهم في الكتب.

2)وزراء وفضلهم بالفطنة والرأي، وهم الذين تقرع بهم الرعية أبواب الملك.

3)علية القوم أنهضهم اليسار والعلم، ومنهم العلماء والفقهاء الذين يجب توقيرهم.

4)أوساط العامة الذين رفعهم التأدب والعلم، بحدة أذهانهم وشدة تميزهم عن أمثالهم من العوام، والبقية جفاء وزبد همهم الطعام والنوم[32].

كان المجتمع الأندلسي يقلد المجتمع البغدادي، وإن اختلفت خصوصيات المجتمعين. كان المجتمع الأندلسي يتألف من خمس طبقات، هي:

1)العرب: وهم القبائل التي نزلت في الأمصار، وقد أضعفتهم العصبية، والصراع الدائم فيما بينهم مما عجل في خروجهم من الأندلس.

2)البربر: وهم القبائل التي أسلمت ورافقت موسى بن نصير وطارق بن زياد، وكان اعتماد الدولة عليهم، خصوصاً الأمير عبد الرحمن الداخل، لعدم ثقته بالقبائل العربية، واشتد خطر هؤلاء البربر في زمن أسرة ذي النون التي داهمت الأندلس كلها بالسيف والنار وعاثت في الأرض فساداً.

3)الإسبان المسيحيون الذين أسلموا وهم أهل البلاد وكانوا عمالاً وحرفيين وفلاحين.

4)اليهود: وهم الذين كانوا يرزحون تحت ظلم القوط فوجدوا في العرب محررين وناصرين وكانوا تجاراً وأطباء وعلماء فلك وكتاب دواوين ومعلمين.

5)الصقالبة: وهم مماليك يشكلون ركناً هاماً في الجيش، وحراس الخليفة، وقد جلبوا من بلاد خوارزم، ويقيمون عادة في قرطبة، لأنهم الحرس الخاص وأول من جلبهم الحكم الأول، وهو الذي جلب علماء اليهود إلى بلاطه، وصاروا يتمتعون بثقافة عربية إسلامية[34].

**الخليفة عبد الرحمن الناصر (912- 961)**

يعتبر أعظم الحكام الذين عرفتهم إسبانيا. أصبحت إسبانيا في عهده درة العالم وكعبة الحضارة الإسلامية في أوروبا. تلقب الخليفة الناصر لدين الله عام 929، وأصبح في العالم الإسلامي ثلاثة خلفاء، الخليفة العباسي والخليفة الفاطمي والخليفة الأموي.

قرّب الخليفة الناصر إليه العلماء من مختلف الأديان والأعراق وبلغت الأندلس عصرها الذهبي. أرسل إلى الإمبراطور قسطنطين السابع (913- 959) أن يرسل له بعض الكتب العلمية، فأرسل له كتاب ديوسقوريدس في الأعشاب والصيدلة وكان باليونانية، فأرسل له أحد المترجمين المهرة (الراهب نيقولاوس سنة 948) وكان خبيراً باللغتين اليونانية واللاتينية، التي كانت شائعة ومعروفة لدى عامة الأندلس وعلمائهم، وألف الناصر لجنة من علماء اليهود لمساعدته في الترجمة إلى العربية[34]. وقد ترأس اللجنة المعلم حسداي بن شفروط ومعه الفيلسوف أبو عبد الله الصقلي، حازت الترجمة إعجاب أمير المؤمنين فجعل حسداي الطبيب طبيبه الخاص، كما جعله مستشاره السياسي، وكان يرسله إلى خارج البلاد في بعثات خاصة، دون أن يمنحه أي لقب خاص يليق به. وكان

حسداي يحب اقتناء الكتب والتفاخر بما في مكتبته العامرة من الكتب المتنوعة. وأسس للخليفة مكتبة ضخمة في قرطبة. وبالنسبة للدراسات اللاهوتية اليهودية أغدق من ماله الخاص على المدارس اليهودية وجعل على رئاسته الربي ناتان الذي تنازل فيما بعد للعالم التلمودي الرباني موسى بن حنوكة الذي اشتراه حسداي طفلاً، من سوق النخاسة وأرسله إلى مدرسة سورا في العراق، وعاد وهو عالم كبير في العربية والعبرية، فلقب بالأندلس (ريش كلاه) بمعنى (رأس العرش). وهذا لقب يعادل لقب رأس الميثبة في العراق، ثم عينه الخليفة الناصر الحاخام الأكبر ليهود الأندلس، وصار حسداي ممدوح الشعراء اليهود والعرب. ومن هنا كانت بداية الثقافة العبرية[35].

**الخليفة الحكم المستنصر بالله (961- 976)**

ولد في قرطبة، ودرس الأدب والفلسفة في زمن والده عبد الرحمن الناصر، واستطاع أن يجبر ملكي قشتالة ونافارا على عقد صلح معه (سنة 966) وصدَّ النورمانديين والفاطميين، وشجع العلماء واهتم بجمع الكتب، وكان في مكتبته عدد من الوراقين والنساخ والمجلدين. سمع بكتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني (المتوفى 967م) فأرسل إليه ألف دينار ذهباً، وطلب منه أن يبعث له بنسخة من الكتاب، فأرسل إليه نسخة منقحة ومعها سلسلة من نسب الأسرة الأموية[36].

وأنشأ الخليفة الحكم في قرطبة 27 مدرسة لتعليم الأطفال والشباب والكبار، ووضع عليها علماء وأجزل لهم العطاء وجعل للعلماء يوماً في كل أسبوع يحضره، ويتناظر العلماء بين يديه[37]. وسمع بصيته الطيب علماء المشرق، فهاجر إليه أبي علي القالي (893- 967) صاحب كتاب (الأمالي)، فأكرمه، وأجزل له العطاء. يقول ابن الأبار: «لم يسمع في الإسلام خليفة، بلغ مبلغ الحكم في اقتناء الكتب، ودواوين الشعر، وإيثارها والاهتمام بها»[38].

كانت الثقافة القديمة والعلوم مهملة قبل وصول العرب إلى الأندلس. قال القاضي صاعد بن أحمد القرطبي (المتوفى 1070) وهو المؤرخ لحضارة الأندلس العلمية: «ظلت الأندلس مغلقة في وجه العلم إلى أن فتحها العرب»[39]. وهذا يعني أن العلماء الإسبان أهملوا موروثهم العلمي القديم، وأسس العرب لعلم وثقافة جديدة، علماً أنه كان هناك علماء ومفكرون أمثال أيزدور الإشبيلي، لم

يسمع به العرب، لكره اليهود له، وهو صاحب كتب في التاريخ والفلسفة، له كتاب (المقالات) مشهور في الثقافة المسيحية واللاتينية. ومع ذلك تظل الثقافة اللاتينية مجهولة وقد عبّر الكاتب ألفارو عام 854 بأسى عندما قال: «يطرب إخواني المسيحيون لأشعار العرب وقصصهم، بل هم يدرسون كتب الفقهاء والفلاسفة المحمديين لا لتفنيدها بل للحصول على أسلوب عربي صحيح رشيق. فأين تجد علمانياً يقرأ التعليقات اللاتينية على الكتب المقدسة؟ وأين تجد من يدرس الإنجيل وكتب الرسل؟ وأسفاه إنهم يقرأون كتب العرب، ويجمعون منها مكتبات تكلفهم نفقات باهظة. لقد نسي المسيحيون لغتهم، ولا تجد بينهم من هو قادر على إنشاء رسالة إلى صديق باللغة اللاتينية»[40].

لقد كان حال اليهود أفضل، فهم في الوقت الذي انكبوا فيه على دراسة اللغة العربية وآدابها، طوروا لغتهم وأساليبهم باللغة العبرية، واتسع عمران قرطبة في زمن الخليفة المستنصر حتى زاد عدد سكانها على 500 ألف نسمة، وعدد دورها حوالي 13 ألف دار، وضواحيها حوالي 28 ضاحية، وحماماتها حوالي 300 حمام، ومساجدها بلغت 3 آلاف مسجد. وقال أحد الشعراء فيها:

دع عنك حضرة بغداد وبهجتها ولا تعظّم بلاد الفرس والصين
فما علا الأرض قط مثل قرطبة وما مشى فوقها مثل ابن حمدين

إذا كان الطعام وتنوعه وجودته دليل على الرقي الحضاري، فإنه ينسب إلى زرياب ألوان من الطعام خاصة، كطبخ الدجاج في مرق كثير الأفاوية، ونظام الأكل على الخوان، حيث يبتدئون بالحساء، ثم يقدمون اللحوم ((لحوم الضأن والسمك والطيور) والفواكه والخضار وينتهون بالحلوى، وكان أفراد العائلة يشربون بأكواب زجاجية ملونة، وكانت الجواري يقدمن الطعام لدى العائلات الميسورة وهناك جوارٍ في بيوت الأمراء يعزفن ويرقصن، ومن تلك الجواري جارية الخليفة المستنصر بالله، التي تدعى مدثرة، وقد تزوجها وأعتقها وهي أم ولده.

وقد أثر زرياب في الموسيقى اليهودية بعد أن طوروا ألحانهم وغناءهم على ضوء ألحان زرياب التي زادت على عشرة آلاف لحن. قال لين بول: «إن موسيقى زرياب وألحانه الأندلسية، انتقلت إلى أوروبا عن طريق الملحنين اليهود»[41].

كانت مدن الأندلس تتزين بالحدائق والبساتين والقلاع (القصبة) كالحمراء في غرناطة، وهي مطلة كإطلالة الصالحية من سفح قاسيون على دمشق، وهناك قصور الأمراء المنفصلة عن القصبة كقصر الآس، قصر الحكم واستقبال السفراء وكبار رجال الدولة وفناء الأسود، وهو صحن واسع فيه اثنا عشر أسداً رابضاً من الرخام تحمل الإناء العظيم، كأنه حوض من أحواض دمشق القديمة. قال فيه الشاعر ابن حمديس الصقلي:

قصر لو أنك كحلت بنوره ... أعمى لعاد إلى المقام بصيرا
أبصرته فرأيت أبدع منظر ... ثم انثنيت بناظري محسورا
وإذا نظرت إلى غرائب سقفه ... أبصرت روضاً في السماء نضيرا
كم من قصور للملوك تقدمت ... واستوجبت لقصورك التأخيرا

وهناك في الحمراء قاعة بني سراج والمقصورة، وبالقرب من قصور الحمراء، جنة العريف، وهي بستان كأنه الفردوس في الأرض.

وأحدث الخليفة عبد الرحمن الناصر نظاماً خاصاً للشرطة، يقول عنه أحمد بن محمد المقري: «وأحدث نظاماً للعسس، وكان بعضهم من اليهود، لأن للأندلس دروب تغلق بالعتمة، ولكل زقاق سراج معلق وبائث معه كلب يسهر وذلك لشطارة عامتها وكثرة شرهم»[42].

كان لليهود في كل مدن الأندلس حاكم لحل قضاياهم الخاصة، وإن تعرض أحد اليهود لظلم من أحد المسلمين، يرفعه إلى القاضي منذر بن سعيد الذي كان يجلس في مسجد الزهراء في قرطبة ويناقش المتخاصمين في مجلس الحكم.

وكان لليهود أحبارهم الخاصة، واحتفظوا بعاداتهم المشرقية، وكان يطلق على حيهم في قرطبة العاصمة (حي يهود الشام)، وكانوا موكلين في الترجمة والكتابة والنسخ، وكانوا يدرسون لأبناء المسلمين علوم الأوائل من حساب وفلك وطب، وكان الخليفة عبد الرحمن الناصر هو الذي كان يرعاهم. ذكر ليفي بروفنسال: «كان الناصر يرسل رسله إلى الشرق، ليصفوا له نظام الحكم، ولا يتردد بأخذ ما يراه مناسباً رغم العداء التقليدي بين بني أمية وبني هاشم منذ أيام الجاهلية، ولم يزدهم الإسلام إلا تفاقماً، وكان رسله من علماء اليهود لثقته بهم»[43]. ورغم أن الخليفة الناصر قرَّب اليهود إليه إلا أنه لم يسند إليهم رئاسة الدواوين

والحجابة، وعندما صار للخليفة داران، للخاصة وللعامة، كان اليهود يحضرون مجالس الخليفة في دار الخاصة، وظهر في عهد الخليفة الناصر وأحفاده نوعان من العلماء والباحثين:

النوع الأول: تغلب عليهم ثقافة النقل والاستيعاب، ويسمون أهل العلم. وكان معظمهم من اليهود وأقلهم من الفقهاء.

النوع الثاني: وهؤلاء تغلب على ثقافتهم نزعة الإبداع والاستنباط. وهؤلاء يسمون أهل العقل. ومن هؤلاء الفقهاء والفلاسفة والشعراء، وأكثرهم من المسلمين والقليل من اليهود.

## الفلسفة والتصوف عند المسلمين واليهود

لم يبدع اليهود في الفلسفة والتصوف إلا في ظل الثقافة الإسلامية، فلولا فلاسفة الإسلام لم يظهر في الأندلس فكر فلسفي. قال أسين بلاثيوس (1871-1944): «إن تاريخ الفكر الفلسفي في إسبانيا الإسلامية، هو صورة مطابقة لما كانت عليه الثقافة الإسلامية في المشرق، دون أن تكون له بالتراث المحلي (الأندلس) صلة حقيقية يقوم عليها الدليل»[44]. وأظن أن هذا المستشرق الإسباني المتعمق في دراسة تراث الأندلس الفلسفي قد اعتمد على مقولة صاعد بن أحمد الأندلسي الذي قال: «وأما الأندلس، فكان فيها، بعد تغلب بني أمية عليها جماعة عنيت بطلب الفلسفة، ونالت أجزاء كثيرة منها، وكانت الأندلس قبل ذلك الزمان خالية من العلم»[45].

بفضل الخليفة الناصر وابنه الحكم، جلبت إلى الأندلس كتب الكندي، وأبي بكر الرازي والفارابي وابن سينا والبيروني ورسائل إخوان الصفا. ونتيجة لتمثل هذه الكتابات، ظهر فلاسفة مسلمون أمثال ابن مسرة وابن باجه وابن الطفيل وابن رشد، وعلى كتب فلاسفة المسلمين أبدع فلاسفة اليهود أمثال ابن جبيرول وموسى بن ميمون وغيرهم. وأستطيع التأكيد والجزم أنه لا يمكن الفصل بين الفلسفتين الإسلامية واليهودية في الأندلس، وفي المشرق الإسلامي. وسأضرب أمثلة ملموسة من خلال عرض الفلسفة الإسلامية أولاً، ثم أتلوها بالفلسفة اليهودية.

## مدرسة ابن مسرة الصوفية

ولد محمد بن عبد الله بن مسرة في قرطبة سنة 883م، وعاش شبابه في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر (912- 961) العهد الذهبي للأندلس. درس الفقه على والده، وكان والده عبد الله بن مسرة قد زار العراق، وأخذ المذهب المعتزلي عن شيوخ المعتزلة، عن إبراهيم بن نظام السيَّار والخياط والجاحظ، وعاد إلى الأندلس. وكان يميل إلى الفكر الباطني (الإسماعيلي) ويمزج تعاليمهم بالفكر العرفاني، وأخذ عنه ولده محمد تعاليمه الباطنية.

انكبَّ محمد بن مسرة على دراسة الفلسفة اليونانية، فلسفة أنباذوقليس وأفلاطون وأرسطو وأفلوطين، ومارس الزهد والتصوف، وسافر إلى الحج، والتقى بمتصوفة العصر، وعاد إلى قرطبة، وأسس مدرسة في أعلى جبل قرطبة على مثال مدرسة أبيقور، وكان طلابه يعيشون معه على تلك الرابية المطلة على قرطبة ويتذاكرون أمور الفلسفة والفكر، وكان تلاميذه من كل الأديان (إسلام ونصارى ويهود). وكان ابن مسرة يحكِّم العقل في المسائل الدينية ويكره الخرافات والجهل.

جمع الأمور التي يناقشونها في المدرسة في كتابين هما كتاب (التبصرة) وكتاب (الحروف)، وكان لهما تأثير كبير في التصوف الإسلامي والتصوف اليهودي (القبالاة). وعندما شاعت تعاليمه هاج عليه فقهاء المالكية ومتحجري العقل من العوام، واتهموه بالمروق والخروج عن الجماعة والسنة. وحجتهم أن ابن مسرة يؤول آيات القرآن الكريم والأحاديث الشريفة وهم يستحلون دماء المسلمين.

وعندما وصل الأمر إلى الخليفة الناصر، الذي كان يحب الحكمة والفلسفة، واطلع على كتابات ابن مسرة فلم يجد فيها ما يقوله فقهاء المالكية، كلَّف الفقيه المالكي أبا سعيد بن العربي بقراءة كتبه، ووضع كتاباً يوضح فيه مقاصد ابن مسرة ونحلته الغامضة. فلم يجد فيها ما يخالف الإسلام. ولكن في زمن المنصور بن أبي عامر المعافري، أمر قاضي قرطبة محمد بن يبقى بالقبض على كل من يتبع أو يؤمن بتعاليم ابن مسرة. والسؤال المفترض: ما هي تعاليم ابن مسرة؟ قوله: البعث والمعاد يكون بالأرواح لا بالأجساد، لأنه بمجرد موت الجسد، تحاسب الروح، فإما إلى النار أو إلى الجنة، والمكوث في النار حسب العمل بالدنيا، ولا

خلود إلا لأصحاب الكبائر، الذين تشملهم رحمة رب العالمين ويخرجون بعد حين من الدهر. هذه التعاليم نسبت إلى الفيلسوف أوريجانوس الإسكندري (185- 254م) واعتبر مهرطقاً، وحرمته الكنيسة من نعمتها، وفي الإسلام عزيت هذه النظرة إلى النظام واعتبر من أجلها من الزنادقة.

كان من تلاميذ المدرسة النابهين إسماعيل بن عبد الله الرعيني الذي قال: «إن العالم قديم وهو لا يفنى أبداً». وهذا المبدأ المادي نسب إلى أنباذوقليس الساموسي (القرن 6 ق.م). ومن مدرسة ابن مسرة انتشرت المذاهب الفلسفية في الأندلس، خصوصاً سليمان بن جبيرول اليهودي، وابن رشد القرطبي وابن عربي الطائي.

**الفيلسوف الأفلوطيني ابن باجة (المتوفى 1138م)**

ولد محمد بن يحيى الصائغ في سرقسطة في زمن الخليفة عبد الرحمن المستظهر بالله (1024- 1071م). كانت أسرته تحترف الصياغة. درس الفلسفة في قرطبة، والطب والرياضيات والفلك، واعتنى بالطب في بطليوس على السيد البطليوس (عبد الله بن محمد المتوفى 1127) وتعمق بدراسة كتابه (الحدائق في المطالب الفلسفية العويصة)، وعمل شروحاً على تلك المطالب، وقال: «لا يصح أن يوصف الله إلا عن طريق السلب، وإن النفس الإنسانية الناطقة، لا تفنى بل تبقى بعد الموت». وفي الكتاب يذكر جملاً لأفلاطون وأرسطو وزينون الرواقي، ويشرها على ضوء معرفته للفلسفة الأفلاطونية المحدثة.

انتقل ابن باجة إلى سرقسطة في شمال الأندلس ودرس على ابن بلده أبي بكر بن تيغلويت (المتوفى 1110) ولازمه في السنوات العشر الأخيرة من حياته، وعندما توفي معلمه رثاه وهاجر من سرقسطة إلى المرية، ثم انتقل منها إلى غرناطة، ولم يعجبه المقام، فهاجر إلى فاس وانقطع إلى التدريس فيها حتى وفاته سنة (1138).

كان ابن باجة موسوعياً في فكره، اعتنى بشرح كتب أرسطو، والمنطق للفارابي، والأدوية المفردة لجالينوس وكتب كتباً في النفس والعقل الفعال، ضاعت ولم يبقَ منها سوى كتابه (تدبير المتوحد) حفظه له أحد تلاميذه اليهود، وفيه يتصور مدينة فاضلة، لا يحتاج أهلها إلى أي طائفة من طوائف الأطباء الثلاثة:

1)لا أطباء البدن: لأن أهل مدينته لا يرتكبون أي رذيلة تسبب لهم المرض.

2)ولا أطباء العدالة: لأن أهل مدينته متحابون، لا يقع بينهم ما يحتاجون معه إلى قضاة ولا قضاء.

3)ولا أطباء نفوس: لأن أهل مدينته كاملون.

وغاية المتوحد، اتحاد عقله بالعقل الفعّال، حتى يبلغ مرتبة المعرفة العقلية التي يتوصل إليها بالزهد والتأمل الدائم، بدون أي عون علوي، والعقول عند ابن باجة تنقسم إلى أربعة أصناف:

أولاً: عقول الأفلاك، الصادرة عن النفس الكلية.

ثانياً: العقل الفعال والفائض عنه، عقل ليس هو مادي بذاته، ولكنه متصل بالمادة.

ثالثاً: أصناف الصور المعقولة، وهي الصور التي توجد في النفس الناطقة، إذا تحررت عن موضوعها المادي.

رابعاً: الصور الحسية، وهي وسط بين صور المعقولات، وبين الصور المادية الخالصة.

كان المتوحد يعيش مبتعداً عن الناس لأنهم غير كاملين، وكان يرى الخير بالاعتزال. وهذه هي دعوة ابن مسرة، وغاية المتوحد القصوى، هي الصور العقلية التأملية. والسؤال: كيف يتوصل المتوحد إليها؟ يصل إليها عن طريق الدرس والفكر، وأعلى مرتبة عنده، هي مرتبة العقل المستفاد، الصادر عن العقل الفعال، وعن طريقه يعرف الإنسان نفسه ككائن عاقل. إن الفكرة المحورية التي أضافها ابن باجة إلى التراث الإسلامي الفلسفي «تتعلق باتحاد العقل الفعال بالإنسان دون أي عون علوي»[46]. كانت هذه الفكرة الأساسية التي بنى عليها ابن طفيل قصته حي بن يقظان، والفيلسوف اليهودي إبراهيم بن عزرا قصته (حي بن قصيص) الذي ساح مع إبراهيم بن عزرا، بين الأفلاك ووصل إلى الفلك الأعلى الذي لا يصل إليه أي إنسان، وهناك خلعا نعليهما وقابلا الإله عند سدرة المنتهى.

### الفيلسوف المتصوف ابن طفيل (المتوفى 1186)

ولد محمد بن عبد الملك القيسي في برشلونة من أعمال المرية عام (1113م). وأكب على دراسة كتب الفلسفة والطب والفلك في فاس على ابن

باجة. وسمع شروحه على كتاب (تدبير الموحد) وعاد إلى غرناطة عام 1138، بعد وفاة معلمه ابن باجة، ومارس الطب في غرناطة، ثم صار طبيباً لسلطان الموحدين يوسف بن عبد المؤمن، الذي اتخذه مستشاراً لرجاحة عقله، وسعة علمه، وجلب إلى غرناطة الطلاب والعلماء من جميع أنحاء الأندلس. وكانت دروسه متنوعة في الفلك والرياضيات والفلسفة والطب. وفي الفلك استدرك على أرسطو في مداراته الكاملة واقترح بدلاً منها نظرية الدوائر الإهليلجية التي قال بها أبولونيوس العسقلاني. هذه النظرية طورها من بعده تلميذه أبو إسحق البطروجي، وساهمت في نقض علم الفلك التقليدي (علم فلك بطليموس) لأن أبا إسحق جعل الشمس هي مركز الكون، وعندما اطلع كوبرنيكوس على هذه النظرية أعلن نظريته عام 1543م.

ضاعت كل كتب ابن طفيل ولم تبق سوى قصته الفلسفية الرائعة (حي بن يقظان) التي نشرها قبل موته في غرناطة عام 1186م.

ما هي قصة حي بن يقظان؟ سألخص هذه القصة الرائعة عن تحقيق الدكتورين جميل صليبا، وكامل عياد المطبوعة بدمشق عام 1940م.

«تصور ابن طفيل، أن طفلاً نشأ وحيداً في جزيرة مهجورة من جزر الهند، تحت خط الاستواء، واختلف في كيفية تكوينه.

-قيل إنه ولد دون أم وأب من طينة تخمرت بالجزيرة على مر السنين، وهذه هي قصة الخلق التوراتية والتي انتقلت إلى الديانات السماوية المسيحية والإسلام.

-وقيل إنه ابن أميرة جميلة، كانت شقيقة لملك يمتلئ بالغيرة فمنعها من الزواج، لأنه لم يجد لها زوجاً كفؤاً يليق بها، فتزوجت الأميرة سراً، من قريب يدعى (يقظان) وحملت منه وأنجبت طفلاً، وكي لا ينكشف أمرها، وضعته في تابوت، وأحكمت إغلاقه، وأودعته اليم، فوصل إلى جزيرة خالية من البشر، وسمعت صراخ الطفل ظبية، فقدت وليدها، فحنت عليه وأرضعته، وعاش الطفل وصار يتفقد ما حوله، وصار يجرب، ويلاحظ ويتأمل نافذاً إلى كل المعارف. كبر حي وبلغ مرحلتي الشباب والكهولة.

حي في الثلاثين من عمره: حين بلغ حي سن الثلاثين عرف حياكة الثياب وستر عورته، وعرف الصيد، وعرف وظائف أعضاء جسده، وصنع مخزناً وعرف

سـر حفـظ الطعـام والغـلال، واكتشـف النـار، وعـرف إنضـاج الطعـام وشـي اللحـم والسمك. وعرف أن كل ما في الطبيعة خاضع للكون والفساد.

وصار حي يتأمل ما حوله حتى إنه كان يغيب عن حراسه من شدة تأمله، وأدرك أن كل شيء ما عدا واجب الوجود فان. وأدرك أن الله بريء عن المادة وأدرك في أن هناك عالمان مختلفان هما:

-عالم يقوم على الكشف والذوق، ويصيب الإنسان فيه السكر والإغماء، هذه الحالة وصل إليها أفلوطين ثلاث مرات وعرفها فرفوريوس الصوري مرة.

-وعالم يقوم على المنطق والعقل والاستدلال من المحسوسات المادة إلى الصورة المجردة.

حي في الخمسين من عمره: عندما بلغ حي الخمسين (مرحلة الكهولة) نزل على الجزيرة رجل تقي يدعى (أبسال) وصلته تعاليم النبوة (إنه موحد لا دين معين له) تعرف على حي، وعلمه اللغة والكلام. وتعجب بعد أن أفصح حي، وجدان عقله قد سلك طريق الدين الروحي اعتقده لجميع وحدة الأديان (دعوة ابن مسرة لوحدة الأديان) وعرض أبسال على حي بن يقظان عليه جزيرة يسكنها صديقه (سلامان) حتى يرى أهلها وما اكتشفوه من حقائق عليا.

تحدث حي بن يقظان مع أهل الجزيرة عن العالم الإلهي، فلم يفهموه، ورآهم متهالكين على الدنيا، وما فيها من حطام ومتاع، فنصحهم التمسك بديانات آبائهم وأعمالهم الطاهرة. وقرر حي وأبسال العودة إلى جزيرتهما المهجورة، لينعما بحياة المكاشفة الإلهية، هذه الجزيرة تذكرنا بما كان يجري في مدرسة ابن مسرة المعزولة فوق جبل قرطبة[47].

درس المستشرق الفرنسي غوتييه قصة حي بن يقظان، فتوصل إلى أن المذاهب الصوفية في الإسلام هي:

-التصوف الديني المحض: الذي لا يخرج عن حدود الزهد والتقشف والتأمل كما هو الحال عند كبار الأولياء الصالحين من المسلمين كالحسن البصري.

-التصوف الفارسي أو الهندي: كالتصوف الذي نراه عند بعض المتصوفة المسلمين كالحلاج. وينتهي بمذهب وحدة الوجود عند ابن عربي.

-التصوف حسب مذهب القبالاة، وهذا التصوف يدعو إلى إهمال الطرق الصوفية الأولى، لأنها ليست سوى عبادة إسلامية محضة، وهو يدعو إلى مذهب

فلسفي يدعو الإنسان الكامل (المسيا المخلص) في اليهودية ولا يمكن تسميته بالحكمة المشرقية[48].

### الفيلسوف المشائي ابن رشد القرطبي (المتوفى 1198)

ولد محمد بن أحمد الحفيد، في قرطبة، وهو سليل أسرة عريقة في القضاء والفقه، ولد سنة 1126م، درس الطب والفلسفة والفلك على يد أبي بكر بن الطفيل في غرناطة، فاستوعب شروحه على كتب أرسطو والفارابي، وشرح ابن باجة في النفس وكتاب (تدبير الموحد). ودرس الفقه المالكي على والده، وأصبح قاضياً في إشبيلية عام 1170م، وانتقل إلى قضاء قرطبة عام 1172م، وكتب كتاباً في الفقه على المذاهب الأربعة سماه (بداية المجتهد ونهاية المقتصد)، نال الكتاب إعجاب فقهاء الأندلس وقضاتها.

طلب أبو يعقوب بن يوسف الموحدي (1162- 1184) ابن رشد لتدريس ولده يعقوب، فابتدأ بعمل جوامع لكتب أرسطو في المنطق وما بعد الطبيعة سماها بالجوامع المختصرة وكانت تلك الشروحات المختصرة هي النواة التي بنى عليها ابن رشد فيما بعد شروحاته لكتب أرسطو.

وعندما تولى الحكم يعقوب بن يوسف (1184- 1198) أصبح ابن رشد عنده صاحب حظوة، وانصرف للتأليف والتدوين. ولكن حساد ابن رشد بدأوا يفرقون بينه وبين أبي يوسف، ورماه الفقهاء بالمروق عن الدين، ونفوه من قرطبة إلى اليسانة (شرق قرطبة) وهي مدينة اليهود، وكان معظم طلابه من اليهود، ثم رحل إلى مراكش، ودرس هناك إلى أن توفي عام 1198، ودفن في مقبرة باب تاغروت، ثم نقلت رفاته إلى أهله في قرطبة.

يعتبر ابن رشد الشارح الأكبر لكتب أرسطو، وهذه الشروح تقسم إلى ثلاثة أقسام:

1)الشروح المختصرة، التي عملها لتلميذه أبي يوسف الموحدي كل كتب أرسطو ما عدا كتابه في الأخلاق.

2)الشروح المتوسطة: شروحه على نفس الكتب السابقة بالإضافة إلى شرحه للأورجانون (المنطق) وشرحه للإيساغوجي (المدخل) لفرفوريوس الصوري، وتوسع في شرح الكون والفساد، والآثار العلوية، وكتاب الأخلاق إلى نيقوماخوس.

3)الشروح المطولة: زاد في شروحه على كتاب التحليلات، وكتاب البرهان وكتاب السماع الطبيعي، والسماء والعالم، والنفس وما وراء الطبيعة.

**مؤلفات ابن رشد الخاصة**

أهمها كتاب (تهافت التهافت) ردّ فيه على كتاب الغزالي (تهافت الفلاسفة). وكتاب (المقدمات في الفلسفة)، وكتاب (اتصال العقل الفعّال بالإنسان) وله كتب في العقائد، منها:

-كتاب فصل المقال في تقرير ما بين الشريعة والحكمة من اتصال.

-كتاب الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة.

-كتاب مختصر المجسطي لبطليموس نقده في حركات الفلك الدائرية.

كتاب استدارة الفلك، نقد فيه نظرية أرسطو في الحركة الكاملة.

-كتاب الكليات، شرح فيه مؤلفات جالينوس في الطب.

-رسالة عن الترياق.

-كتاب المزاج.

-كتاب جملة الأدوية المفردة.

ما هي الأفكار الأساسية التي أضافها ابن رشد إلى تاريخ الفكر العالمي؟

-قال بقدم المادة، وكونها موجودة بالقوة، وهي لم تكن عدماً، وإنما هي قوة كلية أخرجها الله إلى حيز الفعل. وهي كواجب الوجود لا نهاية لها أزلية، هذه دعوة إسماعيل بن عبد الله الرعيني تلميذ ابن مسرة الذي قال «إن العالم قديم وهو لا يفنى أبداً». هذه النظرية أثارت الدنيا على ابن رشد.

-قال بوحدة العقل الإنساني، وأنكر خلود النفوس الجزئية، أي أن الروح تفنى بفناء الفرد، ولكن الإنسانية خالدة، ولا عودة للأجساد والأرواح يوم القيامة.

-وقال بتأويل القرآن والسنة للتطابق مع العقل وأنكر التفسير الحرفي. ودعا إلى التأويل العقلي ليوفق بالقول بين حدوث العالم قول علماء الكلام، والنظرية المشائية التي تقول بقدم العالم.

-وقال إن عقول الأفلاك وصدورها عن الله وتقدمها في المرئية، وكل فلك يحدث التأثير فيما دونه من العقل الفعال إلى فلك القمر وهي تؤثر في العقل الإنساني.

هذه الأفكار رفضها فلاسفة الإسلام واليهود معاً، مثل الفيلسوف اليهودي يهوذا اللاوي، الذي دافع عن الوحي الإلهي ضد العقل الإنساني. وقال بخلق العالم من العدم، كقول الفيلسوف المسلم الغزالي. ولكن ابن جبيرول وابن ميمون اتبعا خطى ابن رشد وحاولا التوفيق بين الدين والفلسفة في مسالة قدم العالم، وكما قال ابن رشد: «إن قدم العالم هو بالقوة لا بالفعل، ثم وجد وتشكل فهو قديم ومحدث. وكذلك المادة (الهيولى) هي قديمة محدثة، وإن الله يعقل الأشياء في ذاته لا كما نعقلها نحن، على وجه كلي أو جزئي. وإن الله هو علة الموجودات جميعاً، والمحرك لها من القوة إلى الفعل هو الله».

يقول الدكتور محمد يوسف موسى: «لم يحاول ابن رشد أن يجعل من القرآن والحديث كتاباً فلسفياً، بل حاول أن يوفق بين الفلسفة والوحي الإلهي، كما حاول وعمل له، كل من فيلون اليهودي وموسى بن ميمون في اليهودية، وكليمانت الإسكندري وأوريجين الإسكندري في المسيحية، ولم يسر مع خياله في تأويله كما فعل فيلون اليهودي حين جعل الأحداث التي جاءت في تاريخ الخليقة وتاريخ اليهود في التوراة رموزاً لحالات النفس»[49].

**الرشدية عند اليهود والمسيحيين في الأندلس**

اعتمدت الفلسفة اليهودية على شروح ابن رشد، فمنهم من قبل فلسفته ومنهم من عارضه، وعند الجميع كان ابن رشد محور دراساتهم الفلسفية، أخذ عنه وحاوره موسى بن ميمون في كتابه (دلالة الحائرين) وقامت أسرة موسى بن طبون في ترجمة مؤلفات ابن رشد، إلى جانب مترجمي طليطلة والمدرسة البروفنسية قاليمونيوس بن مائير، وصموئيل بن مسلّم وليفي جرسون، عن هؤلاء تكونت الرشدية الأوروبية.

أما الفلاسفة المسيحيون فقد تأثروا بفلسفة ابن رشد، إما قبولاً أو رفضاً. وممن تأثر به ألبرت الكبير، وتوما الإكويني، أخذا عنه قوله: إن العقول بعضها عن بعض. وقوله بتأثير الكائنات العليا على العقل الإنساني، كالعلاقة بين العقل والعقل الفعال، والعقل المستفاد.

والسؤال المطروح: لماذا عارض توما الإكويني الرشدية؟

في اعتقادي أن الإكويني انحاز إلى جانب أبي حامد الغزالي، ومن خلاله حاول تشويه فلسفة ابن رشد، ونسب إليه نظرية الدجالين الثلاثة، وعنى بها الأنبياء الثلاثة (موسى وعيسى ومحمد) ونسب إليه القول بوجود حقيقتين متناقضتين، ولكن كلاهما صحيحة هما الحقيقة الدينية والحقيقة الفلسفية، والصواب أن ابن رشد في شروحه كلها لم يقل بوجود حقيقتين، وإنما حاول التوفيق بين الدين والعقل، لأنهما ينطلقان من حقيقة واحدة. أما القول بوجود حقيقتين فهو من إبداع فلاسفة الأفلاطونية الحديثة، وكانوا يميلون إلى العقل ضد الدين.

ومهما يكن رأينا في ابن رشد، فهو قطب الرحى للدراسات المسيحية واليهودية وأساس النهضة الفكرية في أوروبا الحديثة.

## الفلسفة والفلاسفة اليهود في الأندلس

أعطى العرب المسلمون لليهود، عند فتحهم جزيرة الأندلس، حرية العبادة وحرية التنقل، وأعادوا لهم أملاكهم المصادرة، وسمحوا للحاخامات بالاستقلال في إدارة سؤون رعاياهم. وتجمع اليهود في المدن الكبرى مثل قرطبة عاصمة المملكة، وطليطلة (مدينة اليهود) وإشبيلية، وغرناطة، وسرقسطة، بل كانت لهم مدينة خاصة بهم مثل اليسانة، التي يقول عنها الشريف الإدريسي «بلد اليهود، ولا يداخلهم فيها مسلم»[50].

ونبغ في أرض الأندلس بعد الفتح فلاسفة وأطباء وعلماء فلك وشعراء وأدباء ورحالة، كتبوا بالعربية والعبرية، واتخذوا الأسماء والألقاب العربية، وعلا شأن بعضهم مثل حسداي بن شفروط الذي صار مستشاراً للخليفة الناصر، وكان هو الأساس لنهضة اليهود الفكرية بتأسيسه مدرسة للدراسات اللاهوتية والفلسفية في قرطبة عام (915م).

كان اليهود يحضرون حلقات العلم في المساجد، ودرس كثير منهم في مدرسة ابن مسرة، الذي كان يؤمن بحقيقة وحدة الأديان السماوية، وقد غالى بحبه لليهود واعتبروه بأنه أحاط بكل علم سليمان، وترجموا كتابه في الحروف وتبعته كل المذاهب اليهودية، ومن أجل حب اليهود له ناله الاضطهاد من قبل فقهاء

المالكية الذين نسبوه إلى اليهودية. وأحرقت كتبه وأودع السجن تلميذه صاعد بن فتحون السرقسطي اليهودي الملقب بالحمار، وهو الذي ألف بالعربية كتاباً جعله مدخلاً للفلسفة الأفلاطونية سماه (شجرة الحكمة) ترجم الكتاب إلى اللغة العبرية، وعندما اطلع قاضي قرطبة على الكتاب أعجب به، وكان القاضي منذر بن سعيد البلوطي (886- 996) هو فيسوف أفلاطوني، وقف في وجه الفقهاء المتعصبين، وأطلق صراح صاعد بن فتحون، الذي درس أكبر فلاسفة اليهود ابن جبيرول.

**الفيلسوف الإلهي سليمان بن جبيرول (1021- 1070)**

ولد سليمان بن يهوذا في قرطبة عام 1021، ودرس العربية والعبرية، وفيهما نبغ وتفوق على أقرانه. يسميه المسلمون أبا أيوب سليمان بن يحيى القرطبي، كان يقرض الشعر باللغتين العربية والعبرية، درس على تلاميذ ابن مسرة الفلسفة، يقول عنه مونك: «يعتبر سليمان بن جبيرول صاحب الصدارة بين شعراء اليهود وكتابهم في كل العصور الوسطى، بل وفاق شعراء العرب بالعربية، في سمو أفكاره وإحساسه الشعري»[51].

ألّف ابن جبيرول كتابه الفلسفي الكبير (ينبوع الحياة) بالعبرية والعربية، متأثراً بمبدأ وحدة الوجود، ووضع كتاباً آخر سماه (إصلاح الأخلاق) وهو بالنسك الصوفي، كتبه بالعربية. وله كتاب آخر في الفلسفة (مختار اللآلئ) بالعربية. ولما شاعت كتبه بين الناس تهافت عليها الشباب المسلم ظناً منهم أنه مسلم. درس عليه القاضي اليهودي ديان أبو عمر يوسف بن صديق (المتوفى 1148). ومما كتبه ابن جبيرول كتاباً بالنحو العبري نظمه على بحر الرجز العربي في 400 بيت، و صار هذا الكتاب دستور النحو العبري، وقد شرحه عدة من علمائهم.

كان ابن جبيرول يلوم إخوانه في الدين الذين أضاعوا لغتهم المقدسة (العبرية)، وكان يسمي عوام عصره (الجماعة العميان) لأنهم يتكلمون عامية أهل الأندلس العبرية التي هي خليط من العبرية والعربية واللاتينية، وكانت تسمى لغة الإيدوم Edom، كما إنهم لا يحسنون العربية فيتكلمون العامية الأندلسية المسماه لغة كيدار Kedar.

اتصل ابن جبيرول بابن نغريلة الوزير ومدحه كثيراً بالعبرية والعربية، ومما قاله فيه بالعبرية: «من ذا الذي يشبه الفجر بطلته، وينير كالشمس مشرقاً جلياً، ذو مجد وذو شرف كالأمراء النبلاء، طيبه كالبخور إذا احترق، وخده كالسوسن المحمر، أرى به سحراً وهو ليس بمسحور». وعندما تغيرت نفسية ابن نغريلة ومال إلى الصلف والتجبر قال فيه: «قل للرئيس الذي علا وتكبر، الكبر تجسد فيك، ومنك فشا، عليك اعتمدت فخيبت آمالي فيك».

نظم ابن جبيرول في آخر أيامه قصيدة طويلة في التصوف الإلهي، سماها بالعبرية (كثرملخوت) أي تاج الملك، تحدث فيها عن علاقة الإنسان بالله، وقسّم القصيدة إلى قسمين:

القسم الأول: تحدث فيه عن عظمة الله، وجبروته ونوره وحكمته، وتحدث عن الإنسان خليفة الله في الأرض، كما تحدث عن ضعف الإنسان أمام الله.

القسم الثاني: تكلم فيه عن الكون الأكبر، وعن الإنسان الكون الأصغر، تكلم عن النفس والروح ومجاهدة النفس للوصول إلى الله، معبود الإنسان ومحبوبه معاً.

إن كل من طالع كتاب (ينبوع الحياة) ظن أن ابن جبيرول مسلماً، من أجل هذا اضطهده عوام اليهود الربانيون وقتلوه، لأنه كان حر الفكر وكان يميل إلى القرائين ويرفض تعاليم التلمود، وظهرت في الأندلس أسطورة تقول إن قاتله دفنه في سرقسطة، ونمت فوقه شجرة تين، وكان لتينها طعم مختلف في الحلاوة وفي الحجم. وعندما سأل الحاكم صاحب الشجرة وضغط عليه اعترف أنه هو الذي قتل ابن جبيرول (المقدس) ودفنه في هذا المكان وظهرت فوقه هذه الشجرة[52]. توفي ابن جبيرول سنة 1070م.

**الفيلسوف الإلهي يوسف بن صديق (المتوفى 1148)**

ولد يوسف في غرناطة، وتعلم في مدرسة اليسانة اللاهوتية ودرس الفلسفة الإسلامية وكتب سليمان بن جبيرول على الربي يوسف بن سهل القرطبي، وعندما تخرج عيِّن قاضياً لليهود في قرطبة، ودعي الديان أبو عمر يوسف بن صديق. وألّف كتابين أحدهما بالمنطق وبالفلسفة سماه (الكون الأصغر) كتبه بالعربية وترجمه إلى العبرية باسم (سفرها عولام هاقطون) ظهرت فيه

مقتطفات من رسائل إخوان الصفاء، ومن تآليف المعلم ابن جبيرول. وعندما مات معلمه يوسف بن سهل خلفه في إدارة المدرسة اللاهوتية في قرطبة، وصار يعلم الفلسفة الإسلامية والفلسفة اليهودية، ووضع عدة رسائل اعتمدت على شروح الفارابي والغزالي، وضاعت مؤلفاته، وبقيت نتف مبثوثة في المخطوطات العبرية. من ذلك قوله: «لا بد أن يعرف الإنسان نفسه. فمعرفة النفس تؤدي إلى معرفة الله وقدرته، وما جاء في الكتب المقدسة من أوامر ونواه ووصايا هي لصالح الإنسان وليس لصالح الله، الذي هو غني عن العالمين، لأنه مكتف بذاته». من هذا النص نلمح مدى تشبع كتابات يوسف بن صديق بالفكر الأفلاطوني وتأثير تلاميذ ابن مسرة فيه.

**الفيلسوف المتصوف موسى بن يعقوب بن عزرا (المتوفى 1138)**

ولد موسى في غرناطة ودرس فيها الأدب العربي والحكمة الإسلامية، وجاء إلى اليسانة، ودرس الأدب واللاهوت العبري، وكان مجلياً في الكتابة باللغتين، العربية والعبرية، كتب كتابه (المحاضرة والمذاكرة) بالعربية ولكن بحروف عبرية كعادة أهل زمانه، ويعترف موسى بن عزرا صراحة بفضل الأدب العربي على الأدب العبري، ولولاه لما أبدع كتابهم. ثم ترجم الكتاب باسم (سفر إسرائيل) وكتب بالعربية كتاباً سماه (الحديقة في الأدب والشعر) نال إعجاب مؤلفي عصره اليهود والعرب، ونظم قصيدة بالعربية جاء فيها: «ليذكر الإنسان في حياته القصيرة، انه يسير في طريق الموت، فهو يسافر كل يوم مرحلة بطيئة، وإن ظهرت له الحياة أنه مستقر، فهو مثل راكب السفينة المستقر عليها، ولكنه في الحقيقة يطير على الريح». هذه الفكرة مأخوذة من فكر إبراهيم سيَّار المعتزلي الذي تكلم عن الطفرة، وأتى بهذا المثال.

هاجر موسى بن عزرا إلى إسبانيا المسيحية عام 1100، قبل نكبة اليهود بغرناطة، وسبب هجرته أنه أحب ابنة أخيه الفتاة الجميلة التي بادلته الحب، وأذاقته طعم الشهد من رضابها وطلبها من أخيه فامتنع، لأنها ابنة أخيه، فغادر غرناطة وتوفي في أرض الغربة عام 1148، وبقيت فقرات من كتابه (الحديقة في الأدب والشعر) بالعبرية باسم (أرحات هابوشيم) وترك ديواناً من أعذب الشعر العبري باسم (آلام الهوى) قال فيه: «ما لحبيبي ماله يزري بي

ويخاصمني، إن قلبي يميل إليه، كأنه عشب مياس، أيكون حبيبي قد نسي ذلك العهد القديم؟ وكيف أدعوه ولا يستجيب؟ بلى! إني لا أزال أنتظره، ولو كان حتفي على يديه، إذ كيف يحول الذهب الخالص ويتحول؟».

عاش موسى بن عزرا زاهداً ذليلاً في الغربة، ولكن تبقى فيه ومضات من إباء وعنفوان، يذكرنا بالمتنبي الذي كان موسى معجباً به، قال في قصيدة: «تقولون لي أبعث دوناش من قبره، أو أعد لمناحم جسده، فأجبت: تقولون أبعض دوناش، فهل تقارنوني بالآخرين؟ بالله قولوا لي: من دوناش؟ ومن مناحم؟ ومن هذا أو ذاك من الشعراء؟ كلهم لا يساوون شيئاً أمامي! وشعري أمام شعرهم كنار تلتهم قشاً. ولو بعثوا وقرأوا ما أنظم من اللآلئ والدرر لشهدوا لي بعلو المكانة، ولقال صغيرهم وكبيرهم، لم يخلق في الدنيا شاعر ولا كاتب كموسى، إنه أسد يزأر وسط قطيع غنم وحصان يصهل وكلنا حمير! إنه البحر المحيط بالأرض، وما نحن إلا أنهر بالنسبة إليه، وها هو الرئيس العظيم (يقصد ابن نغريلة) الذي جعله كبار القوم علامة قومه، ونعتوه بالحكمة والإدراك، لأنه كتب وألف كتباً بلا عدد»[53].

زهد موسى في أواخر حياته، وقال أشعاراً في الحب الإلهي كشعر ابن الفارض سلطان العاشقين، ولكن شتان بين الشاعرين الأول يلهج بذكر الله، عن حب طاهر عفيف وموسى يلهج بذكر حبيب عنه احتجب، فصعّد ميوله بعدها نحو الله، ولكن يظل التصوف اليهودي له علاقة وثيقة بالتصوف الإسلامي.

**الفيلسوف بحيا بن يوسف بن بقودة (المتوفى 1065م)**

ولد بحيا في قرطبة حوالي عام 1000، عاصر مقتل الخليفة الأموي عبد الرحمن المرتضى عام 1018، والخليفة عبد الرحمن المستنصر بالله (1024-1071). درس مع سليمان بن جبيرول في مدرسة اليسانة اللاهوتية ودرس الفلسفة والأدب العربي، وقد تأثر بفلسفة الغزالي، وألف كتاباً في التصوف سماه (الهداية إلى فرائض القلوب) وضعه بالعربية بناه على الفضيلة الكبرى ألا وهي (طهارة القلب) أو ما يعرف بطهارة الضمير ونقاؤه، وعندما ترجم الكتاب إلى العبرية سموه (واجبات القلوب) وقد أثنى عليه مسيحيو الأندلس وسموه توماس دي كمبس اليهودي. ترجم الكتاب يهوذا بن طبون ونال إعجاب اليهود وصار أساس القواعد العشرة للتصوف عندهم (القبالاة) وهذه القواعد هي:

1)الإخلاص في التوحيد: قال بحيا: فلما عرفت على إثبات فرائض القلوب استعملت القياس المنطقي ووضعت أصلها الأعلى، وأسها الأكبر على إخلاص التوحيد.

2)الاعتبار بالمخلوقات: ثم نظرت إلى ما يلزمنا من اتباع التوحيد من الفرائض المذكورة، المشاكلة له منا، فعلمت علماً يقيناً، أن الخالق لما كان واحداً حقاً، ولا يلحقه اسم جوهر ولا عرض، امتنع علينا إدراكه من جهة ذاته، فلزم تعريفنا به، وإدراكنا لوجوده من جهة مخلوقاته، وهو اعتبار بالمخلوقين. فوضعت الاعتبار أصلاً ثابتاً لجملة من فرائض القلوب.

3)الطاعة والخضوع لله: ثم تأملت إلى ما يلزم للواحد الحق، من الربوبية وما يحق على المخلوقين من عبوديته، فوضعت التزام الطاعة لله أصلاً، ثالثاً لجملة من فرائض القلوب.

4)التوكل على الله: ثم تبينت إلى ما يلزم الواحد الحق، من انفراده بتدبير الكل، وإن النفع والضر ليسا بيد غيره، ولا في مقدرة سواه إلا عن إذنه، ألزمنا التوكل عليه، والاستسلام إليه، فوضعت التوكل أصلاً رابعاً لجملة الفرائض.

5)الإخلاص لله: ثم تفكرت في معنى الواحد الحق، من اختصاصه بذاته، ولا يشاركه شيء، ولا يشبهه شيء، اتبعت ذلك إفراده بالطاعة، والعبادة، بل بإخلاص عملنا لوجهه، إذ لا يقبل الشرك معه، فوضعت إخلاص العمل لله أصلاً خامساً لجملة من فرائض القلوب.

6)التواضع لله: ثم أجلت فكري فيما يلزمنا للواحد الحق، من التعظيم والإجلال، إذ ليس كمثله شيء، فتبع ذلك التواضع حسب ما يستأهله، فوضعت التواضع أصلاً سادساً لجملة من فرائض القلوب.

7)التوبة لله: ثم لما تصفحت ما يجري على الناس من الغفلة والتقصير، فيما يلزمنا من طاعة الله - عز وجل - وكان به استدراك غلطهم، وتقصير التوبة والاستغفار، وضعت التوبة أصلاً سابعاً لجملة من فرائض القلوب.

8)محاسبة النفس: لما تفحصت عن إدراك حقيقة لوازمنا لله، عز وجل، من الفرائض، الظاهرة والباطنة، وعلمت أنها لا تصلح إلا بمحاسبة عن ذلك لله عز وجل، والتقصي عليها، فوضعت محاسبة النفس أصلاً ثامناً لجملة من فرائض القلوب.

9)الزهد في الدنيا: ورددت في خاطري معنى الواحد الحق، فرأيت أن توحيده بإخلاص لا يصح في نفس المؤمن، إذا سكر قلبه من شراب حب الدنيا، واسترساله إلى شهواته البهيمية، فإذا رام تفريغ ضميره، وإخلاء باله من فضول الدنيا، بالزهد في لذاتها، تمكن التوحيد التام من قلبه وخلصت له فضيلته، فوضعت الزهد في الدنيا من جملة فرائض القلوب.

10)المحبة في الله: ثم بحثت عما يلزمنا للخالق تعالى الذي هو غاية كل أمل، ونهاية كل رجاء، إذ منه الابتداء، وإليه الانتهاء، وما يستوجبه منا من المحبة في رضاه والخوف من سخطه اللذين هما غايتا (السعادة) والشقاوة، كقول الولي عليه السلام فوضعنا المحبة في الله عز وجل أصلاً عاشراً لجملة من فرائض القلوب[54].

لما درس المستشرق اليهودي جولدتسيهر كتاب (فرائض القلوب) وجد تشابهاً بينه وبين كتاب الغزالي (قواعد الاعتقاد) وكتاب أبو طالب المكي (ثمار القلوب)، بل أستطيع القول إن الفيلسوف اليهودي بحيا بن بقودة يكاد ينقل حرفياً منهما.

ولبحيا شعر في الحب الإلهي (بيوطيم) لم يتقيد فيه ببحور الشعر التي وضعها سليمان بن جبيرول، قال: «باركي يا نفس الله، ولتبارك كل أحشائي اسمه القدسي، يا نفس تقدمي بقودة، وباركي خالقك، واذكري نعمتك ورتلي صلاتك، واستيقظي من نومك، وفكري من أين جئت؟ وإلى أين ذاهبة؟ يا نفس هبي هبي من سباتك، وكبّري اسم خالقك، ولا تكوني كحصان أو بغلة لا تفهم، لأنك من مصدر إلهي، ومن منبع الحكمة خرجت، ومن مكان مقدس أخذت، ومن حول الملائكة أنزلت، من عند الله من السماء العالية»[55].

كان بحيا يعيش في مدينة أليسانة، مدرساً في مدرستها اللاهوتية، وكان متوسط الحال، وكان له ابن عم مثله يقرض الشعر، هو داود بن أليعازر بن بقودة. قرض حوالي 40 قصيدة من نوع (البيوطيم) نسبت إلى بحيا. توفي بحيا حوالي عام 1065م. ودفن في أليسانة.

كان بحيا بن بقودة قد أسس لقواعد التصوف اليهودي، وعزز مذهب القبالاة وهو الذي أحيا فكرة المسيا المنتظر (المسيح القادم) ليخلص بني إسرائيل، ويقيم مملكة أورشليم، ويعم العالم السلام، وتنعدم الحروب، وتسعد الشعوب.

### الفيلسوف يهوذا بن صموئيل اللاوي (1086- 1141)

ولد يهوذا في غرناطة عام 1086م، ودرس فيها الطب والفلسفة واطلع على كتب التصوف الإسلامي واليهودي، وسافر إلى مدينة أليسانة، لمتابعة دراساته في مدرستها اللاهوتية. ودرس على يد المعلم بحيا بن بقودة، النحو والشعر، وعلى اسحق بن مارشاؤل تلميذ مروان بن جناح النحوي الكبير، صاحب كتاب اللمع، وكتاب الأصول في النحو العبري.

تخرج يهوذا بدرجة أستاذ متقناً العربية والعبرية، ومن شعره بالعبرية:

«إلهي لا تحاسبني، حسب خطئي، ولا تكلني لأعمالي، واشملني بفضلك، لأحيا يا رب برحمتك لا تخاطبني على خطئي».

كان معلمه مار اسحق بن مارشاؤل العراقي الأصل معجباً به، ويتبع خطواته، وساعد يهوذا الربي يوسف بن أبي ثور على ترجمة مقتطفات من التلمود وأهداها إلى الخليفة الحكم الثاني (961- 976) وطلب منه أن يساعده ليصبح رئيساً لمدرسة قرطبة بدلاً من حنوك بن موسى بن حنوك، لأنه يرى نفسه أكفأ منه. وهمَّ الخليفة بأن يفعل، ولكن اليهود في قرطبة انقسموا فمنهم من تشيع ليوسف، ومنهم من تشيع لموسى، مما اضطر الخليفة في النهاية، إلى نصح يوسف بن أبي ثور بالذهاب إلى أليسانة، وأن يدرس فيها الأدب واللاهوت، فامتثل للأمر، ولكنه بدلاً من ذلك سافر إلى دمشق سنة 971م، وبعد وفاة الحكم الثاني سنة 976 أرسل له تلميذه يعقوب بن جويد، يدعوه للعودة لاستلام المدرسة فأبى. وتوفي في دمشق عام 1012م، ونظم في دمشق حوالي 200 قصيدة من شعر البيوطيم وأضاف إليها نوعاً يسمى معماد (أي موقف) وهي ترنيمات تنشد في عيد الغفران.

بعد هجرة يوسف إلى دمشق ذهب يهوذا بن صموئيل إلى أليسانة لتدريس العبرية والفلسفة الإسلامية، وكان صموئيل يميل إلى القرائين مما جلب عليه عداوة بعض أهل أليسانة، فقصدها، وفيها استضافه التاجر هرون بن صهيون بن الماني، وأرسل له التاجر أبو منصور بن حنانيا دعوة لزيارة القاهرة فوصل إليها واحتفل به لأن شهرته سبقته من الأندلس، وبعد أن مكث في القاهرة حوالي سنة سافر بصحبة سعيد بن خلفون اللاوي إلى دمنهور، ومنها توجه إلى القدس. وقبل وصوله توفي عند أسوار القدس عام 1141م، ودفن هناك وترك ثروة

شعرية هائلة منها قوله: «عبد الدنيا عبيد لعبيد، والحر هو عبد الله وحده، حين يسعى كل امرئ لهواه، تقول نفسي هواي تسبيح الله».

وضع يهوذا عدة كتب بالعربية، وكان قد تأثر بالفيلسوف ابن طفيل، ووضع كتابه (الحجة والدليل في نصرة الدين الذليل) وكان وضعه عندما سمع بتهوّد قبائل الخزر، ففرح وتصور القصة التالية: «إن ملكاً وثنياً من أهل الخزر، فكر في أن يعتنق ديناً سماوياً (الإسلام أو النصرانية) ولم يفكر في اليهودية، لأنها دين الأذلاء، فاستدعى قساً وطلب منه أن يشرح له مبادئ النصرانية.وبعد نقاش بينهما رأى أنها ترتكز على تعاليم الدين اليهودي (الدين الذليل) وتقول المسيحية إن الله تأنس بالمسيح، وصلب، وإن الله مكون من ثلاثة أقانيم في أقنوم واحد (من الآب والابن وروح القدس) ولم يفهم الملك: لماذا الإله يصلب؟ ولم سر الفداء، فصرف القسيس. ثم استدعى الملك الخزري شيخاً مسلماً، ليشرح له تعاليم الإسلام، وفهم منه أن الإسلام يشبه اليهودية في التوحيد والتنزيه وأن القرآن هو المعجزة الإلهية التي يعتز بها المسلمون، ففكر الملك، وقال: إن القرآن بالعربية، ولا يستطيع أحد غير العرب إدراك سر إعجازه، فرفض اعتناق الإسلام، ثم استدعى يهودياً من أصحاب الدين الذليل، فقال للملك: إن اليهود يعبدون ربهم الذي أخرجهم من أرض العبودية أرض مصر وخصهم الله بنبوة موسى (كليم الله) وأنزل عليه التوراة وفيها تعاليم دينهم. ووجد الملك الوثني أن الدين اليهودي هو أصل الديانات الثلاث، وقبل الدين الذليل». وعندما سمع تلميذه سليمان بن المعلم بموت أستاذه يهوذا الذي طالما رافقه في بعض رحلاته بالأندلس، رثاه بقصيدة من عيون الشعر العبري قال فيها: أمطر ينهمر أم عينان تدمعان؟[56].

**الصوفي الكبير إبراهيم عزرا (1092- 1176)**

ولد إبراهيم بن يعقوب بن عزرا في غرناطة عام 1092، ودرس هو وأخوه الشاعر والفيلسوف موسى بن عزرا في غرناطة، ثم أكمل دراساته العليا في مدينة أليسانة، حيث تعلم على الأستاذ اسحق بن غياث الأدب العربي، والتفسير والفقه التوراتي، وتعلم الآرامية على الأستاذ اسحق الفاسي ويوسف ابن ميجاس، الذي رفع السوية العلمية للدراسات الرياضية والفلكية.

وعـاش إبراهيـم فـي عـهد المرابطـين القسـاة الذيـن أرهقـوا الشـعب بكـثرة الضرائب، وكان المرابطون متدينين متعصبين من جنس البربر، قال عنـهم أبـو الفهم لاوي بن يعقوب التيان: «عضوا يدي الملوك العرب_ كأفاع أطلقت من جحورها، لم يبجلوا الشيوخ والرؤساء، وسبوا النساء حسبما يطيب لهم».

بعد تخرج إبراهيم من المدرسة تجول في المدن الأندلسية يمدح ليكتسب رزقه، لأنه افتقر بعد عز وجاه كان يحظى به من الأمراء العرب. كتب إبراهيم كتاب (الإيضاح في النحو العبري)، وشرح سفر دانيال والمزامير وأدخل الحوار في الشعر العبري، وصور الصراع بين العرب والبربر، برموز (صور العرب بالحمر) و(صور البربر بالسود). وسجل الحروب بين المسلمين والإسبان. وأفضل كتاباته الأدبية الفلسفية قصة (حي بن قصيص) وهي قطعة من الأدب الفلسفي قلّد فيها ابن طفيل، وابن سينا، وأرسل قصته إلى صديقه صموئيل بن جامع المقيم في تونس. تصور إبراهيم أنه قابل شيخاً يدعى حي بن قصيص، وقاما برحلة معاً بين الأفلاك حتى وصلا إلى الفلك التاسع (الكواكب الثابتة) وهو أقصى مكان يحيط بالكواكب السبعة، تبدأ القصة بمقدمة:

قال إبراهيم: اسمعوا أيها الحكماء ألفاظي، ويا أيها العارفون بالله اصغوا إلى كلماتي، وافهموا أيها الرجال والشيوخ مقاصدي، وانصتوا أيها الشباب لقولي، فإن لساني دائماً ينطق بالحق، وشفتاي لا تنطقان عن الهوى، لقد تركت بيتي وأملاكي ورحلت من منزلي ومسقط رأسي ومقر أهلي، غرناطة، بعد أن طعنني أهلي وشتموني، وجعلوني ناطوراً، ولكن ليس لكرمي (استخدم إبراهيم تعابير كتابية من نشيد الإنشاد).

**بداية الرحلة:** يخاطب إبراهيم صاحبه حي بن قصيص، قلت لك: سأتبعك وأتجول معك، وأبتهج وأفرح بقربك، وأسر بصداقتك، وأطرب طرباً يفوق تأثير الخمر بوجودي معك. استخدم إبراهيم رمزه من القرآن الكريم حين صاحب موسى رجلاً صالحاً ليرشده (سورة الكهف).

أجابه حي بن قصيص: هل تستطيع أن تطير معي، وجناحاك مكسوران، و ليس لك ريش؟

قال إبراهيم: من يعطيني جناحي حمامة لأطير وأهبط؟ أرجوك يا سيدي ألا تردني خائباً، فقد شكوت إليك حالي، وفيك وضعت أملي، فداو مرضي وضمد جراحي.

**الصعود نحو سدرة المنتهى:** هنا تقدم حي بن قصيص، وقاد إبراهيم في طريق رحبة تقود إلى أرض الجنة، فوجدها تفضي إلى ثلاثة شعاب عميقة وبعيدة الغور:

الشعب الأول: فيه ماء ونهايته سماء.

الشعب الثاني: نهايته المشرق، ومطلع النور البهي.

الشعب الثالث: أو المغرب، وبداية الغسق.

وكل شعب يفضي إلى الآخر، ويضفي عليه نوراً وبهاء.

استخدم إبراهيم بن عزرا رموزاً صوفية إسلامية نجدها عند فلاسفة الإشراق الفارسي. عند فريد الدين العطار، وقصة رحلة السيمورغ للوصول إلى سدرة المنتهى. والصواب أنه سبق برموزه الفلاسفة المسلمين.

**الفيلسوف اسحق بن إبراهيم بن عزرا (المتوفى 1163م)**

ولد اسحق بن إبراهيم في غرناطة، في زمن ضاقت بوالده سبل الرزق، وقد هاجر عمه موسى بن عزرا إلى الشمال المسيحي، وتفرق شمل العائلة وانفرط عقدها. ولكن اسحق كان شاباً يحب العلم والفلسفة. درس العربية وبرع في العبرية، عاش في جو الضنك الذي أدخله عبد المؤمن بن علي المرابطي على الأندلس، وفقد اليهود لأول مرة منذ بداية الفتح العربي عزهم، على يد البربر. قرر اسحق السفر وهاجر إلى مصر عام 1130م، واستقر في الفيوم مدة من الزمن، درس مؤلفات سعدية بن يوسف الفيومي (المتوفى 943م). ثم هاجر إلى العراق بطلب من العالم اليهودي نتائيل بن علي المعروف بأبي البركة هبة الله، وحين وصول اسحق إلى بغداد، استقبلته الجالية اليهودية بالترحاب، وهيؤوا له الجو المريح، فشرح اسحق سفر الجامعة، وأهداه إلى صديقه أبي البركة سنة 1143م، وفي هذه السنة اعتنق أبو البركة هبة الله الإسلام. فماذا حدث لإسحق بن عزرا؟ شعر بالضياع، وصار يتردد على حلقات الذكر الصوفية الإسلامية،

وتعرف على الشيخ عبد القادر الجيلاني (المتوفى 1165م) وعلى عدي بن مسافر، وعلى عقيل المنبجي، وانخرط معهم في حلقات الذكر، وأعلن إسلامه عام 1150م، وحسن إسلامه، وأشاع في الأوساط الصوفية فكرة الإنسان الكامل والعارف بالله، وفكرة التجلي الإلهي، وهذه من مبادئ القبالاة، فليت اسحق لم يسلم، لأنه أثر في الشيخ عدي بن مسافر الذي انتقل إلى منطقة الموصل، وفي جبل لالش، وهناك أثمرت أفكار اسحق بن عزرا مذهب العدوية، الذي تحول فيما بعد إلى الديانة اليزيدية.

مات اسحق بن عزرا عام 1163 وسمع بوفاته والده إبراهيم بن عزرا بعد موته بثلاث سنوات، فرثاه بقصيدة جاء فيها: «يا أبا الولد، اقترب وارثه لأن الله أبعده عنك». واسحق بن عزرا هو الذي أثر في داود بن الروحي الذي اعتقد أنه المسيح المنتظر.

**الفيلسوف الطبيب موسى بن ميمون الإسرائيلي (المتوفى 1204)**

ولد موسى بن عبيد الله بن ميمون في قرطبة عام 1135م، في زمن الموحدين، درس اللغة العربية والأدب العبري والعربي على يد أبي الحسن يهوذا بن صموئيل اللاوي، وشروح التوراة على العلامة اسحق بن غياث والآرامية على اسحق بن يحيى الفاسي، ودرس الفقه على شيوخ عصره من علماء المسلمين، ودرس الفلسفة على ابن الطفيل في فاس. وعندما استولى عبد المؤمن بن علي الكوفي الزناتي على قرطبة عام 1148 عرض على اليهود الإسلام أو الرحيل عن المدينة إلى (المرية) أعلنت الأسرة إسلامها كرهاً، وعندما طرد أبو يعقوب الزناتي الجيش الإسباني عام 1160م، وكان متشدداً في الدين مثل أبيه، خرجت أسرة موسى بن ميمون إلى فاس في المغرب. وهنا تتلمذ موسى بن ميمون على الكاهن اليهودي يهوذا بن صمويل الأدب العبري. وفي عام 1165 قررت الأسرة الرحيل إلى الشرق، ووصلوا إلى عكا، ومنها أبحروا إلى مصر، واستقروا بمدينة الفسطاط. وكانت معاملة اليهود تحت الحكم الفاطمي جيدة، والتف حوله الشباب اليهودي المتعطش للمعرفة، وألف لهم كتاباً من كتب جالينوس جعله كتاباً مدرسياً، وهو مختصر نافع للمبتدئين، وكتب لهم في الفلك ملخصاً من كتاب المجسطي، وكان من أبرز تلاميذ يوسف بن عقنين المعروف في الوسط العربي

بأبي الحجاج يوسف بن محي الدين بن اسحق السبتي، كان طبيباً وفلكياً، نزل بحي المصيصة ومارس فيها تجارة الجوهر، وظل يعلم، وعندما ذاعت شهرته انتقل إلى القاهرة وهنا قرأ عليه المسلمون واليهود علوم الأوائل، وتزوج أخت أبي المعالي كاتب أم السلطان نور الدين بن صلاح الدين وولد له عمران وصار مثل أبيه طبيباً وخدم آل قليج أرسلان في أرض الروم ثم أسلم(57).

في هذه الفترة كتب موسى بن ميمون كتابه الشهير (دلالة الحائرين) بالعربية ولكن بحروف عبرية كعادة أهل الأندلس. تعرف موسى بن ميمون على القاضي هبة الله بن سناء الملك عام 1171م، ونال رضاه، فمدحه ابن سناء بقصيدة:

أرى طبَّ جالينوس للجسم وحده  وطب أبي عمران للعقل وللجسم

فلو أنه طب الزمان بعلمه  لأبرأه من داء الجهالة بالعلم

وكتب في القاهرة كتاب (السراج في الفلسفة والتصوف) وكتب شرحاً للمشنا، وأرسله مع رسالة عزاء إلى تلميذه النابه والصديق الوفي يعقوب بن عقنين القاطن في الفيوم عام 1172م. وكتب كتاب (الفرائض) دافع فيه عما وجه إلى كتابه (تثنية التوراة) من نقد. وصار موسى بن ميمون طبيباً للقاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي البيساني، ونال ابن ميمون شهرة واسعة، وتعرف عليه رجل من أهل المغرب يعرف بأبي العرب بن معيشة، وشنَّع عليه واتهمه بالردة عن الإسلام، ولكن القاضي الفاضل دافع عنه وقال: رجل مكره لا يصلح إسلامه شرعاً. وأنقذه من حكم المرتد وهو الإعدام.

ألف ابن ميمون كتاباً في الردة، دافع فيه عن أسباب اعتناق يهود المغرب للإسلام بالإكراه وتحت التهديد بالقتل أو الإسلام، ثم ارتدادهم لما شعروا بالأمان لأنه (لا إكراه في الدين). وأشاع موسى بن عمران كتابه (دلالة الحائرين) بين الأوساط اليهودية حاول فيه تطمين اليهود الحائرين في كيفية التوفيق بين الفلسفة والدين أو بين العقل والوحي الإلهي، على طريقة ابن رشد القرطبي، وانتشر صيت الكتاب وشاعت نسخه بين يهود مصر والشام والعراق. واطلع عليه الفلاسفة المسلمون، فهذا الفيلسوف العراقي عبد اللطيف البغدادي (1161-1231م) عندما زار مصر عام 1200م، أحب رؤية ثلاثة أشخاص منهم موسى بن ميمون، قال: «وجاء إليّ وأنا في القاهرة، فوجدته فاضلاً، ولكن غلبت عليه حب

الرياسة، وخدمة أرباب الدنيا، وعمل كتاباً في الطب جمعه من الستة عشر لجالينوس ومن خمسة كتب أخرى، وعمل لليهود كتاباً سماه (دلالة الحائرين) ولعن من يكتبه بغير الخط العبراني، ووقفت عليه، فوجدته كتاب سوء يفسد أصول الشرائع والعقائد بما يظن أنه يصلحها»[58].

السؤال المفترض: هل كان عبد اللطيف البغدادي صائباً في حكمه؟

أرى أن عبد اللطيف كان قد غبن موسى بن ميمون حقه، وهذه عادته في الطعن بالعلماء المعاصرين له. قال ابن أبي أصيبعة: «وكان موفق الدين البغدادي رحمه الله ربما تجاوز في الكلام لكثرة ما يرى في نفسه من العجب، وكان يستنقص الفضلاء الذين في زمانه، وكثيراً من المتقدمين حتى ابن سينا»[59].

لقد نال كتابه (دلالة الحائرين) إعجاب الدارسين اليهود والمسلمين لما فيه من فائدة. حتى قيل (لا مثيل لموسى إلا موسى) أي لا مثيل للنبي موسى إلى موسى بن عمران. ومع ذلك لم يسلم موسى بن عمران من نقد اليهود له. قال الفيلسوف اليهودي الهولندي باروخ سبينوزا (1632- 1677) في رسالته (اللاهوت والسياسة): «إن الكتاب المقدس قد شفي ممن سلطوا عليه التأويل في جرأة لا نجدها إلا عند ابن ميمون، وإنها طريقة لا فائدة منها، وبأنها لا تدعنا ندرك المعاني الحقة للكتاب المقدس، وإذن يجب رفض صنيع موسى بن ميمون، باعتباره عملاً ضاراً وعابثاً»[60]. أرى في نقد سبينوزا تجنياً على موسى بن ميمون لا يقل عن نقد عبد اللطيف البغدادي الذي عرضته من قبل.

### تحليل وعرض موجز لكتاب الدلالة

كتاب دلالة الحائرين، كتبه موسى بن ميمون بناء على طلب تلميذه يوسف ابن عقنين الفيومي، والكتاب بجملته محاولة لتأويل وتفسير الكتاب المقدس (التوراة) مقتفياً آثار من سبقه من فلاسفة اليهود أمثال فيلون الإسكندري وسعدية الفيومي وابن جبيرول القرطبي، ولكن التأويل على ضوء الفلسفة الإسلامية. يقول موسى بن ميمون: «هذه الرسالة لها غرض ثان، وهو شرح النصوص المجازية الشديدة الغموض، تلك النصوص التي نصادفها كثيراً في أسفار الأنبياء، دون أن يكون واضحاً أنها من المجاز، والتي يأخذها الجاهل على معناها الخارجي، دون أن يرى فيها معاني خفية.

من هنا يجب التأويل لفهم كتب النبوات وما ترمي إليه من معان، وبهذا التأويل نتجاوز المعنى الظاهر للنفس إلى المعنى المراد، وكم بينهما من فرق، فكلمات الأنبياء ترمي إلى معان خفية منافع لا بد منها، وبخاصة في العقائد، ما دام موضوعها هو الحقيقة لا ما يشبه الحقيقة.

وهناك أصول لا بد منها لفهم كتاب (دلالة الحائرين) هي الأصول الستة:

1)يجب أن يكون في الظاهر ما يرشد المتأمل بعقله إلى المعنى الخفي.

2)أن يكون هذا المعنى الخفي أجمل وألبق من المعنى الذي يدل عليه النص بظاهره.

3)أن نصير إلى التأويل، إذا كانت النصوص لو أخذت حرفياً لأدت إلى التجسيم، أو جوازات النقلة، أو الكون في مكان على الله، ونحو هذا مما يتصل بصفات المخلوقين، التي يستحيل عقلاً أن تنسب إلى الله، ولهذا يجب تأويل هذه النصوص، وأمثالها للعامة والخاصة على السواء.

4)أن يصار إلى التأويل، متى قام الدليل العقلي الصحيح، على بطلان المعنى الذي يؤخذ من ظاهر النص، ولهذا تركت النصوص التي تشهد بظواهرها لحدوث العالم، مع إمكان تأويلها. لأنه لم يقم الدليل القاطع على قدمه حتى من أرسطو.

5)ألا نصل بسبب التأويل إلى معنى يهدم أساساً من أسس الشريعة، ولهذا كان السبب الثاني في عدم تأويل النصوص التي تشهد بظاهرها على حدوث العالم، وأن القول بقدمه، كما يرى أرسطو يستأصل الدين من أساسه، ويدفع كل المعجزات بأنها أكاذيب.

6)وأخيراً، ألا يذاع من التأويل إلا القليل الذي يكفي لفهمه، وأن يكون ذلك للمستعدين له»[61].

حاول موسى بن ميمون التأويل حين يراه ضرورياً، وقد وجد ما رآه حقاً من فلسفة أرسطو في التوراة، وأنه قد أعاد الطمأنينة للمحتارين والمترددين في توفيقه بين الفلسفة اليونانية والوحي الإلهي.

ترجم صموئيل بن يهوذا ابن طبون (المتوفى 1230) كتب موسى بن ميمون إلى اللاتينية ومنها كتاب (دلالة الحائرين)، وكتابه في الطب عن جالينوس، والرسالة التي تحتوي على العقاقير والأدوية القاتلة وفيها علاج لحالات نفسية

مع مقالتيه عن البواسير والربو، وهذه هي الكتب التي قدمها للقاضي الفاضل باسم الرسالة الفاضلية. ويعتبر موسى بن ميمون أمير الفكر والبيان عند اليهود في كل العصور، وكتبه جزء من الثقافة الإسلامية، التي أثرت في الفكر اليهودي الأندلسي.

## الشعر والشعراء اليهود في الأندلس

لا نعرف لليهود إنتاجاً ثقافياً أو إبداعاً أدبياً أو شعرياً إلا في ظل الحضارة الإسلامية وفي الأندلس خاصة، ازدهر الشعر في بلاط الحكام ورجال السلطة العرب واليهود، وأول من أعلى شأنهم، هو الطبيب حسداي بن شبروط. ويختلف الشعر العبري في أثناء الحكم العربي عنه في زمن ملوك الطوائف.

### الطبيب حسداي بن عزرا بن شبروط (885- 976)

ولد حسداي في بلدة جيان Jaen حوالي عام 885م، ودرس الطب واللغة اللاتينية والعربية في بلدته، ثم هاجر إلى دار الخلافة في قرطبة، في زمن الخليفة عبد الرحمن الناصر (912- 976) وعندما احتاج الخليفة لترجمة كتاب ديوسقوريدس في الأعشاب، شكل لجنة برئاسة الطبيب حسداي وأبي عبد الله الصقلي، والأسقف نيقولاوس القسطنطيني، وتمت الترجمة عام 915م، وأعجب الأمير بهذا الإنجاز الرائع، وجعل الخليفة حسداي مستشاره في استقبال الوفود الخارجية، وتنظيم الأمور التجارية، وطبيبه الخاص، فنال حسداي من الثروة والشرف الشيء الكثير، واهتم بالثقافة اليهودية فأنشأ في قرطبة داراً لتعليم اللاهوت والأدب العبري والعربي، وعين الحاخام موسى بن حانوكه لإدارة هذه المدرسة. ومن هذه المدرسة وحول شخصية حسداي بن شبروط، تكونت نواة الأدب والفلسفة والشعر العبري في الأندلس.

### الشاعر مناحم بن سروق الطرطوشي (910- 965)

الشعراء كالتجار يعرضون بضاعتهم الثمينة في ساحات الملوك وفي قصور الأمراء. جاء إلى قرطبة وكان رجلاً طموحاً مثقفاً، ومدح الوزير حسداي، وخلع عليه، وكافأه على قصائده الجميلة حتى قيل (إن مناحم يريك كل فصيح ويلجم

كل شاعر) وكثر حساد مناحم فطعنوا فيه بأنه كان من طائفة القرائين، ومعظم يهود قرطبة من الربانيين الذين يؤمنون بالتلمود ويقدسونه، فسجن حسداي الوزير (945- 970) مناحم عام 950م، فكتب مناحم قصيدة طويلة من سجنه تتكون من 426 فقرة ولهذه القصيدة الطويلة:

مقدمة: تتكون من 34 فقرة بدأها باستجداء عطف حسداي.

«إنك ابن آدم الذي بشر خلقه بالرحمة والعفو» وضمن المقدمة فقرات من سفر أيوب ومما قاله «عظامي تبكي، وأوصالي تئن بعضها على بعض، وأنا أنوح عليها جميعاً، وأمطرها بماء جفوني، وأرويها بدموعي».

صلب القصيدة: قال مناحم: «ما أنا إلا عبد يتطلع بأمل إلى سيده، إني تركت كحمامة قص جناحاها، إلى أن تأتي اللحظة المنشودة. وها أنذا أنتظرها بلهفة، وإني أصبحت كغصن أزيل لحاؤه فذبل، مولاي يسلمك الله القوي من كل أذى.. آمين».

عندما قرأ الوزير حسداي القصيدة، رقّ قلبه، وأعجب بها وحزن لمصير مناحم وأراد إطلاق سراحه ولكن المجلس اليهودي اعترض، فكتب حسداي إلى مناحم «إن كنت أذنبت فإنك تلقى جزاؤك، وإن كنت لم تذنب، فإن ثواب عذابك ستناله يوم القيامة». وكان الشاعر مناحم من القرائين الذين لا يؤمنون بيوم القيامة. جمعت قصائد الشاعر الكبير مناحم بن مسروق، وكتابه في النحو العبري في كتاب سماه (محبرت). ومات في السجن عام 965م، ودفن في قرطبة.

**الشاعر دوناش بن لبراط (925- 986)**

ولد في المغرب بمدينة فاس عام 925م، وسافر إلى العراق ودرس بمدرسة سورا على المعلم سعدية بن يوسف الفيومي (892- 942) وأتقن دوناش اللغتين العبرية والآرامية، وجاء إلى قرطبة ومدح الوزير حسداي بقصائد هي من درر الشعر العبري، ومما قاله فيه: «قل يا فؤادي الحكمة، والمعرفة والإدراك، واحرص على مسالك الفطنة، وعلى مجالس الأدب، وابحث وقل الصدق، ولا تكن عنيداً، لئلا تخدع كقلوب العاصين، تأنَّ دائماً في الإجابة، ولا تكن ردودك جاهزة، بل مصهورة ومختبرة كالذهب في البوتقة». ثم يتحول إلى مدح الوزير

حسداي: «اسمه يدوي في المشرق والمغرب، يتحدث عنه المسلمون والمسيحيون بجوده وبفضله، لأنه للفقراء كالأب الحنون، وكفه كالسحاب لقارض الشعر، هو تاج كتابي وسيد بياني ورافع اسمي فوق الشعراء، وإن شعري يفتح وييسر طرقاً مسدودة». ونال المكافآت والعطايا من حسداي ومن وجهاء قرطبة.

كان دوناش يقرض الشعر العبري على الوزن، تعلم ذلك في العراق بمدرسة سورا، وكان من المعجبين بالشعر العربي وهو الذي أوصى بني قومه «فلتكن الكتب المقدسة جنتك، ولتكن الكتب العربية فردوسك». ولدوناش أشعار بالعربية في الخمريات والوصف والهجاء، وكان يقلد أبا تمام والبحتري، ونقد الشاعر دوناش كتاب الشاعر مناحم كتاب (محبرت) تقرباً للوزير حسداي. ولكن أبا زكريا يحيى بن حيوج نقد كتاب دوناش الذي هاجم فيه الشاعر مناحم، قال: «لقد أهمل دوناش ومناحم كثيراً من الأجناس التي كان يلزمه الإبانة عنها، والتدقيق في بعد غورها، ودقة معانيها، وأغفل الأنواع جملة وضيعا من الأشخاص جمهوراً. ولست أقول في هذا ملاماً، فالكمال لله، والتمام له وحده، لا شريك له، ولكن لما ألحَّ عليَّ جماعة من إخواني شأنهم البحث والطلب لم أجد بداً من إسعافهم، فاستلحقت في هذا الكتاب كل ما بلغه وسعي، وانتهت إليه مقدرتي من أجناس وأنوع وأشخاص، التي أضرب مناحم عنها وسميت كتابي (كتاب المستلحق). كتب كتابه بالعربية[62]. كانت لهذه المناظرات والمماحكات أثراً حميداً في تطوير الأدب والشعر العبري، يقول انخل بالنثا: «كانت المناقشات بين علماء اليهود تجري على نفس الأسلوب الذي كان العرب يجرون عليه في مناقشاتهم فيما بينهم مما يدل على تأثر اليهود الشديد بالثقافة العربية»[63]. وتوفي دوناش عام 986م في قرطبة ودفن فيها.

**الشاعر الإشبيلي يهوذا بن بلعام (939- 1030)**

ولد يهوذا في إشبيليا في عام 939م، وتعلم في قرطبة لانتقال عائلته إليها. كان يهوذا يحسن الشعر بالعبرية واليهودية، وعلَّم في مدرسة قرطبة تفسير التلمود، وكان في العربية متبحراً، تناول الكلمات التي تحتمل أكثر من معنى، وكذلك الأفعال المشتقة في كتاب يحتوي عدة مقالات سماه (كتاب المقالات). وله كتاب عن النبوة في العهد القديم وضعه بالعربية. وكتب عدة موشحات بالعبرية،

ولـم يصلنـا مـن شـعره وموشـحاته وكتبـه إلا نتفـاً. مـن موشـحه فـي الحـب الإلـهي: «عندما أتذكر وأنا على مضجعي، غرور قلبي وآثامه، أقوم وأهرع إلى بيت إلهي ومعبدي، هيا فلأستعن برحمة الله، فإن رحمته واسعة».

كـان يهوذا بـن بلعـام شـاعراً سـليط اللسـان، يهجو ويمـدح ليعيش منـه، وكـان صديقاً للربي يوسف بن أبي ثور، وعندما اختلف يوسف مع الطائفة، لأنه طالب برئاسة مدرسة قرطبة بدلاً من موسى بن حنوكة، نصحه الشاعر يهوذا بن بلعام بالتوجه إلى دمشق، وغادر قرطبة عام 971م. بقي يهوذا بن بلعام متنقلاً بين المدن الأندلسية يهجو ويمدح ويطلب من الوجهاء العطاء، إلى أن توفي في سن كبير في ملقة عام 1030م.

**العالم اللغوي والشاعر اسحق بن قفرون (المتوفى 995م)**

ولد اسحق في قرطبة قبل منتصف القرن العاشر في أسرة يهودية شهيرة (آل قفرون) Caphron التي تعني (التيس) باللاتينية. تعلم على الأستاذ الشاعر مناحم بن سروق، وعندما هاجم دوناش بن لبراط أستاذه، أرسل إلى الوزير حسداي رسالة جاء فيها: «هاجوا بن لبراط، كتب باطلاً وظن أنه نجح، وأصلح القول المأثور، لكنه أتلف اللسان المقدس بوزنه العبرية بموازين أجنبية». لكن حملته فشلت، لأن علماء اليهود لهم رأي غير ذلك، قال موسى بن عزرا في كتابه (المحاضرة والمذاكرة): «الشعر عند العرب أمر طبيعي، بينما هو عند سائر الشعوب أمر مصطنع، ولما كان العرب قد وضعوا لأنفسهم أوزاناً وقواعد خاصة من أجل تزيين شعرهم، أما القصائد العبرية التي ينقصها الوزن فهي قصائد ممجوجة لا طعم لها، وعلى ذلك فما أحر الشعراء أن ينسجوا على طريقة العرب جهد المستطاع»[64].

وقد أكد الباحثون في تاريخ الأدب والشعر العبري، أنه لم يبدع اليهود إلا تحت ظل الحضارة العربية، ومن هؤلاء الأساتذة دافيد بالين، أستاذ الأدب في الجامعة العبرية بالقدس. قال في مقدمة كتابه (في الشعر الأندلسي): «لقد كان العصر الأندلسي، هو العصر الذهبي للأدب العبري، ومما يؤسف له أن ذلك الشعر الجميل قد كاد يندثر، ومنذ جلائنا والعرب عن الأندلس، عشنا في أقطار شتى، وتأثرنا بآداب شتى، وتبدل ذوقنا للجمال، ولكن ظل النموذج العربي الذي

اتخذه شعراؤنا ونسجوا على منواله، منذ القرن (10م) وهو النموذج الأكمل.
وعندما انتقل مركز التوراة من العراق إلى الأندلس، ظهر عند اليهود الأندلسيين أدب جديد، وصور جديدة، وأجناس أدبية جديدة، حاكوا فيها الثقافة العربية»(65). توفي ابن قفرون في قرطبة وضاعت آثاره (عام 995م). وضاعت كذلك محاولاته لفصل الشعر العبري عن الشعر العربي.

**الشاعر اسحق بن خلفون (المتوفى 1020م)**

ولد في غرناطة حوالي عام 960م، ويكنيه العرب أبا إبراهيم اسحق بن خلفون. درس الأدب واللغة في مدرسة قرطبة، وصار نابغة الشعر، وكان ينتقل بين مدن الأندلس مكتسباً من شعره، وكان يهجو ويمدح من أجل الارتزاق، وعاش متشرداً مثل أهل الكدية، يدق أبواب الأمراء، وهو يقول دون حياء «أطلب أبقاك الله صدقة وإن مت فأوصي بها إلى ولدي». وكان اليهود يتندرون في مداعبته لسلاطة لسانه، فإن طلب خمراً أعطي قطعة جبن مالحة، فقال: «طلبت منك سيدي مادحاً، وأكثرت عند بابك توسلاتي، وجعلتك برجاً أحتمي به، وأمام الأعداء سيفاً ودرعاً، جعلتك يوم القيظ ظلي، ويوم الزمهرير ناراً أتدفأ عليها، إن أعطيتني أعطاك الله خيراً، فأرسلت لي قطعة جبن مالحة هدية، وما تفيد قطعة الجبن المالحة، يوم الظمأ الشديد».

وله شعر رقيق في الغزل على وزن الشعر العربي:

«أقفز كالغزال حين يوقظني العشق، وإلى لذات الحب أهرول، ولذات الحسن أهرول إلى منزلها، فإذا بها مع أمها وأبيها، أراهم فأتراجع متظاهراً أني لست حبيبها، خائفاً منهم، لكن قلبي متعلق بها، كقلب أم ثكلت وحيدها». كان أبا أبو إبراهيم جميل الصورة، وكان نموذجاً لأهل الكدية، لم يبق من شعره سوى خمسين قصيدة، متناثرة بين المخطوطات العبرية، وتوفي في غرناطة عام 1020م[66].

## الشعر العبري في عصر الطوائف

انهارت الخلافة الأموية في قرطبة، وكان آخر الخلفاء هو هشام الثالث (1027- 1031) وانفرد بالحكم أمراء الطوائف من البربر في جنوب الأندلس،

وفتحوا لليهود أبوابهم، ولكن اليهود ظلوا يفضلون العرب على غيرهم، وتراجعت الحركة الشعرية، وغلبت عليه النزعة اللفظية، والصنعة البلاغية، وتقدم الأدب على الشعر.

**الوزير إسماعيل بن يوسف بن نغريلة (985- 1055م)**

ولد إسماعيل في قرطبة في عائلة غنية حوالي عام 985م، وكان طفلاً جميل الوجه، معتدل القامة، حاد الذكاء. درس في مدرسة قرطبة العبرية والعربية. وكان حسن الخط والإنشاء في العربية. هاجر إلى مدينة ملقة وفتح حانوتاً للعطارة وبيع الأدوية، لأنها كانت مهنة آبائه من قبل، وتعرف على مولى أبي القاسم بن العارف، وطلب منه كتابة معروض لوالي ملقة. كتب المعروض بخطه البديع وإنشائه الرفيع، ولما اطلع الوالي حبوس البربري على الكتاب أعجب به، وطلب إسماعيل بن نغريلة، وعينه عنده كاتباً، وذاع صيته بين يهود ملقة، فعينوه رئيساً عليهم، وعينه الوالي حبوس مسؤولاً عن جباية الضرائب. ولما مات حبوس جرى خلاف بين ولديه ماخسان وباديس على خلافته في الإمارة، ناصر ابن نغريلة الولد الأصغر باديس، على أخيه الأكبر. ولما استلم باديس الإمارة عينه وزيراً له، ثم تولى إمارة الجيش في مدينة غرناطة، وكان ابن نغريلة شجاعاً حسن الرأي في تدبير الأمور. قصده اليهود من كل مدن الأندلس يرتجون فضله، فلم يرد أحداً منهم خائباً، حتى اسحق بن يعقوب اليهودي صاحب شرطة غرناطة السابق[67].

قصده الشعراء المسلمون فنالوا عطاءه، قال ابن بسام: «كتب إليه عبد العزيز ابن خيرة الملقب بالمنفتل رسالة قال فيها: فتى كرم خالاً وعماً، شرح من المجد ما كان مغمى، إنه قس فصاحة، وكعب سماحة، ولقمان علماً، والأحنف حلماً، أكرم همة من همام، وأعظم بسطة من بسطام، إن خاطب أوجز وإن غالب أعجز»[68]. كل هذه الصفات الحسنة كانت فيه في بداية أمره ولكنه تغير في آخر حكمه، وصار صلفاً يتطاول على وجهاء ورؤساء اليهود، فكرهوه لغطرسته. وكان ابن نغريله شاعراً في اللغتين، ومما قاله في الحب بالعربية[69]:

يا غائباً عن ناظري، لم يغب عن خاطري رفقاً على الصب
فماله في البعد من سلوة وما له سؤل سوى القرب

صــورت فـــي قلبـــي فلــم تبتعـــد عـــن نـــاظري الفكـــرة بـــالحب
مــا أوحشــت طلعـــة مــن لــم يــزل يتنقـــل مـــــن طـــــرف قلـــــب

كان ابن نغريلة قائداً هماماً يقود المعركة بنفسه، وكان ينتصر دائماً بحسن خططه العسكرية. كتب إلى ابنه بالعبرية من ميدان المعركة قصيدة جاء فيها: «والخيل تجري رواحاً وغدواً كالأفاعي أطلقت من جحورها، والرماح تُرمى كالبرق يملأ بريقها الفضاء، والسهام كأنها مطر ينهمر، وظهور الخيل أضحت كالغربال، والنبال أفاع بأيدي الفرسان، وكل أفعى تنفث سماً، والسيوف كالمشاعل على رؤوسهم يعشي من نورها ضوء النهار». هذا الوصف البديع بالعبرية، أحسن ابن نغريلة مضاهاته بالعربية، قال يرثي نفسه، لأن شعر بعض اليهود خانوه في المعركة، قال[70]:

أقتيـــلاً بســـنجل ليـــس تخشـــى حشر جسم وقد سمعت النصيحا
غـــودر الجســـم الـــتراب طريحـــاً وغـدا الـروح فـي البسـيطة ريحـــا
أيـــها الغـــادرون هـــــلا وفيتـــم وفديتـــم شـــبه الذبيـــح ذبيحـــا
إن قتلكـــــم لـــــــه دون ذنــــــب قـد قتلنـا مـن قبـل ذاك المسـيحا
ونبيـــاً مـــن هاشـــم قـــد ســـمعنا خـــرَّ مـــن أكلـــة الـــذراع طريحـــا

كان إسماعيل بن نغريلة، على دراية بتاريخ الإسلام والفقه، كتب كتاباً يطعن في بلاغة القرآن الكريم، ونقض بعض المسائل على الإمام مالك، وشاع الكتاب في الأندلس، فخاطب الشاعر أبو إسحق إبراهيم بن مسعود، السلطان باديس بن حبوس الصنهاجي البربري بقوله:

ألا قـــل لصنهاجـــة أجمعـــين يـــدور الزمـــان وأســـد العريـــن
لقـــــد زلَّ ســـــيدكم زلـــــة أقـــرَّ بـــها أعـــين الشـــامتين
تخـــيّر كاتبـــــه كـــــافراً ولـــو شـــاء كـــان مـــن المســـلمين
فعــــزَّ اليهوديـــــة وانتخـــــوا وكـــان مـــن العشـــرة الأرذلـــين

فلم يرد عليه السلطان باديس، وظل ابن نغريلة مقرباً، ولم يستمع إلى شكاوى الفقهاء فيه، إلا أن الفقيه ابن حزم (المتوفى 1050م) كتب كتاباً سماه (الرد على ابن نغريلة اليهودي) حققه إحسان عباس في القاهرة عام 1960.

بعد وفاة ابن نغريلة عام 1055م، في غرناطة، جمع ابنه يوسف أبو الحسن (المتوفى 1066) شعر والده بالعبرية في ديوان، وكتب مقدمة صغيرة بالعربية أمام كل قصيدة عبرية للتعريف بها، وقسم قصائد الديوان إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول (بن تهليم): أي ابن الأدعية، وهي شعر ديني يعرف (بالبيوطيم). قال في إحداها يناجي ربه وهو في المعركة «يا رب انظر اليوم إلى محنتي، واسمع واقبل صلواتي، تذكر حسنة لعبدك، ولا تخذلني في محنتي. أأُصاب ببلية ومنك عزيمتي؟».

القسم الثاني (بن سالي): أي ابن الأمثال، وهذا النوع من الشعر معروف ومحبب عند اليهود، وفي التوراة سفر الأمثال منسوب إلى سليمان الحكيم.

القسم الثالث (بن قولت): أي سفر الجامعة، وهذا السفر ينسب إلى سليمان، ترجمه إلى العربية اسحق بن إبراهيم بن عزرا (المتوفى 1163م) في بغداد وانتشر قبل إسلامه عام 1159م، ووهبه إلى ابن ملكا الطبيب اليهودي الذي أسلم عام 1143م، وأشعار ابن نغريلة في هذا القسم كأنها أشعار إسلامية.

**الشاعر أبو عامر يقوتئيل بن يوسف بن حسن (المتوفى 1039م)**

كان أبو عامر من أغنياء سرقسطة. ولد حوالي عام 970م، في خلافة الناصر، وكان صديقاً لابن نغريلة، قال فيه قصيدة مدح بالعبرية، تعرف عندهم باليتمة، لجودة شعرها ودقة معانيها وحسن تراكيبها، جاء فيها: «أللغزالة الحنون قوة وقدرة؟ لتحجب أستار الظلام كالثوب، ولترعى كواكب السماء، ولتتيه في الصحراء موطن الخوف والرعب؟». أثارت هذه القصيدة إعجاب شباب عصره، وعندما مات أبو عامر سنة 1039م، رثاه ابن نغريلة بقصيدة تتكون من 54 بيتاً بدأها بقوله: «فُخر قلبي بصراخي، ولصق بسقف حلقي لساني، واضطربت دقات قلبي من كثرة آلامي وأحزاني، أما من مصغٍ؟ أسرد وأحكي له كآبتي، وأفضي له ببعض أحزاني، لعل ذكر آلامي تريح قلبي من بعض أوجاعي». ذهبت أشعار أبي عامر ولم يبق منها إلا نتفاً موزعة بين مخطوطات الأندلس العبرية.

**الشاعر يوسف بن سهل (1064- 1123م)**

ولد هذا الشاعر في مدينة اليهود أليسانة عام 1064، في أسرة عريقة في العلم والثقافة. كان أبوه الرئيس على قومه، درس الأدب على اسحق بن غياث وتعلم العبرية والعربية و اللاهوت، وأثناء مرض أستاذه لازمه وانتقل معه إلى قرطبة لعرضه على الأطباء، وبعد وفاته عينه اليهود قاضياً شرعياً عليهم منذ عام 1113م، واستمر في منصبه في مدينة أليسانة، وكان مثالاً للفهم والنزاهة. وكان يقول الشعر في الحب الإلهي، ويكتب الرسائل المطولة في التفسير التوراتي، وبعد وفاته ضاعت كل أعماله، ولم تبق سوى قصيدة إلى صديقه موسى بن عزرا بعد أن ذهب إلى الشمال إلى القسم المسيحي من إسبانيا، قال فيها: «كيف يكدر الذهب الخالص؟ وكيف يتغير الإبريز الجيد؟ فها هي أحجار الشعر الكريمة ملقاة دون اقتناء، هل أعمى الله القلوب عن الفهم؟ أم أغلق العيون عن النظر؟ لقد انصرفت قلوب الأثرياء لجمع كنوز الدنيا، تخلى كل سيد عن بللور الشعر الجميل الأنيق»[71].

يعتبر الشاعر يوسف بن سهل آخر عمالقة الشعر العبري في الأندلس، ومن الذين أنضجت تجربتهم الثقافة العربية.

## أدب المقامات عند يهود الأندلس

استخدم اليهود اللغة العربية في حياتهم اليومية وإقامة علاقاتهم الإنسانية مع العرب المسلمين في الأندلس. وتكونت ثقافتهم وأدبهم تحت تأثير الثقافة الإسلامية، لأن الثقافة دائماً وأبداً معطى مؤتلف من ثقافات أخرى وهذه الثقافات المتعددة تسمح لها بتكوين تجمعات ندعوها بالحضارة، وهي ليست حكراً على عرق معين[72]. معنى هذا، أن الحضارة الإسلامية في الأندلس، ساهمت فيها عدة عروق وطوائف منها اليهود والغوط والعرب والبربر والمسيحية واليهودية والإسلامية، ولأن الدين جاء لتحرير الإنسان من عبوديته الطبقية وتحديد أنماط سلوك الإنسان، من خلال اللغة والأدب، فأدب المقامة ساهم في تعبير الإنسان عن حياته المعاشة. وقد ظهر في الأندلس في زمن أمراء الطوائف (1009- 1031) عندما فقد العرب وجودهم السياسي، وتولى الحكم أبو الحزم

محمد بن جهور البربري، وفي زمن يوسف بن تاشفين (1061- 1106) استغل ألفونسو السادس ملك ليون الخلافات بين أمراء الطوائف، واحتل طليطلة عام 1085، وهي مدينة معظم سكانها من اليهود، وبدأت أوضاع الناس المعاشية تسوء، وانتشر اللهو والفساد والعدو يحضر لاحتلال البلاد "فاغراً فاه، يكاد يلتهمهم جميعاً"[73]. وفي هذه الفترة ظهر أدب المقامة. والمقامة اسم لموضع القيام، لجماعة من الناس، يتحدث فيها قصاص عن طرائف جرت له. وهذا الأدب أزهر في بغداد، ثم انتقل إلى الأندلس.

كانت العامة في بغداد تحت هذا اللون من الأدب، أكثر من حديث الوعاظ الديني. صورت المقامة سلوك نوع من الناس هم من حثالة العامة. يقول الدكتور جميل سلطان: «إن هذه الطائفة التي تدعي أنها من بني ساسان، كانت منتشرة في بقاع المشرق، وهي تعرف أن لها إخواناً منتشرين على وجه الأرض، وأنهم جميعاً من أصل واحد، وقد برعوا بأنواع العبث واللهو والغناء والموسيقى من أجل إعجاب الناس في المجالس»[74]. وقد برع بهذا الفن بديع الزمان الهمذاني (969- 1008)، أملى 400 مقامة، نحلها لأبي الفتح الإسكندري وجعل بطل الكدية عيسى بن هشام، وكانت أبطاله من جميع الطوائف، قدَّم لهم صوراً عجيبة، فمنهم من يقرأ التوراة ليوهم أنه كان يهودياً وأسلم، ويحتال بإطالة الصلاة بين الناس وهو في الحقيقة غير صاحبِ دين. وفي المساء يطوف على أبواب الدور ويقول: «رحم الله من عشى الغريب الجائع». وهذا يذكرنا بالشاعر اليهودي اسحق بن خلفون (المتوفى 1020) الذي كان يدق على أبوا بالناس في قرطبة ويقول دون حياء «أطلب يا سيدي صدقة، أبقاك الله، وإن مت فأوصي بها إلى ولدي». ومنهم من يزعم أن أباه كان نصرانياً وأمه يهودية، وأن النبي جاءه في المنام، وقال له غيِّر دين أبويك واتبع ملتي. ومنهم من يخضب لحيته بالحناء، ويدعي أنه من شيعة آل البيت ويحمل السبح وأقراص الفخار (الفنانة) ويزعم أنها من طين قبر الحسين (ع) ويبالغ في إكرام أئمة الشيعة، ويتظاهر بالغلو وينوح ويروي الأشعار في فضائل الحسين ومراثيه[75]. ومما جاء على لسان عيسى بن هشام قوله[76]:

هذا الزمان مشوم كما تراه غشوم

الحمق فيه مليح والعقل عيب ولوم

والمــــــــال طيـــــــف ولكــــــــن حـــــــول اللثـــــــام يحـــــــوم

## مقامات الحريري (1054- 1123)

ولد القاسم بن علي في البصرة عام 1054 في سكة بني حرام، في قرية المشان خارج البصرة، وكانت أسرته تعمل في الحرير، وكانوا من أهل اليسار. درس الأدب واللغة، واتصل بالوزراء، ولكنه كان يحب التجول. سكن بلدة سروج (1097- 1111) في أرض الجزيرة، وكتب خلال هذه المدة 50 مقامة. وعندما استولى الفرنجة على سروج عاد الحريري إلى البصرة، واتخذ له راوية باسم (الحارث بن همام) وبطل كدية يدعى (أبو زيد السروجي). قال الحارث بن همام:

تعـــارجت لا رغبـــة فـــي العـــرج ولكـــن لأقـــرع بـــاب الفـــرج
وألقـــي حبلـــي علـــى غـــاربي وأســـلك مســـلك مـــن قـــد مـــرج
فـإن لامنـي القـوم قلـت اعذرونـي فليـس علـى الأعـرج مـن حـرج

عاش الحريري في زمن الخليفة المستظهر بالله (1094- 1118) ويقال إنه كتب في الديوان، وأجرى عليه الرزق، وعندما تولى الحكم المسترشد (1118) اتصل بالوزير ابن صدقة وقدم له نسخة من مقاماته، فأحسن إليه وعينه في البصرة صاحب الخبر، وفي البصرة صار يدرِّس الطلاب في مساجدها[77]. وتوفي الحريري في سكة بني حرام سنة 1123م، ومن الغريب أن مقاماته انتشرت وذاعت في مصر والأندلس في حياته، وكانت مقامات بديع الزمان قد سبقتها. ففي الأندلس ظهرت مقامات أبي حفص عمر بن الشهيد عام 1049. يصف فيها قصة البدوي الذي «هش وبش، وكنس منزله ورش، وصبّر عياله إلى ناحية، وجمع أطفاله في زاوية، وحاول أن يكرم عياله الجياع فدعاهم ليمسكوا بديك هرم، وجروا خلف الديك وهو يستغيث بهم، ويتشفع بالأولياء والأنبياء، وأصبح لضعفه ونحوله أشبه بالأدوية منه بالأغذية، وفي النهاية يقبلون عذر الديك، ويرحلون سحراً وهم جياع وينزلون في حصن النصارى وسمعوا صوت

الناقوس، وراعهم ما في الحصن من أقمار وشموس، ولا سيوف فيها إلا من مقل وتروس، ويمرون بكنيسة متهدمة، فيبكي ابن الشهيد على أطلالها، ثم يمضي هو وأطفاله إلى مروج بها قطعان من السائمة، فيصيدون كثيراً من طيور البرك، ثم يمضون فيلتقون بشاب فارس ممتطياً جواداً، ومتلقداً حساماً من أهل حصن النصارى الذين مروا به معلناً إليهم أنه كان عبداً للصليب وقرع الناقوس إلى أن أسعده الله بهداية الإسلام»[78]. كانت هذه المقامات دون مقامات بديع الزمان في النضج الفني، ولكنها فتحت الطريق لإيجاد نوع من أدب المقامات في الأندلس.

وأول من قلد أدب الحريري **محمد بن يوسف السرقسطي** (المتوفى 1144م) فأنشأ خمسين مقالة، وجعل راويه (المنذر بن همام) وبطل كديته (السائب بن تمام). وقام أحمد بن عبد المؤمن الشريشي (1116- 1122م) بشرح مقامات الحريري في بلنسية، وشرح مقامات الحريري أذاعها بين الناس. يقول المستشرق الألماني جوستاف جرونباوم: «نال الحريري شهرة هائلة في العالم الإسلامي لمهارته الفائقة في معالجة اللغة والأخيلة، وذخيرته الحافلة بألوان الأدب، مضافة إلى ما طبع عليه من الفطنة الأصيلة في العرض والتقديم والبراعة التي تجلى فيها بعض الأحداث الواقعية، كل ذلك يجعل المقامات كتاباً جذاباً»[79].

نالت مقامات الحريري إعجاب **الأديب اليهودي سليمان بن صقبل** (المتوفى 1125م). ولد سليمان في بلنسية، وسمع من الشريشي شروحه لمقامات الحريري فأعجب بها وقلدها وكتب بالعبرية (50) مقامة، كان راويه (اشر بن يهوذا) وتبدأ كل مقامة بجملة (حكى أشر بن يهوذا) «كنت أجلس يوماً مع أخوتي وأصدقائي بجوار باب المدينة، وبدأ كل يحكي قصة ويقول: سأذكر اليوم ذنباً ارتكبته، كنت في أيام صباي مثل الغزال الذي يقفز على الجبال، ويسكن الوديان، وكنت أحتفل بالمراسم والأعياد، ولم يكن معي إنسان، كان لباسي من حرير الساتان، والحب شباكي، لكن على تقلب الزمان، ومضت أيام وسنون، حتى بلي كسائي، و اشتقت يوماً لموطن رأسي، فوصلت ليلاً إلى مدينتي، وكان أهلي وعشيرتي يغطون في نومهم، وقرعت بابهم، وكانوا قد يئسوا من عودتي وناديت قائلاً "ها أنذا عدت" فارتعدت قلوبهم ولم يصدقوا آذانهم، حتى تعرفوا على صوتي وفتحوا لي بابهم، وعانقوني قائلين "الحمد لله الذي أحيانا حتى رأينا وجهك" وغسلوا يدي ورجلي،

وخلعوا ملبسي المتسخ وألبسوني ملابس جميلة، ومكثت معهم ثلاثة أيام وثلاث ليال، أشرب وآكل. وفي اليوم الرابع خرجنا سكارى وكأنه لا يوجد على الأرض من يبارينا، نستنشق النسيم العليل، ونشرب الماء الزلال، وكانت على مجاري المياه ظباء أنس جميلات وحمام يهدل، وبينما كنت أستمع للهديل، وإذا بصوت يدعوني: "اقترب مني لأحدثك، وأرتمي في أحضانك ونرتوي وداً حتى الصباح". فاقتربت ووقفت حيال الصوت، فسقطت عليّ تفاحة معطرة نقش على جانبها الأول: من يسعى وراء الظباء، يجري في خضم بحار وجبال ومتاهات، فكف عن مطاردتهن لأنهن في خدور مصونات. وكتب على الجانب الثاني: إلى من يسكر بنبيذ معتق أو جديد ويتمايل في مشيه كالنخل أو كالكافور (شجر الكافور) لك يسكر قلبي ويهتز، وإليك حبي يشير.

هذا جزء من المقامة الأولى، إنها مثقلة بالتعابير الجميلة وهي أقرب إلى أدب القصة التي قلدها الأديب الإيطالي يوحنا بوكاشيو في كتابه (الديكاميرون).

أما صاحب المقامات الذي يضاهي الحريري في الأدب العربي، فهو الأديب **يهوذا بن سليمان الحريزي** (1170- 1230). ولد يهوذا في قرطبة عام 1170م، في أسرة ميسورة ولكنها كانت ذات ثقافة عريقة في الأدب، ودرس يهوذا في مدرسة قرطبة الأدبين العبري والعربي، ولكنه عاش في عصر الموحدين (1107- 1230) وفيه تعرض اليهود للاضطهاد. فهاجر يهوذا بن سليمان إلى شمال الأندلس المسيحي، وهناك تعلم اللاتينية وهناك كتب وترجم كتاب (دلالة الحائرين) إلى العبرية، وهي الترجمة التي طبعها المستشرق الألماني شولسبرج (1815- 1869) طبعها في ليدن، وترجم رسالة الأدب الجامع وسماها (أجرت هموسار) وترجم كتاب (النفس) لموسى بن ميمون، وحولها يهوذا إلى محاورة بين الجسم والعقل، وترجم كتاب (السياسة في تدبير الرياسة) وسماه (سر الأسرار) وترجم أدب الفلاسفة لإسحق بن حنين إلى العبرية، وهي النسخة التي طبعت في فرانكفورت سنة 1689م.

هذا الجانب الذي مارسه يهوذا بن سليمان، جانب الترجمة إلى اللاتينية لكي يعيش من هذا الموضوع الذي دل على خبرته الواسعة في الأدب العبري والعربي وعلى سعة اطلاعه على الفلسفة الإسلامية.

أما في الجانب الأدبي، عندما اطلع على مقامات الحريري أعجب بها وترجمها إلى العبرية، إلا أنه لم يتقيد بحرفية النص، فأغفل آيات القرآن الكريم والشعر وأسماء القبائل العربية، وعندما زالت سيطرة الموحدين عن الأندلس خرج يهوذا بن سليمان الحريزي سائحاً نحو مصر وسورية والعراق، وفي دمشق ابتكر مقاماته التي سماها (بتحكموني) وعددها (50) مقامة وسمى راويه (هاجان ها أزراحي) وهو رجل سوري يدعى (حنا) عرفه في حلب، أما بطل كديته (حيرهاقيني) هو اسم توراتي. في هذه المقامات تفوق يهوذا الحريزي على سليمان بن صقبل، وأثبت أنه يضارع القاسم بن علي الحريري في إنشائه، وكان مثله يستخدم المحسنات اللفظية والطباق والجناس مع المحافظة على روح الملحة والمتعة. كتب إحدى مقاماته بالعربية ولكن بأحرف عبرية، سجل فيها ما شاهده من حال اليهود في مدن العراق، وتعرف على الرئيس عزرا ابن الناسجة، جامع الفضائل، لقيه في مجلسه في محلة دقوقة (بالرصافة في بغداد) وهي حي اليهود. قال فيه الحريزي شعراً بالعربية:

سبل المعالي لم تزل مطروقة    في أغلى شخص حلّ في دقوقة
يحوي عزربا الشريف مباركاً    منه المفاخر أصبحت مسروقة
لشائه عرف كأنفاس الرياض    أظنها من عرفه مخلوقة

ووصف يهوذا يهود بغداد «فأما جماعة بغداد، فإن لبعضهم المجد القديم، والحسب الحر الصميم، لا يصحبهم اليوم طبع كريم، وإنما كان يوجد ذلك في آبائهم السابقين وأجدادهم الأولين، وأما المحدثون فما أشبهوا آباءهم في جلالة الأفعال، وحميد الخصال، وكثرة الديانة وفرط الاحتشام».

كان الحريزي يتعصب للعربية، ويحب العرب ويفضلهم على سائر الأمم. يقول في كتابه المقامات (تحكموني): «إعلم أن الشعر البديع الحافل باللآلئ قد كان في بادئ الأمر ملكاً مقصوراً على العرب وحدهم، وقد وزنوه بموازين صادقة، وهم يفوقون شعراء العالم قاطبة، وهم وحدهم المستأثرون بالشعر العذب في لفظه الجميل في فحواه ومعناه»[80]. من النص السابق نرى أن اليهود في الأندلس لم يبدعوا إلا بفضل الثقافة العربية. توفي يهوذا بن سليمان الحريزي في بغداد عام 1230م، وقد جمع البراعة في الترجمة إلى اللاتينية

والعبرية. وكان متضلعاً بالعربيـة، وهـو الـذي أبـدع أفضـل المقامـات فـي الأدب العبري. ومهّد لأدب الرحلات.

## أدب الرحلات عند يهود الأندلس

كانت بغداد قبلة العالم المتحضر، يقصدها السواح والتجار وطالبي المعرفة من الأندلس خاصة، وعندما استولى ملك قشتالة المسيحي على جوهر الأندلس قرطبة وغرناطة وطليطلة، توجه الرحالة نحو المشرق. قام أبو حامد الغرناطي (المتوفى 1169م) برحلة تجول فيها في أفريقيا وزار صقلية ومصر والشام والعراق. ثم تجول في نواحي الخزر، وبلاد الصقالبة والبلقار على ضفاف نهر الفولجا، وسجل في كتابه ما شاهده من عجائب وخوارق، وسماه (تحفة الألباب ونخبة الإعجاب). أعجب اليهود بأسفار المسلمين وحكاياتهم على طريق الحج. في البداية كان اليهود يخافون من عوارض الطرق، لأن المسلم يستطيع المرور على الجامع أو الرباط ويجد المأوى والطعام ومن يعالجه إذا ألمَّ به مرض.

كان الرحالة اليهود يتقنون العربيـة، ولـهم اطـلاع كـافٍ ووافٍ علـى عـادات المسلمين وتقاليدهم الإسلامية، ومع ذلك يلازمه الشعور القديم الموروث (شعور اليهودي التائه). وعندما جربوا الرحلة وجدوا تجاراً يهوداً يجوبون البحار وهم الذين يسميهم ابن الفقيه (تجار اليهود)[81]. إن التاجر بطبعه يحب المغامرة أما السائح فيظل يتوجس الشر، ويلازمه شعوران الخوف وحب الاطلاع.

### الرحالة اليهودي بنيامين التطيلي (1130- 1198)

ولد بنيامين بن الربي يونه النباري في مدينة تطيلة حوالي عام 1130م، وهي مدينة يغلب عليها اليهود، وهي مدينة حصينة بأسوارها الحجرية المتينة، وفيها تنظيم للمياه رائع، إذ تجري المياه في السكك وادخل البيوت في قساطل، وحولها قرى وقلاع منيعة، واليهود فيها كثر.

درس بنيامين الأدب العبري والعربية، وكان مولعاً بالتاريخ وأدب الرحلات عند العرب، وما رواه اليهود أثناء رحلاتهم للحج إلى بيت المقدس، وانطلق بنيامين في رحلته يريد المشرق،وخطط لزيارته، وحدد المدن التي كان يريد المرور بها. درس تاريخها وأهم معالمها، وما بها من يهود وآثار لهم، قال بنيامين: «كان

رحيلي في أول الأمر من مدينة سرقسطة، فانحدرت بطريق نهر ابرة إلى طرطوشة وبلغت بعد مسيرة يومين مدينة طراكونة القديمة ذات الأوابد الجسيمة من بناة الجبابرة وأسلاف الإغريق، مما لا نظير له في جميع بلاد الإسبان وموقعها على شاطئ بحر الشام (المتوسط)»[82].

ولأعطيك فكرة عن دقة وصف بنيامين ومعرفته التاريخية، أقول: إن مدينة طراكونة تقع على شاطئ البحر المتوسط، شرق الأندلس، عمَّرها الرومان واتخذها القيصر أوغسطس معسكراً له بعد معركة كنتيرية عام 26 ق.م، ويقال إن مدينة طراكونة مبنية من عهد الإغريق واتخذها السيست مقاماً لهم وعمروا أسوارها عام 267 ق.م، ثم صارت من المستعمرات الرومانية عام 218 ق.م. واستمرت أسوارها في الوجود وهي من صخور غير منهدمة حتى الوقت الحاضر، وفيها قناطر رومانية معلقة، وفيها مسرح روماني قديم، واستولى عليها الغوط سنة 475م، ثم احتلها العرب عام 713م، وكان اليهود فيها هم الغالبون على السكان، لذا يسميها العرب مدينة اليهود.

وعندما وصل بنيامين إلى مدينة أنطاكية في شرق المتوسط، قال عنها: «تقع بلدة أنطاكية على ضفاف نهر يبوق (الصواب العاصي) الوارد ذكره في التوراة، وهو ينبع من جبال لبنان ويمر على مقربة من حماه (الصواب أفامية). وأنطاكية بلدة كبيرة بناها الملك أنطوخيوس الأول (305 ق.م) على سفح جبل شاهق، يشرف عليها من كل صوب، ويحيط بها سور متين، وبظاهر المدينة في أعلى الجبل نبع يوزع ماءه رجل موكل به فيمر في مجار تحت الأرض ويوصل إلى بيوت خاصة، أما الجانب الثاني من البلد فيستدير به النهر، وموقع مدينة أنطاكية منيع جداً، يحكمها الآن الأمير بهمند يواتفين الملقب باللكن (بوبه). وفي مدينة أنطاكية عشرة يهود مميزون في صنع الزجاج منهم الربيون مردخاي وحاييم وإسماعيل»[83].

ويصف مدن الشام بإيجاز إلا مدينة القدس (أورشليم) المحتلة من قبل الفرنجة، ولا وجود للعرب فيها، فإنه يفصِّل في وصفها وتاريخها. يقول بنيامين التطيلي: «هي بلدة صغيرة اليوم (1163م) عظيمة التحصين، يحيط بها ثلاثة أسوار، فيها كثير من السريان اليعاقبة والأرمن واليونان والكرج والإفرنج، والسكان فيها خليط من كل أمة ولسان، وفيها معمل للصباغة يستأجره اليهود

من ملك القدس (الملك المريك) وتتحصر هذه المهنة باليهود دون غيرهم. ويبلغ عدد اليهود (200) يقيمون في حي مجاور لبرج داود، وهذا البرج موغل في القدم، أساساته على ارتفاع عشرة أذرع من بناء أسلافنا الأقدمين والباقي شيده المسلمون. وللقدس أربعة أبواب: باب إبراهيم وباب داود وباب صهيون، وباب يوشفاط، وهذا الباب يحاذي الموضع الذي كان الهيكل المقدس مستوياً عليه في قديم الزمان، وعليه المعبد المقدس، وقد عقد عليه الوليد بن عبد الملك (قبة أنيقة) وليس يسمح لأحد أن يدخل فيه تمثالاً أو أيقونة. يقول الفرنجة: لأنها محل خاص بعبادة المسلمين.

وقبالة هذا البناء يوجد الحائط الغربي، حائط المبكى، وهو من حيطان قدس الأقداس، في الهيكل القديم، ويسميه اليهود باب الرحمة يحجون إليه، ويقيمون الصلاة في باحته[84]. إلا أن الرحالة اليهودي فتاحية الرتسبوني الأندلسي الذي زار القدس عام 1175م، قال: إن الباب مسدود بالحجارة ولا يسمح ليهودي أو أجنبي فتحه، وقد جرت مرة محاولة لفتحه، فحدث زلزال في المدينة واضطراب عظيم فكفوا عن محاولتهم[85]. وقال عن الباب ابن فضل الله العمري (المتوفى 1348) في كتابه (مسالك الأبصار): «هما بابان قديمان من بقايا العمائر السليمانية سميا بأبواب الرحمن». وقال بنيامين التطيلي: «وتشاهدون بالقدس (أورشليم) أطلال الاصطبلات التي عمرها سليمان بجوار قصره، وأطلال المذابح التي كانت تقدم عليها الأضاحي والقرابين في سالف الأزمان، ومن عادة حجاج اليهود أن يكتبوا أسماءهم على الحيطان الملاصقة لها. وفي القدس نبع سلوان، الذي يمر ماؤه بوادي قدرون، وفوق هذا النبع بناء من آثار الأسلاف، وليس فيه من الماء إلا اليسير. وغالبية أهل القدس يشربون ماء المطر الذي يجمعونه في جباب معدة لهذا الغرض في البيوت. ويحاذي القدس جبل صهيون، عليه بيعة النصارى، وثلاثة قبور لليهود قديمة. ولكن الفرنجة يهدمون هذه القبور، ويستعملون حجارتها لبناء بيوتهم (بيوت الإفرنج). وقبل خمسة عشر عاماً (1145م) حدث أن تداعى جدار البيعة التي على جبل صهيون، فأمر البطريرك بعض أتباعه من الرهبان بترميمه، وأوصاهم أن يأخذوا الحجارة من أسوار صهيون الشرقية، فعمل عشرون عاملاً على قلع الحجارة من الأسوار. وحدث أن عاملين وجدوا فجوة تؤدي إلى كهف عميق، فقال أحدهما للآخر: هلم نرى

ماضي هذا الكهف، عسانا نعثر على كنز فيه! ولما دخلا الكهف وجدا قاعة واسعة محكمة البناء سقفها معقود على أساطين من رخام موشاة بفضة وذهب، وفي القاعة خوان عليه صولجان وتاج من الذهب الخالص. ويتوسط القاعة قبر داود ملك إسرائيل وإلى يساره قبر ولده سليمان، وقبور سليمان وقبور سائر الملوك من آل داود. ووجدوا صناديق مقفلة لم يعرف مضمونها. وبعد برهة وجيزة هبت عليهما ريح عاتية، أحاطت بهما على الأرض، فبقيا بلا حراك حتى وقت الغروب، وعندها سمعا صوتاً يقول: انهضا وغادرا المكان. وخرج العاملان وأخبرا البطريرك الذي استدعى إليه الربن إبراهيم القسطنطيني، الناسك من بكائي أورشليم وقص عليه الحادثة، وردم باب الكهف حتى طمست معالمه على الناس. هذا ما قصه عليّ إبراهيم الناسك»[86]. يبدو لي أن بنيامين لم يصدق هذه القصة، وإنما رواها كقصة من قصص الخوارق.

أما فتاحية الرحالة اليهودي الذي زار القدس بعد عشرة أعوام من زيارة بنيامين وجد في القدس يهودياً يدعى إبراهيم الصباغ الذي كان يؤدي لملك الفرنجة ضريبة كي يسمح له بالبقاء[87].

**التعليق على زيارة بنيامين للقدس**

كان بنيامين دقيقاً في وصفه وأميناً في نقله، فهذا الرحالة المسيحي فليكس فابري الذي زار القدس عام 1187 في السنة التي استعاد فيها صلاح الدين الأيوبي القدس، ذكر أنه وجد في القدس نحو 500 يهودي، ونحو ألف نصراني شرقي. ونلاحظ أن بنيامين حين زيارته للقدس المحتلة وكانت محتلة لا يوجد فيها أي مسلم، وقد ذكر الرحالة ابن جبير الذي كان في عكا في يوم السبت 6 تشرين سنة 1184 قبل تحرير بيت المقدس، ذكر أنه لا يستطيع وروى عن الفجائع التي يعاني منها أسرى المسلمين، وهم يرسفون في القيود. ويخدمون كالعبيد والأسيرات المسلمات يسرن في الأسواق وهن لابسات خلاخيل الحديد فتنفطر لهن الأفئدة ولا يجدي الإشفاق عليهن شيئاً[88]. لم يكن في القدس أحد من المسلمين. فقد كانوا يعملون كالعبيد عند الفرنجة خارج أسوار القدس وفي الأسواق الواقعة خارج الأسوار أيضاً.

**زيارة بنيامين التطيلي إلى بغداد**

قال بنيامين عن بغداد «إنها مدينة كبيرة فيها كرسي الخليفة العباسي لأمر الله (1136- 1160) وقصر الخلافة تنوف استدارته على ثلاثة أميال، وتتوسط القصر روضة غناء فيها أشجار مثمرة من كل صنف، وفيها ضروب من الحيوان كثيرة (حديقة حيوان) يسقيها فرع من نهر دجلة. والخليفة العباسي حسن المعاملة لليهود، وفي حاشيته عدد منهم، والمسلمون لا يشاهدونه إلا مرة واحدة في العام. وعندما يطل عليهم يهتفون «يا سيدنا نور الإسلام وفخر المسلمين، هُلَّ علينا بطلعتك الميمونة» فيطل، فتلثم الحاشية القريبة منه طرف ثوبه وينصرفون».

ويلاحظ بنيامين ملاحظة جديرة بالدراسة والاعتبار، وهي أن «جميع الأمراء من بيت الخلافة محتجبون في قصورهم الخاصة، وراء قضبان الحديد وعليهم حراس موكلين بهم، لكي لا يعلنوا العصيان على الخليفة. غير أن كل أمير من هؤلاء يعيش في قصر أنيق، ويمتلك المدن والضياع، وله عليها وكلاء وأوفياء، بينما يقضي الأمراء أيامهم بالقصف واللهو».

لعل هذا النص أسقطه بنيامين من عنده مصوراً حياة الأمراء في الأندلس، أو لعله صحيح، والله أعلم.

ويذكر أن في قصر الخليفة من الأبنية ما يحير العقول، فيها من الأساطين المزوقة بالذهب والأحجار الكريمة المنقوشة بالريازة البديعة التي تكسو الحيطان. وذكر أن في القصر كنوزاً وافرة، وخزائن طافحة بالذهب والثياب الحريرية والجواهر الكريمة.

وذكر أنه عندما يخرج الخليفة للصلاة (عيد رمضان) يتوجه الموكب إلى المسجد الجامع في باب البصرة (في الرصافة) فتزين جميع الطرق، والأسواق بالأقمشة الحريرية ذات الألوان الزاهية. ويستقبله الناس أثناء مروره بالهتافات والتهليل وهم ينادون "السلام على أمير المؤمنين ونور الإسلام" والخليفة يرد عليهم التحية بالإيماء وبلثم أطراف يديه والتلويح بها. وينحر جملاً أمام المسجد الجامع، ويوزع لحمه على العظماء والأمراء، والسعيد منهم من يذوق أضحية الخليفة، وعند عودة الخليفة إلى قصره يعود بالطريق المشرف على نهر دجلة

ويواكبه عظماء المسلمين في قوارب تمخر مياه النهر حتى يدخل الخليفة قصره»[89].

وذكر بنيامين «أنه يقوم على الجانب الغربي من مدينة بغداد (الكرخ) البيمارستان بين نهر دجلة ونهر عيسى الجاري من الفرات، والبيمارستان مجموعة من البنايات الواسعة يعالج فيها المعوزين من المرضى رغبة في الشفاء. وفيه من الأطباء القوامون حوالي (60) طبيباً يعالجون المرضى، ويقدمون الأدوية مجاناً. والخليفة هو الذي يجهزهم بما يحتاجونه من بيت مال المسلمين. وذكر أن بغداد دار المارستان العضدي يأوي إليه المجانين المغلوبين على عقولهم، والأطباء يقيدونهم بالأغلال، حتى يثوبوا إلى سابق رشدهم، ويعيشون على نفقة الخليفة، فالخليفة جزيل الإحسان همه عمل الخير.

وذكر أن في بغداد يقيم حوالي (40) ألف يهودي، هم يعيشون بأمان في ظل أمير المؤمنين، وبينهم عدد كبير من كبار العلماء ورؤساء المثيبة (علماء الدين) ولليهود في بغداد عشر مدارس، ورئيس المدرسة الكبرى، هو الربي صموئيل بن علي المعروف بابن الدستور (رأس المثيبة) وتدعى المدرسة غاؤون يعقوب، وينتسب الرئيس إلى سبط لاوي من آل موسى وهارون[90].

أما الرحالة فتاحية الذي زار بغداد عام 1175م، قدر عدد طلاب مدرسة (غاؤون يعقوب) بـ (500) طالب، وعدد طلاب اليهود في بغداد كلهم بألفي طالب[91]. وقال بنيامين عن رأس الجالوت، في بغداد، هو سيدنا الربي دانيال بن حسداي، ويناديه المسلمون (سيدنا ابن داود) وهو يشرف على 28 كنيسة في بغداد، قسم منها في جانب الرصافة والقسم الآخر في الكرخ. وبناء الكنيسة الكبرى (في الرصافة) بناء ضخم فيه الأساطين من الرخام المنقوشة بالأصبغة الزاهية، والمزوقة بالفضة والذهب، وتزدان الأساطين بكتابات من المزامير بالعبرية والعربية، وفي صدر الكنيسة مصطبة يصعد عليها رأس الجالوت لعشر درجات.

وذكر بنيامين: «أن استدارة بغداد حوالي 20 ميلاً، وتمتد حولها بساتين النخيل، وفي بغداد أسواق كثيرة، وهي عامرة بكل أنواع التجارة. وفي بغداد مدارس كثيرة وفيها عدد كبير من الطلاب، وعدد كبير من العلماء والفلاسفة المنقبين في جميع المدارس والعلوم»[92].

وأما الرحالة اليهودي فتاحية، فقد وصف بغداد عام 1183، قال: «إن طول بغداد يستغرق مسيرة يوم، واستدارتها مسيرة ثلاثة أيام، وذكر أنه شاهد فيها باباً من النحاس (باب البصرة) ارتفاعه حوالي (100) ذراع وعرضه عشرة أذرع، وعليه كثير من الصور، وحدث أن سقط منه مسمار، فلم يستطع أحد إعادته إلى مكانه»[93].

ولكي ندرك أهمية وصف بنيامين لبغداد، سأقارنه بما ذكره ابن جبير عن بغداد وقد زارها عام 1184م.

**وصف ابن جبير لبغداد**

إن كل سائح أو غريب حين يزور بلداً، يبحث عن اهتماماته، وعندما يكتب عن بلد، يعكس ما بداخله من ثقافة وقيم. قال ابن جبير (محمد بن أحمد الكناني المتوفى 1218) «زرنا بغداد في أوائل شهر نيسان عام 1184م، فوجدناها منزل الخلافة العباسية الغريب فيها معدوم الإرفاق، متضاعف الإنفاق لا يجد من أهلها إلا من يعامله بنفاق»[94]. يبدو لي أن ابن جبير لم يجد في بغداد أحداً يهتم به أو يرعاه.

وقد اهتم بوصف المدرسة النظامية و قال عن مجلس الشيخ رضي الدين القزويني رئيس الشافعية: «شهدنا له مجلساً للعلم يوم الجمعة بعد صلاة العصر. فخطب خطبة، كلها سكون ووقار، وتصرف في أفانين العلم من تفسير وحديث. ثم رشقته شآبيب المسائل من كل جانب فأجاب وما قصر. وفي الجمعة الثانية حضرنا مجلساً لسيد العلماء الخراسانية، ورئيس الأئمة الشافعية صدر الدين الخجندي، فأتى بأفانين العلوم.

وحضرنا في يوم السبت مجلساً للإمام الأوحد جمال الدين عبد الرحمن بن علي الجوزي (1116- 1200) شيخ الحنابلة، بإزاء داره على الشط الشرقي (الرصافة) وكانت الدار على اتصال بقصر الخليفة، عند باب البصلية، فشاهدنا رجلاً وقوراً (وفي جوف الفرا كل الصيد) مشهور له بالبراعة، والسبق في البلاغة، يصدح بسحر البيان. وكانوا يقدمون له المسائل في رقاع فيجيب عليها بأسرع من طرفة عين. ثم حضرنا للإمام ابن الجوزي مجلساً آخر، في يوم الخميس بباب بدر في ساحة القصر، وكانت تشرف عليه أم الخليفة وتسمعه من

الحرم، وهو جالس في قصر العامة، وصار أثناء مجلسه ينشد الأشعار البديعة، فتشتعل القلوب وجداً، ومما قاله[95]:

أيـن فـؤادي أذابـه الوجـد؟ وأيـن قلبـي فمـا صحـا بعـد؟
يـا سـعد زدنـي جـوى بذكرهـم باللـه قـل لـي فديـت يـا سـعد

إن المجالس التي شاهدناها (بالمغرب ومكة والمدينة) لقد صغرت أمام مجلس هذا الرجل الفذ.

أما وصف ابن جبير للخليفة، قال: أبصرنا أبا العباس أحمد الناصر لدين الله، شاهدناه وقد انحدر في الزورق إلى قصره على الجانب الشرقي (الرصافة) وهو فتى في الخامسة والعشرين، لابساً ثوباً أبيض شبه القباء، برسوم ذهب فيه، وعلى رأسه قلنسوة مذهبة، مطوقة بوبر أسود من الأوبار الغالية، مما هو كالفنك، وذلك عشية يوم السبت السادس من أيار عام 1184[96].

**وصف ابن جبير للمساجد الجامعة**

قال: في الجانب الشرقي (الرصافة) ثلاثة جوامع يجتمع فيها الخليفة، منها:

جامع الخلفاء: وهو متصل بداره، وهو جامع كبير وفيه سقايا عظيمة ومرافق كاملة للوضوء والطهر.

وجامع السلطان: وهو خارج البلد ويتصل به قصر ينسب إلى السلطان وهو المعروف بشاه شاه وقد بناه أحد أجداد الخليفة.

وجامع الرصافة: وبينه وبين جامع السلطان مسافة ميل.

وجوامع البلد ببغداد المجمل فيها (11) ألفاً، ولا يأخذها التقدير والاحصاء[97].

**وصف ابن جبير للمدرسة النظامية**

يذكر ابن جبير أن المدارس في بغداد حوالي (30) مدرسة كبيرة كلها بالشرقية، واشهرها المدرسة النظامية، التي ابتناها الوزير نظام الملك سنة

(454هـ / 1062م) ولها أوقاف كثيرة محبسة للإنفاق على الفقهاء والمدرسين، ويجرون فيها على الطلبة وبقربها البيمارستان رحم الله واضعها الأول[98].

### مقارنة بين رحلتي بنيامين التطيلي وابن جبير

عاد بنيامين التطيلي إلى قشتالة وعاش فيها حتى وفاته عام 1198م. وقدم للناس رحلته في كتاب سماه (همساعوث) سنة 1173م، وانتشر صيت الكتاب في كل الأندلس، وأوروبا بعد ترجمته إلى اللاتينية.

تبين لي بعد دراستي للرحلتين أن بنيامين التطيلي أكثر دقة في الوصف وفي غزارة المعلومات وأسلوب واضح رشيق وقد اتبعه الرحالة اليهود مثل فتاحية، أما رحلة ابن جبير المسماة (تذكرة الأخبار عن اتفاقات الأسفار) فهي قطعة أقرب إلى الأدب، وكان يدون فيها مجالس العلماء والرجال الصالحين أكثر من اهتمامه بالآثار والمعالم، فجاءت الفائدة منها أقل مما هي عند بنيامين التطيلي.

### الرحالة اليهودي فتاحية الراتسبوني (1120- 1191)

عاش فتاحية في إشبيلية، ودرس العربية والعبرية واللاتينية. اطلع على رحلة بنيامين التطيلي، ودرس كتاب الأسقف أيزيدور الإشبيلي (601- 635) (كتاب الأصول) ذكر فيه أسماء القبائل وتاريخ البلدان، وأهم معالمها الأثرية، وموقعها وسكانها وأهم المشاهير فيها. كان ذلك الكتاب هو المرشد والدليل له في سياحته. انطلق فتاحية في رحلته عام 1173، عن طريق براغ وبولونيا وكييف والقرم والقوقاز، ثم عرج على أرمينيا والفرات ونصيبين والموصل وبغداد، ثم عاد إلى سورية وفلسطين، وتصادفت رحلته وزيارته لبغداد مع زيارة ابن جبير عام 1185م.

### وصف فتاحية لبغداد

قال: إن طول بغداد مسيرة يوم، واستدارتها مسيرة ثلاثة أيام، وأنه شاهد باباً عجيباً من النحاس في بغداد، عليه من الصور ما ليس باستطاعة أحد أن يصنع نظيره، وبلغ من شدة لمعان هذا النحاس أن الخيل كانت تجفل عند اقترابها

لانعكاس صورها عليه، لذلك اضطروا إلى غسل النحاس بالخل فذهب بريقه إلا جزءه الأعلى[99].

### ناووس النبي دانيال

ذكر فتاحية أنه شاهد في سنة 1180م، ناووس النبي دانيال معلقاً فوق جسر شوشان، وكان الناووس مصنوعاً من نحاس وأنه معلق على ارتفاع (10) أذرع فوق ماء النهر، وقد روى بعض يهود شوشان، أن كل سفينة تمر من هناك، تعرف إذا كان بها أناس أشرار، ولا تصاب بأذى إذا كانوا من الصالحين، لذا يتجنب أصحاب السفن المرور من تحته، ورأيت في الماء تحت الناووس نوعاً من السمك في خياشيمها خزام من ذهب.

### مرقد النبي العزير

قال فتاحية: إن في بابل قبر للكاتب عزرا ابن حنية البغدادي، وإن اليهود جلبوا ترابه وحجارته من القدس، وإنه شاهد هذا الكنيس خراباً ولم يبق منه واقفاً إلا بعض حيطانه[100].

### مرقد النبي حزقيال أو ذي الكفل

قال فتاحية: إن المسلمين يزورون مرقد حزقيال عند مرورهم به بطريق مكة إلى الحج، وهي على بعد (40) يوماً من المرقد. وهناك طريق أخرى تقطع في عشرة أيام لمن يعرفها، وقد أظهر رأس الجالوت سليمان بن حسداي، عناية كبيرة بالمرقد وفوق القبر ضريح يرتفع نحو القامة مكسو بخشب مطعم بالذهب، وتعلوه قبة مرصعة بالبلور، وتتدلى منها السجوف الجميلة، وتحت القبة 30 قنديلاً تضيء المقام ليلاً ونهاراً وقودها الزيت، ولمقام النبي حزقيال موكلون به عددهم (200) نفر، والمقيمون في خدمة المرقد يعيشون على النذور التي تتوارد إليه من كل الجهات، ويصرف ما فاض عن الحاجة لإعالة طلاب العلم، وإعالة اليتامى والأيامى، وتزويج اليتيمات. وزيارة النبي حزقيال تتم خلال الأيام العشرة الأولى من تشرين الثاني، وفي مدينة سورا قبور رؤساء الميثبة، وفي الحلة (10) آلاف يهودي وفيها كنيسة الربي مئير وفيها قبره، وكنيسة الربي زعيري بن حامة وفيها قبره، وقد شاهدناهم سنة 1183م[101].

### زيارته لمدينة حلب (عام 1175م)

قال فتاحية: «تدعى آرام صوبة، وأما سبب تسميتها حلب فهو أن أبينا إبراهيم الخليل كانت له بقرة ترعى بالهضبة التي تشرف على حلب، وكان يجتمع الفقراء حوله عند حلبها، ويقدم لهم الحليب. ولا يسقي المدينة نهر أو عيون لذا يضطر أهل البلد إلى شرب ماء المطر، وبكل دار بئر تسمى الجب. وفي حلب نحو (1500) يهودي وعلى رأسهم الربيون موسى الفلسطيني، وإسرائيل وشيث، ومن مشاهير علماء اليهود الشاعر يهوذا بن أيوب بن عباس الفاسي المغربي، وهو والد الطبيب صموئيل بن عباس الذي أسلم في بغداد عام 1162م[102].

### وصف فتاحية لمدينة دمشق (عام 1180)

قال عنها: «مدينة عامرة واسعة الأرجاء، جميلة المنظر، تحيط بها الأسوار المنيعة، وتمتد رياضها (الغوطة) إلى خمسة عشر ميلاً من كل جانب. ولا يوجد مثل فاكهتها في مكان من العالم. ويشرف جبل قاسيون على ظاهر البلد، وفي دمشق يجري نهر إيانة (بردى) في داخل المدينة، ويوزع على بيوت الخاصة بقساطل تمر بالأسواق والأزقة، ويسقي بساتينها نهر فرفر (الأعواج) ويمر خارج البلدة. وفي دمشق جامع للمسلمين، يعرف بجامع بني أمية، لم أجد بناء آخر يضارعه جمالاً، وبه ساعة مزولة، تقسم كل يوم مشمس إلى اثنتي عشرة درجة بعدد ساعات النهار فيصرف الوقت للصلاة بواسطتها».

يقول فتاحية: «وشاهدت بالقرب من دمشق قبراً طوله 80 ذراعاً، قال لي المسلمون إنه قبر سام بن نوح، لكن اليهود لم يؤيدوا هذا القول، ويقيم في دمشق (10) آلاف يهودي، بينهم العلماء وذوي اليسار. وفي دمشق مقام رأس الميثبة لعلماء فلسطين الربي عزرية بن إبراهيم آخر رؤساء الميثبة. ويستمد رأس الميثبة في دمشق صموئيل بن علي سلطته من بغداد، وأمين سر الميثبة يوسف بن الغلات (البلاط) وهو يهودي من بروفنسية جاء إلى المشرق من الأندلس واستقر في ميثبة دمشق، وفي دمشق حوالي (400) سامري لا يتزوجون بغير بنات نحلتهم.

### قرية ميرون في الجليل

زار هذه القرية فتاحية عام 1185م، وشاهد فيها قبري هليل وشماي وهما من أجل علماء اليهود، وشاهد عندهما حجراً منذوراً على هيئة كأس ماء، إذا دخل المرقد رجل صالح امتلأ الكأس ماء عذباً، لشراب الزائر ووضوئه، وإذا كان الزائر شريراً فإن الماء ينحسر وينفذ من الحجارة[103].

### وصف قرية يبتة

توجد على بعد 3 أميال في بحر الشام، أسس فيها الجد الكبير حنان بن زكاي مدرسة أصبحت المركز الديني لدراسة علماء اليهود، وعندما زارها فتاحية سنة 1175، شاهد بقربها نبع ماء يتدفق ماؤه طول أيام الأسبوع، إلا في يوم السبت ينضب الماء ولكن اليوم لا يوجد فيها يهود[104]. هذه من الخرافات التي يروجها السياح.

## وفي الخاتمة

نقول: ومن الرحالة اليهود الكبار من أهل الأندلس ولم نذكرهم أبو الحسن يهوذا بن صموئيل اللاوي (1086- 1141) كان من أهل غرناطة وكان فيلسوفاً وشاعراً (ذكرناه من قبل) جاء من الأندلس إلى مصر وأراد الحج إلى بيت المقدس فتوفي عند أسوار المدينة ودفن في القدس. ترك لنا وصفاً لرحلته يغلب عليها طابع الأدب.

ومن الرحالة الجديرين بالذكر صموئيل بن سليمان الطليطلي، قام برحلة إلى بيت المقدس عام 1210م، وصف أحوال اليهود ومعيشتهم الحسنة في ظل الإسلام كما وصف بعض مدن فلسطين واستقر في دمشق ومات فيها.

### دور يهود الأندلس في نقل التراث العربي إلى اللاتينية

كل حضارة تقوم على التواصل بين الشعوب والأمم، عبر الحوار المستمر، وأفضل أدوات الحوار هي اللغة واللسان الذي قال عنه البيروني: «اللسان هو الذي يترجم للسامع، ما يريده القائل في الوقت الراهن. فكيف يتيسر نقل الخبر من الماضي إلى المستقبل؟ إنه يتم، ولا شك، عن طريق الألسنة مع تطاول الأزمنة، ولولا قوة النطق في الإنسان المبدع للخط، ما سرى الكلام في الأمكنة، سريان

الرياح، وفي الأزمنة سريان الأرواح والأفكار، وما كان ممكناً لولا عناية الله، فسبحان مصلح أمور الخلق»[105].

نقل السريان علوم اليونان إلى العرب، فأبدعوا ثقافة خاصة بهم، وألفوا كتباً في الفلسفة والطب والفلك والرياضيات وسائر العلوم، وكان ذلك في مختلف العواصم، من دمشق إلى بغداد، إلى القاهرة إلى قرطبة، وغيرها من المدن. وفي الأندلس، استقرت في مكاتبها أشهر المؤلفات المشرقية التي ضمت تراث الإسلام في كل المجالات، وعندما هجَّر العرب من الأندلس عام 1492م، هجَّر معهم اليهود الذين كانوا قد ترجموا التراث العربي قبل الخروج وبعده، وترجموه إلى اللاتينية، وكانت بدايات الترجمة للملك ألفونسو الأول (1112- 1185) وعندما استولى على طليطلة (بلد اليهود) جمع في بلاطه علماء من كل الديانات، فاحتضنهم الأسقف دون ريموندو (1126- 1151) وكان رجلاً مثقفاً ومستشاراً أميناً، وكان مولعاً بالثقافة الإسلامية، كالملك ألفونسو، وطلب من المترجمين ترجمة الثقافة العربية إلى اللاتينية وأجزل لهم العطاء.

**مدرسة أفلاطون التيفولي (المتوفى 1140)**

ترأس أفلاطون التيفولي، وترجم وجماعته عدة كتب بالفلك منها كتاب (غاية الحكيم لمسلمة المجريطي) وكتاب (الزيج الصابئ) للبتاني. وترجم معه إبراهيم بن عزر المعروف بابن الماجد (1090- 1167) كتب الغزالي وابن سينا وأبي بكر الرازي، وهاجر موسى بن طبون المتوفى (1190م) من غرناطة إلى طليطلة، وترجم حوالي 30 كتاباً، في الفلسفة الإسلامية واليهودية مثل كتاب (الاعتقادات والأمانات) لسعيد بن يوسف الفيومي، وكتب ابن جبيرول (ينبوع المعرفة) وترجم كتب التصوف اليهودية (القبالاة) وانضم إليه إبراهيم برحية (1134- 183) عاش في برشلونة وصار يترجم كتب الرياضيات والفلك. وشكل يعقوب بن طبون (1240- 1283) مدرسة للترجمة وترجم إلى اللاتينية كتاب المجسطي لبطليموس وكتب البتاني في الفلك، وأقام مدرسته في مرسيليا، وترجم كتب موسى بن ميمون مثل كتاب (دلالة الحائرين).

وفي زمن ألفونسو الحكيم (1252- 1284) أصبحت طليطلة تدعى مدينة النور وامتدت الحركة العلمية إلى مدينة قطلونة، ولعب اليهود في هذه الفترة

الذهبية للترجمة، وكان بينهم اليهودي بطرس الذي اعتنق المسيحية إرضاء للملك ألفونسو الحكيم[106]. وظهر في هذه الفترة المترجم يوحنا بن داود كان يهودياً واعتنق المسيحية، وكان شريكه في الترجمة دون جندسالفو صار يترجم من القشتالية إلى اللاتينية.

وشكل صموئيل يهوذا بن طبون (1240- 1283) في بلاط ألفونسو الثالث (1245- 1279) مدرسة للترجمة في قشتالة، ووضع قواعد لأصول الترجمة الجماعية اتبع فيها خطوات التراجمة العرب والسريان، مما زاد في دقة المترجمين، وسرعتهم في الترجمة، وكان الكتاب المترجم يمر بثلاث مراحل (من العربية إلى العبرية ثم إلى اللاتينية) وبذلك فتحت كنوز الثقافة العربية طريقها نحو الغرب المسيحي[107].

وقام الأستاذ يوسف بن اسحق القمحي من يهود طراكونة، وعاش في طليطلة، بترجمة كتب التصوف اليهودية مثل كتاب (الهداية) الذي ألفه بحيا بن يوسف بن بقودة، من العبرية إلى اللاتينية. أما كتب الغزالي وأفلاطون وأرسطو، فترجمها من العربية إلى اللاتينية.

### مدرسة آل شمطوب في الترجمة

قامت في طليطلة مدرسة للترجمة في بلاط ألفونسو الكبير (1211- 1223) الذي خلع على نفسه إمبراطور العقيدتين، الإسلامية والنصرانية. وأسس مكتبة وجمع لها التراجمة برئاسة شمطوب بن شمطوب (معناه الطيب) بترجمة الكتب العربية، وكان متحمساً للفلسفة الإسلامية وتابعه ولداه اسحق بن شمطوب ويوسف بن شمطوب، والحفيد شمطوب بن يوسف، وأطلق عليهم اللاتين آل فالونيموس أي الطيبون باللاتينية. وانضم إلى مدرستهما المترجم يونا بن كوزا اليهودي وهو الذي ترجم كتاب (الكليات) لابن رشد، وقام التراجمة كلهم بترجمة كتب الغزالي (إحياء علوم الدين) وكتب ابن سينا (القانون والشفاء) وكتب الفارابي (المنطق والمدينة الفاضلة) إلى جانب كتب إقليدس وبطليموس وجالينوس وأبقراط وكلها من ترجمات حنين بن اسحق ومدرسته، وعملوا في معهد الدراسات العلمية في مرسية، عام 1269، وكان يعمل معهم تراجمة من المسلمين والنصارى، وعلى رأسهم أبو بكر الرقوطي. وفي عهد ألفونسو الحكيم (المحب

للثقافة العربية) نقل المعهد إلى إشبيلية، وصارت مهمته مزج الحضارتين الإسلامية والمسيحية، في حضارة إسبانية واحدة[108].

شجع ألفونسو الحكيم على ترجمة القرآن والتلمود وكتب القبالاة اليهودية وعهد بتلك المهمة للأسقف رودريك الطليطلي (1260- 1268) الذي أشرف على معهد الترجمة وقام هو بنفسه بترجمة كتاب (ألف ليلة وليلة)، فأعجب بها أهل البرتغال وإسبانيا، ثم انتشر بسرعة مذهلة في العالم اللاتيني.

واحتدم النقاش بين الفلاسفة المسلمين واليهود والمسيحيين حول أهمية العقل والوحي الإلهي (النقل). وكان يشرف على هذه النقاشات الملك دينيس (1279- 1325).

بعد أن استولى ألفونسو السابع (1126- 1157) على طليطلة لجأ إليه كثير من اليهود هرباً من ظلم الموحدين وحماهم الأسقف رايموند (1126- 1152) وترجموا كتب ابن رشد، وقام ميخائيل سكوت (1175- 1235) بترجمة كتب أرسطو وشروحات ابن رشد إلى اللاتينية، وترجم هرمن الدلماش القرآن الكريم إجابة لطلب بطرس الجليل مستعيناً بفلسفة ابن رشد في فهم الوحي الإلهي. وترجم هرمان الألماني كتاب (التلخيص) الذي عمله ابن رشد لكتاب (الشعر) لأرسطو. وترجم مترجمو مدرسة طليطلة اليهود شروح ابن ماجة وكتاب (تدبير المتوحد). كما ترجموا كتل ابن طفيل ورسالة حي بن يقظان، وكتب ابن مسرة (التبصرة والحروف) وكتب ابن عربي، فانتشر عن طريق ترجماتهم مذهب وحدة الوجود.

انتقلت عدوى الترجمة من طليطلة إلى صقلية، وذلك عندما استدعى الملك روجر الثاني (1130- 1154) أشهر المترجمين اليهود والمسلمين، وأسس مدرسة للطب في سالرنو عام (1150) وترك للمعلمين حريتهم الدينية، وحرية اختيار الكتب العلمية والفلسفية، وترجموا كتاب (الحيوان) وكتاب (السياسة) لابن البطريق عام 1135م، ترجمها يوحنا بن داود الطليطلي اليهودي وأرسلها إلى صقلية.

وأرسل أفلاطون التيفولي من برشلونة ترجمة الزيج الصابئ باسم (علم النجوم) إلى اللاتينية، وحققه فيما بعد ريجيو مونتانوس، وعلق عليه ونسب إلى البتاني علم المثلثات، وأرسل أفلاطون التيفولي عام 1145 كتب الجبر والهندسة

العلمية مترجمة إلى اللاتينية أرسلها إلى صقلية، واستدعى الملك روجر الثاني الشريف الإدريسي (المتوفى 1180) إلى صقلية، وكلفه بوضع خريطة للعالم، فصنع له كرة أرضية من الفضة عليها صورة الأرض المعمورة ووضع له كتاباً سماه (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق)[109]، وترجمه أحد تراجمة اليهود.

وأنشأ فريدريك الثاني (1220- 1236م) ملك صقلية مكتباً للترجمة وأسند رئاسته إلى ميخائيل سكوت، وجلب معه مترجمين يهوداً وعرباً وترجموا له كتب الكندي وأعادوا النظر في الترجمات السابقة للفارابي وابن سينا وابن باجة وابن رشد، وقامت حركة ثقافية في أوروبا، هي (الحركة الرشدية)، جذبت إليها كل الشباب والمثقفين، مما اضطر الكنيسة الرومانية للرد على ذلك بتحريم فلسفة أرسطو التي عليها شروح ابن رشد، وكلفوا جامعة باريس بمهمة الرد، واشترك بهذه الحملة الفيلسوف توما الإكويني (1226- 1274).

### المترجم قسطنطين الأفريقي (المتوفى 1087)

كان يهودياً ولد في قرطبة، ورحل إلى بغداد والشام ومصر والقيروان، والهند وخراسان، وعاد إلى تونس ووقع أسيراً، واعتنق المسيحية والتحق بمدرسة الطب في سالرنو، وترهب في دير مونتي كاسيو عام 1060 وعكف على الترجمة من العربية إلى اللاتينية، وترجم كتب الطبيب اسحق بن عمران القيرواني في الطب ولفلك، كما ترجم كتاب الطبيب اسحق الإسرائيلي في الحميات[110].

### المترجم ليون الأفريقي (1494- 1552)

ولد الحسن بن محمد الوزان في غرناطة عام 1494، بعد سقوطها وهاجرت عائلته إلى المغرب وعاش في فاس، وقام برحلات في أقطار المغرب وشمال أفريقيا، ودوّن مشاهداته. وفي إحدى رحلاته في المتوسط وقع في الأسر بيد قراصنة مسيحيين واعتنق المسيحية وتسمى بجيوفاني ليوني سنة 1520م، واشتهر بلقب ليون الأفريقي وعاش في روما، وألف المعجم العربي والعبري واللاتيني، وكتاب وصف أفريقيا. مزج بين كتاباته وكتابات الجغرافيين العرب كالشريف الإدريسي وابن سعيد المغربي والرحالة اليهود أمثال بنيامين التطيلي وفتاحية الرتسبوني وسليمان الحريزي. بدأ الجزء الأول فيه بالعربية وأتم الجزء

الثاني بالإيطالية، ورجع الحسن بن محمد الوزان إلى تونس عام 1550م، وأعلن إسلامه وتوفي في تونس عام 1552[111].

في هذه اللمحة الموجزة حاولت إلقاء الضوء على مساهمة يهود الأندلس في نقل التراث العربي إلى اللاتينية وصارت تلك الترجمات أساس النهضة الأوروبية في العصر الحديث. والبحث بحاجة إلى دراسة أعمق، لتبيان دور اليهود العرب المشرِّف في نقل الثقافة العربية إلى العالم الخارجي.

## طرد اليهود والعرب من الأندلس

عاش اليهود والعرب المسلمين في الأندلس في وئام، وكان اليهود يماثلون العرب في أسلوب حياتهم، في المعيشة واللباس والطعام والشراب، وكانوا يدرسون سوية كتب الفلسفة والعلوم وكتب التصوف، وفي غرناطة وقرطبة وإشبيلية وفي المغرب في فاس لا يمكنك التمييز بين العرب واليهود. وكانت غرناطة وأليسانة وطليطلة تدعى مدن اليهود، ولكنهم كانوا يتشبهون بالمسلمين[112].

وكانت هذه السماحة موروثة منذ أيام عبد الرحمن الداخل، ويقال إن الخليفة عبد الرحمن الناصر قد عزم على أن يجمع مجمعاً مقدساً للإسلام واليهود والنصارى، برئاسة أسقف إشبيلية لقمع عادة التعصب الإسباني لكنه توفي (853م) ولم يحقق أمنيته.

يقول العلامة محمد كرد علي: «أخذ دعاة الدين المسيحي يسبون الإسلام جهاراً حتى يقتلوا في سبيل المسيح وتكتب لهم الشهادة، ولكن الخليفة مات قبل التئام هذا المؤتمر»[113].

لقد امتزج المعاهدون من أهل الذمة مع رعاياهم الفاتحين وتزوجوا منهم واختلط النسل وتشعبت العروق والطوائف، وكان لليهود اليد الطولى في هذا التواصل الحضاري الذي امتد إلى نقل العلوم من العربية إلى اللاتينية، وكانت لترجماتهم أثراً حسناً في إنقاذ أمهات الكتب العربية من الضياع أو التلف، لأن البربر من مرابطين وموحدين أثناء فورات تعصبهم، وغيرتهم على الدين، كانوا

يحرقون الكتب بحجة أنها تحتوي علوماً منافية للدين، فلولا الترجمات التي قام بها اليهود لضاعت كثير من علوم أهل الأندلس.

والسؤال المطروح: كيف ومتى ولماذا طرد اليهود والعرب معاً؟

لما قرر الإسبان المتعصبون طرد العرب بالإكراه من الأندلس عام 1501، وأصدر الكردينال كسيمنس أمراً سنة 1511 بعد أن أحرق في ساحات غرناطة كمية كبيرة من الكتب العربية، أمر بطرد العرب واليهود وإلا حرقوا في الساحات العامة مع كتبهم وحفظاً لحياتهم، بعضهم تنصر، وبعضهم اتخذ الإسبانية واتبعوا التقية، والبعض الآخر خرج إلى المغرب وبلاد الشام والقسطنطينية ومعظمهم من اليهود، استقروا في إزمير وسالونيك وأدرنة.

وعرف الإسبان أن بعض العرب واليهود لا زالوا يبطنون دينهم سراً ويظهرون الصلبان تقية، فطردهم الملك شارل الخامس (1516- 1556) ولم يبق إلا من صار يتكلم الإسبانية، ويكتب بأحرف لاتينية، وارتدوا اللباس المسيحي وأكثروا من التردد على الكنائس. وفي عهد الملك فيليب الثالث (1557- 1597) ندم الإسبان على طردهم للعرب واليهود، لأن الثقافة انحطت وساد الجهل، فكان عليهم استدعاء رهبان من سورية ليعلموا الإسبان اللغة العربية التي أضاعوها.

قال المستشرق الألماني فوليه (1857- 1909) «إن أغناطيوس دي ليولا عندما أسس الرهبنة اليسوعية عام 1540، وحظره للحرية الدينية على المسلمين واليهود، كان عمله من أسباب انحطاط النفوس، فلم يعد تحت سلطة محاكم التفتيش إمكان المرء أن يفكر ويتفلسف، وأن يكون نصفه لاهوتياً والنصف الآخر فيلسوفاً»[114].

وهكذا، بفقد الأندلس للعرب المسلمين واليهود، فقد العلم وانحطت المهن العلمية، والحرف المهنية، لأن لكل مهنة أسرارها ومعلموها، وبذهاب المعلمين، ساد الجهل والكسل واشتد الفقر في إسبانيا المسيحية، وصارت إسبانيا في آخر سلم الثقافة الأوروبية، وصارت الكنيسة الرومانية تستخدمهم في حروبها ضد الفرنسيين، لأنهم أصحاب فكر مستنير، واعتبرتهم الكنيسة مهرطقين وتحولت إسبانيا المسيحية المؤمنة إلى دولة زراعية متخلفة عن سلم التطور الأوروبي. وصار بدل العلماء والفلاسفة يحكمها رهبان جهلة. فلم يعد الكيلومتر المربع من

الأرض الإسبانية الخصبة، يطعم أكثر من أربعين شخصاً، وتحولت حوالي 49٪ من أراضيها بوراً لا تنتج، وشاعت هواية مصارعة الثيران بدلاً من تعذيب اليهود والمسلمين في الساحات العامة.

### قصارى القول

لا يمكن فصل الثقافتين اليهودية والإسلامية في التاريخ، سواء في الأندلس أو مصر أو بلاد الشام أو العراق، أو غيرها، وقد حاولتُ في هذا الكتاب التدليل على ذلك، من خلال دور اليهود في الحضارة الإسلامية.

## مراجع الفصل الرابع: اليهود في مصر والأندلس


(1) خريف الفكر اليوناني ص127، عبد الرحمن بـدوي مكتبـة النهضة المصرية، القاهرة 1943.

(2) بين الدين والفلسفة ص114، محمـد يوسـف موسـى، دار المعارف بمصر القاهرة 1955.

(3) السيرة النبوية لابن هشام ص106، تلخيص عمر عبد العزيـز أمين القاهرة 1961.

(4) مروج الذهب للمسعودي ج1، ص253، تحقيق قاسم وهـب، وزارة الثقافة، دمشق 1988.

(5) تاريخ العرب والشعوب الإسـلامية ص20، كلـود كـاهن، ترجمة بدر الدين القاسم، دار الحقيقة، بيروت 1977.

(6) تاريخ الخلفاء ص132، السيوطي، تحقيق محي الديـن عبـد الحميد، المكتبة التجارية القاهرة، 1964.

(7) تاريخ الإسلام السياسي والديني، ج2، ص199، حسن إبراهيم حسن، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1964.

(8) طبقات الأطباء والحكماء، ص84، ابن جلجل، تحقيق فـؤاد سيد المعهد العلمي الفرنسي، القاهرة 1955.

(9) المصدر السابق ص87.

(10) العلم عند العرب ص237، الدوميلي، ترجمة محمد يوسـف موسى، وعبد الحليم نجار، دار القلم القاهرة 1962.

(11) معالم الحضارات ص192، أنور الرفاعي وشاكر مصطفى، والمطبعة الهاشمية دمشق 1947.

(12) عيون الأنباء في طبقات الأطباء ج4، ص24، ابن أبي أصيبعة، تحقيق قاسم وهب، وزارة الثقافة دمشق 1997.

(13) Webster's Biographical Dictionary, p968, New York 1963.

(14) Cecil Roth. Hestory of the Jews in England. P 240. Oxford 1941.

(15) اليهود في الأندلس ص17، محمد بحر عبد المجيد، المكتبة الثقافية العدد 237، القاهرة 1970.

(16) كيف نفهم اليهود ص50، حسين يونس دار المعارف القاهرة 1978.

(17) المصدر السابق ص51.

(18) المصدر السابق ص52.

(19) غابر الأندلس وحاضرها، ص219 محمد كرد علي مطبعة الترقي دمشق 1935.

(20) المصدر السابق ص132.

(21) الكامل في التاريخ ج5، ص198- 199، ابن الأثير طبعة بولاق 1274هـ.

(22) العقد الفريد ج3، ص201- 202 ابن عبد ربه القاهرة 1928.

(23) مقدمة ابن خلدون ص938، تحقيق علي عبد الواحد وافي دار المارف القاهرة 1960.

(24) تاريخ الأندلس السياسي والاجتماعي ج2، ص352، حسن إبراهيم حسن، مكتبة النهضة المصرية القاهرة 1967.

(25) نفح الطيب ج1، ص221، طبعة ليدن عام 1861.

(26) العبر وديوان المبتدأ والخبر ج4، ص127، ابن خلدون القاهرة 1284هـ.

(27) عصر الدول والإمارات في الأندلس، ص52، شوقي ضيف، المطبوعات الجامعية دمشق 1994.

(28) زرياب موسيقار الأندلس، ص112، محمود أحمد الخفي، أعلام العرب، القاهرة 1965.

(29) المصدر السابق ص152- 153.

(30) غابر الأندلس وحاضرها ص130- 131.

(31) حضارة الإسلام ص292، جوستاف جروينباوم، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، سلسلة الألف كتاب كتاب (2) القاهرة.

(32) مختصر كتاب البلدان ص1، ابن الفقيه نشر المستشرق الهولندي م. ج. غويه، ليدن 1885.

(33) عصر الدول والإمارات في الأندلس، ص61.

(34) طبقات الأطباء والحكماء، ص22.

(35) اليهود في الأندلس، ص24.

(36) تاريخ ابن خلدون، العبر ج4، ص146.

(37) المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص83، عبد الواحد المراكشي القاهرة.

(38) الحلة السراء ج1، ص100، لابن الآبار القاهرة.

(39) طبقات الأمم ص97، صاعد بن أحمد الأندلسي، مطبعة السعادة، القاهرة 1912.

(40) حضارة الإسلام ص81- 82.

(41) Poole L. The moors in Spain. P82, London 1930.

(42) نفح الطيب، ج1، ص103.

(43) الشرق الأوسط والحضارة العربية الأندلسية ص19، ليفي بروفنسال، تطوان 1951.

(44) تاريخ الفكر الأندلسي ص223، انخل بالانثيا، ترجمة حسين مؤنس القاهرة 1955.

(45) طبقات الأمم، ص97.

(46) تاريخ الفكر الأندلسي، ص347.

(47) تلخيص قصة حي بن يقظان لابن طفيل، تحقيق جميل صليبا وكامل عياد، مطبعة الرقي بدمشق 1940.

(48) المصدر السابق ص36- 37.

(49) بين الدين والفلسفة ص143، محمد بن يوسف موسى، دار المعارف بمصر القاهرة 1959.

(50) المغرب ومصر والأندلس ص205، الشريف الإدريسي تطوان 1935.

(51) تاريخ الفكر الأندلسي، ص493.

(52) اليهود في الأندلس ص58.

(53) المصدر السابق ص60.

(54) تاريخ الفكر الأندلسي ص495- 496.

(55) اليهود في الأندلس ص73.

(56) المصدر السابق ص78.

(57) تاريخ الحكماء ص318، القفطي تحقيق جوليوس ليبرت، ليبزيج 1903.

(58) الإفادة والاعتبار ص9، عبد اللطيف البغدادي، نشر سلامة موسى، مطبعة المجلة الجديدة، القاهرة 1919.

(59) عيون الأنباء في طبقات الأطباء ج4، ص273.

(60) رسالة في اللاهوت والسياسة ص177، سبينوزا القاهرة 1971.

(61) بين الدين والفلسفة ص121- 122.

(62) تاريخ الفكر الأندلسي، ص490.

(63) المصدر السابق ص492.

(64) دروس اللغة العبرية ص50، كمال ربحي، جامعة دمشق 1966.

(65) المصدر السابق ص49.

(66) اليهود في الأندلس ص38.

(67) الإحاطة في أخبار غرناطة، ج1، ص445، لسان الدين الخطيب تحقيق عبد الله عنان، القاهرة 1955.

(68) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ج1، ص265، ابن بسام، القاهرة 1942.

(69) المغرب في حلى المغرب ص114، ابن سعيد المغربي، تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف القاهرة 1955.

(70) الإحاطة في أخبار غرناطة، ج1، ص447.

(71) اليهود في الأندلس، ص67.

(72) العرق والتاريخ ص56، كلود شتراوس، ترجمة سليم جواد، المؤسسة الجامعية بيروت 1982.

(73) عصر الدول والإمارات في الأندلس ص41، شوقي ضيف المطبوعات الجامعية دمشق 1994.

(74) فن القصة والمقامة ص41، جميل سلطان، دار الأنوار بيروت 1967.

(75) المصدر السابق ص57.

(76) المقامة ص23، شوقي ضيف، دار المعارف القاهرة 1954.

(77) المصدر السابق ص46.

(78) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام، ج1، ص670.

(79) حضارة الإسلام ص366، جوستاف جروينباوم، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويش، سلسلة الألف كتاب القاهرة.

(80) دروس اللغة العبرية ص50.

(81) كتاب البلدان ص270، ابن الفقيه الهمذاني نشر م. ج. غويه، ليدن 1880.

(82) رحلة بنيامين التطيلي ص49، ترجمة عزرا حداد، المطبعة المشرقية بغداد عام 1945.

(83) المصدر السابق ص87.

(84) المصدر السابق ص100- 101.

(85) رحلة فتاحية ص87، ترجمة عزرا حداد المطبعة التجارية بغداد 1937.

(86) رحلة بنيامين التطيلي ص103.

(87) رحلة فتاحية ص87.

(88) رحلة ابن جبير ص252، دار التراث بيروت 1968.

(89) رحلة بنيامين التطيلي ص134.

(90) المصدر السابق ص135.

(91) رحلة فتاحية ص68.

(92) رحلة بنيامين التطيلي ص139.

(93) رحلة فتاحية ص73.

(94) رحلة ابن جبير ص174، دار التراث بيروت 1968.

(95) المصدر السابق ص179.

(96) المصدر السابق ص182.

(97) المصدر السابق ص183.

(98) المصدر السابق ص183.

(99) رحلة فتاحية ص73.

(100) المصدر السابق ص72.

(101) المصدر السابق ص71- 72.

(102) المصدر السابق ص76.

(103) المصدر السابق ص88.

(104) المصدر السابق ص77.

(105) في تحقيق ما للهند من مقولة ص132، أبو الريحان البيروني، حيدر آباد الدكن، 1954.

(106) العلم عند العرب ص456 الدوميلي، ترجمة محمد يوسف موسى وعبد الحليم النجار، دار القلم القاهرة 1962.

(107) المصدر السابق ص465.

(108) المستشرقون ج1، ص99، نجيب العقيقي، دار المعارف بمصر القاهرة 1964.

(109) المصدر السابق ص108.

(110) المصدر السابق ج1، ص121.

(111) المصدر السابق ج1، ص136.

(112) غابر الأندلس وحاضرها ص134، محمد كرد علي، مطبعة الترقي دمشق 1937.

(113) المصدر السابق ص215.

(114) المصدر السابق ص219.

# الفصل الخامس

# تاريخ اليهود في الدولة العثمانية

- المدخل: اليهود في الدولة العثمانية
1-المحور الأول: اليهود في دار السلطنة العثمانية (القسطنطينية وإزمير وسالونيك)
2-المحور الثاني: اليهود في العراق (بغداد والبصرة والموصل)
3-المحور الثالث: اليهود في مصر واليمن (القاهرة والإسكندرية وصنعاء)
4-المحور الرابع: اليهود في بلاد الشام (في سورية وفلسطين)
5-المحور الخامس: اليهود في شمال أفريقيا (المغرب والجزائر وتونس وليبيا)
- مراجع الفصل الخامس

# المدخل : اليهود في الدولة العثمانية

بدأت القبائل التركمانية تستقر في أرض الأناضول، وبدأت إمارة (آل عثمان) على الجزء الساحلي في الجنوب الشرقي من بحر مرمرة، وكانت عاصمتهم الأولى في مدينة (بورسة) التي شيدوا فيها الجامع الأخضر. وفي منتصف القرن الرابع عشر الميلادي، اجتاز العثمانيون بمساعدة اليونان مضيق الدردنيل، واستطاع السلطان مراد الأول (1359- 1389) أن يجعل حاضرة ملكه (أدرنة) وبذلك شطر الإمبراطورية البيزنطية وحاصرها من كل جانب.

كان المسيحيون البلقان يساعدون الأتراك، وإن لم يقتنعوا بالإسلام، وهكذا تدرج الأتراك بتكوين قوة عسكرية كانت نواتها الأولى قبائل غزاة التركمان وأضافوا إليهم الأرقاء الذين استولوا عليهم في ساحات القتال، أو حصلوا عليهم بتجارة الرقيق (تجارة المماليك) وكونوا من ذلك الخليط الجيش الإنكشاري (يني شاري) أي الجيش الجديد، ونقلوا بعض أهالي البلقان إلى آسيا الصغرى وأنزلوا بعض الأتراك المسلمين في شرق أوروبا.

في عام 1402 اجتاز تيمورلنك آسيا الصغرى، وأسر بازيد (1389- 1402) وقتله بالقرب من أنقرة. ولكن لم تمض مدة حتى استطاع الأتراك من استعادة قوتهم.

وفي عام 1453 حقق محمد الفاتح (1451- 1481) حلم الإسلام القديم في فتح القسطنطينية وقضى على الإمبراطورية الرومانية الشرقية.

قويت شوكة العثمانيين واستطاع السلطان سليم الأول (1512- 1520) فتح بلاد الشام عام 1516، وبلاد مصر عام 1517، وقضى على دولة المماليك، واستخدم العثمانيون الأسلحة النارية (البنادق والمدافع) وتوسعوا، واحتلوا العراق واليمن والساحل الشمالي لأفريقيا (ليبيا وتونس والجزائر والمغرب) وفيما بعد استولوا على جزيرة قبرص ورودس وكريت، وسيطروا على سواحل البحر المتوسط.

في عام 1492 انهارت مملكة غرناطة في الأندلس، وتوحدت باقي شبه جزيرة أيبيريا على يد المسيحيين الأتقياء، الذين طردوا العرب واليهود معاً، وهاجروا واستقروا في المغرب في البداية، وتابع قسم من اليهود هجرتهم وجاءوا إلى عاصمة الدولة الإسلامية القسطنطينية، وانحط المغرب العربي ونهضت أوروبا، بترجمة الكتب والمعارف الإسلامية بفضل التراجمة اليهود[1].

# المحور الأول : اليهود في القسطنطينية وإزمير

إن أغلبية اليهود الذين كانوا يعيشون في المجتمعات الإسلامية، ظلوا يتبعون عقائدهم وأنظمتهم الاجتماعية المتوارثة، وإن تغيرت بعض أساليب المعيشة التي تحددت ملامحها منذ أجيال عديدة.

وينقسم اليهود إلى اليهود والسامرة، والسامرة هم اليهود الذين كانوا يسكنون مملكة السامرة، في منطقة أشكيم، وبنوا لهم هيكلاً على جبل جرزيم (نابلس).

ذكر أبو الريحان البيروني: «السامريون هم الأبدال الذين بدلهم بختنصر بالشام حين أسر اليهود، وكان السامرة قد أعانوه، ودلوه على عورات اليهود، فلم يحركهم ولم يسبهم، وأبقاهم في فلسطين تحت يده في موضع يسمى (نابلس) وبها كنائسهم ولا يمسهم اليهود وإذا صافحوهم اغتسلوا، والسامرة لا يقرون إلا بنبوة موسى وتوراته فقط»[2].

أما اليهود فهم يعتقدون أنهم أبناء إبراهيم الخليل، وأنهم من نسل يعقوب ويعتقدون بالله الواحد القدوس خالق كل شيء، وهم ينهون عن اتخاذ التماثيل والصور في هياكلهم المقدسة (الكنس) ولغتهم العبرية في طقوسهم.

وينقسم اليهود إلى طائفتين:

(1)اليهود الربانيون: هم اليهود الذين يعتمدون على تعاليم التوراة والتلمود معاً، وهم الجمهور الأكبر عند اليهود.

(2)اليهود القرائين: هم اليهود الذين يرفضون تعاليم التلمود ولا يعترفون إلا بتعاليم التوراة، وهؤلاء هم نتاج الثقافة الإسلامية والعبرية معاً، فهم يعتقدون بعدالة الله، وحرية الإنسان، لأن الإنسان خالق لأفعاله، وإمامهم الربي سعدية بن يعقوب الفيومي المتوفى (942م).

والتلمود أهم كتاب أنتجته العقلية اليهودية الجماعية بعد تدمير الهيكل، وتعني كلمة التلمود التعليم، تعاليم الربانيون الأمورايم (المفسرون). بدأت كتابة

التلمود في طبرية، وانتقل المفسرون إلى مدينة سورا (بابل) وكتبوا تحت تأثير الثقافة البابلية - الفارسية التلمود البابلي، وصار لدينا تلمودان: البابلي والأورشليمي (الفلسطين) وهما متشابهان في أقسامهما الرئيسية ويختلفان في المواضيع الخاصة، ويقسم التلمود إلى قسمين:

1)المشنا (مجموعة النصوص).

2)الجمارا (مجموعة الشروح).

ولليهود الربانيين اعتقاد هو أن من يدرس التلمود ويحفظه عن ظهر قلب يستحق الجنة، لأن الله وملائكته لا عمل لهم في الليل إلا دراسة التلمود، ليعبر الله عن ندمه لأنه سمح بهدم الهيكل في بيت المقدس عام 70م. وينصح التلمود اليهود الربانيين بالابتعاد عن السياسة[3].

يقول الباحث اليهودي صموئيل إيتنجر (1919- 1997) «اتسم تاريخ المجتمعات اليهودية في البلدان الإسلامية بسيطرة الطابع التقليدي (التلمودي) الواضح، فيما يتصل بتحديد موقف الغالبية لأوضاع اليهود القانونية، أو فيما يتصل بأنماط حياة اليهود والتنظيم الخاص بهم. وفي القرن التاسع عشر الميلادي شهد المجتمع اليهودي بدايات لتحولات جذرية مع أن غالبية اليهود ظلوا يتبعون نظمهم الاجتماعية وطرقهم المعيشية التي تحددت ملامحها منذ أقدم الأجيال»[4]. وعندما هاجر اليهود من الأندلس وجاؤوا إلى الشرق دعوا (بالسفاراديم) وهم يختلفون عن اليهود الأوروبيين (الأشكناز).

## يهود القسطنطينية (الأشكناز)

زار بنيامين التطيلي القسطنطينية عام 1161م، ومما قال عنها وعن اليهود: «القسطنطينية قاعدة دولة الروم المعروفين بالإغريق، وكرسي مملكة الإمبراطور مانويل الأول (1143- 1180) في الوقت الحاضر، والقسطنطينية مدينة قديمة بناها الإمبراطور قسطنطين عام 330م، في موقع مدينة بيزنطة القديمة، عند ملتقى بحر مرمرة مع البحر الأسود، ثم دعيت المدينة فيما بعد القسطنطينية تكريماً لاسم مؤسسها.

لقد سكنت المدينة جاليات من أعراق متعددة منهم اليهود، ومعظمهم من تجار الإسكندرية والقدس وأنطاكية، وسكنوا في حي البيرة، وكانت معاملة

الرومان لليهود معاملة سيئة. ففي عام 390م، أجبر الإمبراطور باسيليوس اليهود على اعتناق المسيحية، وقتل من لم ينصع لأمره. ولولا شفاعة الربي شفطة الطبيب الذي عالج ابنة الإمبراطور وشفاها من جنونها، لأباد اليهود وقضى عليهم وعلى تواجدهم في مملكته. ثم سكن اليهود حياً خاصاً بهم (خاص كوي)».

ثم يصف بنيامين التطيلي مدينة القسطنطينية في زمنه، قال: «تبلغ استدارة المدينة حوالي 18 ميلاً، يلف البحر نصفها، في المدينة البحرية حركة دائمة من التجار القادمين من بلاد فارس ومصر وسورية والبلقار والخزر وإسبانية وهنغارية، ولا يباريها في هذا المجال إلا بغداد. وفي القسطنطينية بيعة ثيوصوفية (كنيسة أيا صوفية) وفيها كرسي بطريرك الروم الأرثوذكس لأن الناس هنا لا يدينون للبابا المقيم في رومية، وفي هذه البيعة حوالي 360 صومعة، وفيها كنوز لا تحصى، وفيها من الأساطين والأعمدة المموهة بفضة وذهب عدد كبير، ومن القناديل المفضضة والمذهبة ما لا يمكن إحصاؤه، و ليس في العالم كله بيعة تضارعها».

يقيم اليهود في حي منعزل عن سائر الأحياء (خاص كوي) وراء خليج مرمرة. فإذا أراد أحدهم الخروج للبلد للبيع والشراء، وصل إليها عن طريق البحر. وفي القسطنطينية حوالي ألفي يهودي من الربانيين وخمسمائة من القرائين. والطائفتان تقيمان في حي واحد، يفصل بينهما سور، وعلى رأس الربانيين الحاخام أبطليون والحاخام عويدية، وعلى رأس القرائين الربي هارون خوسفو، والربي يوسف بن جينو، وفي القسطنطينية الرئيس الياقيم.

ويحترف أغلب اليهود حياكة ثياب الحرير، وبينهم التجار ذوو الثروة الواسعة. ولكن ركوب الخيل محظور عليهم باستثناء سليمان المصري طبيب الإمبراطور الخاص، وبفضل نفوذه يتمتع اليهود ببعض الامتيازات وسط موجة الاضطهاد المحيقة بهم. ويصف بنيامين التطيلي داخل حي اليهود بقوله: «هناك حي الدباغين وهو حي ضيق الشوارع، ويعيش اليهود في ضنك، لأنهم مضطرون إلى طرح المياه في الأزقة المحاذية لمدابغهم، فيتلوث السابلة من الروم. فيزدادون كراهية لليهود، ويصبون جام غضبهم على البريء والمذنب سواء بسواء، ويضربونهم علناً، ويعاملونهم معاملة قاسية، ومع ذلك فاليهود صابرون، وهم ذوو جود وإحسان ويعرف حيهم اليوم بحي البيرة»[5].

نص بنيامين التطيلي يرينا كيف يعيش اليهود في ضنك في الإمبراطورية الرومانية الشرقية. كانوا مسلوبي الحرية، ومعاملتهم سيئة. وعندما فتح السلطان محمد الفاتح مدينة القسطنطينية، وأنهى دولة الروم الشرقية، تحسنت أحوال اليهود المعاشية وصارت لهم حقوق مواطنة، وحرية عبادة. وفي زمن السلطان سليم الأول بفضل طبيبه الخاص موسى هامون اليهودي وولده يوسف بن هامون الطبيب تحسنت أحوال اليهود في زمن السلطان سليمان القانوني (1520- 1566) واستطاع يوسف دوك ناكسوس الوزير اليهودي للسلطان سليم الثاني (1566- 1574) حصل اليهود على كثير من الامتيازات وصفها لنا **الرحالة التركي أوليا شلبي** (1611- 1674).

كان أصل أوليا من بلدة ماهان، جاء والده مع أرطغرل بن عثمان، وسكن اسطنبول عام 1453، كانت أم أوليا شركسية، وأبوه تركياً. وكان أوليا شاباً طويل القامة، كبير الراس، جميل الوجه، حلو الكلام، واسع الخيال، له اطلاع على علوم القرآن، وكان يعرف العربية والتركية والشركسية واليونانية والكردية. عاش أوليا مقرباً من البلاط لأن والدته الشركسية كانت ابنة أخ الصدر الأعظم (ملك أحمد باشا) زوج ابنة السلطان مراد الرابع (1623- 1640) واستمر الصدر الأعظم ملازماً للسلطان إبراهيم خان (1640- 1648) وللسلطان محمد الرابع (1648- 1687).

كان والد أوليا يدعى درويش محمد ظلي المولوي، نديماً للسلطان سليمان القانوني ورئيساً لمؤذني جامع السليمانية، وكان متواضعاً، ومريداً للشيخ عزيز هدائي رئيس الطريقة المولوية، وكان رساماً (نقاشاً) يجيد رسم الصور الزيتية للسلاطين والأميرات ويجيد الخط والرسم على النحاس، وهو الذي صنع الصندوق الشريف الذي حفظت فيه آثار الرسول (ص).

كان أوليا يجيد ركوب الخيل والصيد، وتزوج ولم ينجب فاعتراه مرض نفسي استمر معه 27 عاماً، وتعالج وتمّ شفاؤه في القاهرة في مشفى الناصر قلاوون، عالجه طبيب يهودي وأبرأه بسم الأفاعي (الترياق). ورأى رسول الله (ص) في ليلة عاشوراء عام 1639، وطلب منه الشفاء فشفي وعمل مؤذناً في القاهرة، وصاحب بعض الأمراء وعين كاتباً للضرائب. وعاد إلى اسطنبول عام 1641، وعين صيدلياً في مشفى عام للأمراض الجسدية والعقلية. قال يصف حالة

المرضى: «كان المرضى يأكلون لحوم الحمام والطيور، ولهم بناء خاص وكان المشفى يتسع لخمسة آلاف شخص، وفي المشفى 70 غرفة و80 قبة و200 خادم، ويقع المشفى في حي أبي أيوب الأنصاري، وهو على بعد ساعتين من اسطنبول». وهناك عدة أطباء يهود يشرفون على معالجتهم.

وقال أوليا: «وهنا حي (غالاطة) وهو حي خاص باليهود، وفيه قليل من المسيحيين، وفيه عشرة آلاف يهودي، وهم لا يأمنون جانب المسيحيين ويتقربون للمسلمين».

جاء يهود الأندلس في عهد السلطان أحمد الأول (1590- 1617) وسكنوا حي قرة كوي (خاص كوي) وعندما جرى تعداد عام 1638، ودام ثلاثة اشهر تبين أن عدد اليهود من الأندلس 675 يهودياً وهم يحسنون العربية. ولغة (اللادينو) هي خليط من الإسبانية واللاتينية واليونانية.

قام أوليا برحلته بين أعوام (1645- 1683) ودار بلاد الشام والعراق وأوروبا الشرقية (البلقان) ومما لاحظه عن نساء اليهود الرومانيات في بخارست سنة 1665 أكثرهن سوداوات الشعر وأكثرهن فاحشات.

ومما قاله عن اليهود حين زارهم في بغداد عام 1651: «إن لليهود محلة في بغداد تدعى محلة اليهود (الرصافة) ولهم فيها دور عبادة كثيرة منها ثلاثة كنس كبيرة، وهذه الكنس لا تزال معروفة منذ القديم، وعدد بيوت اليهود في بغداد حوالي ستة آلاف بيت، وهم نظيفو الأجسام، لهم عدة حمامات في بغداد، يعيشون في رفاهية ولا يتعرض لهم المسلمون بأذى» وعزا إليهم الصيرفة والتجارة في بغداد والبصرة والموصل ومنهم جملة منتشرون في مدن عراقية أخرى.

عاد أوليا جلبي إلى اسطنبول عام 1683 ودوّن أخبار رحلته في كتاب سماه (سياحة نامة) وبعد إنجاز الكتاب توفي في أواخر عام 1684.

مما هو مستغرب أن أوليا جلبي لم يتعرض إلى المسيح الكذاب سبتاي بن زيفي الأندلسي، على الرغم من أنه عاصره.

### ظهور بدعة الدونمة اليهودية

الدونمة فرقة يهودية، ظهرت بعد هجرة يهود الأندلس إلى تركيا، ابتدعها سبتاي بن زيفي الأندلسي الأزميري. ولد سبتاي في أزمير عام 1626م، وكان

والده قد جاء من المغرب إلى أزمير عام 1617م، وعمل والده بالتجارة وكان ذا ثقافة إسلامية واسعة درس تعاليم الشيخ محي الدين بن عربي (المتوفى 1240م) واختلطت تعاليمه بتعاليم القبالاة التصوف اليهودي.

والسؤال الواجب علينا طرحه: ما هي تعاليم القبالاة؟ وما أثرها على سبتاي بن زيفي؟

تأثر التصوف اليهودي بالتصوف الإسلامي، فكلاهما يؤمن بوحدة الأديان، وفي الأندلس اطلع والده على فلسفة محمد بن عبد الله ابن مسرة الذي يدعو للحكمة المستورة، التي تبحث في أسرار الكون، والكامنة في السر الإلهي، وأسرار الحروف التي جمعها العالم اليهودي موسى بن عزرا (1250- 1305) ودوَّن كتابه باسم الزوهر أي (النور) وقد بناه على تعاليم الفلسفة الإشراقية وهي خليط من تعاليم يحيى السهروردي المقتول (1191م) وتعاليم موسى بن ميمون العلامة اليهودي صاحب كتاب (دلالة الحائرين)، وكتابات ابن عربي. ولكي يعطي كتابه قيمة يهودية أرجع تعاليمه إلى النبي دانيال (العارفون يضيؤون كضياء الجلد (السماء) (سفر دانيال 3: 12) وإلى الرابي سمعان بن يوشاي الصفدي وهو الذي كشف له الرب أسرار السماء والأرض وعلمه معنى كل حرف من حروف التوراة التي نزلت من السماء ملتهبة بنار إلهية.

واختلطت تعاليم القبالاة في الوسط الجديد بتعاليم الطريقة المولوية ومثنوي مولانا جلال الدين الرومي (1207- 1273) الذي يعد كتابه أهم كتاب في التصوف الفارسي.

كان سبتاي طفلاً ذكياً يتكلم العربية لأنها لغة المنزل، وتعلم العبرية ودرس العربية، وكان يصاب وهو طفل بنوبات من الإغماء الخفيف. وفي عام 1648 زاد حماسه لتعاليم الزوهر، ونادى بإلغاء الطقوس الدينية الموروثة وادعى أنه المسيا المنتظر (المسيح المنتظر) وكثر أتباعه بين الشباب اليهود المتدينين، ولكن عارضه الشيوخ الربانيون، وقال: إنه جاء لينقذ شعبه المشتت، ولتخليصهم من الآلام التي يعانونها، وازداد الضغط عليه من اليهود، فرحل إلى دمشق سنة 1663، والتقى بكبار المتصوفة من اليهود والمسلمين، ثم تابع رحلته فوصل 1664 إلى القاهرة، فوجد أن المناخ العام تسوده الخرافات والجهل وتكثر بينهم قصص الخوارق والكرامات، و قام بعدة خوارق لفتت إليه أنظار يهود القاهرة واتبعه شيخ

صرافين القاهرة يوسف جلبي اليهودي الذي يتظاهر بالإسلام، ويدعي المولوية واسمه اليهودي (رفائيل جوزيف) ودعاه سبتاي إلى دعوته وأطلعه على سره وأنه المسيا المنتظر، وأنه نبي النور الموعود للأمة اليهودية. فأسلم له يوسف جلبي القيادة ودعمه بالمال، وفي عودته زار القدس وصفد وبشّر اليهود بيوم الخلاص القريب، وعاد إلى أزمير وأعلن عن ذاته وسمى معارضيه بالكفار (كوفريم) وتوجه إلى العاصمة اسطنبول عام 1666. وداهمته وأتباعه عاصفة فالتجأ إلى مضائق الدردنيل، وقدم اليهود شكوى بحقه فقبض عليه وقدّم مكبلاً بالحديد إلى الوزير أحمد باشا الكوبرلي وأمر بسجنه في جزيرة أبيدوس على الدردنيل، وصار سجنه محجة لأعوانه الذين جاؤوا إليه من اليونان ومدن البلقان وتوجوه ملكاً لإلسرائيل، وقسم العالم إلى 38 إقليماً وعين على كل إقليم حاكماً، وجعل كرسيه في أورشليم (القدس) ولقب الابن الوحيد ليهوه.

وقدم الحاخام الأكبير إبراهيم يقيني كتاباً للسلطان محمد الرابع (1648-1687) يشكو فيه سبتاي الذي استدعاه مع الصدر الأعظم ملك باشا أحمد الكوبرلي وشيخ الإسلام والحاخام الأكبر واستجوبه السلطان بواسطة يهودي من أهل الأندلس يتقن العربية، وعرف السلطان مضمون دعوته، وعرض عليه الإسلام أو الموت، فأسلم سبتاي وتسمى بالشيخ محمد أفندي البواب، وعينه السلطان رئيس البوابين، ولكن سبتاي بن زيفي بقي على ديانته، وأعلن الحاخام ناتان بنيامين اللاوي أكبر دعاته، أنه رفع إلى السماء بأمر يهوه، وسيستمر في ملكه إلى حين آخر، ولكن تحت جبة وعمامة محمد أفندي البواب، كما بشرت به الكتب اليهودية التي تقول (إن المسيا سيبلعه المسلمون) وصار أتباع محمد أفندي يظهرون الإسلام ويبطنون اليهودية، وعرف المسلمون أتباعه باسم (الدونمة) أي المرتد أو العائد، وصار مقر محمد أفندي البواب في أدرنة (في القسم الأوروبي كانت مقر السلاطين حتى عام 1453).

كان سبتاي يدعي أنه من نسل داود وكان يحض أتباعه على المحافظة على قراءة المزامير يومياً مع قراءة القرآن، وصوم شهر رمضان وتقديم أضحية العيد والصلاة مع المسلمين في المساجد. وصار الرجل منهم يتخذ لنفسه اسمين الأول الاسم العبري والثاني الاسم الإسلامي، وهو القناع الذي يعرف به في المجتمع. ولكن سبتاي نهى أتباعه عن الزواج بالمرأة المسلمة، وعيدهم الأكبر اليوم الذي أعلن فيه سبتاي نفسه للعالم بأنه (ملك إسرائيل) ويصادف 22 آذار وفيه

يضحون بكبش. وفي هذا اليوم يجتمع القوم رجالاً ونساء ويوزعون الحلو على أتباعهم، وفي الليل يحتفلون رجالاً ونساء على نور خافت (ضوء الشموع) يرددون الأناشيد التي صاغها سبتاي بالعربية والعبرية والتركية، وهي أناشيد صوفية تحمل تعابير الخلاص للجنس البشري كله، وتبشر بالعدل والسلام.

ذهب محمد أفندي البواب إلى ألبانيا وهناك توفي في يوم 30/ 9/ 1676م، ودفن هناك، وفي هذا اليوم يقف أتباعه على شواطئ الأنهار وهم يرددون (يا سبتاي إننا بانتظارك).

عمل سبتاي قصائد بالتركية شبيهة بقصائد الشاعر التركي عماد الدين نسيمي الذي قتل بحلب عام 1417، وكان متصوفاً يذهب مذهب الحروفية، إلى أن الكون أبدي وذو حركة أبدية.

ما هي آثار سبتاي بن زيفي في الفكر اليهودي؟ انتشر مذهب القبالاة، وظهر بين يهود بولونيا رجل يدعى إسرائيل البدولي عام 1740 في الحسديم. وكان يرجع تعاليمه إلى مذهب الزوهر (النور). وهو يؤمن كأسلافه أن الكون صورة من صور الله (أبدي) بل زعم بعضهم أن الكون هو الله، وأن الشر عنصر من عناصره، وأن الشر ليس خبيثاً في حد ذاته، وإنما هو خبيث في علاقته بالإنسان وعليه ليس للخطيئة وجود مادي[6].

وظهر من بعده الحاخام يعقوب فرانك 1755 وعرف أتباعه (بإخوان الشعلة)، وعاش في ترف وبذخ، وعارضه اليهود في بولونيا فاعتنق المسيحية علناً واستعان بالأسقف كامنيك في مقاومة الأحبار[7].

**الحاخام حاييم صموئيل يعقوب فوك**، الشهير بزعيم الشعب اليهودي بأسره، ولد في بولونيا عام 1703، واتصل بإخوان العلى وبالجمعيات الماسونية وظهر في لندن عام 1742، وذاع صيته بين يهود أوروبا، فأثرى وفجأة توفي في نيسان 1782م، ودفن في إحدى مقابر لندن وكتب على قبره «هناك يثوي الشيخ الشريف، الذي قدم من المشرق، وهو حكيم وداعية قبالي، وطار صيته إلى أقاصي الأرض والجزر النائية»[8].

## اليهود في القسطنطينية عام 1761م

عاش اليهود في القسطنطينية بهامش من الحرية، لقاء دفعهم الجزية وإعفائهم من الخدمة العسكرية، وكانوا يتصدرون الوظائف العليا في الدولة

خصوصاً بعد اتخاذهم الأسماء الإسلامية (يهود الدونمة). يصف لنا الرحالة الدانمركي كارستن نيبور (1733- 1815) وضع اليهود في العاصمة القسطنطينية عام 1761، قال: «القسطنطينية مدينة كبيرة تتألف من أكثر من سبعين حياً ويقيم اليهود في أربعة أحياء (غلاطة والبيرة ودلما وباغجة) وكلها فيما وراء الميناء، ويقيم اليهود كذلك فيما وراء الخليج في الجانب الآسيوي (اسكادار) وقاضي كوي، وفي هذا الحي توجد معابدهم وأغلب اليهود من الربانيين أصحاب التلمود. وأما طائفة القرائين فلهم معبد في غسكوف، ويطلق المسلمون على اليهود أهل الكفر، ولا يسمح لهم بتشييد دور جديدة للعبادة، إلا أن لهم حرية العبادة في معابدهم القديمة.

أما شوارع اليهود، فيغلب عليها الضيق، والعمارة فيها رديئة بصورة عامة، والبيوت قد بنيت من الحجر بناء متيناً، ولم يكن يسمح لأي غريب أن يرى ما بداخلها سوى حيطانها العالية من الخارج. والبيوت الصغيرة الواطئة والعالية الكبيرة على السواء لها عيوبها، فسكان البيوت الصغيرة خوفهم أن تلتهمهم النار عند حدوث الحرائق، وسكان البيوت الكبيرة يخشون من الزلازل وخطر دفنهم تحت الأنقاض[9]. ومع ذلك فاليهود ينعمون بالحرية الدينية. ففي عام 1772، بعد زيارة كارستن نيبور بعشر سنوات سمح السلطان مصطفى الثاني (1757- 1775) بإعادة تشييد ثلاث كنائس لليهود في مدينة أزمير من بين المعابد التسعة التي تعرضت للحريق[10].

وصار اليهود يلبسون ثياب الغيار التي تميزهم عن المسلمين والنصارى، صاروا يلبسون العمامة الزرقاء التي كانت أصغر من عمة المسلم، وكانت النساء اليهوديات يلبسن كالمسلمات.

## وضع اليهود الاقتصادي والثقافي

كان اليهود في القسطنطينية (استنبول) وأزمير تجاراً كباراً يعملون في الصرافة وفي تجارة الاستيراد، وكانوا يعملون في تجارة التوابل واستيراد السكر والبن والعطور من الخارج، وكانت لهم مخازن خاصة في الميناء، وهناك طبقة ثرية منهم تعمل في الصناعة (صناعة النسيج) والأنشطة البحرية (لهم مراكب

خاصة بهم) أكثر من اشتغالهم بالزراعة، وإن كانت الدولة تسمح لرعاياها بالعمل دون قيود.

أما طبقات اليهود الفقيرة، فيعملون بمهن وضيعة كالدباغة والحدادة وصناعة النحاس والخزف، وكان منهم باعة متجولون بين القرى يحملون بضائعهم على ظهور الحمير وفي عربات متنقلة تحمل الخرداوات.

في عام 1826 أدى إلغاء سلاح الإنكشارية وتحديث أسلحة الجيش، إلى تعرض قطاع المنسوجات في سالونيك لأزمة طاحنة أصابت تجار اليهود، فهاجروا نتيجة هذا الوضع بأعداد كبيرة إلى المدن التركية في القطاع الآسيوي، وغيروا أنشطتهم الاقتصادية، وأسسوا ورشات لإنتاج الصابون ومواد الطباعة وأسسوا بنوكاً، وساهموا بإدارتها وتمويلها. وظهر بين اليهود أثرياء شيدوا قصوراً في ضواحي مدينة سالونيك القديمة.

وفي هذه الحقبة ظهرت عند يهود العاصمة (القسطنطينية) تقاليد جديدة مضادة للتقاليد اليهودية السابقة، وهو أن عدداً من التجار والعمال اليهود صاروا يعملون يوم السبت إلا في سالونيك وإزمير فإنهم ظلوا يتوقفون عن العمل في هذا اليوم المقدس[11].

ونتيجة للتطور الاقتصادي والاجتماعي طرأت تحولات ثقافية هامة منها:

1)انهيار الأطر الطائفية للمجتمع اليهودي نتيجة للتغيرات العمرانية، وخروج اليهود من أحيائهم القديمة، ولم يعد الارتباط بالكنيس وثيقاً.

2)كما أدى تزايد شعور العداء لليهود، إلى تغيير عادات لديهم، وإخفاء مشاعرهم المعادية للإسلام والمسيحيين الذين قاموا بمذبحة في مدينة إزمير عام 1872 وصار المسيحيون في القسطنطينية يفتشون بيوت اليهود بحثاً عن أطفالهم الذين اختفوا في ظروف غامضة، وسرت شائعة أن اليهود يخطفون الأطفال المسيحيين إما لشرب دمائهم أو لتحضير خبز العيد.

3)وضع القوانين والإصلاحات الجديدة التي خفضت من سيطرة الحاخامات على رعاياهم، والتدخل في حياتهم مما أضعف المؤسسات الدينية. وفي عام 1835 عين الباب العالي الحاخام أفرام هاليفي رئيساً ليهود الدولة العثمانية (حاخام باشي) وتكوّن في القسطنطينية مجلس لانتخاب الحاخامات وقرروا أن لا يكون الحاخام مزدوج الجنسية كالحاخام السابق شموئيل حاييم. وأن لا يقل

عمر الحاخام الأكبر عن ثلاثين سنة، وألا يتجاوز السبعين. وصار المجلس يتألف من 120 عضواً منه 80 عضواً من أهل القسطنطينية وإزمير و40 عضواً من كافة الأقاليم في السلطنة وشرط المجلس على الحاخام الأكبر ألا يعين أي فرد من عائلته في المناصب المهمة. وأن يكون كرسيه وسط حي (البيرة) ليكون وصول اليهود إليه سهلاً دون أي عناء، وللباب العالي الحق في تصديق وثيقة الانتخاب.

4)ونتيجة لحصول عدد كبير من يهود الأتراك على الثقافة الأوروبية الحديثة، والدراسة خارج البلاد، والتحدث بأكثر من لغة، جعل اليهود الأتراك ينسون لغتهم العبرية، ويتكلمون بلغة اللادينو (لغة خليط من العبرية والتركية واليونانية) وهذا أفقدهم التواصل مع تراثهم القديم. وسأعطي مثالاً ملموساً: كانت عائلة الحاخام حاييم الأزراقي الأندلسية الأصل قد هاجرت إلى إزمير منذ عام 1620م، وكان جدهم حاييم الأزراقي من كبار دارسي التراث اليهودي، وعندما تلقى أبناؤه التعليم الحديث في مدارس الأليانس نسوا لغتهم العبرية، فلم تعد مكتبة جدهم حاييم الأزراقي تعنيهم في شيء، فباعوا كتبها في باريس عام 1880م، وكذلك لم يعد السبت يوماً مقدساً عندهم واندمجوا بالمجتمع التركي الجديد، مما جعل الحاخام الأكبر (حاخام باشي) حاييم بالاجي يعلن اسفه وأساه، قال: «لقد اعتاد اليهود أن يكونوا متميزين عن سائر شعوب السلطنة، ولكن لا يوجد في الوقت الحالي أي فرق بيننا وبينهم، فأصبحنا الآن مثل غير اليهود»[12]. بلغ عدد يهود العاصمة عام 1844 حوالي 37 ألف يسكنون الأحياء (خاص كوي، وغلاطة سراي، وبيري باشا وأورطة كوي وقوشقو نجوقا) وغيرها من المحلات.

## يهود السلطنة والسياسة

أصدر الباب العالي في عام 1839 الخط الشريف في زمن السلطان محمود الثاني (1808- 1839) بمنح الحقوق لكل الرعايا وكانت الدولة تتدخل لحماية اليهود من الطوائف الأخرى من اليونانيين والأرمن. جاء في الفرمان «إن رعايا سلطتنا السامية من المسلمين وغيرهم من أهل الذمة، سينعمون بمكارمنا السلطانية دون تمييز، وسيصبح الجميع آمنين على أنفسهم وممتلكاتهم». وألغيت ضريبة الجزية أو الخراج.

وعلى أثر معاهدة فيينا عام 1815، صارت الدول الأوروبية تتدخل في شؤون السلطنة العثمانية واعتبروها الرجل المريض، وصار لليهود حق بأخذ الجنسية والحماية من أية دولة أوروبية. وقد طلب يهود إزمير النجدة من إنكلترا لحمايتهم، فأرسلوا فرقاطة، وقفت أمام أسوار إزمير عام 1871 قبل اقتراب عيد الفصح، ولكنها لم تفعل شيئاً وزاد الشعور المعادي لليهود.

والسؤال المطروح: ماذا يفعل اليهود ليتخلصوا من حالة العداء؟

نتيجة تفكير اليهود اهتدوا إلى أنه عليهم الاندماج في الأحزاب التركية، وبعضهم تطلع إلى خارج حدود السلطنة، واتصلوا بدعاة أحباء صهيون في باريس، وهنا حدث انقسام ضمن الطوائف اليهودية بين اليهود المحافظين ومعظمهم من الحاخامات من السفاراديم الذين جاؤوا من الأندلس، ومعهم بعض اليهود الأشكناز، يجمعهم حب التراث اليهودي القديم، مثل الحاخام أشعيا هوروفتش (صاحب كتاب شولحان عاروخ) أي المائدة المنضودة، والحاخام الياهو كوهيم هايتامري من أتباع مذهب القبالاة من أهل إزمير صاحب كتاب (خيرة الأيام) نال إعجاب اليهود في أوروبا. ويقابل هؤلاء المحافظين يهود شباب صاروا يعتنقون الفكر الاشتراكي وكونوا مع الأتراك الأحزاب الاشتراكية.

في عام 1892 نظم اليهود حفلات ضخمة في ذكرى هجرتهم من إسبانيا. واشترك فيها الوزراء والمشايخ وحاخامات اليهود وأعربوا عن شكرهم للمسلمين والعرب الذين عاملوهم بالحسنى في الأندلس، وهجرهم الإسبان.

صار اليهود التراثيون يناصبون العداء لليهود الصهاينة وذوي الأحزاب العلمانية، وهناك الشباب اليهود العلمانيون صاروا يريدون تهديم السلطنة العثمانية باسم التحديث وارتبط المحامي اليهودي عمانوئيل قرة صو بحزب تركيا الفتاة منذ عام 1892، وجلب إلى صفوف الحزب آلاف اليهود من سالونيك وإزمير والقسطنطينية وهؤلاء هم القوة الثورية للانقلاب العثماني في عام 1909، وخلعوا السلطان عبد الحميد الثاني الذي قاوم المشروع اليهودي في فلسطين. وانتخب عمانوئيل قرة صو عضواً في البرلمان عام 1914م.

على أثر خلع السلطان عبد الحميد عرف المسلمون بحقيقة المؤامرة الصهيونية. وبعد ظهور الدستور ألزم القانون كل رعايا الدولة العثمانية الالتحاق بخدمة الجيش، وعندما قامت الحرب العالمية الأولى عام 1914 هرب آلاف

الشباب اليهود إلى أوروبا وأمريكا، وظهر الشعور المعادي لليهود في الصحف والمجلات وطالبوا علناً بعدم الدخول والخروج لليهود من تركيا، ولكن نتيجة للشعور المعادي هربت آلاف العائلات.

في عام 1934 تدهورت الأوضاع الأمنية في الجمهورية التركية في عهد مصطفى كمال أتاتورك (1924- 1938) الذي تقرب من اليهود في بداية حكمه ثم أهملهم. وتشكلت رابطة معادية لليهود في سالونيك، ونظمت حملات لمقاطعة السلع والبضائع اليهودية، ونشرت ترجمة كتاب (حكماء صهيون) عام 1927 ودمرت إحدى أكبر المقابر اليهودية في تركيا (في القسطنطينية) ونظم الأتراك المتعصبون للإسلام مذبحة كمبول في سالونيك عام 1931[13].

لقد هرب معظم اليهود من تركيا العلمانية التي شاركوا في تكوينها وانقلب السحر على الساحر كما قيل.

## شخصيات يهودية تركية متميزة

بما أن الإنسان كائن حي يعيش في أعماق التاريخ، فكل إنسان أسير ماضيه الحضاري، خصوصاً إذا كانت تلك الشخصية متعلمة ومثقفة، فهي أفضل من يمثل عرقه وسلالته. ومن الشخصيات اليهودية التركية سأذكر اثنتين:

### الحاخام يهودا بيباس (1780- 1852)

كان أصله من يهود الأندلس الذين هجَّرهم الإسبان مع العرب إلى المغرب، ثم هاجرت عائلته إلى تركيا عام 1715م، وظلت عائلته متعلقة بتراثها القديم. ولد يهودا عام 1780م في القسطنطينية وذهب إلى سراييفو، ودرس على الحاخام يهودا القلعي (1798 - 1878) درس التوراة وعلوم القبالاة جاء في مقدمة كتابه (طريق الصدق): «لقد أشار علينا أبونا المقدس أن من الضروري أن نستعين بالتوراة والصلاة وبفعل الخير لنحصل على الخلاص».

وفي عام 1843 أصدر الحاخام يهودا بيباس كتاباً يدعو أوربا إلى التدخل لصالح يهود دمشق لخلاصهم من محنتهم وسمى كتابه (قربان يهودا) وأسس هيئة للاستيطان في فلسطين، وهاجر إلى الخليل عام 1839، وتوفي هناك عام 1852، وعلى الرغم من أنه يدعو إلى الهجرة إلى فلسطين إلا أنه كان معادياً للفكر الصهيوني العلماني ويؤمن بفكرة المسيا المخلص.

**العالم الأثري يوسف هاليفي (1837- 1917)**

ولد يوسف في القسطنطينية في حي أدرنة قبوسي عام 1837، ودرس في المدارس اليهودية التراثية، فأتقن التركية والعبرية والعربية لأنه كان من أصل أندلسي. ودرَّس في المدارس التراثية اليهودية، ولكنه كان متحمساً ومؤيداً لحركة محبة صهيون التي كان يعارضها أخوه الحاخام الأكبر موشيه هاليفي (1872-1908) وعندما حاول يوسف أن يفتح مدرسة حديثة في حي أدرنة قيوسي منعه أخوه الحاخام موشيه الذي كان يناوئ الحركات الصهيونية العلمانية، وهو الذي أرسل إلى حاخام القدس شاؤول أليسار (1895- 1906) رسالة يحذره فيها من الاشتراك في صحيفة هتسفيراه (الصفارة) لأنها تنشر مقالات كثيرة مؤيدة للصهيونية التي "نعارضها جميعاً". وعندما سمع الحاخام اسحق عكريش بخبر رسالته، طالبه بالاستقالة والذهاب إلى القدس وانتظار دوره بالموت.

عندما شعر يوسف هاليفي بخيبة مشروعه بإنشاء مدرسة حديثة، انتقل إلى باريس عام 1860، وحصل على منحة من الأكاديمية الفرنسية ودرس لغة اليهود الفلاشا الحبشية، وسافر في عام 1868 إلى الحبشة، وطاف في البلاد في أسمال يهودي متسول، ثم انتقل إلى اليمن عام 1869، وساح فيها فبلغ نجران وحدود مأرب ودرس الآثار السبئية، فجمع في رحلته هذه 686 نقشاً أثرياً من كتابات خط المسند الحميري، ثم ترجمها في المجلة الآسيوية وعلق عليها بشروح وافية عام 1872. فكان يوسف هاليفي أول من فك رموز الخط المسند في العالم وأول من فسر كتابات صنعاء، وشرح الرسوم الرمزية التي أدت للخط المسند ووضع له معجماً نشره في باريس 1885، فكان له فضل كبير على الثقافة العربية.

ومن أبحاث يوسف هاليفي في الآثار العربية (الخورنق والسدير) عام 1907، والسامريون في القرآن عام 1908، و الاسم السامي للفرس عام 1910، وكتاب الحروف الساكنة للغات السامية عام 1914، فسر فيه طريقة الكتابة السامرية. توفي يوسف هاليفي في باريس عام 1917م[14].

## المحور الثاني : اليهود في العراق (بغداد والبصرة والموصل)

خضعت العراق للدولة العثمانية في زمن السلطان سليمان القانوني (1520-1566) عام 1534، وقسمت العراق إلى ثلاث ولايات (بغداد والبصرة والموصل). وكان اليهود يعيشون في العراق بأمان واطمئنان. وكانوا يتكلمون اللغة العربية، وسيطروا على اقتصاد البلاد في ظل حكم المماليك ولاة بغداد (1750- 1831) ومن أبرز هذه العائلات عائلة خضوري التي منها الوزير ساسون خضوري وزير الخزانة (1781- 1817) ومن الأفضل لسهولة البحث دراسة يهود كل ولاية لوحدها:

### اليهود في بغداد

بغداد مدينة قديمة بناها المنصور عام 763م، وصارت حاضرة الدنيا، يقسمها نهر دجلة إلى قسمين (الكرخ والرصافة) وكانت تضم طوائف اليهود الذين فصلت في تاريخهم من قبل.

كانت بغداد ذات طابع معماري متميز فيها لكل جماعة عرقية طابعها المعماري الخاص. كانت بيوت اليهود في حي الكرخ والرصافة. وصف الرسام الإنكليزي Ker Porter عام 1818 بيوت اليهود، وقال: «كانت بيوتهم على جانبي دجلة، وكانت الأزقة ضيقة، وخالية من الشبابيك التي تطل على الشوارع. ويبدو أن كثيراً من البيوت مزينة من الداخل بالخضرة البهيجة، وتعلو السطوح غير المنتظمة أشجار النخيل، وكانت بيوت بغداد كلها من الطابوق لقلة الحجر في جوارها وهي مقسمة إلى عدة محلات حوالي 18 محلة فيها أكثر من 90 ألف دار وعدد سكان المدينة حوالي 360 ألف نسمة، أغلبهم من المسلمين وعدد من أهل الذمة. ويظهر أن عدد اليهود حوالي 1300 عائلة ولكن التي تدفع الخراج فقط 2300 شخص[15]. بينما كانت بيوت أغنياء اليهود ذات طوابق لها أبواب حديدية جميلة، ولها شرفات مطلة على الشارع حيث يجلس هناك كبار السن يدخنون ويحتسون القهوة ويلعبون الشطرنج، ودجلة يمر أمام أعينهم، ويظهر

جسر بغداد المشيَّد من العوامات (القوارب) وفي الليل تظل المصابيح تتلألأ، وتنعكس أضواء مصابيح الكاز في الماء كالنجوم وهي مقفلة في وجه المارة. ويتكون بيت اليهودي من الداخل من إيوان صغير يؤدي إلى قسم مرتفع مبني من الخشب، وعلى جوانبه دواوين، وتوجد غرفة واسعة فيها كراس ومنضدة من أجل الضيوف، وفي أسفل البيت المفتوح توجد عدة غرف لمعيشة الأسرة وتظهر النساء والأطفال أمام الأغراب، وهناك غرفتان هما عبارة عن سرداب يستعمل أثناء الصيف ليرد الحرّ عنهم، وعند مدخله يوجد باب متصل بالمطبخ.

كان اليهود مثل بقية أهل بغداد يرتدون الملابس الفضفاضة والطويلة، ويضعون العمائم الثمينة، ويلفون أعناقهم بالشالات، ولكن عمائم اليهود أصغر، وهي ذات ألوان تغاير عمائم المسلمين. وكانت نساء اليهود يلبسن العباءات السود مثل النساء المسلمات.

كان اليهود من عادتهم الجلوس في الأزقة في حيهم رغم سيلان ماء المجارير على جانبي الشارع ولا يشمئزون منها. وبالقرب منهم تسير الكلاب الشاردة.وإن أقدم وصف قدمه السائح الإيطالي بترو دي فاله لحي اليهود عام 1616م، ذكر فيه أن بغداد تقع تحت الحكم العثماني ولكن اليهود في بغداد أفضل حالاً من يهود القسطنطينية من حيث حرية العبادة والتواصل الاجتماعي مع السكان المسلمين الذين لا يمكنك التمييز بينهم وبين اليهود.

كانت مساحة بغداد كما قدرها الرحالة دوبره Dupre عام 1773 ولاية واسعة فيها ألفي عائلة يهودية وأن الطاعون قضى على ثلث السكان وبقي من اليهود 1500 عائلة بينما المسلمون 13 ألف عائلة[16].

## الأعياد والأعراس اليهودية

كانت أعياد يهود العراق مشهورة ومتوارثة منذ قديم الزمان، حتى قبل السبي البابلي، لأنها أعياد بابلية ترتبط بالمواسم الزراعية ثم تحولت إلى أعياد دينية ونقلها اليهود إلى تراثهم الديني.

### 1)عيد رأس السنة العبرية (حاسا)

كانت بداية هذا العيد في شهر نيسان ثم أجل إلى بعد شهر الحصاد وجني المحصول ويصادف في اليوم الأول من شهر تشري (تشرين الأول). جعلوه في

هذا الوقت، لأن النبي عزرا أظهر التوراة وقرأ الشريعة أمام رؤساء بني إسرائيل، وفيه ندم اليهود لأنهم أضاعوا كتاب التوراة، ثم وجدوه، وقرروا منذ ذلك الوقت العودة إلى شريعة الرب والتمسك بها. وجعلوا ذلك اليوم عيداً.

**2)عيد الغفران (الكيبور)**

يصادف هذا اليوم في اليوم العاشر من شهر تشري، وهو يوم الندم والتوبة والغفران، ويقوم بهذا الطقس الديني الحاخام الأكبر ببغداد في الكنيس الكبرى. وقد اعتاد يهود بغداد الصوم في هذا العيد (يوم عاشوراء) ويضحون ويذبحون من الحيونات الماشية والطيور وتوزع على الفقراء وتدعى كفارة (كفروت).

**3)عيد يوم الحانوكة**

وهو عيد إضاءة الشموع في المنازل وتقام الولائم في ذكرى هدم الرومان للهيكل المقدس عام 70م، وتستمر الشموع مضاءة لمدة ثمانية أيام.

هناك احتفالات يبتهج بها اليهود ويفرحون:

**1)حفلات الزواج**

وصف لنا الرحالة الألماني بيترمان Peterman عام 1838 عرساً يهودياً حضره في بغداد، قال: «يعقد الحاخام القران، بحضور أهل العروسين، ويتلو الحاخام الأدعية المناسبة لهذا الموقف، ثم يأذن بالاحتفال وتقدم الشربات (شراب الليمون أو شراب الورد) ثم تقدم القهوة، وتبدأ الموسيقى والعزف، وترتفع الحناجر بالغناء، وتغنى المقامات العراقية المتوارثة منذ العصر العباسي. والعزف يتم على دنبلين صغيرين ودف وعود وقانون ومزمار، يغني الرجال لوحدهم وتغني النساء لوحدهن. ثم تقدم أقداح الخمرة وتمدُّ مائدة الطعام العامرة بأنواع اللحوم والحلوى. وبعدها يقوم عجوز يهودي وبيده الدف ويتحرك حركات تبعث على السخرية والضحك، فهو يرقص تارة ويقفز تارة أخرى. ويقوم بإلقاء النكات المبتذلة ولكنها تثير إعجاب الحاضرين فيضحكون، وضيوف العرس يحضرون من المسلمين والنصارى الذين هم أصدقاء العائلة ويستمر العرس لمدة أسبوع(17).

### 2)حفلة الختان

يختن الطفل اليهودي في اليوم الثامن، وتقام حفلة الختان وتحضرها النساء ويرقصن ويغنين أمام الرجال، ورقصهن على شكل حلقات يتماسكن فيه بالأيدي. وتكون الحفلة حسب حالة الأسرة الاجتماعية والاقتصادية.

### 3)حفلات الجنائز

بعد تجهيز الميت وتكفينه ودفنه، تقام ثلاثة أيام مراسم العزاء، وتنشد الأناشيد الدينية وتضرب الدفوف على الإيقاع الحزين، وتقرأ سور من التوراة وأدعية من التلمود، وتنشد قصائد من قصائد التصوف (القبالاة) ثم يخرج أهل الميت في اليوم الثالث لزيارة قبر الميت.

## نشاط يهود العراق التجاري والصناعي

يعمل اليهود بالتجارة والصناعة منذ القديم، إلا أنهم لا يعملون في الزراعة مع العلم أن التوراة أوصتهم بتملك الأراضي والعمل الزراعي، ولكن اليهود فضلوا العمل داخل المدينة والابتعاد عن الريف.

كانت الحرف عند اليهود متوارثة، ولكل مهنة أسرارها، يعلمها المعلم إلى أجراء يعملون تحت إشرافه، ولكل تقاليدها المقدسة، وكانت تلك الورشات تعرض إنتاجها في الأسواق المتخصصة. كانت صياغة الذهب والفضة بيد اليهود وكذلك صناعة النحاس، طرقه وتشكيله بشكل أواني كالقدور والصحون والطوس والمعالق، وشهرة يهود بغداد بهذه الحرفة لا ينافسهم فيها إلا الصابئة المندائية ولهم في بغداد شارع تجاري خاص هو سوق الصفارين.

وهناك صناعة النسيج القطنية والحريرية وقد وصف الرحالة الفرنسي أوليفييه Olivier الذي زار بغداد عام 1780م، وقال: «اليهود يستوردون الحرير الإيراني وينسجه لهم عمال متخصصون في صناعة الأقمشة، وهناك نسج الأقمشة المخططة لاستعمال العرب، وعندهم ورش تنتج الأقمشة القطنية النفيسة المصبوغة بألوان متنوعة ولماعة، وهي لاستعمال النساء والأولاد، وهناك التجار الكبار الذين يستوردون المنسوجات الأوروبية كالساتان والمخمل والكريب من إنكلترا خاصة، ومن أشهر التجار عائلة خضوري اليهودية.

إن منسوجات بغداد الفائضة عن الحاجة، ترسل إلى الموصل وحلب ودمشق. وقد راجت تلك التجارة لأن أسعد باشا العظم خفض الرسوم الجمركية عام 1749م[18].

كانت دكاكين اليهود عامرة بالبضائع. قال القنصل الإنكليزي مستر ريج Rich سنة 1808: «زرت دكاكين عدد من تجار اليهود، فرأيت عندهم تحفاً فنية لا تحصى، ولكن اليهود كانوا أكثر شكاً، وارتياباً من العرب والفرس، فلم يعرضوا لي ما في مخابئهم»[19].

وكان اليهود يعملون بالصرافة وتجارة العملة، قال مستر ريج: «ورأيت رجلاً يهودياً ثرياً يدعى يعقوب طاطوس يرتدي غطاء رأس أسود يتجه إلينا حاملاً بيده حفنة من المجيديات، وكان رجلاً شجاعاً يخشاه الوالي ومستشاره لأنه يدفع لهم رشوة في وقت شح العملة»[20].

ظهرت في بغداد عائلات مالية كبيرة أثناء حكم الباشوات المماليك ومن أبرز تلك العائلات عائلة الثري البغدادي ساسون خضوري وزير الخزانة (1781-1817) وعندما تعرض للاضطهاد من قبل الوالي داود باشا (1817- 1831) فرَّ إلى إيران ومنها ذهب إلى الآستانة واستطاع عزل الوالي بما يملكه من ثروة هائلة. وهاجر ابنه العازر خضوري إلى الهند عام 1850م، وكوَّن ثروة اقتصادية ضخمة في بومبي، وعمل في تجارة الأفيون فحصل على رأسمال لا يقدر، ووصلت تجارته في الأفيون إلى شنغهاي وهونغ كونغ، وكانت له حرية التصدير بمساعدة الإنكليز. وأسس صالح خضوري (المتوفى 1876) معملاً للنسيج عام 1872 جلبه من ألمانيا. وكان له نشاط خيري أسس المدارس والمستشفيات الخيرية ودور الأيتام، ورمم الكنائس القديمة، وساعد أطفال العراق من كل الطوائف، مما جعله ينال حب الإسلام والمسيحيين إلى جانب اليهود.

واشتركت عائلة خضوري وزليخة في إنشاء بنك عام 1899 يقدر رأسماله بـ 250 مليون مجيدي، وقد شملت أنشطة هذا البنك سورية ولبنان وفلسطين والشرق الأقصى. يصف لنا الرحالة دوبريه عام 1808 التجارة في بغداد بقوله: «كان اليهود من أنشط الجاليات التجارية في بغداد، وكانوا يسيطرون على القوافل التجارية التي تصل يومياً من إيران وعربستان وسورية إلى بغداد. وكانت الصرافة الكبيرة بيدهم وهم يعطون بالفائدة الخفيفة، وكانت تجارة اليمن

والبصرة وحلب ودمشق بيدهم، وكانت البواخر الإنكليزية والعربية إلى الهند وبومباي تحمل البضائع لحسابهم، وتعمل قوافلهم على **ثلاثة طرق**:

**الطريق الأول:**

يأتي من استنبول عن طريق حلب طريق القوافل البرية والبحرية، وكان بيد اليهود حصراً.

**الطريق الثاني**

يأتي من استراخان عن طريق بحر قزوين وكانت تجارته بيد المسلمين وتجار اليهود الإيرانيين.

**الطريق الثالث**

طريق القوافل التي تسير من سورية إلى بغداد بواسطة قوافل الجمال والعربات حيث يبلغ معدل حمل الجمل الواحد (240) حقة وحمولة البغل (120) حقة وحمل العربة (450) حقة. وكانت التجارة بين دمشق وبغداد بيد شركاء يهود وعرب ويدفع الحمل من حلب ودمشق 85 قرشاً، وإذا قدمت القوافل الحلبية كانت مصارف النقل الجمركية تزداد بين 20- 25٪ لأنها كانت تحمل الأقمشة الحريرية والثياب الغالية من الجوخ الإنكليزي والمخمل الثمين، وكان التاجر اليهودي الذي ينقل بضاعته بواسطة سعاة الدولة (التتارية) عن حمل البغل من الحرير والساتان واللؤلؤ (253 قرشاً) وكان الطريق بين بغداد واستنبول يستغرق من 12- 13 يوماً، بينما يجتازه سعاة الدولة من (8- 11) يوماً. وكان البريد يأتي بالبواخر إلى بيروت ومنها ينقل إلى دمشق»[21].

في عام 1848، استولى تجار اليهود لوحدهم على تجارة العملة، بسبب مساهمتهم في تكوين البنوك، وتطوير الأسواق، واطلاعهم على العلوم الاقتصادية الحديثة. وفي سنة 1880م، تأسس في بغداد البنك العثماني كأول بنك للدولة حديث. وعمل اليهود في مقابله عدة بنوك منها بنك خضوري وزليخة، وبنك كريدت وبنك عبودي، وبذلك سيطروا على المؤسسات المالية في العراق. مما دفع ولاة بغداد إلى اضطهاد اليهود بسبب انهيار العملة العثمانية الفضية، لأن آل خضوري وزليخة اتفقوا مع شركة التعدين الإنكليزية لتضرب لهم المجيديات، ووضعت منها كمية كبيرة في التداول، وكانت حكومة بغداد تقف عاجزة عن كشف عملية التزوير[22].

وعندما احتلت بريطانيا العراق عام 1920، وضعت وزير المالية اليهودي ساسون اسحق خضوري وسيطر اليهود بواسطته على ما يربو عن 90٪ من حركات الواردات وأعمال المقاولات. وشغل اليهود 50٪ في وظائف البنوك في بغداد. ولكن عندما تم الاستقلال وتولى الحكم الملك غازي بن فيصل (1933- 1939) قلل من عدد اليهود في الوظائف الحكومية[23].

**الوضع التعليمي والثقافي ليهود بغداد**

يقدر يهود بغداد عام 1850م، بحوالي 50 ألف نسمة، وبرز منهم الأطباء والمحامون والصيادلة والمدرسون والصحفيون، ولعبوا دوراً بارزاً في الحياة الفنية والأدبية، وأصبح له دور كبير بفضل النهضة التعليمية التي حصلت في أيام والي بغداد المصلح مدحت باشا (1869- 1872). كانت المدارس اليهودية تسير على النظام المتوارث لدى يهود العراق منذ مئات السنين، وكانت المدرسة التقليدية تعرف (تلمود - توراة) هي المدرسة الابتدائية التي يدرسون فيها الأطفال والأولاد وكان التعليم الأساسي باللغة العربية. وكان السلّم التعليمي يتدرج بين عدة مراحل:

**المرحلة الابتدائية**

يدرس الأطفال في بيت سيفر (المدرسة الابتدائية) حتى الصف الرابع الابتدائي وهو يوازي التعليم الابتدائي المعروف بالمدرسة الرشدية.

**المرحلة الإعدادية والثانوية**

وتسمى هذه المدرسة باسم (بيت همدارش) أي بيت المدراس، وهو المدرسة الإعدادية من الصف الخامس إلى الصف التاسع، ويدرس الطلاب فيها إلى جانب القراءة والإملاء والحساب، الأدب والعلوم وبعض نصوص العهد القديم باللغة العبرية، وكان الفصل يحوي حوالي 20 طالباً.

وهناك مدارس ثانوية تعرف (بيت رف) أي مدرسة سيدنا، وهي مدارس لتعليم اللغة العبرية والتوراة من أجل إعداد الطلاب لوظيفة الحاخام، وكانت هذه المدرسة في الكنيس الكبير في الرصافة.

وهناك دراسة في بيوت بعض المعلمين القدامى، يتعلم فيها الطلاب الكتابة والخط واللغة العربية والعبرية والسريانية. وكان مستوى التعليم يتدنى ويرتفع حسب مستوى المعلم أو المدرِّس.

بعد اتصال يهود بغداد بالحضارة الأوروبية، شهدت بغداد صراعاً، ففي عام 1848 حول الشخص الواجب تعيينه لمنصب الحاخام الأكبر، لأن بيده تطوير مناهج التعليم، وطالبوا أن يكون الحاخام الأكبر ذو تعليم عصري، يعرف إحدى اللغات الأوروبية كالبطريرك والمدارس لدى السريان والكلدان. وقال آخرون بل نريده متمكناً من معرفة الشريعة التوراتية، وتزعم الحاخام عويدية هاليفي وأتباعه الجناح المحافظ وكان يدعمه الحاخام عبد الله سوميخ، أما الطرف المستنير برئاسة الحاخام كتسين الروسي ومعه الحاخام إلياهو، فقد طالبوا بحاخام مثقف وطالبوا بتعيين الحاكم الأكبر يوسف حاييم ودعمتهم بيوت المال اليهودية.

**التعليم الحديث (مدارس الإليانس)**

هذه المدارس هي التي جلبها الثري المحسن صالح خضوري، نقلاً عن مدرس الإليانس في باريس عام 1860م، وقد عملت هذه المدارس على نشر الثقافة الأوروبية المستنيرة في أوساط يهود بغداد، ولكن الحاخام الأكبر يوسف حاييم الذي دعمه الجناح المستنير قاوم هذا النوع من المدارس مفضلاً عليها نظام التعليم القديم بعد تحديث بعض جوانب المنهاج بمبادئ علمية حديثة، واستبعد منهاج مدرسة الإليانس واعتبره أداة للفكر الصهيوني الكافر وإن من يتعلم في هذه المدارس اللغات الأجنبية (الفرنسية أو الإنكليزية) يحاول المبشرون تغيير ديانته ويجعلونه مسيحياً، كما فعل المبشرون الدومينيكان بالموصل.

فتحت في بغداد أربع مدارس حديثة (الإليانس) ولاقت ترحيباً من اليهود المتنورين عام 1865 وطبعت الكتب الحديثة التي كانت توزع على الطلاب مجاناً، وفيها نصوص التوراة والتلمود. وقد برز في هذا المجال الأستاذان اسحق لوريا الروسي الأصل، والأستاذ روزنفلد الألماني وكانوا يتواجدون في بغداد عام 1850م، وينشرون أفكاراً جمعية (كل شعب إسرائيل أصدقاء).

بدأت الفلسفات الغربية، والفكر الاشتراكي يتسرب إلى أوساط الشباب اليهودي المتعطش للمعرفة. وأرسلت مدارس الإليانس في فرنسا حاخاماً خاصاً لتدريس اللغة العبرية، ولكن اليهود التقليديين أنشأوا بفضل الحاخام عبد الله سوميخ، منذ عام 1840 مدرسة باسم القديس أبو منشي التقليدية، فيها كتب

تحتوي التراث القديم ممزوجاً بالتراث الإسلامي يؤهلهم لكي يصبحوا حاخامات المستقبل. وأسس الحاخام شمعون آغاسي عام 1909، مدرسة للتعليم الصناعي.

عارض الحاخام شمعون آغاسي (852- 1914) تحرير المرأة اليهودية فألقى في عام 1905 موعظة في الكنيس قال فيها: «إن شباب هذه الأيام، يرتدون ملابس الأجانب، يقصرون الأجزاء العليا، ويطيلون الأجزاء السفلى، ويقصون شعورهم ويحلقون لحاهم، ويلمعون أحذيتهم ويتكحلون كالفتيات. أما الفتيات فهن يسرن في الشوارع حاسرات الرأس، ويرتدين ملابس غريبة لدرجة الفجور، وملابسهن قصيرة حتى الأفخاذ، دون أن يغطيها سوى جورب رقيق، ويرتدين معطفاً أسود كمعاطف القسس يغطي أجسادهن من الأمام للخلف، وقد خلعن برقع الحياء، العباءة السوداء».

لقد بدأت المرأة اليهودية تتحرر في بغداد والموصل والبصرة، وسائر مدن العراق مع الفتاة المسيحية. وعندما فتحت مدارس الإليانس للفتيات عام 1893، صارت المرأة تتعلم الحياكة وتعمل في المعامل بنسبة 6٪ في مقابل 78٪ للرجال اليهود.

كان تعداد الزوجات شائعاً بين اليهود، وعلى الأخ أن يتزوج أرملة أخيه حسب الشريعة، صارت المرأة اليهودية تذهب للمحاكم الإسلامية بدلاً من المحاكم اليهودية لتحصل على حقوقها.

وفي زمن حكم الملك فيصل الأول (1921- 1932) انتعشت الحركة التعليمية ودخلت اللغة العبرية في مناهج التدريس التي تتولى رعايتها الدولة العراقية.

### الحالة الصحية ليهود بغداد

كانت الأوبئة (كالطاعون والكوليرا) تجتاح المدن العراقية وتحصد آلاف الناس دون أن يستطيع أحد الوقوف في وجه تلك الجائحات، ولم تكن هناك مستشفيات. يروي المبشر الأمريكي جروفرز Grovers أنه حدث طوفان في بغداد عام 1837 فهدم نهر دجلة حارة اليهود في الرصافة، التي تحولت إلى بحيرة غرق فيها 200 يهودي في يوم 27 نيسان، وانهدمت 700 دار وصار الناس يرمون الموتى بالماء، وأحدث تفسخ الجثث إلى الطاعون، ولم يرتفع صوت مؤذن لكثرة الموتى. ولكن المياه بدأت تتحسر في أوائل أيار، وبدأ عدد الموتى يقل،

وارتفعت أصوات المؤذنين من جديد، ولكن الطاعون في 7 أيار دخل بيت المبشر جروفرز فماتت زوجته وأولاده والمدرسون وشاهد 40 شخصاً من هيئة الإرسالية يموتون من أساس 42 شخصاً ماتوا أمام عينيه[24].

أحدث الطاعون صدمة عند أثرياء اليهود في بغداد، فهاجر عام 1838 عدد كبير من اليهود إلى إيران والهند، وتراجع عدد اليهود، فأسس الأثرياء مستشفى وأرسلوا بعض الشباب لدراسة الطب الحديث في القسطنطينية، وعادوا وحسنوا مستوى المستشفيات الخيرية التي أسسها آل خضوري وأسست جمعية زيارة المرضى الخيرية عام 1860، بفضل المحسن مائير إلياهو، وفتحت ريمة خضوري مشفى لأمراض العيون عام 1910[25].

## اليهود في البصرة

تقع البصرة على شط العرب وهي مدينة قديمة بنيت بأمر الخليفة عمر بن الخطاب عام 636م، على أنقاض مدينة فارسية قديمة، واشتهرت البصرة بالتجارة وصارت ميناء العراق على الخليج العربي، وعندما زارها الرحالة اليهودي بنيامين التطيلي عام 1163م، قال: «تقع البصرة على شط دجلة (شط العرب) وفيها عشرة آلاف يهودي بينهم العلماء والعظماء»[26]، ولم يسم أحداً منهم.

وأثناء حصار تيمورلنك للبصرة وتدميرها عام 1403م، هرب كثير من سكانها اليهود، إلا أنهم عادوا بعد ذلك للعمل في التجارة. وعندما زارها الرحالة الدانمركي كارستن نيبور عام 1765، قال: «تقع البصرة على الضفة الغربية لشط العرب، وتنعدم فيها الصخور، لذا فمعظم بيوتها من الطين المشوي أو اللبن المجفف بالشمس وجدران البيوت تبنى بالطابوق ثم تطلى بالجص الأبيض، وإنني لم أصادف بلداً إسلامياً أكثر قذارة من هذه المدينة، وفي البصرة حوالي 68 محلة لليهود قرب محلة نهر البنات، ومعظم اليهود الفقراء يعملون بالدباغة، أما الأغنياء فيعملون بالتجارة ويقدر عدد اليهود بحوالي 400 عائلة، ومعظم تجار البن من اليهود يتاجرون بالبن مع تجار اليمن اليهود. ويرتبطون مع تجار البندقية عن طريق تجار اليهود»[27].

كانت تجارة البن تربط تجار البصرة اليهود بالخليج العربي وبتجار اليمن وعمان، وعندما سيطر اليهودي هارون شجب على تجارة البن عام 1872 أطلق عليه لقب ملك البن اليمني[28].

ظل يهود البصرة يلعبون دوراً ثانوياً في ثقافة اليهود في العراق. وظل الاتصال بهم قليلاً من قبل المنظمات اليهودية العالمية، وعندما حاولت بعض المنظمات الصهيونية الاتصال بهم رفض يهود البصرة الاتصال بهم واعتبروهم فرنجة وهم عرب دينهم اليهودية. وهم يعتزون بعلمائهم اليهود أمثال ماسرجويه الطبيب (المتوفى 883) واسحق بن إبراهيم اللاوي (المتوفى 1222م) وما شاء الله الفلكي (المتوفى 830) والعالم الرباني القرائي يغث بن سعيد (1160- 1200). وكانت ثقافة يهود البصرة العربية، ولا علم لهم بالعبرية، لم يدون لهم المؤرخ والرحالة بنيامين التطيلي وكذلك الباحث يوسف رزق الله غنيمة في كتابه عن يهود العراق، فهم وإن كانوا يهوداً ديناً فهم عرب من حيث الأصل والثقافة، هاجر معظمهم من المدينة عندما هجَّرهم عمر بن الخطاب وأسكنهم البصرة والكوفة.

## اليهود في ولاية الموصل

الموصل مدينة قديمة كانت تعرف في العهد الساساني بمدينة نواردشير، وكانت قلعتها تدعى بالمربعة، لأنها محاطة بأسوار ذات شكل رباعي، فتحها العرب عام 20هـ/ 641م، وكان مروان بن محمد (الملقب بالحمار) أول من نظمها وبنى لها أسواراً، وسماها العرب بأسماء عديدة، يذكر المقدسي أن الموصل كانت تدعى خولان[29]. ومن أسمائها: أم الربيعين، والحدباء، والخضراء، وسميت بالموصل لأنها وصلة الجزيرة بالعراق. سكنها اليهود قبل الإسلام وذكر البلاذري (المتوفى 279هـ/ 893م) في كتابه (فتوح البلدان): «إن في الموصل محلة تدعى (محلة اليهود)». ويقول بنيامين التطيلي الرحالة اليهودي عندما زار الموصل عام 1161م، «الموصل بلدة آشور الكبرى التي وردت في التوراة (نينوى) يقيم فيها حوالي 700 عائلة يهودية، ومن أعيانهم الرئيس زكاي بن سليمان بن حسداي رأس ميثبة الموصل وأخوه دانيال بن سليمان بن حسداي رأس الجالوت ببغداد، ومنهم يوسف الملقب ببرهان الفلك، وهو فلكي عند سيف الدين غازي بن قطب الدين مودود تولى الموصل (1170م) والموصل مدينة واسعة الأرجاء يشقها

في الوسط نهر دجلة، وبينها وبين نينوى جسر قائم، ونينوى اليوم أطلال دارسة تكثر حولها القرى والضياع على نهر دجلة. وفي الموصل كنيسة عويدية من بناء النبي يونه (يونس) بن أمتاي، وكنيسة ناحوم الألقوشي»[30].

بينما ذكر الرحالة اليهودي الأندلسي فتاحية الذي زار الموصل عام 1185م، قال إن عدد يهود الموصل حوالي ستة آلاف يهودي[31]. وفي المدينة الحاخام يوسف كوهين بن علي (المتوفى 1275م) ناقل كتاب (دلالة الحائرين) لموسى بن ميمون من العربية إلى العبرية.

والكنيسة التي بناها يونس النبي تدعى عند اليهود بتل التوبة، وقد بنى له المسلمون مقاماً يصفه لنا الآثاري الإنكليزي جون أوستن لايارد عام 1839: «قبر النبي يونس موجود في غرفة داخلها مظلم، مفروشة بالسجاد، والمسجد مبني من خشب وطين وكلس. ويقوم في وسط الغرفة المقام، وهو مغطى بقماش أخضر مطرز بآيات من الذكر الحكيم، وتتدلى من سقف المقام الأزرار والأصداف وبيض النعام على شاكلة ما يشاهد في العتبات المقدسة عند المسلمين السنة، وبجانب المقام مصلى صغير يقوم المنبر في نهايته الجنوبية، والقاعة مفروشة بالسجاد الفاخر، وهناك ممر عليه أبواب موصدة طوله 30 قدماً (حوالي عشرة أمتار) ومساحة المقام الكلية (القبر حوالي 10× 15 قدماً) وفي الجهة الجنوبية عمامة كبيرة من حرير فاخر وشال، وتغطيه أقمشة ثمينة. ويحيط بالضريح كرات من فضة تتدلى فوقه. وجدران الغرفة من الداخل مغطاة بالمرايا والقاشاني وآيات من الذكر الحكيم[31].

وقرب المقام عين ماء تدعى (عين النبي يونس) وهناك شجرة يقطين كبيرة يزعمون أنها من عهد النبي يونس.

بينما يؤكد المسلمون أن هذا القبر المقدس للنبي يونس (ع)، يرى اليهود أنه قبر النبي عويدية (حوالي 587 ق.م)، وإن قبر النبي ناحوم الألقوشي (القرن 6 قبل الميلاد) قبره اليوم موجود قرب الموصل في قرية ألقوش، ويحج إليه يهود العراق، وعليه كتابة ترينا أن القبة بناها من ماله الخاص المحسن ساسون صالح داود يعقوب وهو جد آل ساسون وأشرف على البناء الحاخام عبد الله يوسف وموشي كباي وداود برزاني، وهم من أهالي الموصل وكان البناء قد تم عام 1796م.

وكذلك النصارى يؤيدون اليهود وهو أن قبر النبي يونس في فلسطين، ويذهب سليمان البصري (المتوفى 1222م) أن النبي يونان جاء من قرية عمواس القريبة من عسقلان على ساحل المتوسط، وبسبب عداء اليهود له اصطحب أمه وذهب إلى نينوى عاصمة آشور ووعظ هناك وأنذر نينوى بالخراب وعاد بعد مدة إلى اليهودية Judaea وماتت أمه في الطريق فدفنها في مرقد البنيّة ديورا ومات النبي يونس بعد عامين من عودته من بابل ودفن في ككهف كايتان[32].

وعندما زار الرحالة أوتر Otter (1707- 1748) مدينة الموصل عام 1743م، قال: إن المدينة تقع على ضفة نهر دجلة الشرقية وبالضفة الغربية توجد خربة نينوى. أما مدينة الموصل فهي بلدة واسعة ذات أبنية جميلة فيها الأسواق والخانات والدور والقصور والمساجد والكنائس، وفي المدينة حي تسكنه جالية يهودية تعيش إلى جانب المسلمين والنصارى. وأهل المدينة يعيشون في لين من العيش، وأهلها كماة شجعان، واللغة التي يتكلمها السكان هي العربية في اللهجة (الفليحية)، والمدينة ناشطة بالتجارة وليس في المدينة من الصناعات والحرف إلا ما يستورده أهلها من الأقمشة والمنسوجات التي يوردها لهم التجار اليهود من حلب وبغداد. قال الرحالة أوتر: «وبحثت عن القماش المشهور في العالم باسم الموصلي Muslin فلم أعثر عليه. وفي مدينة الموصل طبيب يهودي أصله من البندقية (إيطالي)، قيل لي إنه ماهر جداً في صنعته. واتفق العرب والنصارى واليهود على كره حكامهم الأتراك الذين أهملوا شأن المدينة»[33].

يصف القنصل الإنكليزي ريج Rich مدينة الموصل عام 1908، بقوله: «كانت الدور كبيرة ولها أبواب مرتفعة، وفي داخل الباب توجد خوخة (باب صغير) وشوارع الموصل واسعة تسمح بمرور جملين متعاقبين. ولا يمكن تمييز دور اليهود من الخارج عن دور المسلمين والنصارى، ولكن لليهود حي خاص بهم، وللموصل طعام خاص بهم خبز الموصل وكبة اليهود الموصلية».

كان اليهود كالمسلمين يشكون بنوايا الأجانب والمبشرين ولا يتعاملون معهم، ولا يطلعونهم على كتبهم ومخطوطاتهم وأسرارهم، ولا يسمحون لهم بدخول كنائسهم ومدارسهم، وعلى عكسهم النصارى السريان والكلدان والآشوريين، من أجل هذه الخاصية لا يعرف تاريخ اليهود في الموصل.

وعندما حاولت الجمعيات اليهودية الصهيونية الاتصال بيهود الموصل، رفضوا استقبالهم، فاتهموا بالتعصب والجهل.

## يهود العراق والسياسة

إثر صدور الخط الهمايوني الشريف، الذي أصدره السلطان عبد المجيد (1839- 1861) عام 1839، جاء فيه: «إن كل رعايا دولتنا العلية، بغض النظر عن انتماءاتهم الطائفية سيعملون في الدولة بما يتماشى مع قدراتهم وكفاءاتهم». على أثر ذلك صار لأبناء كل أقلية من الأقليات الدينية الحق في التمثيل النسبي في مجلس المبعوثان وفي مجلس الولاية.

مثل يهود بغداد الوجيه اليهودي صالح دانيال (1856- 1940) والوجيه ساسون أفندي بن اسحق عن مدينة بغداد في مجلس المبعوثان، ومثَّل الموصل يعقوب تسيمح وابنه داود يعقوب، في مجلس ولاية الموصل. وكان اليهود العراقيون قد رفضوا الفكر الصهيوني وانضموا إلى الحركة الوطنية وأحزابها العربية كحزب العهد والحزب الشيوعي العراقي. وعندما صدر قانون التقسيم لفلسطين واعترف به الاتحاد السوفياتي، قبض على الرفيق المناضل شفيق عدس وأعدم سنة 1948، كما قبض على سليمان صالح ويوسف صبري عام 1952، لأنهما رفضوا الهجرة إلى إسرائيل وحرضوا اليهود على ذلك باعتبارهم عرب ولكن ديانتهم يهودية، عملت المنظمات الصهيونية لدى حكومة نوري السعيد وقبض على كل المناضلين الذين يرفضون التخلي عن انتمائهم الوطني بتهمة الشيوعية.

وعمل يهود العراق بجمع التبرعات للفلسطينيين بدلاً من اليهود الغزاة، جاء في الموسوعة الفلسطينية: لقد اعترف الصهاينة أنه لم يكن للحركة الصهيونية انتشار بين يهود العراق ومصر وسورية، وعللوا السبب بأن اللغة العربية هي اللغة التي يتحدث بها اليهود في المنزل والسوق، بينما اللغة العبرية مجهولة عندهم. وقد لاقى الفكر الصهيوني بعد صدور وعد بلفور عام 1917، وعندما فضحه الاتحاد السوفياتي، واعتبار الصهيونية حركة رجعية في جوهرها، توجهت الأحزاب الشيوعية العربية لمحاربة الفكر الصهيوني ومقاومة الهجرة إلى فلسطين[34].

تمسك اليهود العراقيون بهويتهم الوطنية، وفضلوا البقاء في العراق رغم كل الضغوط والسجون التي ملأها نوري السعيد منهم، ومكثوا بها حتى ثورة عبد الكريم قاسم عام 1958 فأطلق سراحهم[35].

في عام 1938 حاولت المنظمات الصهيونية اغتيال الحاخام الأكبر ساسون خضوري ولكنها فشلت، وصارت تحاربه في العلن حجة أنه لا معرفة له بالتوراة، واتهموه بعدم تمسكه بتعاليم الشريعة، وأنه يعرف القرآن أكثر من التلمود، لأن علاقاته كانت غير حسنة مع قادة المنظمة الصهيونية في فلسطين[36].

كتب المناضل الفلسطيني محمود عباس (أبو مازن) في مجلة (بيروت المساء): «إن قسماً كبيراً من المهاجرين اليهود من البلدان العربية، قد جاؤوا إلى فلسطين المحتلة نتيجة اتفاق تآمري بين بعض الحكام العرب وقيادة الحركة الصهيونية، يقضي بشحن اليهود العرب بكاملهم من أوطانهم إلى فلسطين المحتلة، بغض النظر عن رغبتهم بالهجرة إلى فلسطين، وينطبق هذا بصورة خاصة على اليهود العرب في (العراق) 120 ألف يهودي، وسميت عملية نقلهم (عملية عزرا ونحميا)، وتم نقلهم بعمليات شحن جماعية. وقد عانى اليهود الذين رفضوا الهجرة في العراق صنوفاً من العذاب والإرهاب والضغط لاقتلاعهم من جذورهم. فليس صحيحاً أنهم كانوا صهاينة، وأرادوا الهجرة برغبتهم وقامت السلطات الرجعية العراقية بإسقاط الجنسية عنهم. وبالنسبة لقانون المؤامرة فقد حضره نوري السعيد وبن غوريون ومبعوث بريطانيا مؤتمراً في لندن، وتم الاتفاق سراً على تهجير يهود العراق. وعندما عاد نوري السعيد إلى بغداد، قدم استقالته ليفسح المجال للحكومة الانتقالية بتنفيذ (قانون المؤامرة).

وكلف السويدي بتشكيل الوزارة، وتقدمت الوزارة فوراً بإسقاط الجنسية عن يهود العراق، فوافق المجلس النيابي بالإجماع فوراً. وكذلك مجلس الأعيان»[37].

كانت المنظمات اليهودية تحاول تهجير اليهود في العراق منذ بداية القرن العشرين. ذكر الدكتور الألماني غرديا (وزير ألمانيا المفوض في العراق) حاولت بعض المنظمات اليهودية والإنكليزية والفرنسية مرات عديدة توطين مجموعات من الفلاحين اليهود من أوروبا الشرقية في العراق لاتساع الأرض ووفرة المياه مع قلة السكان الذين يقومون بالزراعة، واقترح اليهودي الفرنسي بنيفو على السلطان عبد الحميد الثاني توطين خمسين ألف يهودي روسي وبولوني في العراق. قَبِل وزير المالية جاويد بك الفكرة، ولكن السلطان عبد الحميد رفضها عام 1907، وعمل اليهود على خلعه عام 1909[38].

ولكن بعد صدور وعد بلفور عام 1917 وبعد أن أعطيت فلسطين وطناً قومياً لليهود، تغيرت السياسة الصهيونية، وصارت تريد تهجير يهود العراق إلى فلسطين، وكل من قاوم مشروع الهجرة اتهم بالشيوعية وأودع السجن في (نقرة السلمان) وظل اليهود المعارضون للهجرة في السجون حتى تموز عام 1958 وأطلق سراحهم، ولكن حكومة صدام حسين هجَّرت ما تبقى من اليهود في العراق، ومعظم يهود العراق هاجروا إلى أوروبا وأمريكا وكندا وأوستراليا والأقل القليل هاجروا إلى إسرائيل. ولم يبق في إسرائيل حتى عام 1997 سوى 120 ألف يهودي، بعد أن كانوا عام 1947 حوالي 150 ألفاً، ومن بقي فهو لخدمة الكنيس اليهودي في بغداد.

## المحور الثالث : اليهود في مصر واليمن

لليهود تواجد قديم في مصر منذ الألف الأول قبل الميلاد، وتروي التوراة أن النبي موسى هو الذي أخرج العبرانيين من مصر، وفي العهد الأخميني، في زمن قمبيز عاد اليهود إلى مصر حوالي عام 525 ق.م. وسكنوا مدينة (راقودة) القديمة في محل مدينة الإسكندرية 305 ق.م. وكان لليهود كنيس فيه ترجموا التوراة إلى اليونانية، وعرفت تلك الترجمة (بالترجمة السبعينية) (285- 247 ق.م). وأثبتت الديانة اليهودية وجودها في وسط وثني وفلسفات إلهية (فلسفة أفلاطون وأرسطو) واستمر تواجد اليهود في القرون الوسطى في مصر إلى العصر الحديث الذي نؤرخ له.

زار الرحالة الدانمركي كارستن نيبور عام 1762م، القاهرة والإسكندرية والفيوم، وقال: «غالبية سكانها عرب وأتراك مسلمون، وأقباط ويهود، ومغاربة، وأفارقة، وهم مسلمون أيضاً، واليهود هم الطائفة التي تلي المسلمين والأقباط، واليهود يتألفون من طائفتين: من التلموديين (الربانيين) والقرائين. ولكل طائفة معابدها الخاصة بها، وإن كانت جماعة القرائين قليلة العدد. وأحوال اليهود التلموديين في القاهرة طيبة وجيدة، وقد تولوا أعمال الجمارك كلها منذ أعوام كثيرة وهي جمارك بولاق (القاهرة العتيقة) والإسكندرية ودمياط. وينالون من الديوان عن طريق الهدايا (الرشوة) ما يفوق ما يحصل عليه الآخرون، في الولايات التركية الأخرى، والدليل على أهمية اليهود أن الجمرك يتعطل يوم السبت، فلا تمر بضائع سواء كانت مملوكة للمسلمين أو المسيحيين»[39].

والدليل على صدق الرحالة نيبور في تواجد اليهود القديم في القاهرة وتحكمهم بتجارة مصر، وجود قبور اليهود قرب قرية (قايتباي) من القاهرة وكانت فيما مضى بلدة كبيرة لليهود، وكذلك قرية اليهود المسماة (طرطور اليهودية) الموجودة شمال عين شمس، هي المعبد الذي أنشأه أونياس خارج القاهرة.

وهـذا الرحالـة المسلم محمـد بن الحـاج الفاسـي (المتوفـى 1336م) جـاء إلـى القاهرة مهاجراً، وأثار دهشته تشبّه نساء المسلمين بأهل الذمة الأقباط واليهود، فهن يلبسـن الثيـاب القباطية الضيقـة التـي تظهر مفـاتن الجسـد، ومـن عاداتـهم البيع والشـراء والجلـوس فـي الدكـاكين، والرجـال يقيمـون فـي البيـوت، وهـن لا يشترين السمك في يوم السبت، ولا يأكلنه ولا يدخلنـه بيوتهن، وهـذه خصلـة مـن خصـال اليهود، ولا يدخلـن الحمـام فـي يـوم السـبت، ولا يغسـلن ولا يشـترين فيـه الصابون ولا السدير ولا الأشنـان ولا يغسلـن فيـه الثيـاب، وهـذه كلها مـن خصـال اليهود»[40].

وفـي عيـد سـبت النـور مـن كـان يشتكي مـن حكـة، يخرجـون إلـى ظـاهر البلـد (القاهرة) على شاطئ النيل وتبدي النساء أفعالاً قبيحـة، مثل نسـاء اليهود، ومـن ذلك أن النسـاء يتعرين في ذلك الموقع حتى إنهن لا يبقين عليهن من السـترة شـيئاً لا مئزراً ولا سـراويل، ثم يدهـن أجسـادهن بـالكبريت، ويجلسـن فـي الشـمس أكثـر يومهن، علـى تلـك الحـال، والنـاس يمـرون عليـهن بـراً وبحـراً ولا يسـتحين، والنظـر إليهن في ذلك اليوم كله مباح»[41]. وهـذه من عادات أهل الذمة (اليهود).

## الحمَّامات في القاهرة

الحمامـات كثيرة فـي القـاهرة، وهـي مختلطـة بـين جميـع الطوائـف، ويسـتر المستحمون من الرجال أجسـادهم بـالمئزر حـول الردفـين، ويسـمى ذلـك (الحـرام). والحمَّـام قنطـرة مـن الخـارج ليس بـالمنظر الجميـل ولكنـه مـن الداخـل ذو قاعـة فسيحـة ونظيفـة وجميلـة، وأرضـها مكسـوة بالرخـام الملـون الجميـل، ويجـد فيـها طالب الاستحمام الكثير من الخدمة، ولكل من الخدم وظيفة خاصة به، وفي قلب الحمام حجرة صغيرة في وسطها (قرمة من شـجر الجوز) يبلـغ ارتفاعـها قدمـين ونصف (75 سم) يجلس عليها من يريـد التخلص مـن الشـعر الثابت فـي الأمـاكن الخفية (كشعر العانة). ويتوصلون إلى ذلك بمرهم يباع في الحمَّام[42].

أما حمَّام النساء، فتدخل النساء اليهوديات مع النسـاء المسلمات، والجميـع لا يسـترن مـن أجسـادهن إلا مـا حـول الردفـين أحيانـاً، ويقـول المشـايخ المسـلمون: إن اليهوديـة والنصرانيـة لا يجـوز لـهن أن يريـن بـدن الحـرة المسـلمة، ولا يجـوز أن ينكشفن على بعضهن ويرين عورات بعضهن[43].

إن العرف والعادة وطول الجوار أقوى من نصائح الشيوخ والفقهاء، إن العيش المشترك بين المسلمين والمسيحيين واليهود جعل الجميع يخضعون لنفس العادات ويخلق بينهم محبة واحترام.

### لباس المرأة اليهودية

اللباس في مصر موحد، لا خلاف فيه بين الذمي والمسلم، لأن أهل الذمة (الأقباط) هم أهل البلد، والمسلمون جاؤوا من بعدهم فقلدوهم في لباسهم وعاداتهم، على الرغم من أن الشرع الشريف في بعض السنين يدعو إلى مغايرة اللباس بين المسلمين واليهود، وهذا في الأساس هو طلب الشريعة الموسوية، التي تريد اليهودي أن يلبس لباساً يختلف عن لباس الأغيار.

كان الفقهاء يحضون المرأة المسلمة على البقاء في المنزل وعدم التبرج، ولكن المرأة المصرية لم تخضع لهذا المطلب، وحوالي عام 1350م، كتب المهاجر المغربي المتعصب ابن الحاج الفاسي: «كانت المرأة المسلمة في القاهرة، إذا أرادت الخروج إلى الطريق، تنظفت وتزينت وتعطرت، ونظرت إلى أحسن ما عندها من الثياب، وتخرج إلى الطريق وكأنها عروس تجلى، وتمشي وسط الطريق وتزاحم الرجال. ولهن صفة في مشيتهن (الدلع) حتى إن الرجال ليرجعون مع الحيطان حتى يوسعوا لهن الطريق. وبعض النسوة يخالطن الرجال ويزاحمونهن، ويمازحونهن قصداً، كل ذلك سببه عدم النظر إلى السنة وقواعدها والتشبه بنساء الفرنجة واليهود»[44].

إذاً، المرأة المصرية المسلمة تقلد المرأة اليهودية في المدينة، فكيف حال المدنية، حيث المرأة في الريف تلبس الثياب الواسعة والسراويل الواسعة على اللحم، على عكس نساء القاهرة اللواتي يلبسن ثياباً ضيقة فوق السراويل الطويلة، ويلبسن قمصاناً زرقاء فضفاضة، لها كمان طويلان واسعان يتدليان على الكتفين إلى الردفين، وكثيراً ما تعلق النساء في شعورهن المضفورة شخاشيخ وغيرها من الحلي، تتدلى مع جدائلهن على ظهورهن. وتضع النساء الصبايا خلاخيل في أرجلهن الحافية، ويضعن حول أعناقهن مسابيح من الخرز (عقود من الخرز) والنساء الغنيات يضعن أطواقاً من ذهب وأحجار كريمة، وينتعلن الأحذية الملونة (الجزامي) ويصبغن أيديهن بالحناء ويوشمن وجوههن وشفاههن وأيديهن، إلا نساء اليهود اللواتي لا يظهرن في الأزقة دون حذاء وبلا وشم.

والنساء المسلمات يغطين وجوههن إذا اقترب منهن رجل غريب، وهذه العادة لا تود لدى النساء اليهوديات والمسيحيات[45]. والمرأة اليهودية إذا كانت من طبقة ثرية تلبس ثوباً فوقانياً له طبقتان من الحرير الملون تتدلى منه طرحة مربعة من الكتفين والثوب على الأغلب يكون من النيل الأزرق، وتضع على رأسها طرحة كبيرة، ولا تضع على وجهها حجاباً كالنساء المسلمات. والنساء التركيات يدعن الصدرية مفتوحة إلى الأمام، ويضعن غطاء رأس ثمين، ويلبسن الجوارب الجلدية والبوابيج كالنساء اليهوديات السمان الممتلئات. يبدي ابن الحاج ملاحظة جدير بالتسجيل، قال: «يحب أهل مصر النساء السمان، وكانت الفتاة التي عقد قرانها، ولم يدخل عليها عريسها، تترك الصوم خيفة على بدنها أن ينقص، وتأخذ الفتاة لباب الخبز بعد العشاء، لتملأ بها جوفها عند دخولها الفراش[46]. وهكذا نرى أن الذوق الجمالي للمصريين تأثر بالذوق اليهودي كما تأثر به العرب قبل الإسلام.

**زيارة نساء مصر للقبور**

من عادات نساء يهود مصر زيارة القبور، أما زيارة نساء المسلمين فمنهي عنها شرعاً، ولكن العادة أن تزور نساء المسلمين القبور كنساء اليهود.

والسؤال: ماذا يحصل أثناء زيارة القبور؟

تركب المرأة على الدواب (الحمير أو الخيول) ويساعدها المكاري على الركوب والنزل، فيمس جسدها وتحتضنه المرأة في ركوبها ونزولها، وحسن تستقر فوق الدابة، يجعل المكاري يده على فخذها وتجعل هي يدها على كتفه، ويظل معصمها مكشوفاً، لتظهر أساور الذهب والخواتم، وفي الطريق تحادث المكاري وتلاطفه وكأنه زوجها أو من المحارم. والعجب أن أهلها لا تنتابهم الغيرة.

قد تكون الزيارة في الليل مع كثرة الخلوات، فتسمع أصوات الضحك في موضع الخشوع والاعتبار والذل لله، وقد يكون زوجها مرافقها، ولا تثار غيرته لأن ذلك من حسن السياسة، لستر عرض زوجته. وكان رجال الدين اليهود لا يرضون على ذلك، لكنهم لا يفعلون شيئاً أمام هذه العادة التي تعم المسلمين والأقباط واليهود. وكان أهل الشام والعراق والمغرب ينتقدون أهل مصر على هذه العادة التي يعتبرونها فاضحة.

ومن عادات نساء اليهود والمسلمين والأقباط، أن يأخذن معهن قطعاً من الحلوى والسكر المصورة في عيد الغفران عند اليهود أو في ليلة منتصف رجب

وفي عيدي رمضان والأضحى، وهذه الصورة محرمة شرعاً عند اليهود والمسلمين وهذه العادة جاءتهم من جيرانهم الأقباط، توارثوها عن الفراعنة.

كانت العادة ألا يسمح لليهود، إلا ركوب الحمير في مدينة القاهرة، وعليهم أن ينزلوا إذا أقبل عليهم رجل مسلم وجيه، وهؤلاء السادة كانوا لا يظهرون إلا راكبين على ظهور الخيل، ويتقدمهم خدمهم، فإذا صادفهم رجل ذمي أجبره الرجال الذين يمشون مع السيد الشريف على النزول عن حماره. إلا النساء اليهوديات فإنهن لا ينزلن عن حميرهن[47].

ومن عادات اليهود أن النساء يلعبن في بيوتهن مختلطات بالرجال، ويتراشقن بالماء في أعيادهم، ويبل بعضهم بعضاً بالماء، فإذا ابتل الثوب بدت مفاتن الجسد، والتصق الثوب بالبدن، وحاكى الجسد، وظهر للناظر كأنه عارياً، وقد تحصل من ذلك ما لا يحصى من القبائح. هذه العادة يقوم بها المسلمون والأقباط. قال ابن الحاج: إن الجارة لا تستحي من الجار وإن الشاب الذمي (اليهودي أو المسيحي) إذا تربى بينهن لا يستحين منه[48].

**لباس اليهود وأهل الذمة**

رأينا أن عادات اليهود والمسلمين واحدة، وكذلك اللباس فهو واحد، وليس كما هو الحال في القسطنطينية، حيث يمنع اليهود من اختيار الألوان الغامقة، بل هم محرومون حتى من طلاء بيوتهم بالألوان الزاهية من الخارج. أما في مصر فلهم الحرية باختيار أي لون إلا الأخضر فهو من اختصاص المسلمين[49]. واللباس في مصر موحد بين كل الطوائف إلا في أغطية الرأس، هناك تنوع بين العروق والطوائف، فأغطية رؤوسهم مختلفة.

1) يلبس الأتراكك والتركمان طاقية عالية، ملفوف عليها قماش ملون، ومبطنة بالقطن، ويسمون هذا النوع من أغطية الرأس بالقاووق.

2) ويلبس العرب والمسلمون الأفارقة في المدينة والريف طاقية صغيرة، يلفون حولها قطعة صغيرة من التيل يسمونها الشاشية، كما يلبسون العمة لرجال الدين المسلمين.

3) ويلبس اليهود والنصارى طاقية عالية مبطنة بالقطن، وعليها من أعلاها قماش ومن أسفلها كسوة من جلد الحور ويسمونها قلبق.

4)ويلبس الجنود وصغار الخدم في السراي قلانس مختلفة حسب وظائفهم، لأن اللباس وظيفة ودلالة، على دين الإنسان وجنسه ووضعه الاجتماعي، وكان اليهود في تونس وليبيا يلبسون الجلابيب السوداء بينما العرب يلبسون الجلابيب البيضاء[50].

**ألعاب اليهود في الأعياد وأوقات الفراغ**

يلعب اليهود في حاراتهم، ومن تلك الألعاب الشطرنج والمنقلة والنرد. وهناك لعبة خاصة باليهود هي لعبة (طاب ودك) يلعبونها بقطع الفخار الملونة. وهناك خلاف بينهم وبين يهود الشام، الذين يلعبونها بـــ (21) قطعة، بينما يلعبونها في مصر بـــ (17) قطعة، وهي قطع فردية العدد، يضعها كل لاعب عند البداية في الصف الخارجي، ويستخدم اللاعبون أربع قطع صغيرة مسطحة ألوانها من ناحية (أسود) ومن الناحية الأخرى (أبيض). هذه القطع المسطحة يقذفون بها إذا كانوا يلعبون في الساحة، فوق سكين يدسونها في الأرض (في التراب) أما إذا كانوا يلعبون في البيت فيقذفون بها على مسلة كبيرة، يدسونها في الأريكة.

يبدأ اللاعب الأول لعبته من اليمين، والآخر من اليسار، حتى تتقابل القطع. فمثلاً اللاعب (طاب) يعني (3 أبيض و1 اسود)، وإذا لم يكن عنده طاب، انتظر وألقى الآخر، إلى أن يحصل أحدهما على (طاب) فلا يمكن تحريك قطعة من الصف الأول حركتها الأول إلا بطاب.

أما الرمية الأخرى فهي (دك) وتعني (2 أبيض) و(2 أسود) وتتيح هذه الرمية تحريك قطعة بعد الحركة الأولى بطاب، بيتين إلى الأمام ودك الثالثة (3 أسود) و(1 أبيض) وتنتج هذه اللعبة قطعة ثلاثة بيوت، أربعة (4 أسود) وينتج عن تحريك القطعة، أربعة بيوت، ويستمر اللاعب من جديد ويستمر في تحريك قطعة.

فإذا وصل اللاعب إلى آخر الصف الثاني، أكمل في الصف الثالث في الاتجاه المضاد، فإذا عبر بقطعة هذا الصف، دون أن تؤخذ منه استمر إلى الصف الرابع، طالما كان لغريمه قطعة واحدة في هذا الصف، وإلا كان عليه أن يعود من الصف الثالث إلى الصف الثاني. ويظل اللعب صاعداً من ناحية وهابطاً من الناحية المقابلة إلى أن يضيِّع القطع كلها.

كانت هذه اللعبة مرغوبة عند الشباب اليهود وغيرهم[51]. وكان اليهود يلعبون (الكوتشينة) (لعب الورق) ويسميها المسلمون لعبة القمار، وهي عندهم حرام. وكانوا يلعبون على قليل من المال من أجل التسلية، وكانت من عاداتهم الجلوس في المقهى وشرب النرجيلة (الشيشة) ولعب الشطرنج.

وعند اليهود ألعاب في أعيادهم، ألعاب التشخيص ومنها لعبة (شيخ الحارة). يقول ابن الحاج: «إنهم يأخذون إنساناً، ويغيِّرون مظاهر صورته وخلقته، ويجعلون له لحية من جلد الخاروف، ويلبسونه ثوباً أحمر، ثم يجعلون على رأسه طرطور اليهود، ثم يركبونه على حمار دميم، ويجعلون حوله الجريد الأخضر، وشماريخ البلح، ويجعلون في يده شيئاً يشبه الدفتر، كأنه يحاسب الناس، ويجبي الأتاوة الحرام. ويطوفون به على أزقة الحي وعلى أبواب الدكاكين ويأخذ منهم على شبه التعسف والظلم، ومن امتنع عن الدفع صبَّ الشباب المرافقون لشيخ الحارة عليه الماء، وربما كان الماء ممزوجاً بالتراب، ويهينونه بالكلام الفاحش البذيء وهم يضحكون من حوله. انظر إلى هذا الفعل القبيح الذي يفعلونه في أعيادهم»[52].

إن هذه التمثيلية البدائية هي التراث التشخيصي الذي أخذه فيما بعد يعقوب صنوع وخلق منه فناً ممتازاً. لأنه كان لكل حارة شيخاً، مسلماً كان أم يهودياً، كما أنه كان لكل حرفة شيخ حتى العاهرات واللصوص كان لهم شيخ الكار، ليس بمعنى أن للصوص حرية السرقة بل إن كل من يُسرق له غرض ثمين يتوجه إلى شيخ الكار فيعيده إليه لقاء مكافأة شخصية[53].

كان لليهود في حاراتهم في (شبرا وبولاق) حانات ترقص فيها الغوازي والعوالم، على ألحان بسيطة ترافق هز البطن وهز الأرداف والأيدي، وكانت أهم هذه الآلات العود ذو الرقبة الطويلة والدف والرق والطبلة الصغيرة (دربكة أو دنبك) وهناك الطبل الكبير الذي يضرب بين أيدي الراقصة والمغنية، وهناك القانون الذي يرافق التخت الموسيقي. وفي الريف كانت هناك الربابة وهي مصنوعة من الخشب وعليها جلد مشدود وعليه وتر واحد من ذنب الخيل، وكذلك القوس، وكانت هذه الآلة مرغوبة من قبل اليهود في حفلات الختان والأعراس في البيوت، وأحياناً في حفلات الزار (الزوهر) وهي حفلات الدين الصوفية (القبالاة) عند اليهود.

وكان لليهود نساء جميلات يرقصن في بيوت الوجهاء وفي السراي وهن يحسنّ الغناء، ويدخلن البهجة على مجالس الحريم، وكانت نساء الطبقة الراقية يبدلن ثيابهن ويلبسن حليهن ويشاركن الفتيات اليهوديات الرقص، وعن طريق الرقص كانت المرأة المسلمة تسعى لنيل المزيد من حب زوجها وإعجابه في وقت الفراغ[54].

وكوّن اليهود في بداية القرن الثامن عشر فرقاً فنية خاصة للتمثيل والغناء. وكانوا يرتجلون في بيوت الأغنياء تمثيليات، بعد أن ينصبون مسرحاً صغيراً في إحدى زوايا الدار (الحوش) الواسعة، ويغيرون لباسهم ويقوم الشباب المرد بأدوار النساء، وكانت المواضيع تقوم على تناقض المواقف، لأن غايتها الضحك، يستغلون فيها جهل الفلاح الطيب القلب، ودهاء المرأة الشريرة، النصابة، أو الفلاح البسيط الذي يستغله التاجر الجشع، وكان الحوار بسيطاً غايته الضحك البريء. ولكن شيوخ الأزهر كانوا يحرمون هذه الفرق ويطالبون بمعاقبتها. من هذه الفرق الشعبية اليهودية ظهر الفن الشعبي عند المسلمين فيما بعد.

## السياسة والصحافة اليهودية

كانت حملة نابليون على مصر (1799- 1803) نقطة تحول في تاريخ مصر وبلاد الشام، وعندما سقط حكم المماليك، وجاء حكم محمد علي باشا (1805- 1848) وكان أفضل حاكم في عصره. وضع مصر على طريق الحداثة، وأرسل البعثات العلمية إلى أوروبا وإلى فرنسا خاصة، وأحدث داراً لصناعة السفن والمدافع، وداراً للألسن والترجمة والمشفى العيني. وبعد سقوط حكم نابليون عام 1815، ومعاهدة فيينا، تغيرت السياسة الأوروبية تجاه الشرق كله، وبدأت سياسة الامتيازات، ومنحت الجنسيات للأجانب، وسجل اليهود لدى القنصليات وصارت لهم حقوق لم يحصلوا عليها من قبل. لم يعد الإسلام مرهوب الجانب في نظر الأوروبيين، وصارت السلطنة العثمانية ينظرون إليها على أنها كالرجل المريض.

وصارت أفريقيا محط أنظار الحملات الأوروبية، خصوصاً بعد فتح قناة السويس أمام الملاحة الدولية في زمن الخديوي إسماعيل باشا (1867- 1883). في هذا الزمن نشطت الجالية اليهودية في مصر وبلاد الشام والعراق. وكان

يعيش في القاهرة حوالي 5 آلاف يهودي مسجل في ديوان الجوالي ما عدا اليهود الذين كانوا مسجلين لدى القنصليات وهم أيضاً يماثلون العدد السابق. وفي الإسكندرية كانوا حوالي 3 آلاف ومثلهم تحت الحماية الأجنبية. وكانوا يعدون أجانب رغم أنهم يهود مصريون منذ ألف سنة وأكثر.

من العائلات اليهودية الثرية، عائلة القطاوي وعائلة الموصيري وعائلة هادة، وغيرها من العائلات وقفوا في وجه العدوان الإنكليزي على مصر عام 1882، ودعموا الأحزاب الوطنية، ودعموا مصطفى كامل وسعد زغلول ومحمد فريد وعبد الله النديم.

وأصدر الصحفي اليهودي يعقوب صنوع (1839- 1912) عدة صحف ومجلات منها جريدة (أبو نظارة زرقا) وعرف بهذا اللقب، وتولى اليهودي ليوني كاسترو تحرير مجلة (الحرية) بالفرنسية التي يصدرها حزب الوفد. وظهرت صحف يهودية خاصة باليهودمثل صحيفة (إسرائيل) بالفرنسية (1919- 1923) وكانت تناصر القضية الوطنية ضد الاحتلال الإنكليزي وتدعو في الوقت نفسه لقيام دولة يهودية في فلسطين، ومجلة (مصرايم) مصر، صدرت بالعربية، ولكن لم يكن لها انتشار إلا بين اليهود، وعلى عكسها جريدة (الوطني) التي أصدرها يعقوب صنوع في 29 أيلول 1883، ولكن الخديوي منعها من الصدور لأنها كانت تهاجم الإنكليز وتناصر السودان.

وعندما أصدر تيودور هرتزل (1898) مشروعه الصهيوني، صارت الصحف المصرية تنشر المشروع الحضاري المضاد للمفكر السوري نجيب العازوري الذي أصدر كتاب (نهضة العرب) بالفرنسية عام 1906، وحذر فيه من الخطر الصهيوني المحدق بالعرب، وانقسم اليهود المصريون إلى فئتين، فئة وقفت في وجه الخطر الصهيوني، وفئة قليلة صارت تناصر مشروع هرتزل. وصار اليهود يتفاخرون بماضيهم الثقافي والحضاري. ولكن الرئيس يوسف القطاوي رئيس الطائفة اليهودية بمصر، ومعه كبير الحاخامات حاييم ناحوم، وقفا بوجه الحركة الصهيونية التي تريد أن تفرق بين اليهود والمسلمين الذين عاشوا مئات السنين متجاورين ومتحابين، ووجدا أن الدعوة الصهيونية دعوة كافرة وأنها من نتاج الغرب المعادي للعرب واليهود معاً، واستخدما الصحف كالأهرام، ومجلة المقتطف التي كان أصحابها شاميين ومسيحيين وهم يكرهون الصهيونية.

وبالمقابل أنشأ الصهاينة صحفاً صهيونية غايتها تعديل صورة اليهودي الخانع الذليل، ومعظم هؤلاء من اليهود الأشكناز الذي جاؤوا من أوروبا مهاجرين إلى القاهرة والإسكندرية وقد دعمهم الحاخام داود بروتو (1927- 1936). وفي زمن خليفته الحاخام موشيه بن حواره (1936- 1946) أوقف نشاط المنظمات الصهيونية في مدينة الإسكندرية[55].

كان يهود القاهرة تاريخياً يقفون ضد الحركة الصهيونية، وقد عرف بهذا الأمر رئيس الحركة الصهيونية في العالم حاييم وايزمن عام 1917، فجاء إلى القاهرة ليشعر اليهود بأهمية وعد بلفور، فوقف الرئيس يوسف قطاوي ضده ولم يستقبله، ولكن المليونير جاك موصيري حشد يهود القاهرة والإسكندرية لاستقباله، وأنشأ مجلة (إسرائيل) لتساند الحركة الصهيونية من خلال مساندتها للحركة الوطنية المصرية ومن خلال حصان طروادة الصحفي اليهودي حزان ابن الحاخام الياهو حزان الذي كان صديقاً للوطني الكبير مصطفى كمال باشا.

**تأسيس المدارس وتكوين الجمعيات الخيرية**

كان التعليم لليهود باللغة العربية، وكانوا يدرسون في مدارس الدولة، ويتعلمون في الأزهر الشريف. وبعد احتلال إنكلترا لمصر عام 1882، بدأت الإرساليات اليهودية في القاهرة والإسكندرية والفيوم، بفتح مدارس لليهود، فقد أسس البارون **دي منشه** عام 1883، أول مدرسة يهودية تتبع النظم الحديثة وتدرس بالعربية والفرنسية، وأسست عائلة **أجيون** في الإسكندرية عام 1897 أربع مدارس أجنبية لأولاد اليهود والمسلمين والمسيحيين يدرسون فيها اللغات العربية والعبرية والفرنسية والإيطالية والإنكليزية، وتلتها مدارس للتعليم المهني قدر عدد طلابها عام 1900 بأربع مائة طالب.

وفي عام 1896 أسست جماعة (كل شعب إسرائيل أصدقاء) مدرسة للفتيات اليهوديات في القاهرة. وظل يهود القاهرة (السفاراد) يفضلون الدراسة في المدارس المصرية العامة، وكانوا يقدرون بحوالي 80٪ من يهود القاهرة، ومن المدارس المصرية تخرج الأدباء والعلماء والصحفيون اليهود.

وفي عام 1897 أسس **ماركو باروخ** وهو من يهود القسطنطينية (رابطة بركوخبا)، ودعا إلى احتلال فلسطين بالقوة، وكانت السلطات المصرية غافلة عن

ذلك. كتب المؤرخ اليهودي **جريتز**: «أحسن العرب والمسلمون بعدالتهم وإنسانيتهم إلى اليهود»[56]. وحدثت على أثر ذلك فتنة بين اليهود الأشكناز واليهود السفاراد الذين تنبهوا لخطر الصهيونية، والعرب نائمون عن هذا الخطر.

انتقل أنصار جمعية (بركوخبا) إلى الإسكندرية بعد أن أغلقت أبواب الجمعية في القاهرة، وترأس الجمعية في الإسكندرية اليهودي الإيطالي شارل بوجودا ولي نجل أحد الصيارفة، ولكن جهوده باءت بالفشل لأن اليهود الشرقيين (السفاراد) قاوموها، فأغلقت عام 1904م.

كانت الدعوة للهجرة إلى فلسطين، دعوة قديمة رافقت كل دعوات التصوف (القبالاة) لأن اليهودي المؤمن يأمل أن يموت بالقدس، وقد هاجر الحاخام **داود بن شمعون** من القاهرة إلى القدس عام 1854، وأسس مدرسة وملجأ للفقراء اليهود حتى عام 1880م. وقام من بعده ابنه الحاخام **رفائيل بن شمعون** وأسس في القاهرة مدرسة تعليمية للفقراء، وعمل في هيئة الحاخامية وأسس ملجأ للأطفال الأيتام اليهود، وصار يجمع الهبات من أجل أطفال اليهود في فلسطين (1891- 1921). وأسس في القاهرة والإسكندرية جمعية (نقطة لبن) وجمعية (الصدقة بالسر) وجمعية (مهر العذارى) وهي جمعية لمساعدة الفتيات اليتيمات للزواج، وأسس مكتبة لبيع الكتب التي لها شأن في تاريخ اليهود وديانتهم باللغة العربية والعبرية واللغات الأجنبية.

وفي هذه الفترة ظهر الأديب والكاتب **مراد فرج** (1867- 1955) كتب للثقافتين العربية واليهودية. وكتب الأستاذ **موريس برجون** كتابين عن تاريخ اليهود في مصر، وساعد الحاخام **رفائيل شمعون** في إصلاح هيئة الحاخامية، وحوّل مجلس الطائفة المكون من 36 عضواً لانتخاب لجنة الطائفة المكونة من عشرة أعضاء، وحصر مهماتهم أمام السلطات، والإشراف على المدارس وتحسين وضع المؤسسات الخيرية وال صحية التابعة للطائفة في القاهرة والإسكندرية.

## مذهب القبالاة (التصوف اليهودي)

القبالاة هو التصوف اليهودي وهو مذهب قديم، وقد ظهر هذا المذهب للناس عام 663هـ/ 1265م) ذكر المقريزي: «احترقت حارة الباطلية (الباطنية)

في القاهرة واتهم اليهود والنصارى بحرقها، وأراد السلطان الظاهر بيبرس حرق الفاعلين المتهمين من (اليهود والنصارى) فلما قدموا للحرق تقدم ابن الكازروني اليهودي وكان صيرفياً وقال للسلطان: سألتك بالله، ألا تحرقنا مع هؤلاء الكلاب الملاعين أعداؤنا وأعداؤكم، احرقنا أحياء لوحدنا»[57]. وأعلن اليهود إسلامهم ونجوا من الموت. وبعد مدة أرادوا الرجوع إلى دينهم فخافوا لأنه لم يسمح لهم وعرفوا أن مصيرهم القتل، وكونوا زاوية لهم وتصوفوا، إلا أن كثيراً من المسلمين كانوا يشكون في إسلامهم لأنهم كانوا يمزجون بين تعاليمهم السرية وتعاليم الإسلام، وقال بعضهم[58]:

أسلم الكافرون بالسيف قهراً　　وإذا ما خلوا فهم مجرمون

سلموا من رواح مال وروح　　فهم سالمون لا مسلمون

كان مذهب القبالاة يدعو العبد المؤمن إلى نبذ أحكام الشريعة الظاهرة، على أن يخلو العمل من العلل والأهواء الباطلة، فمن جعل التصوف علماً مستقلاً عن أحكام الشريعة فقد صدق، ومن جعله عين أحكام الشريعة فقد صدق[59].

والسؤال المطروح: هل يمكننا فصل التصوف الإسلامي عن القبالاة اليهودية؟

الجواب، لا يمكن، لأن موضوع التصوف لدى كل الأديان السماوية وموضوعه هو (حب الله) لحاجتنا إلى الله، وحاجة الله إلينا، وكما عرَّف الفيلسوف اليهودي **هنري برجسون** التصوف بقوله: «إن غاية المتصوف في كل الأديان هو بذل الجهد للاتصال بالمبدع الخالق الذي يتنزه عن العالم ومن ثم هو اتحاد جزئي به، وهذا الجهد الإنساني هو شيء من الله، لأنه يحول الإنسان باتجاه الله، والمتصوف الكبير (العارف بالله) هو ذلك الإنسان الذي يتخطى الحدود ليصل إلى الله. هذا هو تعريفنا للصوفية»[60]. إذا قلنا إن الإنسان بحاجة إلى الله، فكيف نقول: إن الله بحاجة إلى الإنسان؟ يرى ابن عربي «أنه لولا ظهور الحق في أعيان الخلق ما كانت صفاته وأسماؤه ولما عرفناه»[61]. هذا القول هو جوهر القبالاة، وإن الإنسان العارف لله أو الصديق الذي يستمد قوته من عالم الغيب ومن الإلهام الرباني، نال الكرامات والتكهن بالمستقبل، ومن يصل إلى هذه المرتبة هو عند اليهود من الصديقين الذي ينتظرون مجيء المسيا المنتظر أو المخلص، وقد تمتد قدرتهم حتى بعد وفاتهم، ويتقدم إليهم اليهود بالنذور والشموع

ويـزورون قبورهـم ويجتمعـون حولـهم وهـم ينشـدون ويضربـون الدفـوف، وزيـارة القبور عند اليهود من الطقوس المقدسـة، فـي النـهار يركب الحاخام الأكبر وبين يديه يحمل المريدون الأعلام وهـم يرتلـون علـى نقـر الدفوف وفي الليل يحملون القناديل والشـموع، وتقـف النسـاء حـول قـبر الولـي (الصدّيـق) وهـن متزينـات مبتهجات. وفي دمنهور قبر الحاخام يعقوب أبو حصيرة (1807- 1880) المدفون في دمنهور وهو من يهود المغرب جاء إلى مصر وتوفي فيها. وظهرت لـه معجـزات في مصر والمغرب، في حياته وبعد مماته كان يشفي المرضى. ومن نسله الحاخام باباساله أبو حصيرة (1890- 1980) ولد في المغرب وعاش في مصر وهاجر إلى إسرائيل منذ عام 1964، واستقر في مستعمرة أنتيغوت وهـي أكبر تجمع ليهود المغرب في إسرائيل[62].

وإذا كنا نرى أن القبالاة هو من نتاج الثقافة الإسـلامية، ظهرت من مدرسة ابن مسرة القرطبي وتأثر بها الفيلسوف اليهودي موسى بن ميمون، وتابعه موسى بن عزرا اللاوي الأندلسي في كتابه (سفر الزهـروت) أي الزوهـر وهـو الضياء أو النور. وهذا المذهب محور دعوته أن يموت المؤمن منهم في أرض فلسطين وقرب الهيكل المقدس.

ولكن اليهود ينفون تـأثر مذهب القبالاة بـالفكر الإسـلامي ويقولـون إن هـذا المذهب كان موجوداً منذ أيام الفيلسوف اليهودي فيلون الإسـكندري والـذي تابعه أفلوطين المصري، وانتقل تأثيرهـا إلـى فلاسـفة الإسـلام الكبـار أمثـال الحـلاج والسهروردي وابن عربي وغيرهم، ثم تأثر به موسى بن مسمون وعزرا بن موسى الـلاوي، فالقبـالاة لـها السـبق فـي التقـدم وإن اختلطـت فـي النهايـة بـالتصوف الإسلامي. هذه المسألة يلزمها التعمق والدراسة المستفيضة.

## يهود مصر والتجارة

يعمل اليهود بالتجارة والحرف، وفي مطلع القرن العشرين كانت بيدهـم 60٪ من أعمال تجار القاهرة والإسكندرية. وكـانت عـائلات منهم تعمل فـي الصرافة تحولـوا إلـى العمل البنكي والمصرفـي، كمـا عملـوا فـي عمليـات الغـزل والنسـيج وصناعة السكر وفي الصباغة والحدادة والطباعة.

وبعد الحرب العالمية الأولى تدفق إلى مصر حوالي 11 ألف يهودي من تركيا، فصار عدد اليهود المسجلين في مصر حوالي 30 ألف نسمة، وزاد عددهم في عام 1938 إلى 66 ألف يهودي في القاهرة والإسكندرية، وبلغ عددهم عام 1947 نحو 70 ألف يهودي جاؤوا من أوروبا من رومانيا والقسطنطينية وإزمير وسالونيك. وبعد عام 1948 بعد قيام دولة إسرائيل هاجر يهود مصر إلى أوروبا وأمريكا وكندا وأمريكا الجنوبية (الأرجنتين) وأوستراليا، وبقي اليهود القدماء في مصر يمارسون حياتهم التجارية والصناعية بحرية دون أن يتعرضوا إلى أي ضغط سياسي[63]. ولكن بعد الاعتداء الثلاثي على مصر من قبل فرنسا وإنكلترا وإسرائيل، هاجروا إلى إسرائيل من ضغط الدولة والشعب معاً. ولم يبق في مصر سوى 100 يهودي لخدمة الكنس والمقابر في القاهرة والإسكندرية والفيوم.

**الصحفي اليهودي يعقوب صنوع (1839- 1912)**

ولدي يعقوب بن يوسف صنوع في حي شبرا القديم عام 1839م، من أسرة يهودية متوسطة الحال، وكان والده الربي يوسف رجلاً مثقفاً له صلات بالبلاط الخديوي، وكان متقناً للعربية، وكانت أمه سارة امرأة متدينة، وروى يعقوب أسطورة حول ولادته قال فيها: إن أمه كانت امرأة مكلومة جاءها أربعة أطفال ولكنهم ماتوا وهم صغار. فقالت لها إحدى جاراتها "لِمَ لا تذهبين إلى أمام مسجد الشعراني إنه رجل صالح، واطلبي منه أن يعمل لك حجاباً" فذهبت سارة إلى الشيخ وطلب منها "أن تنذر ما في بطنها لله وللإسلام" فقبلت وعندما جاءها ولدها يعقوب نذرته لله[64].

حافظت الأم على نذرها وأرسلت الطفل إلى الكتّاب وحفظ القرآن، ودخل المدرسة الابتدائية وتعلم العربية والإنكليزية، وكانت عيناه تصاب بالرمد الدائم. ودخل المدرسة الابتدائية العبرية (تلمود - هاتوراه) ودرس التوراة وأتقنها حسب رواية يعقوب الذي يعظم ذاته دائماً، قال: «وحين بلغت الثانية عشرة كنت أقرأ التوراة بالعبرية والإنجيل بالإنكليزية والقرآن بالعربية وأفهمهم تماماً»[65]. وفي هذا القول مبالغة وتهويل.

انظر إلى ما يقوله في الموقف التالي: «وأول قصيدة نظمها وعمره 13 سنة وقدمها للأمير أحمد حفيد محمد علي، وعندما قدمه أبوه للأمير قال له: أن

يقبّل يده، فقال يعقوب: لا، وسمع الأمير اللغط، وتوجه يعقوب للأمير وقال: لا أدري لماذا يريد والدي أن أقبّل يدكم الملكية؟ هل أنت إمام أم قسيس أم حاخام؟ فتبسم الأمير وقال: بل أنا إنسان مثلك! فرد يعقوب: لا بل أنا أعرف قرض الشعر وأنت لا تعرفه». ولما سمع الأمير القصيدة أعجب بها وقرر إرسال الطفل إلى أوروبا على نفقته الخاصة، وأمضى في أوروبا يدرس عدة سنوات، وعرف أربع لغات أوروبية. وفي الخامسة والعشرين من عمره صار يعرف ثماني لغات كتابة وحديثاً. عاد يعقوب إلى القاهرة وفكر في مسرح وطني وأسس فرقة من الذكور ومثَّل أمام الخديوي إسماعيل أربع مسرحيات:

الأولى: (آنسة على الموضة): كانت من فصل واحد نالت إعجاب الخديوي لما فيها من مواقف متعارضة ومتناقضة.

الثانية: (الضرتان): ناقش فيها مسألة تعدد الزوجات، وتبحث في تصدع الأسرة المصرية، فهي ملهاة من نوع أخلاقي ولكنها لم تعجب الخديوي.

الثالثة: (غندور مصر): تمثل الشباب المتحذلق، وتحصل للشاب غندور مواقف تثير السخرية وقد أعجب بها الخديوي إسماعيل.

كانت مسرحيات يعقوب صنوع مسرحيات مستلهمة من التراث اليهودي، ولكنه صاغها صياغة حديثة، وبلغة واضحة، عرف ذلك يعقوب من خلال اطلاعه على المسرح الفرنسي. ولقبه الخديوي إسماعيل بموليير مصر.

الرابعة: (مدموزيل صفصف): تمثل المسرحية فتاة يهودية لعوب تدعى صفصف ونتيجة لعبثها بالرجال ساءت سمعتها فهجرها الجميع وأصبحت وحيدة، وانقلب الضحك إلى حزن وغضب رواد المسرح لهذه النهاية، وسأل يعقوب أحد الشباب ما الذي أثار غضبه؟ فقال: يا موليير مصر، أنت تعلم أن صفصف فتاة شريفة فيجب أن تجد لها زوجاً يليق بظرفها وجمالها. وفي اليوم التالي رضخ يعقوب صنوع لرغبة الجمهور وزوّج الفتاة وخالف النص الأصلي.

ومثَّل يعقوب صنوع رواية ليلى وهي مأساة (تراجيدي) كتبها له صديقه الشيخ محمد عبد الفتاح والمسرحية من فصلين، في الفصل الأول يقتل الطاغية أربعة أخوة هم أولاد سيد القبيلة، وكان في القاعة عسكريان لحفظ الأمن، فهمس أحد لهما: أيرضيكما أن تقترف هذه الجريمة أمامكما؟ وما إن سمعا القول حتى قفز أحدهما إلى خشبة المسرح وقبض على الطاغية، فدوَّت القاعة

بـالضحك والتصفيـق، وصـار هـذا الموقـف مثـاراً للتعليـق فـي جميـع أوسـاط القاهـرة[66].

نال مسرح يعقوب صنوع الرضى والشهرة في القاهرة ومثّل عدة مسـرحيات (شيخ الحارة، وبقلاوة آغا، وديوان السنجق دبوس، وغيرها) وهي من المسـرحيات التي كان الشباب اليهودي يمثلونها في الحارات، وأعاد تمثيلها يعقوب صنوع وهـو مثال للوصولية والنصب.

في عام 1865، ساهم يعقوب صنوع بتأسيس المحفل الماسـوني المصـري، لأن الخديوي إسماعيل كان يخشى الماسونية، كما وضع يعقوب نفسـه تحت تصـرف عدة سفارات وبدأ يتمادى، فأمر الخديوي إسماعيل سنة 1874 بإغلاق مسرحه.

انصرف يعقوب في خدمة محفل محبـي العلم الماسـوني، وألقـى فـي المحفل خطبة حول ضرورة الإصلاح، مما أثار غضب الخديوي إسماعيل فـأغلق المحفـل، ولكن أحمد خيري باشا محـرر جريـدة الوقـائع، وكـان ماسـونياً وصديقاً ليعقوب، توسـط بينـه وبين الخديـوي إسـماعيل، فـأصدر جريـدة هزليـة باسـم (البعوضـة) أصدرهـا بالفرنسـية فـي أربـع صفحـات سـنة 1877، ثـم اصـدر صحيفـة أخـرى بالفرنسـية سـماهـا (النظّـارة). وفـي سـنة 1878 أصـدر يعقـوب جريـدة سـماهـا (الثرثـار المصـري) أصدرهـا بثمـاني لغـات، وكـانت أربـع صفحـات فكـانت أوسـع الصحف المصرية في عصرها.

يروي يعقوب عن نفسه أنه بينما كان يتنزه في حي شبرا هـو والكـابتن مسـيو جرار إذ خرج عليه شخص وطعنه فـي 1 أيـار عـام 1878، ولكـن القـدر أنقـذه لأن طعنة الخنجر جاءت في حزامـه الفـولاذي، فغـادر القـاهـرة إلـى بـاريس لأنـه أدرك الخطر المحدق به في 20 حزيران عام 1878م.

هذه كتبها يعقوب في مذكراته ولم يسمع بها أحد من رفاقه في زمنـه. وصـل يعقـوب إلـى بـاريس وصـار يـدرِّس اللغـة العربيـة للأجـانب وللعـرب الذيـن يرغبـون بذلك من أجل المعيشة.

ذهب يعقوب صنوع إلـى الآسـتانة ووضـع نفسـه تحـت تصـرف السـلطان عبـد الحميـد خـان (1874- 1909) وقـد طلـب السـلطان منـه مهاجمـة الخديـوي إسماعيل والإنكليز، وزوده بالمال وتغيرت أحواله الاقتصادية، وصار يكتب ويهاجم

الخديوي إسماعيل باسم (شيخ الحارة) مستخدماً نفس الأساليب التي كان يستخدمها اليهود في مهاجمة المماليك بمسرحية (شيخ البلد).

وعندما خلع الإنكليز الخديوي إسماعيل عام 1883، وعينوا بدلاً منه ابنه توفيق، صار أبو نظارة يهاجمه وكتب «صدق من قال: لا تفرحوا لمن يروح، لما تشوان من بيجي! شوف يا عزيزي، إذا رب العالمين عيّن سيدنا موسى ناظر مالية وسيدنا عيسى ناظر خارجية، وسيدنا محمد ناظر جهادية، كن متيقناً أن الفرعون يعمل شغله يسحرهم ويضحك عليهم. وكلما مسكوه يسرق وقالوا له: جزاء الحرامي قطع يده! قال لهم: والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس توبة من دي النوبة. لذلك أقول وهذا رأي جميع أبناء مصر يبقى شيخ الحارة على حاله» هذه هي لغة يعقوب صنوع اللغة العامية.

وفي 29 أيلول عام 1883، صدرت جريدة الوطني المصري في ست صفحات ولكن في عام 1884 صدر أمر بمنع جرائد يعقوب، وصدر العدد الأول من مجلة (أبو نظارة - مصر للمصريين) عام 1884، واستمرت بالصدور حتى عام 1910، كان يعقوب لا يحسن العربية ولا لغة من اللغات الثماني التي ادعاها وهذا نموذج من شعره في عام 1884 يقول:

مستر توفيق بن إسماعيل     مالو رفيق في وادي النيل
الناس سابوه لأنه خان     مصر وأبوه حتى السلطان
باع للأجنبي كل الأصحاب     أهبل وغبي غشاش كذاب

وفي عام 1904 عندما عقد الاتفاق الودي بين فرنسا وإنكلترا، كفّ يعقوب عن مهاجمة فرنسا وظل يهاجم الإنكليز. وعندما أصدر جاك قطاوي اليهودي جريدة التودد عام 1905، بباريس، وصارت تصدر بحجم الكتب العادية، وكان يعقوب صنوع هو رئيس تحريرها، كثر اللغط عليه من المسلمين، فأصدر مجلة بالفرنسية باسم (العالم الإسلامي) عام 1907، وبدلاً من أن يكتب عن نضال الشعب المصري والسوداني، صار يكتب عن نضال البوير في جنوب أفريقيا ويهاجم الإنكليز.

في صيف عام 1912، توفي أبو نظارة زرقا في باريس، وبخبث اليهود جعله المصريون صحفياً مصرياً ثورياً صاحب نزعة وطنية، والصواب أنه كان يهودياً

من طائفة القرائين وكان مناوئاً للربانيين (التلموديين). وهو يحاول دائماً التقرب من المسلمين بأن يشتم الربانيين وهم الأكثرية في مصر.

**قصارى القول**

كان يعقوب صنوع مثالاً للشخصية اليهودية الانتهازية، التي تجيد صنع الأقنعة وتظهر بمظهر البراءة والله أعلم ما بداخلها.

## اليهود في اليمن (صنعاء وحضرموت)

اليمن دولة عربية، اشتهرت بالتجارة منذ الألف الأول قبل الميلاد، وقامت فيها دولة سبأ، الدولة التجارية التي كانت تتاجر بالذهب والعطور والتوابل، وكانوا يشتهرون ببناء القصور المرمرية، وكانت علاقاتهم جيدة بمصر وسورية. كانت بها جالية يهودية، تقول التقاليد اليهودية اليمنية إن الملك سليمان زار دولة سبأ، وتزوج بالملكة وجاءه منها ولد، وكان اليهود يتاجرون بالعاج والأبنوس والخيل والقردة والطواويس (الملوك 10 : 22). ويقول الأخباريون العرب إن الملكة التي التقى بها سليمان هي الملكة بلقيس، وبنى لها قصراً في أورشليم (القدس) ولكن لا توجد وثائق تاريخية تؤكد ذلك، أو أن بعض الملوك اليهود حكموا مدناً في اليمن.

يقول الحاخام يحيى بن اسحق من يهود اليمن: «أتى الدين اليهودي من أرض كنعان، مع المبشرين قبل تشتيت شملهم من القدس، جاؤوا إلى اليمن على الطريق في البر، وكان يهود اليمن عرباً، ولا يوجد عندنا يهود غرباء، ولا صهيونيون، والمبشرون الذين جاؤوا مع التجارة، قفلوا راجعين من حيث أتوا»[67]. وأما الحاخام الأكبر ليهود اليمن يحيى بن سعيد الجريدي المقيم في زمار باليمن فقال: «إن اليهود أتوا إلى اليمن بعد خراب الهيكل عام 70م، ونزلوا في مكان يقال له (برش) واقع شرق جبل نقم المحيط بصفاء من جهة الشرق»[68].

ويؤكد ابن خلدون أن اليهودية كانت فاشية بين قبائل اليمن (قبائل حمير) وكانت اليمن عرضة للصراعات الدولية بين الرومان والفرس، وكان الأحباش يمثلون الرومان وكانوا مسيحيين، وكانت قبائل حمير تدين باليهودية وكان في نجران الملك ذونؤاس اليهودي ملك نجران وهو صاحب الأخدود الذي حرق فيه

المسيحيين. وفي عام 636 فتح المسلمون أرض اليمن وعينوا الولاة وكانوا يحسنون معاملة اليهود، حتى الفتح العثماني لليمن (1538- 1630).

وكان المجتمع اليمني مجتمعاً مغلقاً ومنعزلاً، وكان اليهود جزءاً من الشعب اليمني لا يختلفون فيه لا في اللغة واللباس والعادات، وكان مذهب القبالاة هو الذي يدعو يهود اليمن للهجرة إلى فلسطين، وفي عام 1570م، هاجر الحاخام سليمان العدني إلى القدس وتولى هناك منصب الحاخام الأكبر ولم يهاجر معه من أهل اليمن أحد. إلا أنه في عام 1740 هاجر الحاخام سليمان الشرعبي شيخ الطريقة الصوفية (القبالاة) وأسس في القدس زاوية باسم (بيت أيل) أو (بيت الله) وهاجرت معه بعض العائلات من صنعاء.

حرر اليمنيون بلدهم من حكم العثمانيين عام 1630، وحكمت أسرة زيدية، وعندما حاول العثمانيون فتح اليمن ثانية عام 1872، أدخلوا بعض الإصلاحات الاجتماعية والسياسية وانفتح اليمن على العالم الخارجي.

عينت الدولة العثمانية حاخاماً أكبر على اليمن هو الحاخام باشي اسحق شاؤول عام 1872، وكان من أهل القسطنطينية، فناصبه يهود اليمن العداء، لأنه لا يعرف اللغة العربية، وعين أول حاخام عربي من أهل اليمن هو سليمان قرة بن أيوب (1849- 1889) ولكن الوالي التركي لم يرض عنه لأنه لا يعرف اللغة التركية وكذلك لم ترض عنه طبقة التجار اليهود الأثرياء.

وفي زمن الحاخام الأكبر يحيى بن اسحق فاقح (1899- 1913) الذي كان عربياً ذا ثقافة إسلامية، وكان صديقاً للإمام يحيى المتوكل على الله (1912 - 1948) أيده في محاربة الأتراك وحرر صنعاء من حكمهم عام 1913، وجعل العاصمة صنعاء عام 1918، وكان شيخ الطريقة الصوفية (القبالاة) ينظر إلى الأتراك على أنهم كفار لأنهم أغروا الفتيات اليهوديات لممارسة الدعارة في ميناء عدن، ولكن ظاهرة الدعارة في عدن تعود إلى سنين طويلة، لأن كل ميناء يعج بالغرباء، وقد ذكر الرحالة المسلم ابن المجاور (القرن 16م) أن ميناء عدن كان يشتهر بالصابون الرقي وبالنساء المومسات، وكان المجتمع العدني مفتوحاً نحو الغرب خصوصاً بعد أن احتل الإنكليز عدن 1870م. وبدأت الإرساليات اليهودية تزورها وفتحت رابطة (إخوان صهيون) مدرسة للتعليم حديثة في عدن في عام 1875. وهنا تنبه الحاخام يحيى فاقح إلى أهمية التعليم الحديث فافتتح مدرسة

في صنعاء (1909- 1913) وصارت تعلم بعض الأنشطة الصناعية كصناعة الصابون والحلويات، أسوة بمدرسة عدن، وكان التدريس باللغة العربية، والتقاليد اليهودية القديمة.

في عام 1953 أصدرت جمعية النشر اليهودية في نيويورك كتاباً بعنوان (إسرائيل بين الشرق والغرب) لمؤلفه رافائيل باتاي اليهودي، أورد فيه معلومات وإحصاءات عن اليمن حتى عام 1952، وتحدث عن التفاعل بين التعاليم اليهودية القديمة والنزعة الصهيونية، واعتبر أن يهود اليمن عرباً من أجناس البحر المتوسط، وأنهم متوسطو القامة وألوانهم تختلف بين البياض والسمرة، وعيونهم سوداء ورؤوسهم مستطيلة ضيقة، فهم كالعرب المسلمين الذين يعيش اليهود بين ظهرانيهم في اللغة والتاريخ والعادات، وكان عددهم في فلسطين حوالي (20) ألفاً عام 1878م.

وكانت الهجرة الأولى عندما اشترت الوكالة اليهودية أرضاً منة عرب قرية الملبس التي تبعد حوالي ثمانية أميال شمال يافا، وأنشأ عليها مستعمرة جويل موشي سالمون (الهنغاري) سماها بتاح تكفا، أي (باب الأمل). والسؤال المطروح: لماذا فشلت هذه المزرعة؟ لأن العرب الذين يحيطون بهذه المستعمرة كانوا لا يكفون عن مهاجمتهم، إذ رأوا فيهم دخلاء يريدون انتزاع وطنهم الذي استقروا فيه منذ آلاف السنين[٤٩]. وبفضل الإعانات التي قدمها الثري الإنكليزي البارون روتشيلد (1882- 1904)، بدأت المستعمرات اليهودية تظهر، وانجذب يهود اليمن إلى الهجرة.

كانت الدعاية المنتشرة بين يهود اليمن، أن البارون روتشيلد اشترى أرضاً واسعة لهم بجوار القدس، وسيمنحها لهم بالمجان، فهاجرت مائة عائلة من صنعاء وما حولها عام 1882، وكانت تلك بداية الهجرات اليمنية.

**الهجرة الأولى (1882- 1900)**

عندما جاء يهود اليمن، سكنوا القرى مع الفلسطينيين المسلمين، وكانت أبنية المستعمرة من لبن ذات جدران سميكة، فضلوا عليها المساكن الحديثة التي سكنها اليهود الأوروبيون قرب تل أبيب، وكانت البطالة تتفشى، وكذلك قسوة الحصول على الطعام بالبطاقات، وكانت المواصلات سيئة.

**الهجرة الثانية (1907- 1908)**

زاد عدد اليهود فبلغوا 2500 نسمة، وصلوا إلى القدس فلم يجدوا أرضاً، وساءت معيشتهم وأقاموا في مستعمرة كفر سلوان، قرب القدس، وفي يافا سكن 200 شخص.

**الهجرة الثالثة (1911- 1912)**

في هذه السنة نزح من اليمن حوالي 1500 يهودي، واستقروا في قرى الخليل، وسكنوا في معسكر الاستقبال لمدة طويلة.

**الهجرة الرابعة (1923)**

في هذه السنة جاء إلى اليمن حوالي 250 يهودياً، جاؤوا بالبحر وسكنوا في قرى بئر السبع.

**الهجرة الخامسة (1933)**

نزح من اليمن حوالي 4500 يهودياً وانقطعت الهجرة لمدة، بسبب المقاومة العربية (1934- 1938).

**الهجرة السادسة (1939)**

هاجر من اليمن إلى فلسطين حوالي 15 ألف نسمة، جاء معظمهم من محمية عدن بعملية تدعى بساط الريح، لأن الحرب العالمية الثانية قامت، وعمت البطالة، وساءت أحوال اليهود المعاشية. وعندما جاؤوا إلى فلسطين وضعوا في معسكرات الاستقبال، وكانوا يمنعون من احتراف أي عمل وبلغ عددهم حتى عام 1949 حوالي 112 ألف، وكانوا يعادلون 10٪ من مجموع السكان اليهود. ولكن لم يكن لهم أي دور سياسي. ففي انتخابات الكنيست عام 1949، كان عدد اليهود العام في فلسطين 760 ألفاً، ولكن حصل يهود اليمن على 4399 صوتاً، أي ما يعادل 1٪. وأما في انتخابات عام 1951، حصلوا على 7905 صوتاً، وشعر اليهود اليمنيون بالظلم والتفرقة العنصرية، فأصدروا كتباً صوروا فيها حالهم ووضعهم

الاجتماعي، وتدني أجورهم وسوء حال مساكنهم، والأعمال القاسية والشاقة التي تسند إليهم، وبأجر قليل، ويشكون من عدم اعتراف إسرائيل بثقافتهم وتقاليدهم العربية الخاصة بهم(70).

ولكن الدولة الإسرائيلية لبَّت بعض مطالبهم وأنشأت لهم مدارس تسمى (مزراحي) ولكنهم طالبوا من جديد بتأمين مدرسين يمنيين من أبنائهم يجيدون العربية وباللهجة اليمنية تساعدهم في نطق اللغة العبرية.

في عام 1951 وزعت الدولة اليهودية مدرسين على القرى العربية في نطاق القدس وحيفا ويافا وبيت لحم والرملة وبئر سبع وغزة. وظل يهود اليمن وما ما زالوا يستخدمون اللغة العربية في حياتهم العادية وفي الكنيس، وظل يهود اليمن يطالبون بتطبيق التوراة في حياتهم السياسية والاجتماعية. لأن التوراة في نظرهم هي الناظم لحياتهم، ولأن يهود اليمن لا يعرفون لغة أوروبية، فهم من أنصار اليمن المحافظ، وكان اليهود الغربيون (الأشكناز) ينظرون إليهم باحتقار وإلى كل اليهود العرب، وشنت الصحف اليهودية اليسارية واليمنية حملة على المراكشيين وصفتهم بالقذارة والدعارة، وهم دائماً مصابون بالأمراض السرية (الزهري والسفلس) والأمراض الجلدية والرمد، وإنه يجب ألا يستمر هذا العنصر بالتمرد، ويعتبرون اليهود الأوروبيين في الدرجة الأولى (العليا) واليهود الشرقيين (العرب) في درجة دنيا(71).

# المحور الرابع : اليهود في سورية وفلسطين

تعتبر سورية الكبرى، أراضي بلاد الشام كلها، وسأقتصر على دراسة اليهود في دمشق وحلب والقدس وصفد. في سنة 1492 سقطت الأندلس بيد الإسبان وطرد المسلمون واليهود منها، وهاجر بعضهم إلى دمشق وحلب وصفد والقدس والقسطنطينية وإزمير، ولأنهم يعرفون العربية اندمجوا مع السكان في البلاد العربية. وجاءت بعدها هجرات من أوروبا الشرقية وسموا بالأشكناز.

ألزمت الدولة العثمانية اليهود بلبس الغيار، فارتدوا قبعات زرقاء على أن يبقى الشاش الملفوف على الطاقية أصفر، أما الحاخام فيجب أن يلبس جبة جوخ ويضع زنار حرير، وشال كمخة ويلبس فرو سمور، وشروال جوخ، وثوب غباني وطاقية قصب، أما زي المرأة اليهودية فإنه لا يختلف عن زي المرأة المسلمة إلا أن تترك أحد ذراعيها خارج إزارها.

واشتهر من أطباء دمشق الحكيم يوسف اليهودي (المتوفى 1638) والحكيم سعد بن حمرة اليهودي (1680- 1740) والحكيم المعلم هدايا (المتوفى 1796) والطبيب عبد الحكيم اليهودي (المتوفى 1787)[72].

وعلى أثر قيام الثورة الفرنسية عام 1789 تحطمت سلطة الكنيسة في الغرب وانتشرت مبادئ (الحرية والعدالة والمساواة) وظهر البرلمان وقام نابليون بحملته على مصر وعكا (1799- 1803)، واهتزت أركان الدولة العثمانية ونقل اليهود مبادئ الثورة الفرنسية على شكل مبادئ إنسانية ودينية تحت شعار البناة الأحرار Free mason، وصار شعارهم الدين لله والوطن للجميع، وبدلاً من كلمة الله خالق الكون صار شعارهم "سبحان الله مهندس الكون الأعظم" ليضفوا العلمانية على مذهبهم السري ومبادئهم الصوفية اليهودية (القبالاة) وجاءت الإرساليات المسيحية وحملت معها المطبعة الحديثة، وانتشر الكتاب في ربوع الشرق، وطبع الإنجيل والتوراة. وتحسنت أحوال اليهود، وقد قدّر بيكنجهام عدد سكان يهود سورية وفلسطين عام 1816 بحوالي 100 ألف نسمة، منهم (15) ألف نسمة في

دمشق و(7) آلاف يهودي في حلب، والباقي موزعين في فلسطين ولبنان، وقد عاملوا السامرة على أنهم فرقة يهودية.

## يهود دمشق وحلب

يتجمع اليهود عادة في حي خاص بهم، وفي دمشق تجمعوا بحي اليهود قرب باب توما (هو اليوم حي الأمين)، سكنته الطائفة الربانية، ومحلة الزيتون قرب باب كيسان سكنته طائفة القرائين. وبعض اليهود سكنوا في جوبر وفي حي العنابة بالقرب من برج الروس حالياً، يعرف بدرب السامري.

كانت الأحياء اليهودية ذات طابع معماري خاص بهم، لكل حي باب يغلق منذ المساء ولكل حي شيخ الحارة، يتولى أمورها ويعين الحراس والسقايين، وكانت كنسهم في أحيائهم، ما عدا كنيس جوبر الذي يعتقدون أن النبي الياس بناه عند اضطهاد إيزابيل له، وهذا الكنيس فخم البناء له ثلاثة قناديل كبيرة تضاء بالزيت وفيه تقام الأعياد[73].

وصف المؤرخ ابن كثير (المتوفى 1375م) حارة اليهود بقوله: «إنه في منتصف رمضان من سنة (1364م) فتح باب كيسان، وكان قديماً كنيسة، ثم حول إلى مسجد، وسيق إليه الماء من القنوات، وسموه بالباب القبلي ووضع عليه جسر، و صار طريق سالكة، وزاد عرضه عن عشرة أذرع، لأجل عمل الباسورة (مصارف المياه) على جنبه، ودخلت المارة عليه من مشاة وراكبين وانكشف داخل الحي، وبذلك أمن الناس من غش اليهود مكرهم وانفرج الناس بهذا العمل المبارك»[74].

ويروي ابن كثير أنه «جاء كتاب من مصر بإلزام اليهود للغيار، وأن لا يركبون الخيل والبغال ولكن الحمير لا غير، ولا يدخلون الحمامات إلا بعلامات، وكان اليهود يضعون بأعناقهم جرس صغير أو يوضع خاتم نحاس أصفر، وكذلك نساؤهم لا يدخلن حمامات المسلمين وليكن لهن حمامات خاصة، وأن يكون إزار النصرانية أزرق واليهودية كتان أصفر، وأن تضع اليهودية في رجلها اليمنى خفاً اسود، واليسرى خفاً أبيض، وأن تكون أحكامهم على الأحكام الشرعية، فحصل ذلك للمسلمين خير كثير»[75].

يصور ابن كثير حالة اليهود أثناء الضنك والاضطهاد ويرى بذلك خير كثير للمسلمين، إنه ومعمله ابن تيمية لا يرتاحون إلا بظلم العباد الذين يخالفونهم

بالدين والمذهب. ولكن بالممارسة العملية كانت قوانين الحياة هي الأقوى وكان حسن الجوار بين المسلمين واليهود والمسيحيين يعيشون أخوة، وأحياناً تجري بينهم زيجات. كتب المؤرخ اليهودي جريتز: «أحسن العرب والمسلمون بعدالتهم وإنسانيتهم إلى اليهود الذين كان منهم الأطباء والمعلمين»[76].

نستدل على حسن الجوار والمعاملة الحسنة من وثائق المحكمة الشرعية بدمشق، فالوقف اليهودي يعامل كالوقف الإسلامي. كان المشرف على وقف كنيس جو بر بشه بن يوسف أرازي اليهودي (1770- 1802) وكانت مهمته أمام السلطات مقتصرة على الإيجار والتعمير والترميم والقبض والصرف، ولما مات اختار اليهود من بعده يعقوب بن اسحق، وثبت بموجب قرار من قاضي دمشق، وكان لكنيس جوبر وقف من أرض الغوطة يعمل فيه الحاج أمين برنابا وعلي ذياب ومصطفى بن عبيد وكلهم من أهالي جوبر، وعندما أراد القراؤون بيعه وبيع أرض لهم في حي الزيتون سنة 1832 إلى المسيحيين الروم الكاثوليك اعترض عليهم المفتي محمد أمين عابدين أمين الفتوى الحنفي لأن ذلك غير جائز[77]. ولكن القاضي سمح لهم بالبيع وبنيت على تلك الأرض بطركية الروم الكاثوليك بحي الزيتون.

وانتخب اليهود في حي اليهود قرب باب توما رئيساً لحارتهم فرج بن موسى عام 1802 وصار المتولي لشؤونهم أمام السلطات المدنية.

في عام 1855 قدّر الرحالة بورتر عدد سكان دمشق الإجمالي بـ 150 ألف نسمة وعدد اليهود بـ 4600 نسمة. والسؤال: لماذا نقص عدد اليهود؟ الجواب: عندما دخلت قوات إبراهيم باشا المصري إلى بلاد الشام (1832- 1840) فتحت القنصلية البريطانية لها مقراً في دمشق، وعين القنصل يونغ (1838- 1845) واتهم اليهود بقتل توما الكبوشي ومرافقه أبراهام عمارة فحكم القاضي على الحاخام الأكبر يعقوب عنتابي والحاخام ميشون أبو العافية بالإعدام فتدخل القنصل وخفضت عقوبة الإعدام عن الحاخام الأكبر وحكم على الحاخام ميشون أبو العافية فأسلم وتخلص من العقوبة، ولكنه هاجر مع بعض العائلات اليهودية إلى فلسطين، وسجل كثير من اليهود أسماءهم لدى القنصليات لحمايتهم فأسقطوا من ديوان الجوالي ولم يحسبوا في التعداد العام.

قـال الحاخـام الأكـبر ليـهود دمشـق موسـى سيسـون: «إن المسـلمين لـم يضطـهدونا وعاملونـا مثـل كـل النـاس بسـبب طبيعتـهم الجافـة، فـي حـين إن المسيحيين هـم الذيـن يضطـهدونا عمـداً»[78]. وسـبب اضطـهاد المسـيحيين لـهم لتهجيرهـم والاستيلاء على أراضيهم المجاورة لهم. نستدل على ذلك من سجلات المحاكم الشرعية بدمشق حيث استبدل المعلم اليهودي اسحق بن شحادة شاقة جميع أرض الجنينة والماء والغـراس فـي بلـدة النبـك بدكـان موجـود فـي محلـة الحراث التابعة لمحلة الخـراب مـن وقـف النصـارى اليعاقبـة وتم ذلـك بموافقـة القاضي الشرعي في 9 محرم 1217هـ الموافق 1802م[79].

## نشاط يهود دمشق الاقتصادي

تقتضي طبيعة العمران وجود التفاوت في مهن النـاس المعاشـية، وتبعـاً لذلـك فإن يهود دمشق يمكن تقسيمهم إلى ثلاث طبقات:

### 1)طبقة التجار والصرّافين

كـان بعـض تجـار دمشـق أصحـاب قوافـل تجاريـة تحمـل الحريـر والعطـور والتوابل واللؤلؤ والخمور والصابون بين القاهرة ودمشق وبغداد وحلب والآستانة، وكـان الخواجـة أبراهـام عبـد اللـه شـلوح صـاحب وكالـة خـان العـامود بدمشـق وشريكه سليم بن قرمونة المقيم في خان النجمة (يلدز) في الآستانة، وكانت لهم صلات تجارية مع تجار البندقية واستوكهولم وفيينا ولندن.

ومن عائلات الصيرفة المشهورة في دمشق، عائلة فارحي وإدارة الخزانة لدى ظاهر العمر (1750- 1755) وكان شحادة فارحي مقيماً في عكا عند أحمد باشا الجـزار (1735- 1804) أمـا سلمون فـارحي فكـان يقيـم فـي خـان الصـابون فـي حلب، وكان يتدخل في انتقاء خلف لسليمان باشا على ولاية صيدا عام 1818، وتم له ما أراد وهو الذي عين عبد الله الخزندار واستلم المنصب (1818- 1824) ولكنه انقلب على حاييم وأعدمه في عام 1820، ولكن نفوذ عائلة فارحي لم يتأثر لأن ثروة حاييم كانت تقدر بـ 500 كيس ذهب واستلم خزانة دمشق سلمون فارحي رغم شكاوى أهل دمشق عليه[80].

زاد نفوذ العـائلات اليهوديـة. فهذا الخواجـا اسـحق زلطـة يضـع نفسـه تحـت تصـرف قنصـل النمسـا ومثلـه الخواجـا هـرون هـراري يضـع نفسـه تحـت تصـرف

المستر قارن الذي كان يسكن زقاق القميم (1840- 1853) وعندما صدر الخط الهمايوني الشريف عام 1856 الذي أعطى حرية الأديان، وصار اليهود ينظرون إلى أنفسهم بالتساوي مع المسلمين قال أحد شعراء دمشق[81]:

يهود هذا الزمان قد بلغوا غاية آمالهم وقد ملكوا
المال منهم والجاه عندهم ومنهم المستشار والملك
يا أهل العصر أنصحكم تهودوا قد تهوّد الفلك

تقدم أهل دمشق بعريضة للسلطان العثماني يطالبونه بعزل الخزندار اليهودي سلمون فارحي، ولكن الوالي لم يستطع الاستغناء عنه، لأن تنظيم الدفاتر كان يتم بالخط اليهودي المسمى (القلفطيري) وهو أقرب إلى الطلاسم والرموز. ولكن الوالي ولي الدين باشا استطاع تأمين كاتب مسيحي من عائلة اسكندر الحمصية فدبر اليهود مؤامرة وقتل الكاتب المسيحي عام 1828، وأعاد رافائيل فارحي أميناً للخزانة وهو ابن سلمون فارحي. وهكذا نرى أن المال قوة اجتماعية لا تقهر.

**2)طبقة الحرفيين وأصحاب المهن الوضيعة**

ذكرت مجلة الشباب القرائين، أن اليهود يتوارثون الحرف في أسر معروفة ومن تلك الحرف الصياغة وتجارة الذهب والفضة، حتى إنك لا تجد يهودياً من طائفة القرائين لم يحترف هذه الحرفة، ويعود السبب إلى وفرة الربح وتوارث المهنة[82]. وكانت مهن الأطباء والعشارين والعطارين، الذين يصفون للناس الأدوية والعقاقير منهم، وكذلك كان من اليهود الربانيين البناؤون والمهندسون والخطاطون والرسامون، ومنهم أهل الفن كالممثلين لأن مهنة التشخيص كانت منبوذة، وكانت لليهود مقاهٍي خيال الظل (الكركوز) وللمسلمين مهنة الحكواتي.

## أعياد اليهود وأنشطتهم الدينية والاجتماعية

العيد في كل الحضارات مظهر من مظاهر تعاون الناس وتماسكهم، ويقام في المعبد أو في الطبيعة. ومن أعياد اليهود في دمشق وحلب:

**عيد يوم السبت**

في كل سبت لا يعمل اليهودي لأنه يوم راحة الرب، وتعد النساء الطعام، وتوقد الفوانيس، من ظهر يوم الجمعة. وفي يوم السبت يمتنع المنزل اليهودي عن

إضرام النار والموقد، ويلبس اليهودي الثياب النظيفة، ويتفرغ لتلاوة التوراة، ويتركون للخدم تسخين الطعام وتحضيره.

**عيد رأس السنة العبرية (حاسا)**

يقع هذا العيد أول شهر تشري ويوافق 2 أيلول، واليهود الربانيون يحتفلون به في كنيسهم في بلدة جوبر وينفخون بالصور (قرن كبش) لإعلان يوم العيد. ويوزعون الحلوى، وينشدون التراتيل.

**عيد الغفران (الكيبور)**

يقع هذا العيد في 29 تشري (أيلول) ومدته خمس وعشرون ساعة، منذ غياب الشمس في اليوم الثاني من 30 أيلول، وفيه يمتنعون عن العمل ويذهبون إلى الكنيس ويلبسون الثياب الجديدة ويأكلون الحلوى. ويضحون (الحيوانات أو الطيور) ويوزعونها على الفقراء.

**عيد المظال (يوم مهرجان التوراة)**

يقع هذا العيد في أيام الأظلة، ويبدأ من 15 تشرين أول ويستمر سبعة أيام، يلبسون الثياب الجديدة، ويأكلون الحلوى المجففة (التين والزبيب والجوز) والحلوى المصنوعة من اليقطين، ويعتقدون أنه في هذا اليوم أعلن عزرا النبي كتابه التوراة.

**عيد الفصح (عيد الفطير)**

يقع هذا العيد في 15 نيسان، ويحتفل فيه الربانيون ثمانية أيام، بينما يحتفل به يهود السامرة ستة أيام. ينظف فيه اليهود بيوتهم، ولا يأكلون إلا الفطير، ويبدأ هذا لدى الربانيين (يوم الاثنين أو الأربعاء أو الجمعة) وهو موسم التضحية والحج إلى بيت المقدس، والوقوف أمام حائط المبكى ويقدمون القرابين على الصخرة المقدسة، التي يعتقدون أنها من بقايا الهيكل المقدس الذي بناه هيرودوس الأدومي وهدمه القائد الروماني تيتوس عام 70م. بينما يحج السامرة إلى جبل جرزيم (نابلس) ويضحون على صخرة في مكان هيكلهم الذي هدم سنة 128 ق.م، وينحرون سبعة كباش سالمة من كل عيب، ويصلون ويقرأون التوراة دون ترنم أو بكاء.

**عيد العنصرة (شبعوت)**

يسمى هذا العيد عيد عشرتا وموعده في 6 من شهر (حزيران) وهو عيد نزول التوراة ولا يكون هذا العيد إلا يوم الثلاثاء أو الخميس أو السبت عند

القرائين ويصلون في معابدهم ويلبسون الجديد ويأكلون الحلوى. يذكر بنيامين التطيلي هذا العيد وقد حضره في الفيوم وكان بها من اليهود ألفين من القرائين ولهم كنيسان، الأول يسمى كنيس الشاميين، والثاني يسمى كنيس العراقيين، وتختلف في كيفية تقسيم التوراة. ويقسم اليهود الشاميين كل سورة (سفر) إلى ثلاثة فصول يتلون فيه فصلاً في كل أسبوع ويختمونها في دورة كل ثلاثة أعوام، ويعرف عميد يهود القرائين بالناغيد (بالعبرية تعني الزعيم) والناغيد في زمن بنيامين التطيلي هو (نثانيال بن صموئيل) واسمه العربي (الشيخ الموفق شمس الرئاسة أبو العشائر هبة الله بن زين بن حسن بن أفرايم بن إسماعيل الإسرائيلي)، وكان من الأطباء المشهورين خدم الملك صلاح الدين الأيوبي في مصر ودمشق[83]. والحاخام بن نثانيال هو الذي وجه إليه موسى بن ميمون رسالته عن يهود اليمن.

**عيد الفوز (البوريم)**

يبدأ هذا العيد في 13 آذار وهو بداية صوم استير ويستمر حتى 15 آذار ويحتفلون كبقية الأعياد، يحتفل فيه الربانيون والقراؤون والسامرة، ويرتلون في معابدهم نصوصاً من التوراة.

**عيد التنظيف (الحانوكة)**

يبدأ من ليلة 25 من شهر كسليف، ويقع في 25 كانون أول، تعزَّل فيه البيوت وتنظف استعداداً لفصل الشتاء، ويصادف هذا العيد مع عيد الميلاد.

**الموت والدفن عند يهود الشام**

الموت ظاهرة إنسانية اهتم بها الإنسان الأول، والدفن ظاهرة ثقافية تختلف بين الأمم والشعوب، وهي تدل على اعتقاد الإنسان أنه هناك يوم تعاد فيه الرمم وتحاسب (اليوم الآخر أو يوم المعاد) وأقدم النصوص التي أرخت للدفن هي التوراة التي أوردت قصة قتل هابيل من قبل أخيه قابيل ودفنه. وقد تعلم ذلك من رؤية الغراب الذي قتل زميله ودفنه.

وتختلف الشعوب في أمر جثة الميت، فمنهم من يأكل لحمه، ومن من يحرقه، ومنهم من يتركه للطيور الجارحة لتأكله كما يفعل المجوس. أما اليهود والمسيحيين والمسلمين، فعادة عندهم دفن الميت وتكفينه بالكتان الأبيض، ثم يحملونه، وفي الطريق كل من يرى الجنازة من اليهود يمشي خلفها ولو بضع خطوات وطلب

الرحمة للميت، ثم يصلون عليه في مصلى المقبرة، ومقبرة اليهود بدمشق تقع في منطقة الشاغور البراني، وقبورهم تتجه من الشمال إلى الجنوب، ويكتبون على شاهدة القبر بالعبرية أو العربية ويدوّن على شاهدة القبر اسم الميت وتاريخ وفاته، وشعارهم النجمة السداسية أو صورة شمعدان الحكمة السباعي.

**الختان والزواج في بلاد الشام**

يعتبر اليهود عادة الختان بأنها رباط العهد بين اليهودي وربه، ويحصل ختان الطفل في اليوم الثامن من ولادته، ويتم الختان بحضن عراب (اشبين) من بيت هارون، ولليهود عادات وطقوس في الزواج، تشبه عادات الوسط الذي يعيشون فيه، وفي كل خطبة لا بد من قبول وإشهار، ثم يعقد الحاخام عقد الزواج (شيطارا) وتحدد في صك الزواج المكتوب شروط المهر الخاصة، ثم تقام حفلة العرس التي تستمر ثلاثة أيام وتسمى (قدوس) فيها يعزفون ويرقصون حول العريس والعروس، ويصمد العروسان على دكة خشب. وتقدم للحاخام زجاجة من الخمر فيباركها بدعاء يتلوه بالعبرية، ويشرب جرعة من الخمر، ثم تدار الكؤوس، على الحاضرين حول العريس والعروس. وبانتهاء الحفلة يزف العريس زوجته، ولكنه يتجنبها لمدة خمسة عشر يوماً، ليؤدم بينهما، ثم تقام وليمة ويحضرها الحاخام الأكبر، والمدعوون من يهود وغيرهم من أبناء الطوائف الأخرى. والطلاق جائز عند اليهود، ولكن لا يحق للزوج تطليق زوجته إلا في حالات المرض والعقم أو الزنا. ولا يحق لليهودي أن يجمع امرأتين في عصمته.

## نشاط اليهود السياسي في سورية

بدأت المنظمات اليهودية العالمية تتصل بيهود المشرق عن طريق القناصل في البداية، وعندما ظهرت فكرة القومية في أوروبا، صاغ اليهود الصهاينة فكرتهم القومية (الصهيونية) على أساس العقيدة التوراتية، والأساطير التلمودية، وكان اليهود مكروهين من الشعوب الأوروبية، وتقدمت الصهيونية إلى الأوروبيين بأنهم جزء من حائط الحماية لأوروبا في آسيا، وبعبارة أخرى قدموا أنفسهم على أنهم الحصن المنيع للحضارة الأوروبية في وجه الهمجية الإسلامية، ويجب على أوروبا أن تضمن وجود اليهود في المقابل[84].

جاء موشيه مونتفيوري (رئيس المجلس اليهودي البريطاني) إلى فلسطين ودمشق وافتتح أول مدرسة لليهود في القدس عام 1835، وطلب من إبراهيم باشا المصري تأجيره أراض زراعية في فلسطين، ورفض طلبه، وصدر مرسوم عن الباب العالي عام 1849 واشترى أراض أميرية، وصار اليهود اليمنيون والمغاربة والهنغاريون يتعاطون الحرث والزرع وتربية الأغنام والأبقار، وأسسوا معاصر الزيتون وصناعة الصابون من حرفيين يهود حلبيين، واشتروا أراضي في مرج ابن عامر وبنى مونتفيوري حياًلليهود المهاجرين (اليهود المصريين) في القدس[85]. وفتح مدرسة في دمشق ومدرسة في القاهرة.

ذكر المؤرخ اليهودي حاييم كوهين عن اليهود في الشرق الأوسط: «إن اليهود في مصر وتركيا وسورية من أوائل الطوائف في الشرق التي تلقت تعليماً حديثاً، حيث جرى تغير جوهري على مدارس اليهود في الستينات من القرن التاسع عشر، إذ دخل عليهم تعليم اللغات الحية»[86].

بدأ اليهود يرفضون شعور العزلة والاضطهاد، وصاروا يتطلعون لدولة خاصة بهم تكون وطناً يجمع شتاتهم، وكتب الشاعر مراد فرج المصري:

| | |
|---|---|
| أنعيش مضطهدين، لم يعرف لنا | وطن، ويهمل أمرنا ويلاه |
| أهم اليهود على الخلائق عالة | يقضي عليهم بالأذى إكراه |
| إلا يا نسل إبراهيم هبوا | وجدّوا فقد مضى زمن المجون |
| ومضى زمان التوسل والتمني | ومضى زمن التلاوة والأنين |
| فهبوا للديار فكاليتامى | غدوتم في البلاد بلا معين |

## مشروع يقظة اليهود

وضع تيودور هرتزل كتابه عن (المسألة اليهودية) التي رأى فيها مسألة اجتماعية بالدرجة الأولى، وعندما وضع كتابه الثاني (الدولة اليهودية) صار يلتمس الطرق السياسية لتحقيق المسألة الصهيونية. كتب «توجد المسألة الصهيونية أينما وجد اليهود بأعداد كبيرة، وحينما نجتمع يبدأ اضطهادنا. هذه هي المسألة الصهيونية»[87].

وكانت أول خطوة في سبيل تحقيق الدولة اليهودية، عندما افتتح المؤتمر الصهيوني الأول في بال في (29- 31) آب 1897، ودعا المؤتمر إلى إقامة وطن للشعب اليهودي في أرض فلسطين في (أرض الميعاد) وقبل أعضاء المؤتمر إحياء فكرة أرض صهيون، ودعوا إلى الهجرة إلى فلسطين، وتأسست (الوكالة اليهودية) لتكون الأداة الفعالة لتهجير اليهود إلى فلسطين.

ومنذ مطلع القرن العشرين بدأ مشروعان يهوديان وعربي يتصارعان، وكتب باللغة الفرنسية الكاتب السوري نجيب العازوري عام 1906 كتابه (نهضة العرب ويقظتهم) وتنبأ أنه سيشهد القرن العشرين صراعاً عالمياً بعيد المدى، عندما ينشئ اليهود دولتهم في مملكة صهيون عام 1948، وصار اليهود يعملون من أجل دولة تقام على (أرض الميعاد) وأن سكان فلسطين العرب طارئون يجب طردهم بكل الوسائل[88].

## اليهودية والصهيونية والهجرة

اليهودية عقيدة دينية شاملة، جاء بها النبي موسى (ع) وهي دين سماوي، يقرّ به المسيحيون والمسلمون ويحترمونه، أما الصهيونية فهي تمثل حركة سياسية عنصرية متطرفة تستغل الديانة اليهودية من أجل أهدافها السياسية، ولجعل اليهود يؤمنون بقومية واحدة ومن أجل تأمين وطن قومي واحد، وهم من أجل ذلك يستخدمون العنف والإرهاب، من أجل تحقيق مطالبهم التي حددت في كتابهم (بروتوكولات حكماء صهيون) وقصة الكتاب الذي نشره القس سرجي نيلوس الروسي عام 1902، ثم عاد إلى نشر الكتاب بعد فقد طبعته الأولى مع مقدمة وتعقيب عام 1905، ويعتقد أن الكتاب من تأليف (أحدهاعام) (1850- 1927) جاء إلى فلسطين بعد الحرب العالمية الأولى وتوفي في القدس عام 1927، بعد خدمة للصهيونية دامت ستين عاماً.

ينفي اليهود الصهاينة نسبة الكتاب إليهم، وأنه من تأليف البوليس السري القيصري، ولكن الحقيقة أن الكتاب سرقته سيدة ماسونية روسية عند انتهاء المؤتمر الماسوني في باريس عام 1900، وكانت إحدى جواسيس الروس المتنكرين، وعرف الكتاب النور، وترجمه إلى العربية الأديب محمد خليفة التونسي وترجمه الأستاذ عجاج نويهض، وعرف في العالم العربي.

في عام 1797 قدَّم البرنس دي لينيه مذكرة إلى الإمبراطور جوزيف الثاني ملك النمسا يطلب منه التوسط لدى الباب العالي في القسطنطينية للسماح لليهود بالهجرة إلى فلسطين، وهم لا يحجمون في إعمار بلادهم، بإدخال الزراعة والصناعة والفنون والتجارة، على الأساليب الغربي. ثم إنهم يجددون الهيكل وباستخدام مياه الأمطار والمجاري لري حقولهم ومزارعهم وينشؤون القنوات والترع للملاحة[89].

تلاحظ من نص المذكرة أن اليهود يدعون أن أرض فلسطين أرضهم قبل أن يصلوا إليها، فهي أرض أجدادهم الذين لم يعرفوا هذه الأرض العربية حتى في أحلامهم. وكتب اللورد شافتسبوري الإنكليزي إلى وزير خارجية إنكلترا بالمرستون في 25 أيلول عام 1840، يقول: «إن سورية ومن ضمنها فلسطين ينبغي أن تحول إلى محمية إنكليزية» لماذا هذا الطلب؟ لكي تصبح أرض فلسطين مستقبلاً وطناً لليهود.

وأعلن العقيد جورج جاولر في البرلمان الإنكليزي في 25 كانون ثاني 1853: «إن العناية الإلهية هي التي وضعت سورية ومصر على طريق إنكلترا إلى الهند، ويجب أن تجدد سورية بوساطة الشعب الوحيد (اليهودي) الملائم للقيام بهذه الرسالة، إنهم الأبناء الحقيقيون لهذه الأرض، إنهم أبناء إسرائيل»[90].

إنها ليست إرادة البشر بل هي الإرادة الإلهية، التي تريد وضع أبناء إسرائيل في أرض فلسطين، يا للمهزلة! ويا لسخرية القدر! عندما تحققت مساعيهم في وعد بلفور وزير خارجية بريطانيا عام 1917م. الذي كتب إلى اللورد روتشيلد خطاباً يعلن فيه باسم حكومته «أنها تنظر بعين العطف إلى إقامة وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين، وتريد أن تبذل كل جهودها لتحقيق هذا الهدف على أن يكون من المفهوم بوضوح أنها لن تفعل أي شيء يضر بالحقوق الدينية أو المدنية الخاصة بالجماعات غير اليهودية في فلسطين»[91].

يذكر اليهودي البريطاني مونتفيوري (أحد زعماء اليهود في العالم) قال: «عندما كان وعد بلفور بشأن فلسطين موضوع بحث لدى الحكومة، وعرضت نصوصه بصفة شخصية على حفنة من اليهود، كان أربعة منهم صهاينة غلاة، وكان اثنان - أنا أحدهما - يعارضان الصهيونية، وبدا لنا أن عبارة (الوطن القومي للشعب اليهودي) هذه تسبب على الأرجح اضطراباً في فلسطين،

فعارضنا العبارة، وطالبنا أن يبقى اليهود أحراراً في البلد الذي يعيشون فيه، ويكونون مواطنين متساوين في جميع البلدان التي يعيشون فيها»[92].

السؤال المطروح: أليس مونتفيوري هو الذي كان يشتري الأراضي الزراعية ويفتح المدارس في القدس لليهود؟ إنه أدرك أنه لا مستقبل لدولة إسرائيل في المستقبل البعيد. كتب المستشرق اليهودي ماكسيم رودنسون كتاباً بعنوان (إسرائيل والعرب) عام 1968، قال فيه: «إن الصهيونية وإن نجحت اليوم فإن قيامها كان على أسس فاسدة، استخدمت الإرهاب في خلق دولة يهودية وإن القوة التي تعتمد عليها لن تدوم إلى الأبد، وحظوظ الأمم في صعود وانخفاض، فكما فشلت الدولة الصليبية أن تبقى وتدوم في أرض العرب، فإن إسرائيل ستلقى نفس المصير الذي لاقته هذه الإمارات اللاتينية في فلسطين»[93].

بعد إعلان وعد بلفور 1917، قامت الثورات، منها ثورة البراق عام 1929، عند (حائط المبكى) لوقف هجرة اليهود، مما اضطر حكومة الانتداب البريطاني إلى إرسال (لجنة شو) للتحقيق في أحداث حائط المبكى، وتوصلت إلى وقف الهجرة، ومنح دستور للبلاد. جاء ذلك في الكتاب الأبيض، لكسب رضى العرب وتهدئتهم، ولكن الهجرة ظلت مستمرة فقامت ثورة 1936، فأرسلت الحكومة (لجنة بيل) التي اقترحت تقسيم فلسطين إلى ثلاث مناطق:

1)منطقة تقام فيها دولة يهودية في الأراضي التي يكون فيها اليهود أكثرية، وتمتد من الساحل من حدود لبنان إلى جنوب يافا وتقدر مساحتها بـــ 56٪ من مساحة فلسطين، علماً بأن هذه الأرض لم يسكنها اليهود في التاريخ القديم والحديث.

2)قيام دولة عربية في الأجزاء الشرقية من فلسطين وتضم شرق الأردن وتقدر مساحتها بـــ 42٪ من أرض فلسطين.

3)قيام منطقة انتداب بريطانية في الأماكن المقدسة مدينة القدس الكبرى وتقدر بـــ 2٪ من مساحة فلسطين.

وأوصت اللجنة بوضع حد معين لعدد اليهود الذين يسمح لهم بدخول فلسطين كل سنة.

قام اليهود يطالبون بريطانيا بتحقيق وعد بلفور، فعقد (مؤتمر لندن) 1944، وأثيرت مسألة تقسيم فلسطين، وفي نفس العام قتلت عصابة الشتيرن اللورد

موين في 6 تشرين الثاني 1944، لأنه عارض الهجرة اليهودية الواسعة، فغضب تشرشل وقال: «إذا كانت أحلامنا من أجل الصهيونية ستنتهي إلى دخان مسدسات المغتالين، وجهودنا من أجل بناء مستقبلها، فإن وجود زمرة من السفاحين الخليقين بألمانيا النازية، وإلا يجب الإقلاع عن هذه الأعمال الشريرة والقضاء على المسؤولين عنها قضاء مبرماً»[94].

حسب كتاب الجغرافية المطبوع لدى وزارة المعارف السورية عام 1932، فإن عدد اليهود يحدد عام 1930 بحوالي 13165 نسمة موزعين كما يلي: حلب 6524، دمشق 6291، اسكندرون 323، دير الزور 20، حمص 4، حوران 3 يهود[95].

وفي عام 1948 كان عدد اليهود في سورية 30 ألف نسمة، وتم تهجير 9 آلاف يهودي إلى فلسطين، وفي عام 1952 هاجر إلى فلسطين 560 يهودي، وفي عام 1961 هاجر من سورية 6 آلاف يهودي، وفي عام 1965 هاجر إلى أوروبا حوالي 400 يهودي، ولم يبق منهم اليوم إلا حوالي 200 يهودي رئيسهم الحاخام إبراهيم حمرة الموجود اليوم في تل أبيب وله حرية الانتقال والعودة إلى سورية متى شاء. وقد وضعت الحكومة السورية أملاك اليهود تحت إشراف الدولة المباشر، لأنها لم تدفع باليهود إلى الهجرة.

## اليهود في فلسطين (في القدس وحيفا)

جعل اليهود أرض فلسطين هي الأرض الموعودة التي أعطاها الرب إلى إبراهيم الخليل (ع) وهم يعلمون أن إبراهيم وبنيه ولدوا في حران ونشأوا فيها حسب ما كتب في التوراة. فكيف منحهم الله أرض كنعان؟ وكيف أحل الله إبادة الكنعانيين بأطفالهم وشيوخهم ونسائهم ليحلوا محلهم؟

أصبحت القدس بعد احتلال الفرنجة مدينة ثانوية، وقد أخلاها الفرنجة من اليهود ولم يبق فيها إلا القليل، ولكن عندما استعاد العرب مدينة القدس عام 1189 جاء ثلاثة يهود من فرنسا وإنكلترا، وطلبوا السماح من صلاح الدين الأيوبي لليهود بالهجرة إلى بيت المقدس والسكنى فيه، فسمح لهم. وكانت هناك مدن في فلسطين فيها اليهود أكثر مما هم في القدس، ومن تلك المدن:

## مدينة صفد

احتلت صفد موقعاً ممتازاً عبر عصور التاريخ، فقلعتها صمدت في وجه الفرنجة، وكانت فيها كل الشروط الجيدة للمعيشة، تتوفر فيها الينابيع العذبة الكثيرة منها (عين الرمانة، وعين اللبونة، وعين الجن، وعين التينة، وعين العافية، وعين موسى وعين الزرقا) وفيها حوالي 25 بئراً عذباً تسقي بساتينها، وأمطارها كافية للزراعة البعلية للقمح والشعير والبقول. وعندما احتلها السلطان سليم الأول عام 1516، دخلت في أملاك الدولة العثمانية.

كانت في المدينة جالية يهودية كبيرة وعاش فيها قطبان روحيان متماثلان في المكانة عند اتباعهما.

## الشيخ عبد القادر بن محمد الصفدي (المتوفى 1508م)

ولد الشيخ عبد القادر في المغرب، وهاجر إلى فلسطين واستقر في صفد، وأخذ علم التصوف عن الشيخ شهاب الدين بن أرسلان المقدسي، وصار الشيخ عبد القادر يؤذن في المسجد ويقرئ الأطفال القرآن الكريم. وكان خامل الذكر والتقى بالشيخ علي بن أبي بكر بن ميمون المغربي الذي أدرك منذ اللقاء الأول أنه أمام قطب رباني وحثه على الخروج للناس لا سيما وأنه ذو صوت رخيم في إنشاد المدائح، فاعتذر عن ذلك. ولكن الشيخ علي المغربي صار يحدث الناس عنه وأنه هو العارف بالله في هذا الزمان بل إنه أكمل العارفين بالله. وصار الشيخ عبد القادر يمشي بالدبوس أمام نائب صفد، ويطوف بالأسواق ويصافح الناس بتواضع وكان يغيب أحياناً وينفرد في المغاور الموجودة حول صفد، وله مجاهدات وأحوال، وكان عفيفاً لا يقبل هدايا الأمراء.

بنى له أتباعه زاوية وصار يعطي فيها الدروس وينشدهم من شعره الذي رغم وكعاته يجذب القلوب. وحكى الغزي عن لقاء الشيخين أبو بكر بن ميمون المغربي والشيخ عبد القادر الصفدي، قال له (أنت العارف بالله لا تتواضع) وحكى للناس الذين حوله عن كراماته، وكان الشيخ عبد القادر يحدث الناس من كتب ابن عربي ومن شعره الذي يحفظه عن ظهر قلب، وتعلم منه أتباعه ثلاثة مواضيع هي:

**القول بوحدة الأديان**

لأن الأديان كلها تعبد إلهاً واحداً، وكان يحضر دروسه اليهود الموجودون في صفد، وينشد لهم قول ابن عربي (1164- 1240):

عقد الخلائق في الإله عقائداً وأنا اعتقدت جميع ما اعتقدوه

لما بدا لهم صوراً متحولاً قالوا: بما شهدوا وما جحدوه

وقد أعذر الشرع الموحد وحده والمشركون شقوا وإن عبدوه

كانت تجري حوارات بين المسلمين واليهود حول تنزيه الله، وتحولاته، فقد رآه النبي موسى في نار العليقة، ورآه المسيحيون في المسيح، ورآه غيرهم في عباد الله الصالحين من مسلمين ويهود، وينتهون إلى تمجيدهم الله الواحد رب العالمين.

**القول بوحدة الوجود**

كان ابن عربي يقول: صدر العالم عن الله، ووضح الطريقة لهذا الصدور في ثلاث مراحل:

1)المرحلة الأولى: وجدت المادة المستعدة لقبول الصور من واهب الصور الله، فنتجت عن ذلك الكليات المحددة لها في العلم الإلهي.

2)المرحلة الثانية: الله هو الذي أبدع الوجود، وأظهر الكائنات، التي هي كالمرآة تعكس القدرة الإلهية. قال تعالى في حديث قدسي "أنا عند ظن عبدي، أي لا أظهر له إلا في صورة معتقد"، وينشد شعراً لابن عربي:

فلولاه ولولانا لما كان الذي كان

فأنا أعبده حقاً وإن الله مولانا

وأنا عينه فاعلم إذا ما قلت إنسانا

فأعطيناه ما يبدو به فينا وأعطانا

فصار الأمر معشوقاً بإياه وإيانا

وفي هذه المسألة يتطابق اليهود والمسلمون.

### القول بالإنسان الكامل

الإنسان الكامل عند ابن عربي هو روح العالم، فالله سبحانه وتعالى، كوَّن الأكوان اقتداراً عليها لا افتقاراً إليها، وقال في حكمة التكوين، وذلك لإظهار شرف الماء والطين، قال: إني جاعل في الأرض خليفة هو الإنسان غاية الوجود، ألم يقل سبحانه وتعالى {كنت كنزاً مخفياً فأردت أن أُعرف فخلقت الخلق لأعرف بهم وليعرفوا بي} وكان هذا الإنسان الكامل هو محمد بن عبد الله (ص) وهو الذي شرفه الله بالإسراء والمعراج والرؤية والمشاهدة، فإذا كان الله شرف موسى بالكلام فقط، وقال في شعره:

| | |
|---|---|
| سرى في النور حتى كان أدنى | من القوسين في ظل ظليل |
| وشرف الكلام أخوه موسى | على كثب، وذلك بالمسيل |
| وأين العرش من واد بقاع | كما أين الكليم من الخليل؟ |

هذه النظرة الصوفية عند ابن عربي هي أخطر ما أدخله التصوف الإسلامي على (مذهب القبالاة).

وتوفي الشيخ الرباني عبد القادر الصفدي في عام (915هـ/ 1508م) ودفن في صفد[96].

## مذهب القبالاة أو التصوف اليهودي

القبالاة كلمة آرامية تعني ما يتلقاه الخلف عن السلف، وهي مزيج من الفكر الغنوصي والتعاليم السرية اليهودية والإسلامية، وتدور تعاليمها عند اليهود حول ثلاث نقاط، هي:

1)إن الله كائن مطلق ويمكن أن يبدو في أشياء محسوسة كالنار التي بدت لموسى.

2)إن روح الإنسان خالدة، وبانتقالها بين الأجساد تتطهر وتفنى بالله.

3)وهي تنتظر المسيا (المخلص) الذي هو من نسل داود، يأتي ليحرر بني إسرائيل من الظلم والتشتت ويقودهم إلى القدس أرض الميعاد ويتوج ملك

إسرائيل، لأنه عودة موسى ثانية، ويصبح روح العالم وسببه وهو خليفة الله في هذا العالم.

جاء الحاخام داود موشيه المغربي إلى فلسطين واستقر في صفد عام 1512م، وكان عالماً بالتوراة وتفسيرها وله اطلاع واسع على كتابات موسى بن عزرا اللاوي صاحب كتاب (الزوهر) أي (الضياء) وكان يجيد العربية وله اطلاع واسع على فلسفة ابن مسرة وابن رشد وموسى بن ميمون، وكان من أتباع ابن عربي في التصوف، ومما أبقاه في صفد وجود المناخ الروحي للتصوف الإسلامي، وكان في فاس من أتباع موسى بن عمران الناتلي الرجل الصوفي، صاحب الأسرار والكرامات. وكان داود مطلعاً على فيلون الإسكندري، وأفلوطين المصري، وكان يرى أن الكلمة الإلهية المبدعة لهذا العالم. ألم يقل الرب للعقل كن فكان؟ والله موجود في كل مكان، فكيف السبيل إليه؟ إنه موجود عن طريق المحبة، وبالوجد تتصل به الروح وتفنى به الذات، وتعبر عنه الكلمات بعد الافتراق.

واستخدمت القبالة الأندلسية أسرار الحروف التي تشمل أسرار الكتب السماوية (التوراة والتلمود) وإن الحرف السري (الها) يشير إلى (الهو) الدال على يهوه. جذب (هاآري الصفدي) أي الأسد الصفدي الناس بأشعاره الدينية (البيوطيم) باللغة العبرية، وأصبحت أشعاره تنشد في كل المحافل اليهودية في الأعياد والجنائز وعند زيارة القبور. ونظم الحاخام يوسف نجارة الحلبي أشعاراً تماثل أشعاره وجمع ديواناً باسم (شولحان عاروخ) أي المائدة المنضودة، وشاع في المشرق، واختلف اليهود في تفضيلهم. فبعضهم فضل موسى بن ميمون عليه والبعض الآخر يتعصب لهآري الصفدي (داود موشيه المغربي) (المتوفى 1545م) وعقد الحاخام جوتسين عام 1740 في القسطنطينية مؤتمراً لفصل الخلاف.

لماذا التعصب لكتاب (شولحان عاروخ) وتفضيله على كتاب (سمحت هاتوراه)؟ يخيل إليّ أن كتاب شولحان عاروخ هو أول من لقب حاخام القدس برأس صهيون، وفيه تدعو القبالاة للهجرة إلى القدس، وتدعو المؤمنين إلى ذلك.

ما مدى صدق القول: إن مذهب القبالاة قد تأثر بالتصوف الإسلامي؟

ترى المدرسة الاجتماعية الأمريكية (مدرسة بوكلي) أن ذلك ممكن بل هو ضروري لأن البيئة الجغرافية تفرض على الناس الذين يعيشون في وسط واحد،

سلوكاً وأنشطة ونمطاً معيناً من الحياة، يكون عليهم صعباً تحويله وتطويره وهذا يعبر بوضوح عن تأثير الوسط الجغرافي في الحقل المعرفي[97].

وهذا ما حدث بين اليهود والمسلمين في صفد التي دمجت الجميع بعبقريتها الخاصة، لأن لكل مكان جغرافي عبقريته.

## المحور الخامس : اليهود في شمال أفريقيا (المغرب والجزائر وتونس وليبيا)

عاش اليهود في شمال أفريقيا على السواحل وفي الواحات، وقد نعموا بالحرية تحت الحكم العربي الإسلامي، وسأتناول تاريخهم في شمال أفريقيا أثناء الحكم العثماني في أقاليم (المغرب والجزائر وتونس وليبيا).

### المغرب العربي (الموقع والتاريخ)

المغرب اسم أطلقه الجغرافيون العرب على أفريقيا الصغرى الشاملة، بلاد طرابلس الغرب (ليبيا) وتونس والجزائر، وكانوا يقصدون بالمغرب الأقصى (المملكة المغربية) المحصورة بين تلمسان شرقاً وساحل الأطلس غرباً، وسبتة شمالاً ومراكش جنوباً. وتبلغ مساحته الإجمالية (450) ألف كيلومتر مربع.

تتألف المملكة المغربية حالياً من مناطق طبيعية، هي جبال الريف وحوض نهر سبيو، ومرتفعات جبال الأطلس، والمغرب الشرقي والصحراوي. أمطار المملكة غزيرة في الشتاء على شواطئ المحيط الأطلسي، ونادرة في الصيف.

أهم أنهار المملكة المغربية نهر أم الربيع، وأبو رقراق، وسبيو، وتانسيفت، ووادي درعة. وتعتمد المملكة في اقتصادها على:

**الثروة الزراعية**

في الأقاليم المتواجدة على شاطئ الأطلسي والهضاب الداخلية، وأهم زراعاتها (الذرة والتمور والحبوب والحناء والزيتون والفواكه) بالإضافة إلى انتشار الغابات وتربية الماشية وصيد الأسماك، وهناك صحارى فيها واحات نخيل.

**الثروة المعدنية والصناعية**

المعادن والتضاريس الجغرافية تسهم في خلق صناعة النسيج والورق والصابون واستخلاص الفوسفات والنحاس والقصدير، والزنك والكوبالت والفحم الحجري.

**أهم الموانئ والمدن**

ارتبطت الحضارة بقيام المدن وتنوعها، وفي المغرب هناك المدن الساحلية وهي موانئ مثل الدار البيضاء وأغادير وفضالة، وآسفي وطنجة والعرائش.

وهنـاك المـدن الداخليـة مثـل فـاس ومراكـش ومكنـاس وتطـوان ومليلـة وسـبتة والصويرة ووجدة.

استوطن المغرب البربر الذين هـم الفينيقيـون، وهـم عـرب مـن أصـول كنعانية سورية، ولا زالت لهم آثار في طنجة والعرائش، ثم احتلها الرومان بقيادة يوليوس قيصـر (40- 42م) ثـم الفـاندال، وكـانت الديانـة اليهوديـة منتشـرة بـين السـكان. وعندمـا فتـح عقبـة بـن نـافع بـلاد الـزاب سـنة 683م، وجـد مقاومـة مـن نصـارى البربر وترحيباً من القبائل اليهودية، وعندمـا اسـتقر الحكـم العربـي، تنعـم اليهود بالحرية الدينية والاجتماعية فساهموا في أنشطة أهل البلاد التجارية والحرفية وكانت تقطـع هـذه البـلاد خطـوط طـرق تجاريـة طويلـة مـن الشـمال إلـى الجنـوب، ومن الشرق إلى الغرب باتجاه الجزائر بالإضافة إلى وجود الموانئ.

أسس محمد بن الشريف الحسني (1050) الدولة العلوية في فـاس ومكنـاس وسـلا، وأعطـى الحريـة لليـهود الذيـن صـاروا يتـاجرون مـع صقليـة والبندقيـة وبرشلونة، ويستوردون الأقمشـة والبـهارات والمرايـا والنحـاس والفـولاذ والحـامض الجاوي والأسلحة. وكـانوا يصـدرون مـن المغـرب الحريـر والقطـن والآفيون. بينمـا يتاجر العرب المسلمون مع أفريقيا السوداء، بالذهب وريش النعـام والتمـور والعـاج والنيلة، ويصدر التجار اليهود إلى أوروبا الشـموع والجلـود المدبوغـة. وكـان التجـار العـرب المسـلمون يتحكمـون بتجـارة الزيـت والصـابون، وكـان الحرفيـون اليـهود يشرفون على صناعة السيراميك والخزف (الزليج).

## نشاط اليهود التجاري والاقتصادي

كـانت علاقـات اليـهود بسـلاطين المغـرب تتـأرجح بـين المعاملـة الحسـنة والاضطهاد في بعض الأحيان، فالمولى عبد الرحمن (1833- 1855) تبنى موقفاً طيباً تجاه اليهود إذ منحهم تسهيلات تجارية عديدة أتاحت لهم حرية التنقل فـي كافة أرجاء المغرب. وسعى المولى محمـد (1859- 1873) إلـى تحسـين أوضـاع اليهود القانونية، بفضل القنـاصل الأوروبيـة وبمسـاعي رجـال المنظمـات اليهوديـة، قام الثري اليهودي موشيه مونتفيـوري بتقديـم مطـالب للسـلطان عبـد الحميـد الثاني بهدف تحسين أوضـاع يهود المغـرب بشـكل مشـابه لوضـع اليهود فـي تركيـا وبلاد الشام، وفعلاً تحسنت أوضاع يهود المغرب.

كانت الدول الأوروبية المتنافسة تؤثر سياساتها على وضع اليهود الذين كانوا مرتبطين بالجمهورية الفرنسية فأشاع السفير الإسباني عام 1863 في مدينة آسفي، بإشاعة معادية لليهود أسفرت عن إعدام اثنين من اليهود، وقتلت قبائل البربر على الطرق حوالي 249 يهودياً خلال الأعوام (1864- 1880). وعلى أثر وفاة المولى حسن الأول (1873- 1894) انتشرت الفوضى في البلاد، فأصدر السلطان محمد عام 1894 مرسوماً دعا فيه إلى إقامة حي خاص باليهود في فاس ليوفر لهم الأمن، ولكن السلطان حسن الثاني (1907- 1911) أجبر اليهود على خلع أحذيتهم أمام الأماكن المقدسة، وحضر عليهم النفخ في البوق (الصور) في احتفالات عيد رأس السنة (حاسا) وعيد الغفران (كيبور) وعند وفاته أبدى اليهود الفرح والشماتة فأصابهم حادث أليم عام 1912، ولكنهم سرعان ما نالوا حريتهم عندما أصبحت المغرب تحت الاحتلال الفرنسي وصار اليهود يتطاولون على المسلمين فقتل الحاخام داود أبو خضيرة عام 1919.

جاء في كتاب (حاخامات المغرب): «دعا السلطان محمد بن القاسم (1912- 1921) في أحد أيام السبت لإبادة اليهود وقتلهم فقتل سيدنا الحاخام المقدس داود أبو حصيرة وأجبرت بعض العائلات اليهودية إلى الرحيل من مدنها، وانتقلت عائلة أبو حصيرة إلى مصر وإلى مدينة بودنيف»[98].

## هجرة اليهود باتجاه فلسطين

كانت معظم هجرات المغرب في البداية لأسباب دينية لا دخل للدعوة الصهيونية فيها. وكان يهود المغرب من أتباع مذهب القبالاة، فهاجر إلى صفد عام 1809 حوالي 307 يهودياً، وإلى القدس هاجر من بلدة صفرو حوالي خمسين يهودياً. وكان اليهود يعيشون مع المسلمين (العرب والبربر) بكل وئام، وكانوا في الأرياف يفضلون رفقة البربر لأنهم يدفعون لشيوخهم الخوة، ويحمونهم على الطرق والمراعي، أما في المدن فهم يفضلون العرب للعمل المشترك، وكان اليهود يقرضون المسلمين بالربا الفاحش وأحياناً تقوم بينهم مشاكل، كما حدث في مدينة فاس عام 1875، عندما قتل بعض اليهود. ولكن سرعان ما كانوا يتصالحون.

نشطت حركة القبالاة في زمن الحاخام داود حسين (1730- 1792) وهو الذي نظم القصائد الكثيرة في حب بيت المقدس والخليل فهاجر كثير من يهود فاس بزعامة عائلة البهلول.

ولزيادة الهجرة جرت مشاكل في العائلات اليهودية، مما اضطر الحاخام ابن نستور قاضي فاس اليهودي إلى إصدار فتوى، بأنه لا يحق للزوج تغيير محل اليهودي إلا بموافقة الزوجة، وكثرت حوادث الطلاق وتشردت بعض العائلات، فأصدر الحاخام بتحياه بن دوجو (1764- 1820) وكان قاضي مكناس، فتوى بمنع اليهودي من الهجرة إلى فلسطين، بحجة أنه يعرض نفسه وعائلته لأخطار الطريق، وأن الشريعة لا تجيز أن يعرض الإنسان نفسه للخطر، وبذلك حد من نشاط مذهب القبالاة، ولكن متصوفة اليهود كانوا تياراً ثقافياً قوياً، تجاوز فتواه.

وكان الحاخام يوسف التطيلي (المتوفى 1788) شيخ الطرق الصوفية قد أصدر من قبل "إن من نوى الهجرة إلى فلسطين أن يفي بتعهده، ويعلم الله أنه لو كان بمقدوري الهجرة إلى فلسطين ولو بمفردي، لكنت قد سرت صباحاً ومساء دون توقف حتى أصل إلى الراحة الأبدية المنشودة، ولكني كما تعلمون عاجز". ونتيجة الخلافات بين الحاخامات، وكثرة الطلاق بين الأسر والعائلات، أصدر الحاخام الأكبر شاؤول يشوع أبي طبول (1739- 1808) حاخام صفر، وأصدر الفتوى التالية عام 1779: «من أراد الهجرة ولكن زوجته رفضت، أقول إن الحق وإن كان مع الزوج، إلا أن علماء الشريعة الموسوية وفقهاء التلمود، كانوا على علم بطبيعة الأخطار المحيطة بالطرق المؤدية إلى فلسطين فلذلك منعوا الهجرة إليها».

ولكن أتباع القبالاة أثاروا حمية الناس البسطاء، وصاروا يروجون عن قصص أصحاب الكرامات الذين يقطعون المسافات الطويلة بخطى قصيرة وبأيام قليلة، هذه الأفكار أخذها متصوفة القبالاة من متصوفة الإسلام، الذين يروجون قصصاً عن أصحاب الحظوة الذين يحجون إلى مكة، ويقفون بعرفات ويراهم الناس ويعودون قبل وصول الحجاج إلى ديارهم.

لقد هاجم الحاخام رفائيل بن دوجو (1748- 1822) حاخام مكناس، الرجال الذين ينوون الهجرة إلى بيت المقدس، ويخشون من زوجاتهم ويفضلون العيش الرغيد وبناء الدور في المغرب التي هي المنفى ودار الغربة، والوطن هي أرض الميعاد (أرض فلسطين).

هاجر كثير من يهود المغرب إلى صفد، وكانت عائلة (عبو) في استقبالهم، وسرعان ما اندمج يهود المغرب والمسلمون لوحدة الثقافة واللغة. وفي سنة 1860

اعترفت السلطات العثمانية بوجود الطائفة المغربية. وأسس الحاخام داود ابن شمعون الذي هاجر من مكناس واستقر في القدس (1854- 1880) وأسس (محنية إسرائيل) وافتتح مدرسة لتعليم أبناء المغرب باللغة العربية، وصار الحاخام رفائيل هارون بن شمعون (1891- 1921) الذي هاجر من مدينة صفرو إلى مصر واستقر في القاهرة بجمع الهبات لفقراء اليهود في القدس.

### حركة أولياء الله المغربية

هذه الحركة الثقافية والدينية اليهودية التي نشأت في المغرب تحت تأثير الثقافة الإسلامية، ولا يجد المراقب الحيادي فرقاً بين الطقوس الإسلامية والطقوس اليهودية، فكلاهما يخرجون إلى المقابر، ويسيرون في حاراتهم وهم يحملون الرايات يتقدمهم ولي الله (الصديق) اليهودي ويتبعه مريدوه وهم ينشدون منفعلين، وكل طائفة تدعي الخوارق والكرامات التي تحدث قرب قبور أوليائهم. يقدر يهود المغرب أنه هناك 615 ولياً في العالم الإسلامي لقبور رجال الله الصالحين وهم منتشرون في أرض الله في المغرب وتونس والجزائر ومصر وفلسطين وبلاد الشام والعراق، ولقبور هؤلاء الأولياء محبة مغروسة في قلوب المؤمنين اليهود. لذا تجد في المغرب على كل قبر رجل صالح (قيم) يحرسه، وكان بعض اليهود يقضون حياتهم في خدمة الرجال الصالحين.

كانت لقبور الأولياء عند المسلمين واليهود منافع تجارية حيث تباع الشموع، والثياب وجرار الزيت والأدوية (الأعشاب). ويعتقد دارسو الثقافة اليهودية، أن ظاهرة تقديس القبور أخذت عن مسلمي البربر الذين كانوا يعبدون قبور موتاهم قبل الإسلام، واستمرت هذه الطقوس في الإسلام، وانتقلت إلى المسلمين العرب والأفارقة وإلى اليهود. ومن الغريب أن بعض قبور البربر الذين كانوا قبل الإسلام وثنيين وعندما أسلموا أسلمت القبور معهم.

وفي المغرب قبور ذات أهمية مثل قبر الحاخام أفرايم نقاوة قديس مدينة سلا، وقبر الحاخام زكريا أشرف حاخام سلا المتوفى (1875). وكانت تقام إلى جوار قبورهم في مواسم الزيارة أسواق للبيع والشراء تستمر عدة أيام وترافق بحفلات طرب، وإنشاد، وتعزف الموسيقى، وتغني النساء ويرقصن دون خشوع، وهم يروون الكرامات التي حدثت على أيدي أوليائهم، ويفتخر أهل سلا بالحاخام حاييم بن العطار الذي عاش في مدينتهم وهاجر في سنة 1773، إلى بيت المقدس وله هناك كرامات مشهودة ومعروفة.

كانت كتابات يهود المغرب لا تخرج عن القصص المشابهة لها في الثقافة الإسلامية في تلك العصور المظلمة، وهي مليئة بقصص الخوارق والخرافات.

## يهود المغرب والثقافة الحديثة

عاش يهود المغرب أجيالاً تحت تأثير الثقافة الإسلامية، ومنذ عام 1862 بدأت الجمعيات اليهودية الأوروبية تتصل بهم مثل جمعية (كل شعب إسرائيل أصدقاء) الذين أسسوا مدرسة في تطوان، وقد اهتموا بمبادئ اللغة الفرنسية والرياضيات والعلوم والتاريخ والجغرافية وأدخلوا المهارات اليدوية الضرورية للشبيبة اليهودية في الحياة العصرية، ثم أحدثوا عدة مدارس في طنجة وأغادير ومراكش ومكناس وفاس، وكانوا يتقصدون فتح هذه المدارس في الأحياء الفقيرة والمتخلفة ثقافياً. ولكن الحاخامات في تلك المدن انطلاقاً من مصالحهم الخاصة، قاوموا تلك المدارس مفضلين عليها طرق التعليم القديمة، وتعليم اليهود في مدارس المسلمين، أو في مدارسهم الخاصة التي تعلم بالعربية، وكانوا يرسلون أبناءهم إلى مدارس (أم البنين) في فاس ومكناس وصفرو، وكانت مناهج تلك المدارس تقوم على تدريس (كتاب فرائض القلوب) للحاخام ابن بقودة القرطبي وكتاب (الخوزاري) للشاعر والفيلسوف يهودا اللاوي، وكانت طريقة التعليم تعتمد على التلقين والحفظ غيباً بدلاً من المناهج الحديثة التي تقوم على المحاكمة والتفكير. في المدرسة القديمة (هاتوراه - تلمود) يبدأ معلم الصف بشرح نص التوراة أو التلمود بالعربية، وكانت النصوص المعتمدة من التلمود الفلسطيني المكتوب بالآرامية، وكانت تفاسير الحاخام رفائيل بن دوجو هي السائدة لأن غاية التعليم تخريج رجال دين (حاخامات). وقد وضع الحاخام داود بن نعيم المغربي في عام 1930 معجماً ضمنه معلومات مفصلة عن حياة حاخامات المغرب والأندلس.

وفي عام 1912 عندما أعلنت فرنسا وصايتها على المغرب، أسست (رابطة العودة إلى صهيون) في تطوان مدرسة لتعليم اللغة العبرية، التي يجهلها معظم يهود المغرب وأصبح الربي ليون بن خلفون رئيساً للرابطة، وعندا أرسل ليون بن خلفون رسالة إلى اللجنة الصهيونية بالعربية قال فيها «إن الرعاية التي تنشدها الرابطة ستوفر لنا الإحساس بالأمان، كما أنها ستشجع أعداداً كبيرة من يهود

المغرب على الانضمام إلى رابطتنا». ولكن الربي ليون بن خلفون فوجئ من رد الرابطة في باريس جاء فيها: «إن خطابكم الذي بعثتموه لنا ما زال لغزاً محيراً. إننا نطالبكم ألا تكتبوا بأي لغة أجنبية سوى لغتنا العبرية المقدسة». طالب بعض اليهود المغاربة بالجنسية الفرنسية، ولكن السلطات الفرنسية رفضت طلبهم بحجة أنهم يعيشون بحرية ولا ضغط عليهم.

وفي المغرب حدث صراع سياسي وفكري بين المنظمات الصهيونية، وجماعة كل شعب إسرائيل أصدقاء، التي لم تكن تهتم بالسياسة، وإنما همها الأول والأخير إصلاح حالة اليهود الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، بغية اندماجهم بالمجتمع المغربي، وإن اهتموا بتعلم اللغة الفرنسية فلأنها ضرورية من أجل العمل في الوظائف الحكومية.

بينما كانت الحركة الصهيونية تهتم بالسياسة والعمل للهجرة إلى فلسطين، لذا اهتمت بتعليم اللغة الإنكليزية وبالثقافة الأنغلوساكسونية. فاتهمتهم السلطات الفرنسية بالعداء لفرنسا، وأن همهم تعزيز الثقافة الإنكليزية.

وقفت الجالية اليهودية إلى جانب الحركة الوطنية المغربية، وانخرط الكثير منهم في حزب الاستقلال المغربي بقيادة علال الفاسي، كما انضم الكثيرون إلى الحزب الشيوعي المغربي، ونادوا بمعاداة الحركة الصهيونية، واعتبروها في جوهرها (عنصرية رجعية) كما وصفها الزعيم الشيوعي فلاديمير لينين (1870 - 1924).

وفتح اليهود التقدميون مدرسة لتأهيل المعلمين عام 1949، بمعاونة (منظمة درع داود) ومدرسة أخرى للفتيات بمساعدة (منظمة كنز التوراة) وتعددت هذه المدارس، من أجل وقف هجرة يهود المغرب إلى فلسطين.

فضل يهود المغرب العيش في الوطن الأم (المغرب) ولا زال منهم (20) ألف يهودي مغربي، وهم يتكلمون ويفكرون باللغة العربية، ويفضلون الثقافة الإسلامية على الثقافة الصهيونية.

روى المستشرق الفرنسي جاك بيرك: «أنه لما حاولت حكومة فيشي الفرنسية الخاضعة لألمانيا الهتلرية أن تضطهد يهود المغرب، وقف الملك محمد الخامس يدافع عنهم ويحذر من أن يمسوا بسوء، مؤكداً أنهم مواطنون عرب مغربيون»[99].

لقد أبدى الملك محمد الخامس شعوراً نبيلاً تجاه رعاياه، دلّ أنه يملك وعياً حضارياً متطوراً، ولا زال يهود المغرب لهم الحرية في الهجرة والعودة إلى بلدهم ووطنهم المغرب متى شاؤوا.

## اليهود في الجزائر

الجزائر دولة مساحتها تزيد على مليوني كيلومتر مربع، ومدينة الجزائر هي العاصمة، ودولة الجزائر يحدها شمالاً البحر المتوسط وشرقاً تونس وليبيا وجنوباً الصحراء الكبرى وغرباً المملكة المغربية.

وتختلف أرض الجزائر في طبيعتها، ففي الشمال سهل ساحلي كثير الخصب وتليه سلسلتي جبال الأطلس، وهناك هضاب داخلية تتخللها بعض الواحات حيث تكثر أشجار النخيل وأمطار الداخل قليلة وهي كثيرة على الساحل.

### الزراعة وتربية المواشي

تنتج الجزائر الحبوب والقطن وفيها أشجار الكروم والزيتون وشجر الفلين وهناك مراع وغابات طبيعية على الساحل الشمالي.

### الثروة المعدنية والصناعات

في أرض الجزائر الحديد والرصاص والقصدير والفوسفات والبترول، وفيها من الصناعات صناعة النسيج وبعض الصناعات التحويلية والغذائية.

### أهم المدن والموانئ

أهم الموانئ تقع على ساحل المتوسط، مثل الجزائر (العاصمة) وقسنطينة وبطنا وعنابة ومستغانم وسطيف ووهران والمدية. وهناك المدن الداخلية مثل عزداية وبليدة وتلمسان وسيدي العباس وغيرها. سكن الجزائر في القديم قبائل البربر وحكمها الفينيقيون واحتلها الإمبراطور يوليوس قيصر عام 42م، وجعلها ولاية باسم إيكوزيوم، ثم حكمها الفندال عام 429م، وكانت هناك جالية يهودية نشطة بالإضافة إلى المسيحيين، وفتحها العرب المسلمون عام 682م، وتوالت الحكومات العربية (الأمويون والعباسيون والفاطميون) ثم حكمتها أسرة بني عبد الواد عام 1235، ثم الحفصيون (القرن الرابع عشر الميلادي) ثم انتقل الحكم إلى العثمانيين عام 1518. واحتلها الفرنسيون عام 1830، وقامت ثورة ضدهم بقيادة الأمير عبد القادر الجزائري. ولد الأمير عبد القادر في القيطنة من أعمال

وهران عام 1807، وتعلم العربية وعلوم القرآن الكريم والفلسفة الإسلامية، وعندما احتلت فرنسا الجزائر عام 1832، استمر في النضال حتى عام 1847، عندما رمى سلاحه واختار أرض سورية منفى له. وجاء إلى دمشق، ونزل غرب ضريح العارف بالله سيدي محي الدين بن عربي، وأبدى نشاطاً دينياً وسياسياً واجتماعياً، ألَّف كتاباً سماه (المواقف) وله رسالة في الفلسفة سماها (تذكير العاقل وتنبيه الغافل في الحكمة والشريعة)، وجهها إلى الأكاديمية الفرنسية بباريس أشار فيها إلى فضل العلم والعلماء، وأثر العقل في ترقية البلاد، وإثبات النبوة، وانصرف إلى كتابة الشعر والأدب، لينال باللسان ما عجز عنه بالسنان، ثم شرح رسالته السابقة فتحولت الرسالة إلى كتاب[100].

كان الأمير عبد القادر متسامحاً تجاه أهل الذمة (اليهود والمسيحيين) وله مواقف لا زال التاريخ يذكرها في دمشق.

## اليهود في الجزائر

كان اليهود مكروهين من قبل البربر، لأنهم يشعرون بابتزاز اليهود لهم، وكان الحاخامات يدفعون لهم القروض والرشاوى لشيوخهم، من أجل توفير الحماية لهم. وكان تصورهم لليهود بأنهم كفار متمردين على الله وعلى أنبيائهم، وهم قتلة الأنبياء، ومصيرهم في الدنيا الذل وفي الآخرة بئس المصير.

كانت فرق القبالاة (التصوف اليهودي) هو النشاط الديني المقبول من قبل السلمين، وكان اليهود في العاصمة (الجزائر) يلتفون حول شيخ الطرق الصوفية الحاخام اسحق بن ششت ويعتبرونه صدِّيقاً. وكان يهود الجزائر جزءاً من الثقافة العامة المتخلفة عندهم وعند المسلمين.

كان التعليم عند اليهود محصور عند الكتاب (الحيدر) وكان في مدينة الجزائر حوالي 12 مدرسة بينها كتاب واحد للبنات، وكانت تضم 425 تلميذاً، من أصل ستة آلاف يهودي في العاصمة عند دخول الفرنسيين عام 1830. وكان التعليم بالعربية، وكانوا يقاومون كل دعوة حديثة، وكانوا لا يرغبون بالهجرة إلى أرض فلسطين. وقد أصدر الحاخام يهودا عباس (1730- 1805) رئيس المحكمة اليهودية قراراً بمنع اليهود الذين يرغبون بالذهاب إلى فلسطين، لأن بعضهم باع

أملاكه وهاجر ولاقى الصعوبات، وعاد بخفي حنين، مما دفع الزوجات برفض الذهاب إلى أرض فلسطين.

وفي عام 1815 جرى صراع حول انتخاب رئيس الأمة. فقتل عدة أشخاص فارتحلت إلى فلسطين حوالي 200 عائلة على ظهر سفينة هولندية ذاهبة إلى عكا.

وفي عام 1830 عين أحد أبناء عائلة البكري اليهودية رئيساً للأمة، وكان تعيينه في ظل الاحتلال للجزائر، وكان يهود منطقة عزدايا يريدون الانتقال إلى خارج الحي اليهودي، فتصدت لهم الطائفة الصوفية العبادية البربرية وكانوا متشددين في الدين، وطالبوا بإحياء القوانين الإسلامية القديمة التي تلزم اليهود بلبس الغيار، مما دفع حكومة الانتداب الفرنسي إلى منحهم حرية المواطنة الفرنسية وحمتهم من الاضطهاد. وشعر حوالي 17 ألف يهودي جزائري بالحرية، منهم خمسة آلاف في الجزائر وثلاثة آلاف يهودي في مدينة قسنطينة وحوالي ألفي يهودي في وهران وثلاثة آلاف في تلمسان وأربعة آلاف يهودي في مدن أخرى مثل بليدة ومزاب ومستغانم.

صار اليهود أثناء ثورة الأمير عبد القادر الجزائري (1832- 1847) يساعدون فرنسا لقاء إعطائهم الجنسية، وذهب منهم وفد يهودي إلى باريس وهناك انضم إليهم اليهودي السوري يعقوب اسحق الطرس (رجل الأعمال الفرنسي) وصدر في 5 تشرين ثاني عام 1845 قانون نظم شؤون الطائفة اليهودية، على أن يشرف على الطائفة مجلس يتألف من أربعة أعضاء علمانيين وعين الحاخام يوسف كوهين رئيساً للمجلس ومعه ميشيل فين الذي أشرف على التدريس، وكان العضوان الآخران من وهران وقسنطينة، وحصرت وظيفة القاضي بقضايا الأحوال الشخصية (الطلاق والزواج) وبذلك ألغيت المحاكم الربانية. وكان لهذا التنظيم أثر حسن في تقدم الجالية اليهودية.

وفي زمن الإمبراطور نابليون الثالث (1852- 1870) ألحَّ اليهود بالمطالبة بحقوق أكثر وبالجنسية الفرنسية، وحق المواطنة في فرنسا، ولكن الإمبراطور ردَّ عليهم في جلسة برلمانية: «لا تقولوا لهم كونوا فرنسيين، إذا شئتم حيث أنهم أبداً لن يتخلوا عن آلهتهم وتقاليدهم التلمودية». وبعد عزله في عام 1870 صدر مرسوم أدولف كرمه اليهودي الذي أخرج يهود الجزائر من العبودية التي كانوا

يشعرون بها إلى الحرية، حيث حصلوا على حق المواطنة الفرنسية، وحسَّن اليهود تعليمهم وتضاعف عدد اليهود وصار عددهم يقدر بحوالي 80 ألف يهودي، فلم يتهربوا من التعداد، لأنه لا دفع للجزية.

وفي عام 1872 صدر قانون جول فيري الخاص بالتعليم الإلزامي لأطفال اليهود في الجزائر، ودخلوا مدارس اللاييك العلمانية وقدر عددهم بـ 5700 تلميذ. وتدهور وضع التعليم الديني ولم يبق في مدارس (الحيدر) سوى 100 تلميذ لتخريج الحاخامات، مما دفع بعض اليهود المتعصبين إلى الهجرة إلى تونس.

## يهود الجزائر والدعوة الصهيونية

اختلفت الطوائف اليهودية الجزائرية منذ البداية مع الدعوة الصهيونية. ذكر رئيس رابطة العودة إلى أرض صهيون في مدينة الجزائر، أن أثرياء اليهود والشخصيات ذات النفوذ، تقاطع الحركة الصهيونية، ولا يمكننا الاعتماد عليهم. بل لقد بعث أحد حاخامات قسنطينة في شهر أيلول عام 1897 إلى تيودور هرتزل (1860- 1904) رئيس المنظمة الصهيونية العالمية خطاباً جاء فيه: «لقد حظيت مبادرتك الهادفة إلى تطبيق الفكرة الصهيونية باهتمام في مدينة قسنطينة لدى أبناء طائفتنا الذين يعانون الاضطهاد. ويرون الخلاص في الفكر الصهيوني الذي هو الحل الوحيد لحل المسألة اليهودية، وباسم كل أبناء ملتنا نعلن موافقتنا على كل القرارات التي اتخذها المؤتمر الصهيوني، ونتعهد لك بتأييدنا الكامل»[101]. بدأت الطوائف اليهودية في الجزائر تتعاطف مع الفكر الصهيوني ولكن ببطء شديد.

وفي عام 1905 جرت مشاحنات بين اليهود الصهاينة واليهود الجزائريين التقليديين أو المحافظين، خصوصاً عندما جرى فصل الدين عن الدولة، وصار يهود الجزائر ذوي الثقافة اليهودية - العربية، يعتبرون أن اليهود العلمانيين هم عملاء لفرنسا، التي حسنت التعليم العلمي. وفي عام 1931 كان في الجزائر 231 طبيباً و135 محامياً و70 طبيب أسنان، و89 موظفاً في العاصمة الجزائرية. وفي إحصاء عام 1941 كان ثلث النساء اليهوديات يعملن في مهن دائمة.

وعندما قامت الثورة الجزائرية وقف اليهود في صف فرنسا ضد الثورة الجزائرية وعندما استقلت الجزائر عام 1962 غادر كل اليهود الجزائر نحو فرنسا لا إسرائيل، ولم يبق في الجزائر سوى 300 عائلة لحراسة ممتلكاتهم والأماكن المقدسة (الكنس والقبور). ولكن ورد في كتاب (انتشار اليهود في العالم) الذي أصدرته الحكومة الإسرائيلية عام 1997، ورد فيه أن عدد اليهود الذين هاجروا من الجزائر عام 1948 إلى فلسطين المحتلة كانوا نحو 25681.

**المستشرق الجزائري مكسيم رودنسون (1915- 2004م)**

ولد في الجزائر، في إطار الثقافة العربية الإسلامية، فهو يتكلم العربية منذ صغره، ولد في أحد أحياء الجزائر عام 1915، وتعلم اللغة العربية من أسرته وأقرانه في الحي، وفي الحرب العالمية الثانية خدم في الجيش الفرنسي في لبنان وسورية، وكانت له صلات جيدة مع كثير من العرب، لميوله الشيوعية، وبعد عودته إلى باريس أكمل دراساته العليا في اللغة والأدب العربي، وكان يميل إلى اليسار الفرنسي (الحزب الشيوعي) من هنا كان يناصر القضية الجزائرية وطنه الأصلي وصار من المستشرقين المعروفين في دراسة الإسلام، وعندما أصدر المفكر الفلسطيني إدوارد سعيد كتابه (الإستشراق) ثمَّن عالياً دراسات المستشرق الفرنسي ماكسيم رودنسون. قدَّم رودنسون دراسة عميقة لكتب أبي جعفر الجزار (المتوفى 1004م) تلميذ الطبيب اليهودي اسحق ابن سليمان القيرواني، كتاب زاد المسافر وقوت الحاضر، وهو مختصر في الطب وضع من أجل تطبيب الفقراء والمساكين وكان أكثره التداوي بالغذاء لا بالدواء، وكتاب الجزار المسمى (الوصلة إلى الحبيب في وصف الطيبات والطيب) ترجمه مكسيم رودنسون إلى الفرنسية، وصدَّره بدراسة وافية عن فن الطبخ عند العرب وآداب الطعام، ومن ألّف عند العرب في هذا الفن من المتقدمين والمتأخرين، ووصف كتبهم، وكتب فصلاً خاصاً عن طعام الأمراء في القرنين السادس والسابع للهجرة، فجاءت في 60 صفحة بالفرنسية من القطع الكبير نشرها في مجلة الدراسات الإسلامية، تعرض للثقافة العربية الاجتماعية في عام 1949. وفي عام 1951 كتب عن علاقة الكوميديا الإلهية وعن ثقافة دانتي الإسلامية حسب البحوث الاستشراقية الحديثة نشره في مجلة تاريخ الأديان في 139 صفحة، وأصدر كتاباً جيداً عن

حياة محمد والمشكلة الاجتماعية بيَّن فيه الأصول المتعلقة بأصول الحكم في الإسلام، نشره في باريس عام 1961. وله كتاب عن الصلات بين الدول الإسلامية والشيوعية نشره في بروكسل عام 1962، وله كتب عديدة غيرها[102].
وأفضل الكتب التي دافع فيها عن العرب كتابه (إسرائيل والعرب) جاء فيه: «إن إسرائيل لن تدوم إلى الأبد، وحظوظ الأمم في صعود وانخفاض، فكما فشلت الدول الصليبية في تثبيت الإمارات اللاتينية في سواحل بلاد الشام، فإن إسرائيل ستلقى نفس المصير»[103].

## اليهود في تونس

تونس بلد عربي خالص، لا توجد فيه أعراق غير عربية، وفيه طائفة يهودية نشطة. وتقع تونس على ساحل المتوسط، مساحته الإجمالية حوالي 156 ألف كيلومتر مربع، وتدعى الجمهورية باسم العاصمة تونس.

### طبيعة الأرض والتضاريس

تحاذي الشاطئ تلال تشتهر بخصوبتها ووفرة أمطارها ومياهها، والسهول الشرقية وفيها التلال العليا، هي مراع وغابات وهضاب استبسية تعيش فيها قبائل عربية رعوية، والسهول الجنوبية فيها واحات نخيل وصحارى. وأهم حاصلات تونس زراعة الزيتون وعصر الزيت وهناك الكروم وصناعة الخمور.

### الثروة المعدنية

في تونس توجد كميات من الفوسفات والحديد، لذا كانت صناعاتها التحويلية بسيطة وتعتمد على السياحة.
سكن تونس الفينيقيون منذ الألف الأول، وكانت قرطاجة ذات قوة وسطوة جبارة، هاجم ملكها هنيبعل (247- 183 ق.م) مدينة روما، واستخدم الفيلة في هجومه مخترقاً الجبال والسهول مما أنهك جيشه وكسر، وهرب إلى سورية وعمل في خدمة أنطوخيوس الكبير، ثم ذهب إلى أثينا ومات مسموماً.
غزا تونس الفندال (479- 533) وفيها انتشرت الديانة المسيحية وكانت هناك جالية يهودية لها تأثير في الحياة الثقافية والاقتصادية.

فتح العرب المسلمون تونس بقيادة عبد الله بن أبي سرح عام 647م. وأسس من بعده عقبة بن نافع مدينة القيروان (670م) وأقام فيها قاعدة عسكرية في مكان خصب كثير المياه والخضرة قال عنها ابن عبد الحكم «إنها كانت وادياً كثير الشجر والعُطف تأوي إليها السباع والوحوش والهوام، واختط بها عقبة المسجد ودار الإمارة ثم بيوت الجند وكان ذلك (679- 682) ورحل عقبة إلى بلاد الزاب حيث يسكن البربر واستقر العرب المسلمون في كل أرض المغرب، وكانت تونس جزءاً من ذلك الوطن»[103]. وتحولت القيروان إلى بلدة عامرة بالعلم والصناعة، وسكنتها جالية يهودية وعليهم قامت الحرف والصناعات والتجارة. ثم حكمها الفاطميون منذ عام 909م، وبنوا فيها مدينة المهدية، ثم حكمها الحفصيون منذ عام 1228م، وبنو عبد الواد في تلمسان 1235م، ولكن بني مرين احتلوا تلمسان 1337م، وازدهرت تونس في عهد أبو عنان المريني وقد نبغ ابن خلدون في بلاطهم. ثم حكمها الأتراك 1574م، الذي قضوا على السلطان حميدة (1542- 1569) وأخيراً بسط عليها الفرنسيون حمايتهم عام 1882، وحصلت تونس على استقلالها عام 1956م.

ومن رجال النهضة الحديثة **خير الدين التونسي** (1810- 1889)

كان هذا المصلح من أصل شركسي مملوك، اشتراه باي تونس أحمد (1837- 1855) عام 1830 وتعلم الفرنسية إلى جانب العربية والتركية، ولأجله أبطل الباي بيع الرقيق عام 1845 فتحرر من العبودية، ودرس في جامعة الزيتونة، وأرسله الباي محمد (1855- 1859) عام 1856 إلى فرنسا للدراسة ودرس الحقوق والفلسفة وعاد إلى تونس عام 1859 وصار مستشاراً عند الباي محمد صادق عام 1859، وبتوجيهه نال الشعب حريته وأصدر الباي عهد الأمان وفيه حصل اليهود على حريتهم، وعادت إلى معبد جربة حريته وأصبح مكاناً للدراسات العبرية.

تحسنت الزراعة وأحوال البلاد، وشجع خير الدين زراعة الزيتون والنخيل والكرمة، وأعفى الغارسين من الضريبة لمدة عشرين عاماً، وردّ الظلامات عن تجار اليهود خلال وزارته (1873- 1877) ونظم القضاء، واهتم بتحسين ميناء تونس ورفع الكمارك ونشط التجارة، وصارت صفاقس مركزاً لصناعة نسيج الشاش، ودباغة الجلود الملونة، وهاجر اليهود من الجزائر وليبيا إلى تونس،

وأنشأ مكتبة عامرة في العاصمة تونس، وقد وهبها 1500 مخطوط من ملكه الخاص وأوقف لها كل المخطوطات الموجودة في مساجد البلاد عام 1875م.

أدخل خير الدين المناهج الحديثة إلى المدارس وصار الطلاب يدرسون اللغة الفرنسية، إلى جانب العربية، وكتب كتاباً سماه (أقوم المسالك في إدارة الممالك) عام 1867. وصار هذا الكتاب المرشد والدليل لتوجيه الثقافة في تونس.

لكن حسَّاد خير الدين حاكوا له الدسائس، مثل كل رجل متميز، ومصلح عظيم، فغادر تونس في خريف 1878م إلى القسطنطينية. وفي كتابه علّل المصلح الكبير خير الدين سبب تقدم أوروبا وتأخر المسلمين بما يلي: «إنما بلغوا تلك الغايات والتقدم في العلوم والصناعات، بالتنظيمات المؤسسة على العدل السياسي (الديمقراطية) وتسهيل طرق الثروة، واستخراج كنوز الأرض، بعلم الزراعة وعلم التعدين وتنشيط التجارة، وملاك ذلك كله الأمن والعدل اللذان صارا طبيعة في بلدانهم»[104].

احتلت فرنسا تونس عام 1882م، وصار اليهود وسطاء بين الشعب التونسي وسلطة الاحتلال. وعندما أعلن الدستور في تونس عام 1885، جاء فيه «لأن اليهود من رعايانا، فإن السلطة ستكفل لهم موقفاً طيباً، وحقوقاً عادلة مما يقلل عليهم فرض الضرائب».

كان اليهود تجار الأسواق الداخلية، وفيهم الباعة المتجولون بين القرى بحرية دون الخوف من اعتداءات القبائل الريفية.

كان أول اتصال بين يهود تونس واليهود الأوروبيين عن طريق جماعة (كل شعب إسرائيل اصدقاء) وفتحوا مدرسة حديثة في العاصمة عام 1878م. ولكن يهود جربة وقفوا ضد التعليم الحديث، وفضلوا التقليد التلمودي (اليشيفوت) وازدهر الأدب العبري الذي كان يكتب بحروف عربية، واعتمدوا على كتاب (فرائض القلوب) وفيه تعاليم القبالاة المغربية. وكتب الحاخام هرون بيرنس قصائد في حب بيت المقدس، وذكرهم بالهجرات الماضية إليه عام 1777م، عندما هاجرت 130 عائلة من تونس. لكن يهود جربة كانوا يزورون بيت المقدس ويعودون إلى جربة.

جرت في تونس صراعات وهوشات بين يهود (السفاراد) واليهود الأوروبيين (الأشكناز). ذكر المندوب السامي المقيم في العاصمة تونس عام 1899: «في

الوقت الذي يعاني فيه يهود الجزائر من النتائج السياسية لمرسوم أدولف كرمة اليهودي، فإن الوقت الراهن ليس مناسباً لتحسين أوضاع اليهود الأشكناز بالمقايسة بالمواطنين المسلمين واليهود السفاراد. وإن محاولة منحهم الجنسية ستخلق مشكلة عدائية خطيرة»[105].

ولكن اليهود الأشكناز حصلوا على الجنسية الفرنسية عام 1911، التي صارت سمة لأبناء الطبقات العليا في المجتمع التونسي المسلم واليهودي. زادت الاتجاهات العلمانية بين يهود العاصمة، واصدروا الصحف والمجلات مثل مجلة (النجمة السداسية) بالعربية (1920- 1961) وصحيفة (الصحوة العبرية) بالفرنسية، ومجلة (العدالة) بالفرنسية. وكان يشرف عليها الشيوعيون، وكانت تدعو اليهود إلى الاندماج بالمجتمع العربي والانفتاح على الثقافة الأوروبية الأممية والابتعاد عن الثقافة الصهيونية العنصرية. وصدرت صحيفة (إسرائيل) بالفرنسية وكانت تنطق باسم الحركة الصهيونية، وصدرت مجلة (النجمة السداسية) اليهودية بالعربية، وكانت تدعو لثقافة وطنية تونسية.

كان اليهود التوانسة من أوائل المفكرين المهتمين بتاريخ الثقافة اليهودية. كتب الأديب داود كازس عام 1888م، تاريخ الأدب اليهودي في تونس ونال شهرة بين اليهود في شمال أفريقيا، ومن أشهر الأدباء التونسيين:

### الأديب اليهودي ألبير ممّي Albert Memmi

كان هذا الأديب يكتب بالفرنسية والعربية، اصدر رواية (عمود الملح) 1953، ضمنها سيرته الذاتية وتمثل شاباً يهودياً فقيراً، يعيش في حي اليهود في العاصمة، وكان همهالخروج من حارة اليهود القديمة والسكنى في الأحياء العربية. من أجل ذلك تبنى الاتجاهات الثورية (الاشتراكية) ولكنه شعر بالخيبة في ظل حكم فيشي الموالي للنازية، وتخلى عنه رفاقه العرب من طلاب ومدرسين، وكيف أنهم كانوا يدفعونه للبقاء في حيه اليهودي القديم.

وله كتاب عن اليهود والعرب. دعا فيه إلى تحرير اليهود من الشعور بالذل والخنوع عن طريق الاندماج بالنضال الوطني، وتقرب إلى الحزب الشيوعي التونسي، وتقرب إلى اليسار الفرنسي، وكان يكتب في جريدة الأومانتيه، ولكن

خاب أمله في الحزب الشيوعي وترك الحزب وهاجر إلى فرنسا بعد الاستقلال عام 1956. وهو آسف على ترك وطنه. وأصدر في فرنسا كتابه (الوطن المسيطر) عام 1968م، قدَّم فيه نفسه كضحية «كان التونسيون ينظرون إليَّ بوصفي مواطناً يهودياً وكوني شيوعياً، لم تكن ولن تكون لي حقوق سياسية. كما لم يكن لي حق بالتقدم إلى الوظائف كوني شيوعياً، مع العلم أني كنت متفوقاً على أقراني العرب المسلمين، فتعرضت لكراهية الفرنسيين الذين اعتبروني كالعرب أدنى طبقات السلم الاجتماعي. وكان الفرنسيون يعتبرونني مثقفاً متحذلقاً لأني أقلدهم في الكلام واللباس والطعام. من هنا كان شعوري بالاغتراب عن وطني»[106].

## الجمعيات والروابط اليهودية التونسية

نشط الشباب اليهودي الصهيوني في تونس منذ عام 1898 بعد المؤتمر الصهيوني الأول في بازل، وتأسست رابطة صهيون، عام 1911، وكان من أبرز شخصياتها الأديب يوسف رامي والصحفي روفائيل ليفي وهنري معرق، وأصدروا صحيفة (صوت صهيون) بالفرنسية، وتشكلت في تونس منظمة يسارية عام 1930، تدعى شومير هتسفير أي الحرس الفتي، وصارت هذه نواة للحزب الشيوعي التونسي القسم اليهودي ودخل في عام 1934 حوالي 3 آلاف يهودي.

وانضم بعضهم إلى حزب الدستور الجديد تدعو للاستقلال تحت زعامة الحبيب بورقيبة من أجل هذا كان الحبيب بورقيبة يحترم الجالية اليهودية التونسية، وكان في العاصمة من اليهود 175 طبيباً و160 محامياً و254 قاضياً ومدرساً و100 مهندس زراعي، وكانوا منظمين في الأحزاب الوطنية، وكانوا يقاطعون المنظمات الصهيونية.

## يهود جربة

جزيرة جربة جزيرة ملاصقة للساحل التونسي وتتصل بالبر التونسي بجسر قديم طوله 3 كم، وتقع الجزيرة في خليج قابس مساحتها 514كم، عرفت قديماً باسم مينيكس. والجزيرة ذات مناخ عذب الهواء وتربتها خصبة تكثر فيها أشجار

النخيل وكروم العنب والزيتون والأشجار المثمرة الأخرى. وفيها ينابيع صغيرة، تروي الزرع والضرع والإنسان. ويرتبط تاريخها بأسطورة زهرة اللوتس.

هبط عليها الفينيقيون واليونان وجاءها تجار يهود من سورية، بنوا فيها معبداً واحتلها الرومان عام 146 ق.م، وأنشأوا فيها قرى لا زالت آثارها ظاهرة للعيان. قال الأستاذ التونسي محمد المرزوقي: «تنبه الرومان إلى أهمية جزيرة جربة فنزلت فيها أساطيلهم، وشرعوا بإدخال حضارتهم فأسسوا فيها القرى الزراعية، والمراسي التجارية، وربطوا بينها وبين البحر بقنطرة حجرية (جسر) فكان الزائر يسلك الطريق على الرجلين وفي وسط هذا الطريق بنوا حصناً بالحجارة وله باب متحرك من أجل حراسة الجزيرة[107].

هاجر إلى الجزيرة يهود من إسبانيا والمغرب عام 1510م، واستقروا فيها ولا زالوا يشتغلون بالتجارة وصيد الإسفنج. يعتبر معبد جربة اليهودي أقدم كنيس في العالم، وقد اشتهر بمخطوطاته العبرية، ويزعم اليهود أن به باباً من أبواب الهيكل المقدس في القدس جاؤوا به بعد هدم الهيكل عام 70م.

وفي عام 1560 جرت معركة بين الأسطول التركي والأسطول الإسباني، انتصر فيها القائد العثماني الريس بياله، وسحق القوات الإسبانية وبنى برجاً من رؤوس البحارة الإسبان، في ساحة سوق جربة، ولا زال يطلق على المكان (برج الرؤوس).

اشتهر يهود جربة بصناعة السجاد والفخار وصياغة الذهب والفضة، وليهود جربة ميزة، أنهم لا زالوا يحتفظون بالزي الأندلسي في اللباس والزينة، والطعام واللهجة العربية الأندلسية، كما يحافظون على الأغاني والرقص الأندلسي. وتزخر جزيرة جربة بالمزارات اليهودية المشتركة بين اليهود والمسلمين. وينسبون لهذه القبور كرامات ويقدمون لها النذور، ويعزون إليها القدرة على شفاء الأمراض. وفي الأعياد الإسلامية واليهودية يحتفلون سوية، وفي ليلة منتصف شعبان (ليلة المحياة) تأتي النساء المسلمات من مدينة قابس ويتنافسن مع النساء اليهوديات على زيارة قبور الأولياء اليهود، وكل طرف منهن تزعم أن هؤلاء الأولياء تابعين لهن[108].

كانت نساء جربة اليهوديات إلى وقت قريب، يغطين رؤوسهن، ويلبسن الثياب السود، ويحفظن قصائد الحاخام هرون بيرنس الذي هاجر عام 1777م إلى بيت

المقدس ومعه بعض العائلات من يهود جربة، ويرتلن التوراة على لهجة يهود بغداد، وكانت أناشيد الحزن البغدادية تسمع في الأعياد. من أهل جربة الحاخام التونسي حاييم حوري المدفون في بئر السبع.

كان في عام 1962 حوالي أربعة آلاف يهودي من أصل 15 ألف كانوا قبل ذلك، فهاجر معظمهم إلى فرنسا، وهم اليوم مواطنون فرنسيون ولكنهم يترددون على الجزيرة، التي تقوم معيشتها على السياحة، ويتكلم الشعب في جربة المسلمون واليهود عدة لغات أوروبية حديثة. وفي جربة يقيم الحاخام الأكبر، وعندهم مدرسة للأطفال ومدرسة دينية لطلاب الحاخامات في الحي الكبير ولا زال يقطنها أكثر من ألف يهودي.

## اليهود في ليبيا

ليبيا بلد عربي مسلم لا وجود للديانات الأخرى فيه إلا اليهود، الذين كانوا يسكنون ليبيا منذ القديم. تبلغ مساحة ليبيا مليون و760 ألف كم مربع. تحدها مصر من الشرق، والبحر المتوسط من الشمال والجزائر وتونس من الغرب، ومن الجنوب تحدها بلاد النيجر وتشاد والسودان.

عاصمة ليبيا طرابلس الغرب، وأهم مدنها بنغازي وفزان.

#### الطبيعة والتضاريس

أرض ليبيا جزء من الهضبة الأفريقية، تؤلف الصحارى 85٪ من مساحتها ويتكون سطحها من عدة مناطق:

1)السهل الساحلي: الذي تكثر فيه الواحات، ومناطق الرعي، خصوصاً في سهل الجفارة.

2)منطقة فزان: وهي مجموعة واحات تفصل بينها مناطق صحراوية. تقع في الجنوب الغربي من ليبيا وهي غنية بالمياه الجوفية.

3)مرتفعات تاسيلي وتبستي: منطقة رعوية وفيها آبار البترول.

4)الهضاب الساحلية: التي تحف بساحل المتوسط وترتفع لـ (600م). ويعرف جزؤها الشمالي بالجبل الأخضر.

مناخ ليبيا مناخ قاري جاف، قليل الأمطار ونشاطها الزراعي يعتمد على المياه الجوفية، ومياه الآبار. وقبل وجود المضخات الآلية، كانت الثيران والجمال تقوم

بسحب الدلاء. وحول مدينة طرابلس الغرب حوالي ثمانية آلاف بئر. وأهم الزراعات أشجار النخيل والزيتون والكرمة والرمان والموز والمشمش والبرتقال. وهناك البطيخ الأخضر والبطيخ الأصفر (الشمام) وهما من الصنف الممتاز[109].

كان اقتصاد البلاد يعتمد على الرعي، وكان يقدر في القرن التاسع عشر في ولاية فزان حوالي 350 ألف جمل و30 ألف حصان و20 ألف رأس بقر وحوالي مليون رأس ضان. ويقال إن تجار اليهود كانوا يصدرون إلى جزيرة مالطة حوالي 300 رأس بقر كل أسبوع، وتربى في ولايتي طرابلس وبنغازي خلايا النحل وكانت جرار العسل تباع إلى تجار جزيرة جربة اليهود الذين يصدرونها بدورهم إلى إيطاليا وجزيرة صقلية.

أدى اكتشاف البترول حديثاً إلى تغير نمط المعيشة، وازدهرت حياة الناس، تعاقبت على ليبيا شعوب عديدة كالفينيقيين واليونان والرومان، ثم فتحها العرب المسلمون عام 644م، وقام عمرو بن العاص على رأس الحملة، ثم عاد وأرسل عقبة بن نافع ليتابع الفتوح.

احتلها العثمانيون عام 1556م، وحكمت ليبيا الأسرة القرمنلية (1714-1853) وهي أسرة تركية الأصل، ثم غزاها الإيطاليون عام 1911، وقاومهم السنوسيون وبرز القائد عمر المختار، ثم استقلت ليبيا عام 1951، وقامت ثورة الفاتح من أيلول عام 1969، وأصبحت ليبيا جماهيرية ديمقراطية.

## حكم أسرة القرمنلي

هذه الأسرة من أشهر الأسر التي حكمت طرابلس الغرب، قتل الأتراك زعيمها أحمد قرمنلي في زواغة، وعينوا خليل باشا وأعطاه السلطان أحمد الثالث فرماناً فيه لقب بيرلباي، وجاء بعده أحمد بن أحد قرمنلي (1745-1753) وعقد معاهدات مع بريطانيا وشجع القرصنة والتجارة، أما يوسف قرمنلي (1795- 1835) فإليه يعود تأسيس الدولة الحديثة، أنشأ أسطولاً قوياً أجبر به دولة السويد على دفع الجزية (1799) وقاوم البرتغاليين، وحارب الولايات المتحدة عام 1802، ولكنها انتصرت عليه وأجبرته على توقيع معاهدة لإلغاء النخاسة عام 1830، واعتزل الحكم عام 1835م.

في فترة الحكم القرمنلي كان اليهود يتمتعون بحرية العبادة والتجارة، ولكن الأمر تغير بعد ذلك، ففي عهد حكم الأسرة السنوسية، أسس السيد محمد بن

علي السنوسي (1799- 1859) زاوية في الجبل الأخضر عام 1843، وأنشأ مركزاً للعلم في جغبوب على شاكلة الأزهر الشريف، وعمت الطريقة السنوسية (الصوفية) عموم البلاد. وفي عام 1856 عارض أهل مدينة الزاوية بناء معتبد يهودي في مدينتهم التي كانت تسكنها جالية يهودية منذ القديم، لاعتقادهم أن تزايد قوة اليهود تؤدي إلى تهديد التجارة الإسلامية، وصار المسلمون في ليبيا يطلبون من اليهود عدم التقرب من زواياهم.

أما في طرابلس وبنغازي وفزان، فإن الأمر يختلف عن ذلك، فاليهود يقيمون في حاراتهم القديمة، ويمارسون التجارة بحرية فهم الوسطاء بين القرى والمدن الليبية، ويلعب الأطفال اليهود مع أطفال المسلمين ويخرجون في أعياد اليهود (عيد شفوعوت) ويتراشقون بالماء كي يكون العام القادم مطيراً.

### أحياء اليهود الخاصة (الحياة الاجتماعية والتعليم)

لا تختلف حارات اليهود عن حارات المسلمين، فالبيوت متشابهة البناء، والأثاث والعادات واحدة، واللباس والطعام واحد، والاختلاف فقط في المسجد والكنيس، ففي كل بيت يهودي (حوش) هو عبارة عن ساحة داخلية تتوجه إليها مداخل الغرف، لتوفير الهواء والنور، ولا توجد نوافذ مطلة على الشارع وإنما هناك بعض الكوى لصغيرة في أعلى المنزل لتوفير الهواء الطلق في البيت الشرقي المحافظ، لعدم رؤية المرأة من الأغراب. والحوش على الأغلب مظلل بعريشة عنب أو ببعض أشجار الورد والرمان.

كانت المرأة اليهودية كالمرأة المسلمة تتحجب، ولكنها تلبس تحت الحجاب العقود الذهبية والأقراط، وترتدي النساء اليهوديات الثياب الحريرية والقطنية الملونة، وفي الأعراس تجتمع نساء اليهود والمسلمين، ويرقصن معاً ويغنين، وترقص داخل الحلقة فتاة زنجية مسلمة وتغني وتعزف وترقص، وفي حفلات العرس يحضر الرجال أعراس اليهود، ويغنون وتنصب مائدة للضيوف عليها كؤوس الخمر في غيبة الشباب المسلم.

أما بالنسبة للدراسة، فكانت تتم في المسجد عند الكتاب بالنسبة للمسلمين، وكذل الدراسة بالنسبة لليهود تتم في ساحة الكنيس، يعلمهم الربي مبادئ الكتابة والخط العربي والحساب، حتى نصوص التوراة والتلمود تعلم بالعربية من ترجمة سعدية بن يوسف الفيومي وترجمة التلمود لعزرا بن موسى اللاوي (1070- 1139).

ولكن في عام 1876 وصل إلى طرابلس الغرب مندوب عن الحكومة الإيطالية لفتح مدرسة إيطالية حديثة التحق بها عشرات الطلاب من المسلمين واليهود، ثم جاءت في عام 1890 جماعة كل شعب إسرائيل أصدقاء، وفتحت مدرسة مهنية لتعليم أولاد اليهود بعض المهن، ومدرسة للفتيات، وفتحت الحركة الصهيونية عدة مدارس مسائية لتعليم اللغة العبرية التي يجهلها يهود ليبيا، ولكن فتحت في طرابلس الغرب عام 1909، مدارس حكومية عددها 24 مدرسة، للبنين وواحدة للبنات، وصار لليهود في كل ليبيا 29 مدرسة و3 مدارس إيطالية للبنين ومدرستان للفتيات، وفي بنغازي مدرسة واحدة لليهود[110].

كانت مؤسسة (بجديل - توراه) هي التي تشرف على التعليم في ليبيا بتوجيه الحاخام الياهو حزان، وقد طور التعليم الديني والعلمي وشملت المناهج اللغات العربية والعبرية والأجنبية، والرياضيات والكيمياء والفيزياء، واختفت في عهده المدارس التقليدية وحلت محلها مدارس الإليانس.

احتلت إيطاليا ليبيا عام 1911، وظلت سيطرتها في البداية على ولاية طرابلس الغرب، وقامت ثورة عمر المختار وظلت تقاوم حتى فشلت عام 1931، وسيطرت إيطاليا على ليبيا، وتغيرت حياة اليهود جذرياً.

والسؤال: ماذا طرأ على حياة اليهود الاجتماعية؟

فرضت السلطات الإيطالية في البداية عام 1916 قانوناً جاء فيه: يجب أن يكون الحاخام الأكبر إيطالياً، فعارضته الطائفة اليهودية. وهاجم الحاخام الإيطالي جوستاف كاستيلو لانسي القانون الي يجبر اليهود على إرسال أولادهم إلى المدارس يوم السبت فأصدرت السلطات الفاشية أمراً بترحيله إلى روما عام 1933.

وأجبر المرسوم تجار اليهود، الذين خرجوا من حارة اليهود وفتحوا مخازن في الأحياء الحديثة، على فتح محلاتهم يوم السبت ويعطلوا يوم الأحد، وقامت السلطات الإيطالية بسجن من لا ينصاع لهذا المرسوم، وكتبت جريدة أفنيري دي تريبولي: «إن طرابلس الحديثة شيدها الإيطاليون ليكون أسلوب حياتها متطوراً وعصرياً. جعلت تجاراً يخرجون من أسوار المدينة القديمة واختياره للأماكن المناسبة بغرض أن يؤسسوا فيها محالهم الحديثة، وفروعاً مختلفة للسوق مما يخدم حركة التجارة الداخلية ولكن صارت تغلق محال اليهود في يوم السبت، دون اعتبار لاحتياجات السكان مما يخلق الفوضى».

## نشاط اليهود التجاري والصناعي

كانت الصناعة بسيطة في ليبيا تقوم في بعض المدن وأهمها في طرابلس الغرب . وأهم الصناعات صناعة النسيج، تتوارثها عائلة يهودية في حي اليهود، وكانت وحياكة القطن والصوف والحرير، وتستخدم الأنوال القديمة الأفقية التي تستخدم فيها الأيدي والأرجل، وكان في ولاية طرابلس 1300 نول لنسيج القطن، و350 نولاً لنسيج الصوف، و150 نولاً لنسيج الحرير، ثم نقل تجار اليهود هذه الحرفة إلى بنغازي ومصراتة، وصار فيها 450 نولاً لنسج القطن وعشرة أنوال لحياكة الحرير وتطريز الثياب. وكان اليهود يستوردون الحرير الخام عن طريق تجار جزيرة جربة التونسية، وكانت تجارة السجادة مزدهرة في طرابلس، وكانت بيد المسلمين، ولكن اليهود هم الذين يصدرون الفائض إلى الخارج، وكانت خيوط الصوف تستورد من إنكلترا ويقوم بنسجها حرفيون مسلمون ويهود.

أما صياغة الحلي فقد تخصص فيها اليهود القراؤون منذ القديم، وقد غصت حارة اليهود بهم وقد بلغ محصول ربح صناعة الصياغة السنوية حوالي 45 ألف ليرة ذهبية تركية[111].

أما بالنسبة للتجارة: كانت هناك نوعان للتجارة في ليبيا:

تجارة المدن: كانت معظم الحوانيت ملكاً لليهود.

تجارة القوافل البعيدة: فهي بيد المسلمين، وكان رئيس القافلة يدعى (قافلة باشي) وكان اليهود هم الذين يقومون القافلة ويرسل اليهود بضائعهم مع التجار المسلمين الذي يتقاسمون معهم الربح. كان حمل الجمل حوالي 80 كغ، من الألبسة الحريرية والقطنية، (عمائم وقفاطين وموسلين وشاسيه وحلي). أما حمل الجمل من البضائع العادية فهو يحمل حوالي 300 كغ، من الخزف الصيني والزجاج والسيوف والخناجر والورق والمرجان والأوعية النحاسية والعطور والطيب والمساحيق والسناميكي (مادة مسهلة) والشموع والبارود والبنادق.

تذهب القافلة التي تتألف من 50 جملاً إلى تمبكتو، تنطلق من غداس وقد تستغرق الرحلة حوالي عام في الذهاب والإياب، حيث تحمل الجمال من أفريقيا (الذهب وريش النعام وأنواع الببغاء والبخور واللبان والجلود والحصر والحناء)[112].

### الصحافة اليهودية في ليبيا

عرفت ليبيا الصحافة منذ عام 1852 عندما أصدر الوالي محمد نديم جريدة طرابلس الغرب، وكانت تصدر بورقة واحدة صباح كل خميس باللغتين

العربية والتركية، وكان ثمن العدد 40 بارة، وجلب الوالي المصلح محمد نديم مطبعة للولاية لطباعة التقويم السنوي (سالنامة) عام 1857 وكانت تكتب إحصاء سنوياً يضم كل الإنجازات السنوية التي قامت بها الدوائر الحكومية، وكانت تصدر باللغتين العربية والتركية. وكان مديرها المسؤول الشيخ محمد البوصيري وجعل ثمنها 20 بارة. وصدرت مجلة الفنون عام 1898، وكانت مجلة علمية فنية، تطرقت إلى مختلف العلوم والفنون، وفي عام 1908 صدرت جريدة العصر الجديد وكان شعارها (جريدة من الشعب إلى الشعب) واستفاد اليهود من هذه الصحافة العربية، فقام الصحفي اليهودي الياهو نحيمس (1890- 1918) في عام 1912 بإصدار جريدة (رابطة صهيون) بالعربية دعا فيها إلى إحياء الثقافة اليهودية ونشر اللغة العبرية[113].

ترأس رابطة صهيون الحاخام بوحويزة نائب المحكمة الشرعية في طرابلس، وكان معه الحاخام مردخاي كوهين مؤلف كتاب (هجيد مردخاي). وفي عام 1916 اصدر الصحفي الياهو نحيمس جريدة (إسرائيل) ولكنه توفي بعد عامين وجاء من دمشق الأستاذ أفرام (صالح) المالح وشكل اتحاد يهود طرابلس،وأحيا تعليم اللغة العبرية.

كانت ثقافة يهود ليبيا متخلفة لأن اهتمامهم محصور بالتجارة والصناعة. ولم يكن بينهم حتى عام 1936 سوى طبيب واحد ومهندس معماري واحد ومدرسين ومائة وعشرين موظفاً، لأن ليبيا المتخلفة تفرز ثقافة متخلفة.

وفي عام 1945 وفي تشرين الثاني وقعت مصادمات بين اليهود والمسلمين، فخرجت أعداد كثيرة من حارة اليهود، وكانت السلطة الفاسية معادية لليهود أكثر من عدائها للمسلمين. وكانت في عام 1938 قد فرضت قوانين معادية ولكنها ألغيت عند زيارة موسوليني لطرابلس عام 1938 بناء على مطلب مجلس الحاخامات.

بلغ عدد يهود ليبيا عام 1938 حوالي 31 ألف يهودي، هاجر معظمهم إلى فلسطين وظل في ليبيا حوالي 11 ألف يهودي هاجروا بعد الثورة عام 1969 إلى إسرائيل. لم يبق منهم سوى 20 شخصاً لحراسة الكنيس في طرابلس، وحوالي 15 شخصاً في بنغازي، لحراسة الكنيس والمقبرة.

## مراجع الفصل الخامس : تاريخ اليهود في الدولة العثمانية


(1) تاريخ العرب والشعوب الإسلامية ص277، كلود كاهن، ترجمة بدر الدين القاسم، دار الحقيقة بيروت 197.
(2) الآثار الباقية ص21 إدوار سخاو طبعة لايبزيغ 1923.
(3) التلمود كتاب إسرائيل المقدس ص63، عبد المنعم شميس القاهرة 1968.
(4) اليهود في البلدان الإسلامية ص9، ترجمة جمال أحمد الرفاعي، كتاب المعرفة (197) الكويت 1995.
(5) رحلة بنيامين التطيلي ص78، ترجمة عزرا حداد، المطبعة الشرقية، بغداد 1945.
(6) العرب واليهود في التاريخ ص410، أحمد سوسة دار العربي للإعلان والنشر دمشق 1972.
(7) المصدر السابق ص411.
(8) تاريخ الجمعيات السرية ص123، محمد عبد الله عنان، القاهرة 1926.
(9) رحلة إلى مصر ص85، كارستن نيبور ترجمة مصطفى ماهر 1977.
(10) اليهود في البلدان الإسلامية ص194.
(11) المصدر السابق ص183.
(12) المصدر السابق ص219.
(13) المصدر السابق ص208
(14) المستشرقون ج1، ص219، نجيب العقيقي دار المعارف بمصر 1964.
(15) بغداد كما وصفها السواح الأجانب ص60، سعاد العمري دار المعرفة بغداد 1954.
(16) المصدر السابق ص4.
(17) المصدر السابق ص98.
(18) المصدر السابق ص38.
(19) رحلات إلى العراق ص83، سرواليس بدج، ترجمة فؤاد جميل مطبعة دار الزمان بغداد 1966.
(20) المصدر السابق ص102.
(21) المصدر السابق ص44- 45.
(22) المصدر السابق ص1966.
(23) اليهود في البلدان الإسلامية ص36.
(24) يغداد كما وصفها السواح الأجانب ص71.

(25) نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق ص32، يوسف رزق الله غنيمة، بغداد 1924.
(26) رحلة بنيامين التطيلي ص150.
(27) مشاهدات نيبور في البصرة والحلة، عام 1765، ص8، ترجمة سعاد العمري دار المعرفة بغداد 1955.
(28) اليهود في البلدان الإسلامية، ص42.
(29) أحسن التقاسيم ص138، نشر دي غويه، ليدن عام 1883.
(30) رحلة بنيامين التطيلي ص127– 128.
(31) رحلات إلى العراق ص281.
(32) المصدر السابق ص282.
(33) المصدر السابق ص292.
(34) الموسوعة الفلسطينية ج4، ص638 دمشق 1984.
(35) اليهود في البلدان الإسلامية ص63.
(36) الهجرة اليهودية إلى فلسطين ص143، الياس سعد، بيروت 1969.
(37) مجلة بيروت المساء العدد 10، ص49– 51، بيروت 1975.
(38) العرب واليهود في التاريخ، ص743.
(39) الرحلة إلى مصر ص244.
(40) المدخل ج1، ص273، لابن الحاج دار الكتاب العربي بيروت 1972.
(41) المصدر السابق ج2، ص59.
(42) الرحلة إلى مصر ص223.
(43) المدخل لابن الحاج ج2، ص175.
(44) المصدر السابق ج1، ص238.
(45) الرحلة إلى مصر ص297.
(46) مقدمة ابن الحاج ج2، ص65.
(47) الرحلة إلى مصر ص254.
(48) ابن الحاج ج2، ص53.
(49) الرحلة إلى مصر ص288.
(50) المصدر السابق ص289.
(51) المصدر السابق ص311– 312.
(52) المدخل لابن الحاج ج2، ص54.
(53) الرحلة إلى مصر ص252.
(54) المصدر السابق ص324.
(55) اليهود في البلدان الإسلامية ص423.
(56) اليهود المصريون بين اليهودية والمصرية ص8، سهام نصار دار الوحدة بيروت 1980.

(57) خطط المقريزي ج2، ص362.
(58) المصدر السابق ج2، ص498.
(59) دائرة معارف البستاني مجلد 6، ص134. بيروت 1935
(60) منبعا الأخلاق والدين ص236، هنري برجسون ترجمة سامي الدروبي وعبد عبد الله الدايم القاهرة 1970.
(61) الفتوحات المكية ص167، مجلة تراث الإنسانية دراسة بقلم أبو العلا عفيفي القاهرة 1967.
(62) اليهود في البلدان الإسلامية ص307.
(63) الموسوعة الفلسطينية ج4، ص641.
(64) الصحفي الثائر ص14، إبراهيم عبده كتاب روز اليوسف القاهرة 1955.
(65) المصدر السابق ص16.
(66) المصدر السابق ص26.
(67) يهود اليمن ص216، عباس الشامي، كتاب المسيرة، صنعاء 1988.
(68) المصدر السابق ص221.
(69) إسرائيل والفكرة الصهيونية، ص50، كتب سياسية القاهرة 1957.
(70) المصدر السابق ص39.
(71) المصدر السابق ص44.
(72) يهود دمشق ص13، يوسف نعيسة دار المعرفة دمشق 1988.
(73) المصدر السابق ص13.
(74) البداية والنهاية ج14، ص308، ابن كثير دار المعارف بيروت 1966.
(75) المصدر السابق ج14، ص251.
(76) اليهود المصريون بين المصرية واليهودية ص8.
(77) رد المحتار على الدر المختار ج2، ص376 ابن عابدين القاهرة 1295هـ.
(78) مجتمع مدينة دمشق ج2، ص621، يوسف نعيسة دار طلاس 1987.
(79) سجل المحكمة الشرعية بدمشق رقم القضية 250 المسجلة في ذي الحجة 1217هـ.
(80) المصدر السابق دعوى رقم 346 المسجلة في عام 1252هـ.
(81) مجلة المجمع العلمي بدمشق ج11، ص642 دمشق 1929.
(82) اليهود المصريون ص18، سهام نصار.
(83) عيون الأنباء في طبقات الأطباء ج2، ص112، ابن أبي أصيبعة القاهرة.
(84) الموسوعة الفلسطينية ج2، ص265.
(85) اليهود المصريون ص16.
(86) عرب ويهود العداء الكبير ص72، سامي الجندي دار النهار 1986.

(87) اليهودية والصهيونية ص15، هشام دجاني دار الحقائق بيروت 1985.
(88) عرب ويهود ص38.
(89) يقظة العالم اليهودي ص124، إيلي ليفي بوعسل القدس 1936.
(90) العرب واليهود في التاريخ ص723.
(91) المصدر السابق ص744.
(92) المصدر السابق ص758.
(93) المصدر السابق ص760.
(94) عرب ويهود ص81.
(95) جغرافية سورية ج1، ص78، كامل نصري وزارة المعارف دمشق 1932.
(96) الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة، ص132، نجم الدين الغزي بيروت 1979.
(97) الجغرافية الثقافية ص9، مايك كرانغ ترجمة سعيد منتاق، عالم المعرفة الكويت 2005.
(98) اليهود في البلدان الإسلامية ص324.
(99) العرب واليهود في التاريخ ص748.
(100) صفحات مغربية ص139، نقولا زيادة دار الطليعة بيروت 1966.
(101) اليهود في البلدان الإسلامية ص408.
(102) العرب واليهود في التاريخ ص760.
(103) فتوح مصر وأخبارها، ص61، ابن عبد الحكم تحقيق عبد المنعم عامر، لجنة البيان العربي القاهرة 1961.
(104) أقوم المسالك ص18، خير الدين التونسي، تونس 1284هـ.
(105) يهود في البلدان الإسلامية ص358.
(106) المصدر السابق ص407.
(107) مؤنس الأحبة في أخبار جربة ص38، محمد أبو الرواس الجربي، حققه محمد المرزوقي المطبعة الرسمية تونس 1960.
(108) اليهود في البلدان الإسلامية ص330.
(109) تاريخنا ج5، ص200، إعداد الصادق النيهوم، دار التراث، طرابلس الغرب 1985.
(110) المصدر السابق ج5، ص177.
(111) المصدر السابق ج5، ص183.
(112) المصدر السابق ج5، ص194.
(113) المصدر السابق ج5، ص194.

# فهرس الكتاب

20 تاريخ استلام : 1/3/200/



**المؤلف في سطور:**

ولد في الرقة عام 1938

حصل على الماجستير في علم النفس عام 1968 من جامعة دمشق وعلى الدبلوم المعمقة في فلسفة الأديان من جامعة حيدر آباد الدكن للحصول على PH.D عام 985. والمؤلف صاحب مشروع ثقافي أرخ فيه للأديان والمذاهب الإسلامية والمسيحية واليهودية والحضارات الإنسانية. وهو عضو اتحاد الكتاب العرب.

**وللمؤلف الكتب التالية:**

- صابئة حران هم إخوان الصفا.
- صابئة حران والتوحيد الدرزي.
- إخوان الصفا والتوحيد العلوي.
- الأفلوطينية المحدثة والتوحيد الإسماعيلي.
- الديانة اليزيدية بين الإسلام والمانوية.
- دور اليهود العرب في الحضارة الإسلامية.
- التثليث والتوحيد في حوار المسيحية والإسلام.
- الرهبنة والتصوف.
- البهائية ولادة دين جديد.
- التأثير الآرامي في الفكر العربي.
- الزندقة والزنادقة ـ تاريخ وفكر.
- حياة البتاني أعظم فلكي عربي.
- حياة الرازي الطبيب والفيلسوف.
- حياة البيروني العالم والفيلسوف.
- حوار الأمم أو تاريخ الترجمة والإبداع عند العرب والسريان.
- دور السريان في الفكر العربي.
- إسهام السريان في الحضارة العربية.
- تراث بطليموس عند العرب والسريان.
- تاريخ السريان وأشهر المؤرخين.
- تاريخ الشركس وآل آنزور (تُرجم إلى الإنكليزية).
- دور الثقافة السورية في تراث المتوسط.
- تاريخ الرقة الحضاري.
- عشائر الرقة والجزيرة ـ التاريخ والموروث.
- حضارات طريق الحرير.
- حضارة طريق التوابل (مدن القوافل والحج).
- الأعراق والطوائف السورية.


0586198